سلسلة كتب الربيع (٢)

مناقشات ومناوشات

تأليف :

الأستاذ / عبد العزيز الربيع

إعداد وتقديم :

محمد صالح البليهشي

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الكتاب (١١٦)
من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي

مناقشات ومناوشات

تأليف

عبدالعزيز الربيع

إعداد وتقديم

محمد صالح البليهشي

ⓗ نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الربيع، عبدالعزيز

مناقشات ومناوشات / جمع صالح البليهشي - المدينة المنورة

٤١٢ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٧ - ٣٠ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

١ - الأدب العربي - نقد

٢ - الأدب العربي - مقالات ومحاضرات

أ - البليهشي، محمد صالح (جامع) ب - العنوان

ديوي ٨١٠,٩٩ ١٩/١٥٦٤

رقم الإيداع: ١٩/١٥٦٤

ردمك: ٧ - ٣٠ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

رقم الكتاب (١١٦)

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم الذي أعجز ببلاغته العرب والعجم وعلى آله وأصحابه أولي النهي أرباب السيف والقلم وسلم تسليمًا كثيرًا ـ أما بعد:

فلقد انتظرت طويلًا لكي ألتقي معكم أيها القراء في مثل لقائي هذا الذي أحمل فيه راية وفاء ومنار كلمة.. لقاء أقدم فيه أثرًا وضيئًا لعملاق نقدره جميعًا ونُجلُّه ونقرُّ له بالأستاذية المطلقة في كافة جوانبها وجميع معانيها..

وقبل أن أُطلِعكم على ما لديّ من بضاعة هي في واقعها ليست بضاعتي وإنما هي بضاعته ـ يرحمه الله..

ليس لي فيها سوى نفض الغبار عنها وتنظيمها وترتيبها وجمعها وعرضها بأسلوب عرض أرجو أن أوفق فيه..

قبل أن أَنظِم أمامَكم حبّات هذه القلائد بما حوته من درر وجواهر ولآلئ ظلت مبعثرة زمنًا طويلًا ظن معه الظانّون أنها قد فقدت وضاءتها ونضارتها وشكك آخرون في وجودها أصلًا طيلة زمن البعثرة هذه..

قبل أن تطلعوا على هذه القلائد التي نظمت حباتها بمعرفتي المحدودة أرجو أن تسمحوا لي بتذكير من نسي وتعريف من لم يعرف بمن شَرُفْتُ بِجَمْع دُرره وتقديمها اليوم لدنيا الثقافة والأدب من خلال تعريفه بنفسه في عبارات مقتضبة وأسلوب مؤدب وجمل رصينة مختارة حيث قال ـ يرحمه الله: «ولدت في هذه البلدة الطيبة. حيث ولد الكثيرون ممن آمنوا برسالة الحق والخير والسلام. وحملوا رايتها المظفرة إلى أقطار الدنيا ونشأت مع لداتي في الجيل الذي سبق هذا الجيل مباشرة.. فنحن في الواقع مخضرمون. نحمل في دمائنا ميراث الجيلين معًا. جيل مطلع الخمسينيات. والجيل الذي يليه.

وكادت الظروف تضطرني إلى عدم مواصلة الدراسة. والإخلاد إلى عمل

روتيني يضمن لي لقمة العيش بسلام. ولكنني كنت أشعر في أعماقي بحوافز تدفعني إلى متابعة كفاحي في سبيل الحياة الأفضل والمستقبل الأرحب.. الأوسع. حيث أشعر بأنني أعيش بكل مواهبي وإمكاناتي. وبكل القوى التي وهبتها لي يد القدرة المبدعة.

واصلت تعليمي العالي. وكنت من الجامعيين القلائل. الذين جمعوا في ذلك العهد بين ليسانس آداب من جامعة القاهرة ودبلوم التربية العالي وعلم النفس من جامعة الإسكندرية.

إنها حقائق تعمدت أن أصوغها بهذا الأسلوب. رغم عزوفي عن الحديث عن نفسي. ومقتي لهذا اللون من الأسلوب في الحديث عن النفس.. لأنني أحببت أن يكون في قصة حياتي رغم تواضعها ما يثير نوازع الطموح ومشاعر الإيمان بالله ثم بالمستقبل في نفوس ناشئتنا الجديدة.

وبدأت حياتي الوظيفية بعد ذلك مفتشًا بإدارة التعليم بضع سنين. قبل أن تسند إليّ مديرية التعليم.. فالطريق كما تعرفون. كانت صعبة عند بدايتها.. ولكنها بعد أن تَسلَّحتُ بسلاح العلم. وتزودتُ بزاد المعرفة والثقافة. أصبَحَتْ مُعبَّدة.. مُذَللة.. تكتنفها الواحات وتتناثر حولها الخمائل» أ.هـ.

بهذه الجمل الرصينة نستطيع أن نرسم الملامح لعملاقنا في جوانب النشأة والحياة الأولى ولنترك الجانب التربوي من حياته ـ لأنه ليس هذا مجاله ـ ونعرف به في جانب الثقافة والإبداع الأدبي ولنبدأ معه مع بداية الكتابة والشعر حيث بدأ حياته الأدبية وهو طالب بالمرحلة الابتدائية متأثرًا بالأديبين الكبيرين مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات، وكانت مؤلفاتهما ومقالاتهما من أول ما وقع تحت يده من الآثار الأدبية القيمة ـ كما يقول ـ ولكن ذلك التأثر لم يدم طويلًا فقد استطاع في وقت مبكر أن يفتح كل النوافذ ويستقبل كل التيارات..

وقد كان ـ يرحمه الله ـ يدين بالفضل في ثقافته وإبداعه لوالده ويقول بأنه

رجل محب للعلم وقد ظل إلى آخر عمره يتعلم ويقرأ مما أثّر في حياته تأثيرًا بالغًا وتعلم منه الصبر وحب العلم وحَفِظ القرآن في سن مبكرة. كما تأثر بشخصية أستاذه ومعلمه فضيلة الشيخ محمد الحافظ الذي تولى رعايته منذ طفولته في مدرسة العلوم الشرعية ويذكر بأنه وجّهه توجيهًا صحيحًا وفتح له قلبه ومكتبته وأعجب كثيرًا لسماحته ونبله وحرصه ورجاحة عقله وقال عن أستاذه الشيخ الحافظ بأنه «أنموذج الرجل المثالي.. وقد أثر في نفسه تأثيرًا بالغًا لا ينسى وله فضل عليه لن ينساه».

أما شخصيات التاريخ فيذكر بأنه قد تأثر بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الحاكم العادل القوي المثقف الإنسان وتأثر بشخصية أبي الطيب المتنبي الذي وقف في عالم يموج بالعجمة والشعوبية يدعو إلى العروبة ويخاصم من أجلها ويصور مفاخر العرب دون خوف حتى آخر رمق في حياته.

كما تأثر بشخصية مصطفى صادق الرافعي الذي كتب وحده فصلًا قيمًا في التاريخ الأدبي دون أن يعتمد على مؤهل دراسي أو شهادة جامعية ووقف وحده يقاوم الإلحاد والتحلل والشعوبية.

هذه ملامح البدايات الأولى والمكونات الأساسية لشخصية أستاذنا - عليه رحمة الله - مما كان له الأثر الكبير في وضوح أسلوبه وسلامة عبارته وتسلسل منطقه في مجالات البحث والإبداع والنقد.

وقد اتجه في كتاباته الأخيرة إلى النقد الأدبي وهو النقد الجاد الذي يهز حياة الناقد قبل أن يهز الحياة الأدبية نفسها - كما يقول - لأن الناقد الجاد مضطر إلى أن يقرأ مع الأثر المنقود - وربما قبله - عشرات من الكتب.. وهذا ما لا يتاح لغيره من الكتاب والأدباء.

وعرف عنه تَضَلُّعه في مجال النقد الأدبي بنزاهة وصدق يميل دائمًا إلى المذهب التكاملي في النقد وهو المذهب الذي يستقطب كل الاتجاهات والزوايا الفنية.. ويعطي الأثر الأدبي نكهته ولونه وملامحه العامة.

وبعد كل هذا القول الذي أردت منه أن أُذكِّر من نسي وأُعْلِم من جهل بالملامح العامة لشخصية الأستاذ والمربي والأديب والناقد الأدبي عبدالعزيز الربيع.

أعود مرة أخرى لأقول بأن أديبنا وأستاذنا الذي أتيح لي وشرفت بأن أنظم قلائد عقوده هذه بما حوته وعثرت عليه من جواهر ولؤلؤ ودرر فكره وثقافته لأعرضها لمحبي الأدب وعشاق المعرفة وكُتَّاب الحرف وأنا فخور بجمع تراث أديب ناقد عاش عمره للثقافة والأدب والفكر وضحى بوقته وجهده من أجل العلم والمعرفة وعاجلته المنية قبل أن يسعد بطبع إنتاجه وإظهاره للناس.. ولعلّي بهذا أضيف جديداً إلى دنيا الثقافة والمعرفة.. لأن هذا التراث الأدبي والثقافة إذا لم تختزنه بطون الكتب لإفادة الأجيال اللاحقة سيكون مصيره الضياع وفي ذلك خسارة فادحة وجحود ونكران للجميل.

وكم خَسرَت دنيا الثقافة على مر التاريخ الإنساني بضياع وإهمال حصيلة كثير من العلماء والأدباء والمفكرين.

وأعود مرة أخرى إلى هذا السِّفر الذي جمعتُ مادَّته من هنا وهناك وتعبتُ كثيرًا من أجل تحقيق هذا الأثر الذي أقدمه كتابًا بعنوان«مناقشات.. ومناوشات» وهو كتاب يتصل بالنقد من جوانب عديدة مباشرة وغير مباشرة كتبها ـ يرحمه الله ـ في أوقات متفاوتة مُصرِّحًا ومُلمِّحًا لإظهار المزايا ودحض العيوب، إضافة إلى أمور تَعرَّض لها الربيع مُفنِّدًا مزاعم المضللين والكاذبين والمخادعين لشباب أممهم وأوطانهم ومبينًا إعجابه بكل المكافحين والمناضلين عن العربية الذين كانت لهم وقفات صامدة خلَّدها التاريخ وتغنى بها شُدَاة الأدب وأساطين الكلمة وعُشَّاق الحَرف.

وقد يقول قائل: إن بعض الموضوعات التي (أقحمتُها) في الكتاب ليس هذا مكانها.. وأجيبه: بأن جميع ما اندرج بين دفَّتي هذا الكتاب «وقد يُظَن بأنه ليس منه» يدخل تحت شقه الثاني (مناوشات) كما أنه لا يخلو من هوامش نقد رصينة لها مكانتها في باب النقد والتقويم ولها نكهتها الخاصة ورائحتها المميزة في مسار الأدب أو في دنيا الأخلاق.

ثم إن العنوان نفسه (مناقشات.. ومناوشات) كان من اختياره ـ يرحمه الله ـ وقد ذكر هذا في العديد من المقابلات الصحفية واللقاءات الأدبية.. ولذلك قمتُ بكتابة العنوان وجمعتُ تحته ما له علاقة به من قريب أو من بعيد خدمة للأدب وتنفيذًا لرغبة المؤلف في تسمية كتابه وإيمانه بهذا الاسم. وفي يقيني بأنه لو كان الذي جمع هذه المقالات والموضوعات لإعداد كتاب تحت هذا المسمى هو المؤلف نفسه ـ يرحمه الله ـ خرج بصورة غير صورته هذه إما بحذف بعض ما وضع في الكتاب أو بزيادة ما فيه لأن فارق الثقافة والدراية والحس الأدبي والنظرة النقدية والتعامل مع الكلمة بحَرفها وجَرسِها وأضوائها وبُعد مراميها تختلف بين المؤلف والمعد، إذ المؤلف أستاذ من أساتذة البلاغة والبيان وله باعه الواسع ونظرته الثاقبة.

وخلاصة القول أن كتاب (مناقشات.. ومناوشات) يمثل محطة من محطات النقد الأدبي في عمقه وفي هوامشه.. النقد بأبعاده وموازينه.. وإيضاح المفاهيم ومناقشة الحقائق.. وهوامش النقد بكل مكملاتها وجوانبها المختلفة وهو في مجموعه يعمق فكرة الإصلاح أدبًا ونقدًا وأخلاقًا ومفهومًا.

وختامًا.. أرجو من المعلِّمين والكُتّاب والأدباء والمفكرين والمعجبين بالأديب الناقد والناقد الأديب الأستاذ عبدالعزيز الربيع.. من أولئك الأدباء والكتاب وأرباب النقد الأدبي الكبار الذين اقتحمتُ خيمَتهم لأنصِبَ فيها هذا المغلَم أن يتجاوزوا عن هفواتي إن أخطأت في الكيفية التي ولجت فيها تلك الخيمة أو في كيفية تقديم هذا الأثر الأدبي الراقي وأرجو أن يغفروا زلتي إن وجدوها ويقيلوا عثرتي إن كانت.. وحسبي أنني مجتهد وكفى.

محمد صالح البليهشي

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين - وبعد:

فإننا نظلم النقد والنقاد في بلادنا - دون شك - إذا ما قلنا إن ذخيرتنا من النقد، أو حصيلتنا من النقاد، لا تعدو دوافعها الرئيسية: المجاملات أو الأغراض الشخصية فمما لا ريب فيه أن شيئًا مما ينشر. ولعله بالقليل، ينبثق عن الرغبة في تقويم العلم الأدبي، وإعطائه ما يستحق، دون مراعاة العلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود. كما أن الكثير مما ينشر يستهدف التعبير عن الانطباعات الذاتية للنقاد، وقد يكون فيها الكثير من الخطأ والانحراف ولكن ذلك لا يحملنا على اعتبار هذا النقد منبثقًا عن الرغبة في التجريح أو التشفي أو الغرض الشخصي، لأنه في أساسه رغبة صادقة في التعبير عن انطباعات الناقد عن الأثر المنقود، ولكن ضعف مستوى التأثر بالتجربة الفنية أو عدم اكتمال الناقد لمؤهلات النقد المطلوبة وفي مقدمتها الثقافة الواسعة العميقة والمعايشة الدائمة للإنتاج الأدبي الرفيع، واستكمال الدراسات اللغوية والفنية والعلمية الضرورية لإرهاف الملَكة وتقويم الطبع وشفافية الإحساس، كل ذلك حال بين القائم بعملية النقد للأثر المنقود، وبين التقدير الدقيق الذي يستحقه.

كما أن الكثير من الدراسات النقدية، تبدأ بروح محايدة نزيهة بقدر الإمكان، ثم تغلب عليها نزعة التشفي والانتقام، والرد المباغت السريع من الأديب أو الكاتب الذي ضاق ذرعًا بالنقد، رغم محاولة الناقد التجرد المطلق وحرصه على عدم الإشارة إلا إلى عدد قليل من الأخطاء، وبكل ما يستطيع من الذوق والمجاملة ودماثة الخلق.

ولي أنا شخصيًا عشرات التجارب في هذا المجال، حتى إنني آثرت في الفترة الأخيرة أن أتوقف عن الدراسات النقدية، لأنها سببت لي الكثير من المشكلات، وفصمت أو أضعفت الوشائج والصلات التي تربطني

بكثير من أصدقائي.

فقد ترسب في ذهني منذ نشاتي الأدبية الأولى أن النقد مسؤولية ورسالة، وأن كلمة الحق أكثر وأشرف من كل الصلات الشخصية.

وأعترف صادقًا بانني عانيت الكثير من هذه (الترسبات الذهنية) إذا صح التعبير؛ وأنني فكرت أكثر من مرة في أن ألتزم الطريق الأكبر يسراً والأقرب إلى قلوب الناس ومشاعرهم لأن ذلك سيضمن لي أصدقاء جدداً باستمرار، وسيدفع كل كاتب ومؤلف لدينا وبخاصة من شداة الأدب إلى إهدائي مؤلفاته وتدعيم صلته بدلًا من أن يلجا بعضهم - كما حدث كثيرًا - إلى إخفاء مؤلفاته والادّعاء بانها لم تطبع بعد أو أنها نفدت. لقد أصبحت وبعض الإخوة النقاد في بلادنا الحبيبة، أشبه بالبعبع الذي يخوف به الأطفال أو غير الناضجين من أدبائنا، لا لشيء إلا أننا لا نستطيع أن نتستر على ما نعتقد أنه حق وصواب، وإن كنا نقوله باقصى ما نستطيع من اللطف والذوق.

ففي بلادنا - كما قلت - يوجد النقد النزيه المخلص، الذي يضطر في نهاية الأمر إلى الدفاع عن نفسه بقوة وفعالية. وهو القليل على أية حال، كما يوجد النقد المنبثق عن المجاملات أو الأغراض الشخصية أو عدم توفير إمكانيات النقد وهو الأغلبية الساحقة مع الأسف وهي فيما يبدو لي ظاهرة طبيعية. لأن الناس - ومنهم الأدباء - متفاوتون في عمق الثقافة وضحولتها، ورهافة الإحساس وتبلده ولكن الظاهرة التي تبدو أكثر شيوعًا في مجتمعاتنا الأدبية، هي ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فنحن هنا بين أديب كبير يعتقد بأن النقد سيزعزع مكانته الشخصية ويسيء إلى سمعته الأدبية. وأديب دون ذلك يشعر بانه لا يزال يشق طريقه ويكافح في سبيل الوصول إلى ما يتطلع إليه من شهرة ومجد. ويجد في النقد مهما كان نزيهًا ومحايدًا معوقات صعبة تقف في طريق تقدمه أو معاول صلبة تجعل التراب ينهال تحت قدميه.

والناقد هو الضحية بعد ذلك.. لأنه سيهاجم من هؤلاء وأولئك، بسيل من

الشتائم والاتهامات.

أما ما هو السبيل إلى إيجاد نقد علمي بناء متجرد؟ مع وجود ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فتلك مشكلة يستطيع الزمن وحده أن يحلها.. لأنني على يقين من أن النضج النفسي والفكري هو السبيل الوحيد، لتقبل النقد بصدر رحب، واعتباره مجهوداً من النقاد لوضع الحق في نصابه، وتوجيه الحركة الأدبية إلى مسارها الصحيح وهو مرتبط بنضوج المشاعر، وتفتح الذهن، وعمق الثقافة. وهي مكاسب لا تتحقق بين ليلة وضحاها ولا بين يوم وآخر، ولكنها محصلة الوعي والدأب والزمن.

ولدي اقتراح غير عملي ولكنه طريف، سأضعه في صيغة سؤال، ثم أحاول الإجابة عليه:

ما الذي يحدث لو شعر كل أديب بمسؤوليته كاملة تجاه ما يكتب من دراسات أو بحوث أو إنتاج فني بصفة عامة، وأحس في الوقت نفسه بشبه اتفاق أو تعاون بين قادة الفكر والأدب، على أن يقفوا وقفة واحدة ضد كل من يحاول الدفاع عن نفسه بغير المنطق والحق فأخذ يكيل السباب والشتائم للنقاد «المساكين»؟.

إنها فكرة طريفة دون شك، ولكنها إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.. ومع ذلك فدعونا نفكر قليلًا، ونتصور أن الفكرة انتقلت من الخيال إلى الواقع ألا تتصورون أن الناقد والمنقود معًا، سيفكر كل منهما ألف مرة قبل أن يبدأ الكتابة أو النقد؟

وسيكون هذا الحل مؤقتًا بالطبع، ريثما نبلغ مرحلة النضوج، وهي المرحلة التي نصل فيها إلى الشعور برقابة ضمائرنا، وهيمنة الإخلاص والصدق والنزاهة على ألسنتنا وأقلامنا بإذن الله.

والله من وراء القصد وهو المستعان في كل حال وأوان،،،

عبدالعزيز الربيع

الغضب الجميل(*)

تلقيت ـ شاكرًا ـ منذ يومين الجزء الثاني[1] من الموسوعة الأدبية هدية كريمة من الصديق الأستاذ عبدالسلام طاهر الساسي[2].

والموسوعة الأدبية مشروع أدبي ضخم يضطلع به الصديق الأديب ويضيفه إلى رصيده الكبير في خدمة أدبنا وثقافتنا.

ولست أعرف بالضبط تاريخ حياته الأدبية. وإن كان قد وفر علينا ـ مشكورًا ـ مؤنة البحث والتحري حين سجل أسماء مؤلفاته وحدد سنوات إصدارها.

وأول المؤلفات «نفثات من أقلام الشباب الحجازي» أصدره المؤلف أو شارك في إصداره بعبارة أدق في عام ١٣٥٥هـ وإذا اعتبرنا هذا العام البداية الأدبية في حياة الكاتب الأديب، معنى ذلك أنه قطع أربعين عامًا من حياته المديدة ـ إن شاء الله ـ في خدمة الأدب والثقافة الأدبية.

وإن كان من المؤكد أن الأستاذ الساسي لم يبدأ حياته الأدبية في السنة التي صدرت فيها هذه النفثات إذ أن ذلك أمر غير منطقي ولا معقول فمن الواضح أن الأستاذ عبدالسلام فرد من أفراد البشر وليس معجزة ولا «فلتة» ولا «حيويًّا» كما قال ذلك الشاعر القديم ولذا فيصبح من الطبيعي أن يكون الأستاذ قد أمضى في خدمة القلم مدة لا تقل عن عشر سنوات ليصبح بعد ذلك قادرًا على إصدار كتاب أو المشاركة في إصدار.

وفي ضوء هذه العملية الحسابية البسيطة نستطيع أن نقرر بكل ثقة واطمئنان أن الأستاذ الساسي قد صاحب القلم مدة نصف قرن.

وقد سنَّ الأدباء في مصر في مستهل عصر النهضة الأدبية الحديثة سُنَّة حميدة وهي احتفالهم بكل كتاب جيد عن طريق إقامة حفل تكريم لمؤلفه

(☆) نشرت بتاريخ ١٨/٢/١٣٩٥هـ.

(١) صدرت عن دار قريش للطباعة والصحافة والنشر بمكة عام ١٣٩٥، وقبلهُ الجزء الأول ١٣٨٨هـ عن نفس الدار.

(٢) ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٣٦هـ. انظر «موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين» القسم الثاني الصادرة عن نادي المدينة المنورة الأدبي ط (١) لعام ١٤١٣هـ أحمد سعيد بن سلم.

وقد حدث ذلك بالنسبة للدكتور محمد حسين هيكل عندما أصدار كتابه (حياة محمد) وبالنسبة للأستاذ أحمد لطفي السيد عندما ترجم كتاب (الأخلاق) لأرسطو عن الفرنسية.

فحبذا لو احتفل أدباؤنا بصدور الجزء الثاني من الموسوعة الأدبية وبمرور خمسين سنة على مؤلفه في خدمة الثقافة والمعرفة.

وأنا أدعو صادقًا أدباءنا ومفكرينا وشعراءنا وعشاق الكلمة عندنا إلى الاحتفال بهاتين المناسبتين الكريمتين.

كانت هذه المعاني تدور في نفسي عندما هممت بكتابة هذه الكلمة وكنت أعتزم أن أهتبل هذه الفرصة لأكتب دراسة عن الأستاذ عبدالسلام الساسي على ضوء مؤلفاته التي صدرت. ولكنني فوجئت عندما رجعت إلى مكتبتي بعدم وجود أي كتاب من كتبه باستثناء الجزء الأول من الموسوعة الأدبية وتذكرت أن أحد الإخوان طلب مني مجموعة من الكتب لأنه يعد بحثًا عن الأدب في الحجاز وأعطيته هذه المجموعة - بعد تمنع شديد - حين أكد لي أنه سيعيدها في زمن محدد وأقسم على ذلك.

ومر أكثر من عام ولم يعد هذه الكتب. وأنا لا أكترث بضياع الكتاب أو عدم إعادته إذا ما ضمنت وجوده في مكتبات البيع.

ولكن المشكلة المعقدة هي أن الكتاب الذي تفقده يصبح من العسير عليك أن تعثر على نسخة أخرى منه.

كما هو الحال في كتب الأستاذ الساسي فقد اتصلت بجميع المكتبات هنا فلم أعثر عليها. وهكذا ضاعت هذه الفرصة فلم أتمكن من كتابة هذه الدراسة اليوم. وأرجو أن تسمح الظروف في الأيام أو الأسابيع القادمة فأوفق إلى هذه الكتب.

وأعود إلى الأستاذ الساسي فأذكر أنه أديب مظلوم لم يأخذ مكانته التي تؤهله لها خدمة نصف قرن. ولا أريد أن يسألني أحد. ومن ذا الذي ظلمه؟

فقد سبق لي أن أجبت على هذا السؤال في المقال الذي كتبته بمناسبة صدور

الجزء الأول من الموسوعة الأدبية[1].

وقد غضب الأستاذ الساسي وكتب إليّ رسالة تفيض ألمًا وأنا أحتفظ بها ضمن الرسائل الأدبية الكثيرة. ولذلك فلن أعود هنا إلى ما قلته في ذلك المقال فأنا الآن حريص على ألا أغضب الصديق الأديب.

ولكنني أحب أن أؤكد أنني كتبت ما كتبت مدفوعًا بحبي له وتقديري لجهوده وإيماني بأنه كان يستطيع أن يكون في وضع أفضل وفي مكانة أسمى لولا تلك العوائق التي أشرت إليها هناك.

والأستاذ الساسي أديب مجتهد يفيض حبًا لوطنه وحماسة لأدبه وفكره وثقافته. وقد اهتدى بحاسته الأدبية في ذلك من زمن مبكر إلى أهمية إخراج أدبنا من بطون الصحف إلى عالم الكتب.

فإن من الصعوبة بمكان أن يرجع القارئ أو الناقد إلى الصحف ليستخرج منها ما يريد - هذا إذا تيسر له الحصول عليها وهو أمر عسير كل العسر - وحسب القارئ أن يعلم أنه لا يوجد في أي مكتبة من مكتبات المدينة العامة مجموعة كاملة لأي صحيفة من صحفنا المحلية.

وقد حدثني صديق أديب أنه ذهب إلى إحدى المكتبات الكبيرة يبحث عن عدد صدر في أواخر العام الماضي من إحدى صحفنا المحلية ففوجئ بالموظف المختص ينقل إليه أكداسًا من الأعداد ويطلب إليه أن يبحث فيها عن العدد المطلوب. ووجد صديقي أنه سيغوص في بحر لا ساحل له فآثر النجاة.

كما أن الاحتفاظ بمجموعات الصحف في المكتبات الخاصة أمر عسير كذلك كل العسر. وكثيرًا ما كنت أحاول الاحتفاظ بأعداد معينة تحوي مقالات أو كلمات تهمني وتتكاثر بمرور الزمن فأضيق بها ذرعًا وأتخلص منها بالإهداء أو الإحراق لأنها تشغل من داري الصغيرة أماكن أرى من الأجدى أن تُشغل بما استجد لديّ من كتب - وما أكثرها.

---

(١) صدر في عام ١٣٨٨هـ عن دار قريش للطباعة والصحافة والنشر بمكة المكرمة انظر المرجع السابق.

نعم لقد أدرك الأستاذ الساسي بحاسته الأدبية أهمية إخراج أدبنا من بطون الصحف إلى عالم الكتب فقام بدور كبير مشكور في هذا الصدد وأضاف إلى مكتبتنا الأدبية عددًا من الكتب لها أهميتها وقيمتها.

صحيح أن الأستاذ الساسي لم يكن الرائد الأول في هذا المجال فقد سبقه صاحب كتاب أدب الحجاز المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان كما سبقه الأستاذان محمد سعيد عبدالمقصود وعبدالله عمر بلخير بكتابهما الكبير «وحي الصحراء».

ولكن جهود الأدباء الثلاثة اقتصرت على كتابَيْ أدب الحجاز ووحي الصحراء. أما الأستاذ الساسي فقد بدأ بكتابه (نفثات من أقلام الشباب الحجازي) وأتبعه بعدد من الكتب لن يكون آخرها الجزء الثاني من الموسوعة الأدبية الذي صدر في هذه الأيام.

لقد ذكرت فيما سبق أن حياة الأستاذ السياسي تمتد قرابة نصف قرن. ومعنى هذا أنه عاصر النهضة الأدبية وسايرها وعايشها ومن المؤكد أنه كان على صلة كبيرة برجالها.

ومن المؤكد كذلك أنه كان محببًا إليهم قريبًا من نفوسهم لا لسبب مزاياه الأدبية فحسب وإنما من أجل خصائصه النفسية فقد كان - ولا يزال - خفيف الظل عذب الروح حسن المعشر.

ومع أنني لم ألقه إلا مرات معدودة فقد سمعت من زملائه الأدباء المتصلين به الكثير من الإعجاب به والثناء عليه وعرفت الكثير من الطرائف والقصص التي تؤكد الصورة النفسية الجميلة لهذا الأديب الراوية الإنسان.

وبهذه المناسبة فلن أنسى مشهدًا مثيرًا أستأذن الصديق الأديب في وصفه للقراء.

فقد بدأ أسبوع مؤتمر الأدباء السعوديين في مكة[١] في يوم السبت وانتهى في يوم الخميس وقد أفضل الأديب إبراهيم فوده فدعا الأدباء المشاركين في

---

(١) المؤتمر الأول الذي نظمته جامعة الملك عبدالعزيز في الفترة ما بين غرة ربيع الأول إلى السابع من عام ١٣٩٤هـ/١٩٩٤م

المؤتمر إلى حفل غداء يقيمه في داره تكريمًا لهم بعد ظهر الجمعة وحضرت نخبة كريمة تلبية للدعوة الكريمة وفوجئنا ونحن نتجاذب أطراف الحديث ونستمع إلى الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودي ـ فوجئنا بالأستاذ عبدالسلام الساسي يدخل علينا ـ لا كما يدخل الناس وإنما كما تهجم القنبلة عندما تنطلق من المدفع ـ فقد انفجر صائحًا غاضبًا ثائرًا ساخطًا يستنزل اللعنات على أولئك الذين اختاروا من أطلقوا عليهم لقب الرواد لأنهم استبعدوا من هو جدير بهذا اللقب كفلان وفلان.

وأخذ يتساءل في صوت مُدَوٍّ عاصف: الا يُعتبر عبدالسلام الساسي من الرواد وهو الذي أصدر كذا من الكتب وعمل كثيرًا في خدمة الأدب وكافح في سبيل الثقافة. وضحى من أجل الصحافة.

أليس هو أجدر بلقب الريادة من فلان وفلان وأخذ يهدد ويتوعد ويقرأ مقالًا أعده لنشره في عكاظ في عدد يوم السبت.

ليس هذا هو الشاهد في الموضوع وإنما الشاهد فيه أن صاحب الدعوة ومعه قلة من الزملاء كانوا يحاولون استرضاءه وتهدئته وكان ذلك يدفعه إلى المزيد من الهيجان والثورة.

أما الزملاء الآخرون فكانوا يزيدون من الثورة اشتعالًا والنار وقودًا وحطبًا مدفوعين بلذة الاستمتاع بهذا اللون من الغضب الجميل إذا جاز التعبير.

وكنت أنا أحدهم بالرغم من أنني كنت أحد الصالين بنار ثورته وغضبه ففي الحياة فريق من الناس ميزهم الله بجمال الروح وخفة الدم وعذوبة الكلام فهم مقبولون في حالة الرضاء وحالة الغضب ومنهم صديقنا الأستاذ عبدالسلام الساسي. وهناك آخرون من الأدباء والشعراء أرجو أن أعود إلى الحديث عنهم في وقت قريب.

لقد أتاحت له صلته تلك أن يعرف الكثير من أخبار الأدباء والشعراء وأفكارهم واتجاهاتهم وصراعاتهم ونزعاتهم وشؤونهم وشجونهم. ثم إنه يحفظ الكثير من أشعارهم ومسجلاتهم ويحتفظ بالكثير من آثارهم

ورسائلهم بين أوراقه.

وكل هذا يؤهله لأن يقوم بدور خطير هو تسجيل كل ما يعرف ـ وهو شيء ليس بالقليل ـ في كتاب أو كتب.

وهذا الأمر مع بساطته يتطلب الصبر والعزم والتصميم ولكنه رغم بساطته بالغ الأهمية إذ سيجد فيها الدارسون والباحثون مجالًا خصبًا لدراسات وبحوث عن نهضتنا الأدبية وآثارها والعوامل الفعالة فيها والأسس التي قامت عليها وبذلك سيظل كتابه ـ المنتظر ـ من الركائز القوية التي لا يستغني عنها باحث وأديب.

أما بعد فهذا مقال عن الساسي أما الجزء الثاني من الموسوعة الأدبية فله مني حديث غير هذا الحديث.

شاعر الحياة.... الحبوبي(*)

١ / ٤

١ ـ في أمسية ندية من أمسيات شهر تموز من عام ١٩٦٨ لقيت الشاعر العراقي الكبير محمود الحبوبي. كان لقاء لا ينسى في بيته الكريم أتاحه لي المربي الفاضل الأستاذ عبدالغفار الحبوبي أحد أشقاء الشاعر.

وقد لقيت في رفيقي من كرم الشاعر وشقيقه ما يذكر بكثير من التقدير والامتنان. وأنا أعني بالكرم هنا بشقيه ماديه ومعنويه. ولن أعرض للكرم المادي بغير هذه الإشارة العابرة أما الكرم المعنوي فقد تجلى فيما قوبلنا به من الحفاوة البالغة والترحيب الحار والعناية الفائقة.

ومع ما كان يظهر على الشاعر من تعب وإعياء فقد كان ناصع الذهن مشرق العقل متوقد الحيوية. حدثنا عن الشعر وعن طائفة من قضاياه وعرض لرأيه في بعض شعراء عصره وشخصيات بلاده وطوف بنا في القديم والحديث.

كان صوته الهادئ أقرب إلى الخفوت منه إلى الجهر ولكنه كان يتميز بحلاوة تجتذب الأذن وتستهوي المسامع. وأمضينا في ضيافة الشاعر الكبير أمسية رائعة نقلنا فيها إلى أجواء من الفن الرفيع والثقافة الخالصة.

وكان واضحًا أن الشاعر يعرف أنني أدرس الأدب وأعالج شؤون النقد ومع أن حديثه عن شعره كان حديثًا عابرًا فقد أفضل مشكورًا بتقديم نسخة من رباعياته (رباعيات الحبوبي) واعتذر بأسف بالغ لأنه لا يملك نسخة من ديوانه المطبوع منذ زمن طويل ليهديها إلي وأخبرني بأنه يعتزم إعادة طبعه ويومها سيبادر إلى إهدائي نسخة منه وخرجت من منزل الشاعر الكبير على أمل اللقاء به مرة ومرات ولكنني غادرت العراق قبل أن أستطيع معاودة زيارته ولم يمض بعد ذلك إلا عام فوجئت بعده بنبأ وفاة الشاعر. فكان لقائي به الأول والأخير.

(*) نشرت بجريدة المدينة المنورة في يوم الاثنين ١٣٩٠/١٢/١٩ العدد ٢٠٨٧

٢ ـ لقد ترك لقاء الشاعر في نفسي أثرًا جميلًا باقيًا لا تمحوه السنون.

ومع أنني لم أقرأ من شعره قبل أن ألقاه إلا القليل الذي لا يشفي غلة ولا يرسم صورة ولا يحدد تقاطيع فقد خرجت من لقائه بصورة واضحة المعالم جيدة التقاسيم.

هي صورة الشاعر الملتزم الذي يؤمن بجدوى الشعر كوسيلة لخدمة المجتمع لا تقل أهمية عن أي وسيلة أخرى وبجدوى الشاعر كرجل صاحب رسالة عليه أن يؤديها لقومه ووطنه وأن يضحي في سبيلها بالنفس والنفيس ـ كما كان يعبر الأقدمون.

وقد فكرت فعلًا في تطبيق هذه الصورة على شعره المنشور في إطار دراسة شاملة بالشعر والشاعر. وكانت الخطوة الأولى هي الحصول على ديوان الشاعر.

ولم أستطع الحصول عليه ثم علمت أن الديوان يوجد في إحدى مكتبات الطائف فبعثت في طلبه ووصلني فعلًا ولكنني اكتشفت أنه ديوان «حبوبي» آخر وهو الشاعر «محمد سعيد حبوبي» ومن المؤكد أنه من أسرة الشاعر. وإن لم أتمكن من تحديد قرابته منه.

٣ ـ وقبل أن أحصل على ديوان الشاعر أو أستكمل بحثي عن أسرته وحياته فوجئت بوفاة الشاعر وبوصول كتاب عنوانه «شاعر الحياة وموشح» وهو عبارة عن كتاب يحتوي موشح شاعرنا الكبير محمود الحبوبي استغرق (٣٢) صفحة من الكتاب الذي بلغت صفحاته (١٢٠) صفحة أما باقي الكتاب فقد احتوى على «الإهداء» و«المقدمة» وآراء (٣٨) أديبًا وشاعرًا وناقدًا في هذا الموشح ثم آراء سبعة من الصحف استغرقت صفحتين.

«أما الإهداء» فهو موجه إلى الشاعر الفقيد من إخوته ـ بالمناسبة هم ناشروا هذا الكتاب ـ وقد جاءني الإهداء إلى روح أخينا محمود الحبوبي «شاعر الحياة» الفاضلة الكريمة نرفع أول أثر من آثاره الأدبية يصدر بعد وفاته وذلك تخليدًا لذكراه الغالية وروحه العالية ووفاء للأخوة الحقة واعترافًا بفضل تربيته ورعايته لنا».

وإخوة الشاعر وقد تفضل أحدهم وهو الأستاذ عبدالغفار بإهداء الكتاب، وإخوة الشاعر يستحقون التهنئة على قيامهم بهذا الجهد المشكور المبرور تجاه أخيهم الشاعر الكبير فإحياء آثاره وإخراجها للناس خير تحية لذكراه.

وأما المقدمة فقد تحدث فيها «إخوة الشاعر عن تاريخ هذا الموشح ودوافعه والظروف التي قيل فيها، وقد أشار الناشرون إلى أن أخاهم المرحوم محمود الحبوبي قد جمع الموشح وبعض ما قيل حوله من الآراء في كراس تركه مع آثاره الأخرى ينتظر أن يرى طريقه إلى المطبعة وبعد وفاته رأينا نحن إخوته أن ندفع بهذا المجموع إلى المطبعة بعد أن رتبه الفقيد وصنفه وذلك خطوة أولى في نشر آرائه الأدبية ورائدنا من ذلك خدمة الأدب أولًا والوفاء للأخوة ثانيًا وهكذا توفر لنا أثر من آثار الشاعر «موشحه: شاعر الحياة» ورباعياته «رباعيات الحبوبي».

٤ ـ وقبل أن نبدأ في دراسة هذين الأثرين نلاحظ أن إخوة الشاعر غفلوا ـ عمدًا أو سهوًا ـ عن أمر هام ما كان ينبغي أن يغفلوا عنه هو إعداد ترجمة مفصلة أو موجزة عن أخيهم الشاعر الكبير وخاصة بعد أن انتقل إلى جوار الله وكان إصدار أول أثر من آثاره الأدبية هو الفرصة المناسبة لهذه الترجمة فإليها يلجأ الناقد وعليها يعتمد ولو سجلت هذه الترجمة لأمكن النقاد معرفة حقيقة العلاقة بين الشاعرين من آل الحبوبي الشاعر «محمد سعيد حبوبي» والشاعر «محمد الحبوبي» ولو عرفت هذه العلاقة لأمكن دراسة شعريهما على ضوئها.

فقد ورد في مقدمة الشاعر محمد سعيد حبوبي المتوفى سنة ١٣٣١ والتي كتبها «جامع الديوان» تحت عنوان «نسبة ومولده»:

«هو السيد محمد سعيد بن السيد محمود الشهير بحبوبي» وإذا لاحظنا أن شاعرنا الذي نتحدث عنه والذي توفي عام ١٣٨٩هـ يسمى «محمودًا» فهل يعني هذا أن الثاني ابن الأول باعتبار أن الرجل في كثير من البيئات العربية يسمى ابنه الأكبر باسم أبيه؟ وذلك أمر محتمل وإن كنا لا نستطيع ـ مع الأسف ـ أن نجزم هنا بشيء، ولو قام ناشروا الموشح إخوة الشاعر بكتابة

ترجمة لأتاحوا لناقد مثلي مجالًا طيبًا للحديث عن هذه العلاقة ربما خرجت منها بنتائج مفيدة ولذلك فنكتفي بهذه الملاحظات العابرة إلى أن تتجمع إلينا المعلومات الضرورية وسيكون اعتمادنا في دراسة الشاعر على «موشح» : شاعر الحياة، ورباعياته «رباعيات الحبوبي».

٥ ـ وأول ما يستدعي الانتباه النسخة التي أمامي من رباعيات الحبوبي وهي التي أهداها الشاعر إليّ كما ألمحت إلى ذلك من قبل وأول ما يسترعي الانتباه فيها أن الشاعر كتب على غلافها الخارجي الأخضر الجميل «الجزء الأول» ومعنى هذا أن هناك رباعيات أخرى لا تقل عما نشر في هذا الجزء على أقل تقدير ومن المحتمل جدًّا أن يكون الباقي من الرباعيات يملأ أكثر من جزء وقد صدرت الطبعة التي أمامي في عام ١٣٧٠هـ وأهداني الشاعر نسخة منها في أواخر عام ١٩٦٨م ومعنى هذا أنه مضى على صدور هذه الطبعة ما يقارب العشر سنوات فلماذا لم تصدر باقي الأجزاء؟.

ذلك تساؤل سيظل قائمًا حتى نحصل على ترجمة وافية للشاعر وليت إخوة الشاعر كفونا مهمة الانتظار فقدموا لنا ترجمة وافية للشاعر تحدد ما صدر من آثاره وما ينتظر الصدور.

ومع أن الموشح: شاعر الحياة، قد صدر في العام الماضي بعد وفاة الشاعر الكبير فالواقع أنه أقدم من رباعياته في تاريخ النظم والنشر وذلك ما يقرره ناشرو الموشح، إخوة الشاعر في السطر الأول من مقدمتهم لهذا الموشح يقولون: «شاعر الحياة» موشح عمره اليوم ثلاثة وعشرون عامًا» أي الموشح نشره الشاعر عام ١٣٦٦هـ في إحدى المجلات في العراق وصدر الجزء الأول من الرباعيات في عام ١٣٧٠هـ أي بعد الموشح بأربع سنين فماذا نظم الشاعر في الثمانية عشر عامًا التالية؟ ذلك ما يجيب عليه إخوة الشاعر والمتصلون به أو تجيب عليه آثاره المخطوطة حين ترى النور. والآن ماذا في الموشح والرباعيات وماذا عنهما؟.

أشرنا فيما سبق إلى أنه ليس في الإمكان أن نحصر رباعيات الحبوبي لأن ما صدر منها هو الجزء الأول ويعني هذا أن هناك أجزاء أخرى على الأقل بين

مخلفات الشاعر الكبير، وسنقصر حديثنا على الجزء الأول من الرباعيات إلى أن تصدر بقيتها.

أهدى الشاعر رباعياته إلى الذين تطلب منهم الأمة بما لهم من مواهب علمية وأدبية توجيهها نحو المثل العليا والأخلاق الفاضلة.

وإلى الذين تطلب منهم بما لهم من قوة ونفوذ حماية مصالحها الذاتية وإلى الذين يتطلع إليهم المستقبل ليعقد عليهم أمله الباسم.

وهو إهداء يتسق وإيمانه بمهمة الشاعر ونظرته إلى الروابط الوثيقة التي تربط بين الشاعر والمجتمع وبين الشعر والحياة فالحبوبي مؤمن أعمق الإيمان بضرورة وضع كل إمكاناته كشاعر في خدمة أمته فهو تارة يهيب بأصحاب المواهب والكفاءات أن يوجهوا مواهبهم وكفاياتهم نحو المثل العليا والأخلاق الفاضلة.

وهو تارة أخرى يستحث أهل القوة والنفوذ أن يجندوا قوتهم ونفوذهم في سبيل حماية مصالح الأمة وهو حينا يستثير عزائم الناشئين والبراعم ليستفيدوا من الفرص ليصبحوا أهلًا لتحقيق آمال المستقبل وهو حينا آخر يدعو صارخًا لينبه الحيارى والضالين ويرشد التائهين والمخدوعين.

ويتكون الجزء الذي بين أيدينا من ثلاثمائة رباعية ـ كما أسلفنا من قبل ـ تقع في مائتين وألف من الأبيات ويلاحظ أن الشاعر قد رتبها حسب حروف الهجاء من الألف إلى الياء وتحت كل حرف من حروف الهجاء وضع عددًا من الرباعيات وقد حظي حرف الراء بأكبر عدد من الرباعيات وهو (٣١) رباعية كما كان أقل نصيب من الرباعيات وعددها خمس من حظ حرف الذال.

ومن المؤكد أن الشاعر قد فكر في هذا الترتيب عندما قرر أن يستجيب (لطلب فريق من «إخوانه» الأدباء) و(يقدم هذه الرباعيات للطبع تحقيقًا لرغبة هذا الفريق الشاعر من الإخوان والتماسًا لخدمة هذا المجتمع الذي هو جزء منه).

شاعر الحياة... الحبوبي
(الحلقة الثانية)

٦ ـ قلنا فيما سبق إن الشاعر قد رتب رباعياته حسب حروف الهجاء ونضيف هنا أنه لا ضير في ذلك لوضع الشاعر تحت كل رباعية تاريخ نظمها ولو بتحديد السنة فقط. أما وأنه قد أهمل التاريخ فقد كان عليه أن يرتبها مسلسلة حسب تاريخ نظمها.

وليس لتحديد التاريخ أو انتظام التسلسل أية أهمية بالنسبة للقارئ العادي فلكل رباعية وحدة قائمة بذاتها ولكنها قد تكون ذات أهمية كبيرة بالنسبة للدراس الناقد أو لمؤرخ الأدب إذ شأن هذين ينحصر في الدوافع والأسباب وأن يربط بين العوامل والعمل وبين الحوافز والأثر الفني وبين الأدب والتاريخ وبين الواقع والمثال.

وخاصة بالنسبة لشاعر كالحبوبي وضع فنه في خدمة أمته فكان منفعلًا بأحداث بلاده متأثرًا بها. ولا شك في أن أدبه قد اصطبغ بهذه الأحداث وبما لقي من استجابة أو استنكار ومن رضا أو غضب ومن تقدير أو إساءة.

ورباعيات الحبوبي معرض زاخر بمئات الصور الحية المتحركة ولكنها صور عابسة حزينة تطفح ألـمًا ومرارة ومن النادر أن تعثر بينها على صور باسمة أو مطمئنة أو راضية.

وسواء كانت هذه الصور عابسة صارمة أو باسمة هانئة فستجد أنها صور لم ترسم لمجرد استثارة إعجاب القارئ أو السامع أو المشاهد ولا رغبة في تقديم نماذج تشده من يراها ولا إيمانًا بمبدأ الفن للفن وإنما رسمت جميعًا من أجل غاية واحدة هي إصلاح المجتمع ومعالجة ما فيه من ضعف أو خلل أو انحراف.

وسيعجب القارئ حين يقرأ رباعيات الحبوبي بتأمل وفحص إذ تتجلى له موهبته الشعرية في رسم صورة هادفة ناقدة متكاملة واضحة الملامح في

أربعة أبيات كما سيعجب أكثر لجرأته وصراحته وشجاعته في إبداء رأيه.

لقد انتظمت رباعيات الحبوبي في قوافيها كل حروف الهجاء كما أشرنا إلى ذلك من قبل ومن المعروف أن بعض حروف الرَّوِيِّ تتأبى على غير الفحول من الشعراء فتخرج القوافي مضطربة.

أما بالنسبة لشاعرنا فقد استطاع أن يروض قوافيه على اختلافها وأن يفيد منها إفادة كبيرة في رسم صوره وتصوير تأملاته وتحقيق أهدافه في الإصلاح والخير.

٧ ـ أما موشحه فقد عنون له باسم «شاعر الحياة» ويقع في اثنين وعشرين وأربعمائة من الأبيات. والتوشيح لون من ألوان التعبير الشعري ظهر في أواسط القرن السادس الهجري بالأندلس يمتاز بطريقة خاصة في التزام قافية تخالف النهج الذي سار عليه الشعراء العرب منذ أن عرف الشعر العربي إلى تلك الفترة التي ظهر فيها.

وليس من همنا أن نعرض لهذا اللون من الشعر والخطوات التي سبقته ومهدت لظهوره ولا لرأي الشعراء والنقاد الأوائل فيه ولا للترحيب والاستهجان اللذين قوبل بهما إبان ظهوره فذلك وما يدور حوله أمر يطول عرضه والحديث عنه.

ولكن الذي لا شك فيه هو أن هذا اللون من التعبير الشعري فن أندلسي استطاع أن يثبت وجوده حتى لقد أصبح ما نظم على نهجه وطريقته يشكل جزءًا هامًّا من ثروة العرب الشعرية.

ونظم به عدد كبير من كبار الشعراء في القديم والحديث وممن نظم به في العصر الحديث أحمد شوقي في موشحه (صقر قريش) وسليمان البستاني في ترجمته للإلياذة. وإيليا أبو ماضي في بعض شعره.

وخير ما يقال في هذه الطريقة الشعرية ما قاله أحد الباحثين من «أن الموشحة نواة لثورة شاملة على الوضع القديم في دنيا الشعر العربي فهي بأوزانها وقوافيها المتنوعة تتيح للشاعر آفاقًا جديدة تعينه على

الخلق والابتكار...

«إن عنايتنا بالموشحة ليست خطوة رجعية بل إنها خطوة تقدمية لا غنى عنها فكثير من قراء العربية ينصرفون عن منظومات الشعر الحديث التي تتقيد بوزن خاص أو طريقة منتظمة للتقفية والتي تتجرد في بعض الأحيان من الوزن أو من القافية أو منهما معًا لأنها لا تناسب ذوقهم أو لاتّهامهم لأصحابها من الشعراء بتقليد الشعر الأوربي».

«ولكنهم لو أعطوا بديلًا عنها من الموشحات التي تتمشى مع أذواقهم والتي هي جزء لا يتجزأ من التراث العربي والتي ظهرت في الأدب العربي قبل أن توجد الآداب الأوروبية الحديثة لاستساغوها وشعروا حيالها بالعزة والكرامة ولانبعثت في نفوسهم المتعة».

ويختم الباحث الكبير حديثه بقوله:

«إن نهضتنا المادية يجب أن تكون مصحوبة بنهضة أدبية تترجم عنها وتحمي ظهرها وتمدها بالقوة المعنوية، والموشحات - في رأيي - يمكن أن تكون رافدًا من أهم روافد هذه القوة ودعامة من أثبت دعاماتها».

وهو رأي صحيح جدير بالتأكيد والتقدير، هذا عن الموشح فماذا عن الرباعيات.

٨ - احتوى الجزء الأول من رباعيات الحبوبي التي طبعت في عام ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م على ثلاثمائة رباعية أو مائتين وألف من الأبيات.

والرباعيات طراز من الشعر يرى بعض مؤرخي الأدب أنه مأخوذ من آداب أخرى كالأدب الفارسي. وخاصة بعد أن ترجمت رباعيات الشاعر الفارسي عمر الخيام وحازت صيتًا بعيد المدى ولكن بعض الباحثين ينكرون ذلك تمامًا حتى ليقول أحدهم - وهو الدكتور مصطفى عوض: «ولا يخامرنا أدنى شك في أن الرباعيات تطور لفن المزدوجات مثل المثلثات».

وقد لاحظ صاحب العمدة أن العرب لا يستعملون في الرباعيات الدورية إلا الرجز خاصة لأنه وطيء سهل المراجعة بخلاف المسمطات التي جاءت على

أوزان كثيرة وكان ياقوت يسمي هذا النوع من القصائد: المزدوجة.

وسواء صح هذا الرأي أو ذلك فالذي لا جدال فيه هو أن الرباعيات بكافة أشكالها لم تخرج عن إطار الشعر المعروف ولم تتجاوز حدوده المتعارف عليها باستثناء يسير هو اختلاف القافية بين رباعية وأخرى.

والرباعية كالموشحات يجد فيها الشاعر مجالًا خصبًا للتعبير عن آرائه وأفكاره والانتقال من حقل لآخر في سهولة ويسر.

وقد اختار شاعرنا هذين اللونين من التعبير الشعري فصاغ بواسطتهما أفكاره وانفعالاته.

٩ ـ فماذا في الموشح وماذا في الرباعيات؟

صدرت المجموعة الأولى من الرباعيات في سنة ١٣٧٠هـ وظهر الموشح في سنة ١٣٦٦هـ ولكن ليس معنى هذا أن الموشح أسبق نظمًا من الرباعيات فإن ظهورها مجموعة في كتاب لا يستلزم أن تكون قد نظمت جميعها في نفس العام الذي ظهرت فيه مجموعة بل إن طبيعة هذه الرباعيات يتطلب أن تكون قد نظمت في مناسبات شتى وظروف متباعدة وصحيح أنه لم يرد في مقدمة الرباعيات أو في صفحة من صفحاتها ما يفيد بأن الشاعر كان ينشر هذه الرباعيات في الصحف وإن كان من المنطقي والمعقول أن يكون قد فعل، فالشاعر يذكر في المقدمة النثرية التي كتبها للرباعيات قوله: «هذه مجموعة من رباعيات كنت قد نظمتها في مناسبات شتى فجاءت وكل رباعية منها لها لونها الخاص الذي طبعته عليه المناسبة وإن كانت ـ على الأغلب ـ متشابهة الغايات والأهداف».

ولكن الشاعر أصدر هذه الرباعيات مجموعة في كتاب بعد أن نشر موشحه كاملًا في مجلة «الغري».

١٠ ـ ومن الطريف أنني كنت أجهل كيف تنطق هذه الكلمة «الغري» فكنت أنطقها بأشكال مختلفة ولم أهتد إلى النطق الصحيح إلا وأنا أقرأ «موشح الحبوبي» فقد وجدت ضمن من تعرضوا لهذا الموشح شاعرين تحدثا عن هذا

الموشح وأوردا هذه الكلمة في بيتين من شعرهما فهدياني إلى النطق الصحيح.

مع أن الكلمة «الغري» هذه أوردت في الكتاب الذي جمع الموشح والآراء التي قيلت فيه سبعًا وأربعين مرة دون شكل ومن الواضح أنه لا لوم على الناشرين والكاتبين لأنهم يتحدثون إلى بيئة تعرف هذه الكلمة تمام المعرفة وتنشر فيها مجلة شهرية تحمل هذا الاسم.

أما النطق الصحيح فهو «الغَريُّ» بالف ولام وغين مفتوحة وراء مكسورة وياء مشددة كما وردت في الشطر الثاني من مطلع أبيات العلّامة محمد صادق الصدر حيث يقول: «يذكر بها وادي الغري» وكما وردت في الشطر الأول من مطلع قصيدة الشاعر حسان حليم دموس حيث يقول:

(فتى الْغَرِيّ سلام الله أهديه).

ويظهر أن الغري اسم من أسماء النجف سميت به المجلة. ولم يتسن لي مع الأسف أن أطلع على بعض أعدادها لأتعرف على لونها وقيمتها واتجاهاتها.

ولكن يبدو من الكتابات المثبتة في كتاب «شاعر الحياة» أنها مجلة أدبية لها وزنها. ويؤيد ذلك كلمة رأيتها في الكتاب القيم «فلسطين في الشعر النجفي المعاصر» عن هذه المجلة حيث يقول المؤلف في التعريف بها: «مجلة الغري لصاحبها الأستاذ شيخ العراقيين كاشف الغطاء أصدرها طوال عشرين عامًا وهي من أمهات المجلات النجفية المعدودة صدرت في عام (١٩٣٩).

ويدلك على عنايتها بالأدب والشعر والفكر أنها خصصت عددًا بكامله لموشح شاعرنا الحبوبي إذ قصر العدد (١٢) من السنة الثامنة الصادر في شباط عام ١٩٤٧م الموافق ١٣٦٦هـ، على نشر هذا الموشح ولم يصل إلى علمي أن مجلة أو جريدة فعلت ذلك حتى الآن. ومجلة تفعل ذلك جديرة بالتنويه والتقدير.

شاعر الحياة... الحبوبي(*)
(الحلقة الثالثة)

١١ ـ سمى المرحوم الحبوبي موشحه: «شاعر الحياة» ويبدو لي أن الشاعر كان مدفوعًا بفطرته إلى هذه التسمية وهو ـ في تصوري ـ لا يعني الحياة بمعناها الأوسع ولكنه يعني الحياة بمعناها الأضيق وبعبارة أخرى فهو يعني الإنسان الحي أو الأحياء من الناس وكأنه يريد أن ينبه إلى أن الشاعر الحي ـ في رأيه ـ هو شاعر المجتمع الصاخب المائج بالحياة والأحياء وتعبيرًا أدق هو الشاعر الملتزم بقضية مجتمعه.

أما الشاعر الغارق في الزهور والعطور والأحلام الوردية وشهوات النفس المشروعة والمحرمة فذلك ـ في رأيه ـ ليس شاعر الحياة. فأهمية الشاعر في رأيه هي في محاولات الارتقاء بالإنسان وحمايته من الأمراض النفسية والجسمية والاجتماعية والابتعاد به عن كل ما يعوق حريته وتقدمه وسعادته.

وأوحى للشاعر بهذا الموشح تغريد طائر ـ كما يقول الناشرون ـ ويوضح صاحب مجلة الغري تفاصيل ذلك في الكلمة التي قدم بها «الموشح» فيقول: «إذا كان الشاعر في الأمة صوتها المدوي في الآفاق. فالأستاذ الحبوبي ـ في قصيدته هذه وفي كثير من أخواتها ـ شاعر الإنسانية وصوتها المنبعث من أعماقها فهو يسكب دموعها السخية لما تكابده وتأتيه من فظائع وفجائع وجرائم وآثام فيحترق أسفًا وأسى لما يُنزِل الإنسان بأخيه الإنسان مما تأباه حتى الوحوش في غاباتها فلا يسعه بعد هذا إلا أن ينعي على ساسة الأمم ومفكري الشعوب انصرافهم عن التعاون في الإصلاح إلى التعاون في الإفساد والتدمير وعن التفاهم والوئام إلى التباغض والعدوان.

فشاعرنا الأستاذ الحبوبي متشائم طوال أيامه من الناس وقد ظهر جليًّا أثر هذا التشاؤم في هذا الموشح الخالد الذي استوحاه من تغريد طائر على

(☆) نشرت يوم الجمعة غرة شهر المحرم ١٣٩١هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٢٠٩٧ .

شجرة في دار هذه المجلة وكنا مصغين بأسماعنا وقلوبنا إلى شدوه وتغريده فشرع الأستاذ الحبوبي يقارن لنا - ونحن جماعة من خاصته وإخوانه - بين حياة هذا الطائر المرح الطروب وبين حياة الإنسان المليء بشروره وآثامه.

ثم ذهب بمخيلته إلى ما يكون عليه هذا الطائر وجنسه من طهارة ووداعة وحرية حرم منها الإنسان في مختلف بقاعه وأصقاعه فتمنى شاعرنا أن لو كان للبشر نصيب من هذه الحياة المرحة الوادعة وتمنى لو رجع الناس إلى صوابهم فنبذوا كل ما أفسد عليهم رغد العيش وسعادته من جشع متغلغل في نفوسهم ومن حب الاستئثار بالحكم دون سواهم غير آبهين ولا مكترثين بملايين الأرواح البريئة التي طارت فيما سلف من حروب وستطير فيما يعمل جشع البشر وأطماعهم من حروب هي أقسى وأشد، وليس كل ذلك إلا ليحققوا له كل ما طلبوا وبعضه من هذا السراب الخادع وتمنى «الشاعر» أن لو كان هذا الطائر الغريد أعطي قوة البيان فأفصح للناس عما يشعر به هو وأبناء جنسه من ازدراء واحتقار لحياة هؤلاء الذين أبعدهم في غرورهم وضلالتهم ظنهم بل اعتقادهم أنهم أرقى مخلوقات الله في أرضه وسمائه».

ولسنا بحاجة إلى التدليل على ما يتمتع به الأستاذ الحبوبي من شعور مرهف وحس رقيق فهو شاعر مِلءُ بُردَيه ولكننا نريد أن نشير إلى هذه الحادثة «التافهة» تغريد طائر، التي تمر في اليوم بمئات البشر فلا تترك أي أثر في نفوسهم فإذا مرت بإنسان كالأستاذ الحبوبي ممن لمستهم عصا الشعر السحرية هزته من الأعماق فأخرج للناس هذا الأثر الشعري الخالد.

على أن فهمه لرسالة الشاعر فهمًا يربط بينها وبين المجتمع برباط وثيق سرعان ما يدفعه إلى أن يربط بين تغريد الطائر وحياته وبين البشر وحياتهم هذا الربط الرائع العجيب.

ولو أن شاعرًا آخر استمع إلى تغريد الطائر فربما شغله ذلك التأمل في جمال الطائر وسحر شدوه وربما جره ذلك إلى التفكير في حبيبته إلى أن يعيش في أحلام وردية مجنحة.

١٢ ـ لقد وفق الشاعر في اختيار هذا اللون من ألوان الموشحات لتصوير أفكاره وعواطفه وانفعالاته ويبدأ ـ كما هو معروف ـ بالمطلع أو المذهب وهما في هذا الموشح بيتان والموشح الذي يبدأ بالمطلع أو المذهب سمي في عرف النقاد والباحثين «تامًا» ثم بعد المطلع تبدأ المجموعات الأخرى وكل مجموعة تحتوي على خمسة أبيات فيتفق البيت الأول مع الثالث في القافية كما يتفق البيت الثاني مع الرابع أما الخامس وهو الخاتمة أو القفلة فيوافق المطلق في القافية.

وهكذا إلى آخر الموشح ويعني هذا أن قافية البيت الخامس أو الأخيرة من كل مجموعة متفقة مع قافية المطلع أو المذهب وهي في الموشح قافية الباء المفتوحة المنتهية بألف الإطلاق.

وقد التزم الشاعر كلمة «ترنم» في مطلع الموشح وفي بداية كل مجموعة من مجموعات موشحه.

وأسلوب الشاعر في موشحه أسلوب مشرق يفيض سهولة وجمالًا يقرؤه القارئ فلا يكاد يعثر بلفظة جاسية أو غريبة أو نابية أو مبتذلة ولكنه يشعر في نفس الوقت أنه يقرأ شعرًا يهز القلوب ويثير الشجون. وهذه ميزة لا توجد إلا لدى الموهوبين من الشعراء الملتزمين بقضايا بلادهم.

١٣ ـ ولا أذكر أنني قرأت قصيدة في طول قصيدة «الحبوبي» تتحدث عن القضايا «الاجتماعية» التي تحدث عنها ولكن أحد الذين كتبوا عن قصيدة الحبوبي أو موشحه يقول: «لم نقرأ لشاعر عصري من شعراء الضاد شعرًا مطولًا في مخاطبة البلبل إلا شاعرًا واحدًا كان قد سبق الأستاذ الحبوبي هذا الشاعر هو الشيخ علي الشرقي الذي له في «البلبل المعلق» «٣٢٠» بيتًا في ثمانين رباعية قد احتوى على فلسفته في الحياة والمجتمع والأخلاق والشؤون الأخرى المتعلقة بحياة الفرد والأمة وعلى نظراته المثالية التي يجب أن تسير عليها الإنسانية وهذا الموشح النفسي «موشح الحبوبي» هو ثاني قصيدة مطولة ظهرت في الشعر العربي وفي دنيا الطيور» فقصيدة الحبوبي هي الثانية في تاريخ الظهور ولكنها الأولى من حيث الطول إذ إن قصيدة الأستاذ

علي الشرقي لم تتجاوز الثلاثمائة والعشرين بيتًا أي بزيادة بلغت المائة من الأبيات وهي زيادة غير يسيرة.

وكم كان بودنا أن تكون قصيدة الأستاذ الشرقي بين أيدينا لنعقد مقارنة بين القصيدتين. فإلى أن نعثر على تلك القصيدة سنكتفي بما قاله الكاتب المشار إليه آنفًا وهو المحامي الأستاذ توفيق الغكبكي قال: وهذا الموشح النفيس «موشح الحبوبي» هو ثاني قصيدة مطولة ظهرت في الشعر العربي في دنيا الطيور ومحلها من شعر الشعراء «الذين ناجوا الطيور» محل معلقة حامل اللواء بين المعلقات السبع».

١٤ ـ وقد قسم الشعراء «معلقته» أو «مذهبته» إلى خمسة أقسام هي:

١ ـ شاعر الحياة. ٢ ـ مآسي الحرب. ٣ ـ مفاسد المجتمع.

٤ ـ لا حياة مع الاستعمار. ٥ ـ دنيا الطيور.

وقد وفق الشاعر توفيقًا عجيبًا في تصوير آرائه عن طريق مفاجاة ذلك الطائر الغريد. فهو لم يقف موقف الواعظ يخاطب الناس مباشرة ويكشف عن مهازلهم وشرورهم ثم يدعوهم إلى الإصلاح والاعتدال فتلك مهمة الخطباء والدعاة ولكنه يلجأ إلى أسلوب ينسجم مع الشعر وربما كان تأثيره أشد وأوقع.

شاعر الحياة... الحبوبي
(الحلقة الرابعة)

١٥ ـ حاول بعض الكتاب أن يعقد مقارنة بين موشح الحبوبي وطلاسم أبي ماضي فذهب واحد منهم وهو الأستاذ «كاظم مكي» إلى قول ما يلي: «لقد كنت ـ ولا أزال ـ معجبًا بقصيدة أبي ماضي «الطلاسم» لأنها تناولت أدق ما في الحياة من معاني ودلت على أن صاحبها شاعر سما بشعره وتجاوز حدود المادة وأغلالها وتحرر من أسر العبودية ولقد كنت قبل أن أطّلع على «الطلاسم» أفكر في كثير من النواحي التي حلل تصويره فيها وأحدث نفسي بها فلما اطلعت ارتاح قلبي لها ووجدت فيها معينًا صافيًا يروي غلتي ومع هذا كله بقيت أفكر في أشياء خلت «الطلاسم» منها على ما فيها من دقة التصوير وسمو الخواطر وجميل الشعور.

ومن الملاحظات نبل المعاني وأشياء لم تكن بينة عند أبي ماضي ومن شأنها أن توحي بها، ونواح من الحياة ما كان «إيليا» يفكر فيها.

لهذا فإن ما كنت أرجو شيئًا للحياة الأدبية في هذه البلاد غير أن يوفق شاعر من شعرائها ويهتدي إلى هذه النواحي ويصوغ فيها من الشعر ما يتم به «الطلاسم» حتى غرد الطائر في دار مجلة «الغَرِيّ» فأوحى إلى «الحبوبي» ما أوحى وإذا به يقول قصيدة فاقرأها وإذا بي أرى ما كنت أرجوه قد تم أو أوشك أن يتم ولذلك فإني إذا قرأت «الطلاسم» رأيت من متمماتها أن أقرأ بعدها موشح «الحبوبي».

وقد يعتبر كثير من القراء هذا الكلام تمجيداً لقصيدة الحبوبي لأنها قورنت بطلاسم أبي ماضي وتممت النواحي الناقصة فيها.

أما أنا فلست أرى هذا الرأي لأن لي نظرة في قصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي تختلف كثيرًا أو قليلًا عن النظرة السائدة إليها تلك النظرة التي لم تقم على أساس دقيق من البحث والدراسة ولكنها قامت على أساس الشهرة

والمنبعثة من طرافة الفكرة لا عمقها ومن جدة القالب الذي صيغت بوساطته لا من أصالته أو فنه.

فلو تجرد ناقد لدراسة الطلاسم دراسة موضوعية دقيقة بعيدًا عن تأثير هذه الشهرة وما صاغته حولها من مفاهيم لوجد شيئين أحدهما يختص بالمعاني ويختص الآخر بالصياغة فهي ضعيفة الأسلوب مهزوزة الصياغة تختلف اختلافًا كبيرًا عن بقية شعر الشاعر ويبدو أنه فتن بالفكرة وبأسلوب القافية الذي ينتهي بقفلة «لست أدري» فشغله ذلك عن صقل العبارة وعن تجويد الصياغة.

أما الأفكار التي ضمنها قصيدته والتساؤلات التي كانت تعبر عن حريته وهي وتساؤلات بهرت بعض العقول فاعتبرها فتحًا مبينًا في الأدب العربي.

هذه التأملات «الفلسفية» كما يحب أن يصفها بعض الكتّاب وتلك التساؤلات المعبرة عن حيرة قائلها وقلقه لو نظرت إليها نظرة فاحصة متأملة لوجدت أنها نابعة من فكرة نشأت في بيئته النصرانية وهي بيئة حافلة بالأسرار والرموز ملأى بالطقوس المغلقة بالحجب والأشعار وقد تعرضت الديانة النصرانية لكثير من الحذف والإضافة والمحو والتبديل فتشوهت حقيقتها وأصبحت مجالًا للطعن والتجريح حتى من أهلها ومعتنقيها، ولو أردت أن أذكر طرفًا مما يقوله بعض النصارى في ديانتهم لأذهلت القارئين ورُب إشارة تغني عن عبارة.

فتلك التساؤلات التي أثارها الشاعر «إيليا» نابعة من فكر نصراني، فهي واجدة مجالًا رحبًا في البيئات النصرانية لأنها تعبر عما يساور تلك البيئات من ضيق وعنت ورغبة في التحرر من قيود لا تفهم أسبابها ومن تعاليم كهنوتية تشبه الطلاسم إن لم تكن هي الطلاسم بعينها.

أما المجتمعات الإسلامية والبيئات المحمدية فلا مجال فيها لهذه التساؤلات فالمسلم المستضيء بنور القرآن يعرف ـ مثلًا ـ من أين جاء، وكيف أتى، وإلى أين المصير.

ولعل المسلم يجد في تساؤلات شاعر مسلم ـ كشوقي ـ في قصيدته التائية من الرضا والتقبل ما لا يجد بعضه في تساؤلات شاعر نصراني كإيليا.

وقد تصدى لطلاسم أبي ماضي شاعر مسلم لم يسمع باسمه أحد من القراء في بلادنا ـ فيما أتصور ـ فحلّها بشعر يترقرق فهمًا وعلمًا وطلاوة ونداوة.

على أن هذا الموضوع طويل أرجو أن أعود إليه قريبًا بالشرح والتفصيل والدعوى والدليل.

ونعود إلى موشح الحبوبي بعد هذا الكلام الذي قلناه عن طلاسم أبي ماضي لنؤكد للقراء أنه رغم رأينا في الطلاسم فإننا لا نمانع في اعتبار الرسم بين القصيدتين وسيلة لتمجيد موشح الحبوبي كما أراد الكاتب الفاضل الأستاذ كاظم مكي فهو على أي حال رأي يمثل جناح المعجبين بالطلاسم.

فإذا أضفنا إلى رأي هذا الجناح رأي الجناح الآخر خرجنا من ذلك بما يشبه الإجماع على تفوق الشاعر محمود الحبوبي في موشحه شاعر الحياة.

١٦ ـ إن مما يؤسف له أنني لم أطلع على كل ما كتب حول هذا الموشح ولا ما كتب حول الشاعر ومن البديهي أن ما نقله الناشر ـ وهو قدر غير يسير من الآراء ـ ليس كل ما قيل ولكنه مع ذلك يعطي فكرة واضحة عن الاستقبال الحافل الذي قوبل به الموشح وقد ترددت في الآراء التي نشرت عن الموشح كلمات: العبقرية والحكمة والفلسفة والموشح والإلهام فوصف الشاعر بالعبقري والحكيم والفيلسوف ووصفت شاعريته بالقوة والزخارة والتجويد والتدفق والإبداع والعمق والخصوبة والصدق.

ووصف القصيدة بأنها درة يتيمة، جوهرة فريدة، قطعة فنية رائعة، يتيمة لامعة لمعان اللآلئ والجمان. كانت بحق نشيد الجيل الخالد.

ووصف أسلوبه بأنه السهل الممتنع المعجز المبدع.

ووصف الشاعر بأنه أصبح عبقريًا لامعًا يحمل لواء الشعر العصري في العراق كله وأن موشحه يثير في النفس ما لم تثره الموشحات الأندلسية.

هذه بعض الأوصاف التي وردت في الكلمات المنشورة مع الموشح وسبق أن نشرت قبل ذلك على صفحات الجرائد والمجلات ولو أردت أن أستقصي كل الأوصاف التي ذكرت لضاق بنا المجال.

وأنا معجب بالشاعر الحبوبي، معجب بشاعريته ولكنني - كناقد - لا أستطيع أن أقبل أو أتقبل هذا السيل من الثناء الذي أحاط بموشح: (شاعر الحياة) دون أن أقف قليلًا لأتساءل عن سر الثناء الذي لم يكن يحظى به شاعر وأنا لا أتصور أن (العبقرية الشعرية) هي المحور الحقيقي لهذا الإعجاب ولكن هناك محور آخر هو - كما استنتجت - انشغال الأذهان والقلوب ببعض المشكلات الاجتماعية التي كانت تسيطر على نفوس الناس ومشاعرهم وجاء موشح الحبوبي فكان خير تعبير عما يخالج الناس تجاه تلك المشكلات فقد صادفت أفكار الشاعر - في موشحه - هوى غلابا في نفوس الناس فكان هذا النجاح الكبير والثناء المنقطع النظير.

١٧ - وإن كان هذا لا يطعن - بطبيعة الحال - في موهبة الشاعر وعظمة تحليقه وسمو مكانته وإن كنت أريد أن أخلص من هذا إلى البحث عن العلة في عدم شهرة الشاعر شهرة تليق بأصالته وفنه فالواقع أن الباحث يدهش حين يقرأ ما كتب عن موشحه من ثناء وتقريظ وتنويه وإعجاب عندما يقارنه بشهرة الشاعر؟

فهل يعود ذلك إلى توقف الشاعر فترة طويلة عن قول الشعر؟

الحقيقة أن الشاعر لم يتوقف عن نظم الشعر فهذا صاحب كتاب (فلسطين في الشعر النجفي المعاصر) يترجم لشاعرنا الحبوبي في صفحة (٢٥) ويذكر أنه كان ولا يزال يواصل رسالته الأدبية بأمانة وإخلاص، والكتاب صادر في أواخر عام ١٩٦٨م وقد توفي الشاعر بعد ذلك بفترة قصيرة، ومعنى هذا أن شاعرنا ظل يواصل رسالته الأدبية إلى آخر أيام حياته. فما السبب إذًا؟

أيعود ذلك إلى عدم اهتمام الشاعر بنشر شعره في دواوين منتظمة كما لاحظنا أن آخر ما طبع له رباعيات الحبوبي الذي طبع في سنة ١٩٥١ وطبع

الجزء الأول من ديوانه في ١٩٤٨م؟ ربما، ولكن الشاعر كان يواصل نشر شعره في الصحف فنحن نقرأ له قصيدة منشورة في كتاب فلسطين السابق الذكر ويشير الباحث مؤلف الكتاب إلى أنها نشرت في مجلة الإيمان سنة ١٩٦٧م أي قبل وفاته بعامين ولا بد أن له قصائد أخرى كثيرة كما يشير الباحث إلى أن «أغلب شعره مخطوط» أي أن له شعرًا كثيرًا لم يرى النور بعد.

أيرجع السبب إلى اتجاه الشاعر اتجاهًا اجتماعيًّا صرفا وقد تعود الناس أن يجدوا في الشاعر حديقة تجمع بين ألوان الزهور والشجر والنباتات والحشائش؟ هذا احتمال بعيد إذ الواقع أن الشاعر الذي ينتهج هذا النهج يكون ألصق بالجماهير وأقرب إلى قلوبها، وبالتالي فإنه يكسب شهرة أكبر، وهذا حافظ إبراهيم مثل قائم على صحة ما نقول فقد بنى الرجل شهرته على الشعر القومي حتى لقد لقب بشاعر الشعب وبشاعر النيل وبالرغم من أنه توقف - بعد أن وصل إلى مرحلة النضج - عشرين عامًا عن قول الشعر وهي الفترة التي قضاها في أسر الوظيفة فإن ذلك التوقف لم يؤثر على اسمه وشهرته.

على أن الواجب يقتضينا أن نشير إلى عنصر هام كان له أثره في شهرة حافظ ذلكم هو عنصر المنافسة ولا نعني بذلك المنافسة بينه وبين شاعر آخر هو شوقي ولكننا نعني المنافسة بين شوقي وبين خصومه فقد دفعت المنافسة خصوم شوقي إلى أن يرفعوا من شأن حافظ بالحق وبالباطل في سبيل أن يغضوا من قدر شوقي وأن يهونوا من شأنه، وقد أفلحوا فعلًا في الرفع من شأن حافظ وإن لم يفلحوا في الحط من قدر المعدن الأصيل شوقي. فهل يكون فقدان المنافسة - بالنسبة لشاعرنا الحبوبي - هو السبب في عدم الاشتهار الواجب؟ ذلك احتمال جائز.

لعل شاعرنا الحبوبي يقف في دنيا الشعر في العراق بالنسبة للرصافي والزهاوي والجواهري موقف الشاعر أحمد محرم في دنيا الشعر في مصر بالنسبة لشوقي ومطران وحافظ فعلى الرغم من معاصرة أحمد محرم للشعراء الثلاثة وعلى الرغم من أنه لم يتوقف عن قول الشعر إلى آخر أيام

حياته، بالرغم من ذلك الأثر الفني الضخم الذي خلفه ونعني به ملحمته «مجد الإسلام» فإنه مختلف في دنيا الشهرة لا يكاد يذكره الباحثون أو يعرض له الدارسون.

والدنيا حظوظ. وإن كنا نرجو أن يجد الشاعر الحبوبي بعد طبع كل آثاره الشعرية والأدبية من يعني به من الأدباء والدارسين فينال ما هو جدير به من شهرة ومجد.

رحم الله أستاذنا.. وليّ الدين

مات وليُّ الدين، مات رجل له في حياتنا وفي تاريخنا خبر، وفي نهضتنا مكان.

مات رجل يحتل منزلة رفيعة بين الرعيل الأول من المربين والمخلصين، مات رجل لا سبيل إلى نكران جهده أو جحود فضله أو عقوق أُبوَّته.

عرفت السيد وليّ الدين أول ما عرفته في القاهرة في دار البعثات السعودية هناك، وكانت تضم جميع المبتعثين من بلادنا.

كان هو مراقبًا للبعثات وكنت طالبًا مبتعثًا للدراسة في الجامعة. كنت واحدًا من الدفعة الثالثة أو الرابعة ـ لا أدري تمامًا فقد نسيت ـ واستقبلنا الرجل الذي سيتولى شؤوننا طوال الفترة التي سنقضيها هناك.

ونظرت طويلًا إلى سحنة الرجل الذي سيكون لنا الراعي والوالد والموجّه. واستمعت إلى حديثه فوقع في نفسي أنني أمام رجل تكاملت فيه صفات المربي الناجح. وبحركة لا شعورية قفز ذهني إلى مكة ليعقد مقارنة بين هذا الرجل الذي أجلس أمامه الآن وبين رجل جلست إليه سنوات كان لي فيها نعم الأستاذ والأب والمشير الناصح.

كانت أوجه الشبه كثيرة بين هذين الرجلين وإن كان لكل منهما علاماته الفارقة وشخصيته المميزة. وقد عرفت بعد ذلك أنهما صديقان تربطهما رابطة الزمالة ولقد سرني كثيرًا أن أنتقل من أُبوّة حانية إلى أُبوّة حانية ومن رعاية كريمة إلى رعاية كريمة. واستطعت بفضل ذلك أن أجتاز سنوات الدراسة دون أيّ تلكؤ أو تعثر.

كان أستاذنا الجليل مربيًا صاحب رسالة وكان يقدر رسالته حق قدرها كان يعرف عظمة المهمة الملقاة على عاتقه ويدرك خطرها ومن أجل ذلك حبس نفسه لها فكان لا يبخل عليها بوقت ولا بجهد ولا بصحة.

كان مهتمًّا بهذه الفئة من الفتيان يرعاها صحيًّا وجسميًّا وعقليًّا ويبذل كل

ما يملك من أجل حمايتها من الأوباش والأدغال والانحرافات كان يؤمن إيمانًا عميقًا بجدوى التربية الصحيحة وآثارها العميقة وكان يعرف مدى الآمال الكبيرة التي يعقدها المواطنون على الأمانة التي أودعوها لديه.

كان في شغل شاغل بها. فهو يزورها في الصباح ويزورها في المساء وهو يتفقد شؤونها الجليلة والتافهة وإنني لأذكر زياراته المتصلة للاطمئنان على أن الصلوات كانت تؤدى في أوقاتها وخاصة صلاة الفجر.

كما كان مروره المتواصل للتأكد من انتظام المذاكرة ونظافة الغرف وسير كل شيء في طريقه المرسوم.

كان يحمل بين جنبيه قلبًا يفيض بالخير والحب والإيمان. كان ينظر إلينا طلبة البعثات نظرته إلى أبنائه وكان يسبغ علينا من ألوان الحب والعطف والرعاية ما لا يوصف ولم تستطع مظاهر الحزم التي ترتسم على ملامحه ولا تلك (التكشيرة) التي يضعها على وجهه ولا تلك اللهجة التي يصطنعها في إصدار أوامره ـ لم تستطع كل تلك المظاهر أن تخفي ما يحمله في أطواء قلبه وبين حناياه من طيبة وحنو وعطف.

حدث أنه عندما وصلت «دفعتنا» إلى القاهرة[1] أن تأخر وصول كامل الأثاث المخصص لنا بضعة أيام لسبب (روتيني) بحت وصادف أن جاءت ليلة شاتية قاسية البرودة شبيهة إلى حد ما بهذه الليلة التي أكتب فيها هذه المقالة.

وذهبت في اليوم التالي إلى السيد وليّ الدين لمحادثته في أمر من الأمور وبادر يسألني عن ليلة البارحة وكيف قضيناها أنا وزملائي وقلت: لقد قضيناها بخير ولكنها كانت شديدة البرودة. وقال لي بلهجة تحمل معاني الصدق وبإشارة من يديه ووجه تحمل كل معاني الأسف ـ قال: إنني لم أنم طوال الليل فقد كان في غرفة نومي كل وسائل التدفئة ومع ذلك كنت أشعر بالبرد.

ويقول أستاذنا الجليل: وقد دفعني هذا إلى التفكير فيك وفي زملائك وتصورت ما تعانونه من قساوة البرد. وليس عندكم إلا غطاء واحد فطار النوم من

(١) وصلت هذه الدفعة الخامسة مبتعثة للدراسة الجامعية بالقاهرة عام ١٣٦٤هـ

عيني ولم يغمض لي جفن حتى الصباح. ووجدتني بعد هذه المشاعر النبيلة التي هزتني من الأعماق ـ وجدتني مدفوعًا إلى التأكيد لأستاذنا الجليل بأننا قضينا ليلة سعيدة مريحة وبعد أن شكرته أصدق رجوته باسمي واسم زملائي ألا يشغل باله كثيرًا بهذه القضية.

وما مضت أيام قليلة حتى وصلنا فيها كامل الأثاث ورأيته وهو يشرف على تنظيم الأثاث فرأيته مطمئن النفس منفرج الأسارير تكاد الفرحة تثب من عينيه، ومن المؤكد أنه نام ليلته تلك ملء جفونه قرير العين مطمئن الفؤاد.

هذه الصفات النفسية الباهرة بالإضافة إلى ثقافته الواسعة ودراسته العميقة ووراثته النبيلة، هي مكونات شخصيته التربوية الناجحة.

كان حازمًا في غير عنف، لطيفًا في غير ضعف. كان واسع الأفق بعيد النظر صادق الفراسة دقيق الملاحظة. كان عليمًا بمشكلات التربية محيطًا بالمراهقة خبيرًا بما يحب الشباب، ومن أجل ذلك استطاع أن يسير بقافلة الشباب التي يقودها إلى بر الأمان وهي قافلة عجيبة الاتجاهات مختلفة الميول متضاربة المشارب تعيش في جو لا يؤمَن فيه العثار ولا الانحراف ولا الانزلاق.

وكان بحكم هذه العوامل المتفاعلة التي كونت شخصيته وصقلت مواهبه وأهّلته للقيادة والريادة والأستاذية محبًّا للنظام مبغضًا للفوضى، وكان من حبه للنظام حرصه على الوقت واحترامه للمواعيد وإيمانه بأهمية غرس ذلك في نفوس الشباب وتعويدهم عليه.

حدث بعد وصولي إلى القاهرة بأيام قليلة أن ذهبت إلى ميدان العتبة لأمر ما، وكان من المقرر أن يكون الطعام جميعًا بدار البعثات في الساعة الخامسة بعد الظهر وركبت التّرام وكان رقمه (١٥) في طريق عودتي إلى الدار في وقت يسمح بوصولي في الوقت المناسب واكتشفت بعد فترة من الوقت أن التّرام لم يسر في الطريق المعتاد وإنما سار في طريق آخر وسألت أحد الركاب هل يصل هذا التّرام إلى الروضة فاجابني بالإيجاب.

ووصل الترّام فعلًا إلى الروضة ولكن بعد نصف ساعة من الموعد الذي كنت أتوقع أن يصل فيه. وعلمت يومها أن ترام رقم (١٥) يسلك طريقين أحدهما قريب والآخر بعيد ووصلت إلى الدار متأخرًا نصف ساعة ووجدت السيد وليّ الدين جالسًا في مكتبه وسألني عن سبب تأخري فأخبرته بقضية الترّام فأبى أن يقتنع واستبعد أن أجهل هذه القضية البديهية مع أنه قد مضى لي أيام في القاهرة ورغم أنني كنت صادقًا فقد أصر على أنني ارتكبت مخالفة تستحق العقاب، وهو في هذه الحالة اقتطاع عشرة قروش من المصروف الجيبي. وقد لا يدرك القارئ القيمة الشرائية لهذه القروش العشرة إذا نظر لها في ضوء قيمتها الشرائية الحالية أما لو نظر لها في ضوء قيمتها الحقيقية قبل أكثر من خمسة عشر عامًا[1] وعرف أن المصروف الجيبي الشهري كله مائتان وتسعون قرشًا للمواصلات والحلاقة ومسح الجزمة وكي الطربوش لأدرك قيمتها الحقيقية وخاصة بالنسبة لطالب مثلي لا يتلقى أي مساعدات أخرى.

ومع ذلك فلم أكترث لاقتطاع هذا المبلغ أو حسمه - كما يعبرون في لغة الوظائف - ولكنني تألمت كثيرًا لفكرة العقاب وخاصة أن تأخري كان لسبب خارج عن إرادتي كما وأنني كنت صادقًا في العذر الذي تقدمت به.

وتقبلت الأمر بهدوء وحل وقت صرف (المصروف الجيبي) وفوجئت به يصرف كاملًا دون أي انتقاص. وأشهد أنني اغتبطت من أجل ذلك اغتباطًا كثيرًا لا من أجل بقاء القروش العشرة رغم أهميتها ولكن من أجل عدم (تسجيل) هذه السيئة عليّ فقد كنت - ولا أزال - شديد الحساسية إلى درجة المرض.

ولقد كان لهذا (العفو) في نفسي من الأثر ما لا يوصف ومن يومها لم (تسجل) عليّ سيئة باستثناء سيئة واحدة لم أرتكبها عن عمد وإنما عن جهل كما سيرى القارئ.

فقد استدعيت الحلاق إلى غرفتي لقص شعري وفوجئت أثناء ذلك بالسيد

---

(١) يوافق عام ١٣٥٠هـ تقريبا

وليّ الدين يدخل عليّ الغرفة وقد ثار عندما رأى الحلاق، وقال كلامًا كثيرًا يتصل بالنظام والنظافة وأهمية المحافظة عليهما وعدم التفريط في الواجب تجاههما.

ومع أنني أبديت أسفي لما حدث واعتذاري بأنني أجهل أن هذا التصرف غير مسموح به. وأنا صادق أيضًا فإن السيد وليّ الدين لم يقبل عذري وأصر على أن يفرض عليّ عقابًا صارمًا هذه المرة وهو حرماني من الخروج ليلة الجمعة وهي الليلة الوحيدة التي نستطيع البقاء فيها خارج المنزل إلى الساعة العاشرة والنصف ولم تُجْدِ محاولاتي في إقناعه بالعدول عن تنفيذ هذا العقاب وتم ما أراد وكانت المخالفة الثانية والأخيرة فلم أتعرض بعد ذلك لأي عقاب حتى غادرت مصر.

ولست أكتم القارئ أنني امتعضت كثيرًا من تصرفات السيد وليّ الدين واعتبرتُ ذلك - في نفسي طبعًا - تعنتًا وتحاملًا غير مقبول ولكنني بعد أن عركت الحياة وعركتني عدلت عن هذا الرأي واقتنعت تمامًا بأن سياسة السيد وليّ الدين التربوية هي السياسة السليمة وهي سياسة تعتمد على الحزم وتشبه إلى حد كبير ما يسمى بالتربية العسكرية وما أشد حاجتنا إلى هذا النوع من التربية لتكوين أجيال قوية قادرة على مواجهة التحديات وعلى صنع المستقبل الميمون.

وعلى الرغم من حزم أستاذنا وشدة صرامته فقد استطاع بِلَوْذعِيَّة بارعة أن يحتفظ بحب جميع تلاميذه فلا أذكر أن أحدًا منهم - ولا أستثني - حتى الذين حالت بعض العقبات دون استمرارهم في مواصلة الدراسة أو تعثروا، لا أذكر أن أحدًا منهم ذكر أستاذنا بما يكره أو تحدث عنه بما يسيء فَهُم جميعًا يحبونه ويعتزون به والفضل يعود إلى ما كان يملكه أستاذنا من قدرة قادرة وصفات باهرة جعلت منه مربيًا من طراز فريد.

لم أطلع لأستاذنا الجليل على آثار مكتوبة ويظهر أنه لم يول هذه الناحية شيئًا من اهتمامه باستثناء حالات نادرة.

ويبدو أن كل طاقاته قد اتجهت إلى تربية الأفراد فشغل فترة طويلة من حياته برعاية طلاب البعثات الذين توفدهم الدولة ومن يلحق بهم ثم اتجه بعد ذلك إلى رعاية من يلتحق من التلاميذ بالمدارس الخاصة التي أنشأها في القاهرة.

وعدم وجود آثار مكتوبة لأستاذنا الجليل لا ينقص من قيمته ولا يطعن في كفاءته فإن أعدادًا لا تحصى من المفكرين والهداة والمصلحين في القديم والحديث من الشرق والغرب ممن تركوا في تاريخ الإنسانية آثارًا بعيدة المدى لم يخلفوا آثارًا مكتوبة ولكنهم تركوا بعدهم آثارًا حية تمشي على قدمين.

وكان لهذه الآثار الحية في رفع شأن الإنسانية أو في دفع خطواتها إلى الأمام أو في تغيير اتجاهاتها ما شغل أجيالاً من المؤرخين أفنوا العمر في تدوينها وتوضيحها وتقديمها وتبيان مداها وتحديد انطلاقها.

وقد ترك أستاذنا جيلًا من الشباب المثقف الواعي في شتى مجالات الحياة فمنهم القضاة والوزراء والعلماء والأدباء والمربون والخبراء والمهندسون والأطباء ورجال الفن وكل فئة من هؤلاء ثروة لا يستهان بها من ثروات أُمّتنا.

وعلى أن شيئًا واحدًا كنت أتمنى أن يهتم به فقيدنا الكبير بالنسبة للآثار المكتوبة وهو أن يكتب مذكرات فلا شك في أنه لو فعل فستكون مذكراته مرجعًا هامًّا من مراجع تاريخ نهضتنا وسيجد فيها الأبناء والأحفاد (سجلًا) يحوي تاريخ فترة من أهم فترات حياتنا وسيكشف كثيرًا من أسرارها.

أشرت قبل قليل إلى أن فقيدنا الكبير لم يول الناحية الفكرية اهتمامه فلم يمارس الكتابة في الصحف ولم يخرج أثرًا مكتوبًا إذ قد استأثرت (اهتماماته) التربوية بكل طاقاته باستثناء حالات نادرة - وعنيت بهذه الحالات بعض كلمات قصار كان يكتبها تقدمة لبعض كتب أصدقائه أو تلاميذه وأذكر منها كلمة قصيرة نشرت كإحدى مقدمات الكتاب القيم الذي أصدره الباحث العلامة الأستاذ أمين مدني بعنوان (التاريخ العربي وبدايته) وهي كلمة في صفحة تنقص قليلًا قَصَر فيها الأستاذ الجليل كلامه على

التاريخ المدرسي للمؤلف ويتسم أسلوبه فيها بالتركيز والوضوح والإيجاز وليت أستاذنا الجليل أطال قليلًا في ترجمة حياة المؤلف فمن المؤكد أن لديه الكثير من المعلومات ولكن يبدو أن أسلوبه في الإدارة وسياسته في التربية وفلسفته في الحياة أملت عليه هذه الطريقة وفرضت عليه هذا الاتجاه.

وبعد: فهذه مقالة كتبتها تحية لفقيدنا الكبير وتنويها بأثره وتقديرًا لأُبُوَّته واعترافًا بفضله. ولعل فيها بعض الوفاء لرجل كان له في حياتي فضل الرعاية وكرم العناية وصادق التوجيه وسابغ العطف.

ومع أنني أقل الطلاب اتصالًا به ـ بسبب حياء نشأ معي وربيت عليه وانقلب بمرور الأيام إلى نوع من الخجل المقيت نغَّص عليّ عيشي وحرمني كثيرًا من طيبات الحياة ـ مع أنني أقل الطلاب احتكاكًا به فإنني ما شعرت يومًا بخفوت حرارة أبوته أو تضاؤل توهج عنايته وإذا كان من المسلَّم به أن دوام الاتصال وكثرة الاحتكاك تتيح مجالًا أوسع وميدانًا أرحب للتعرف على الخلال والخصائص والنفاذ إلى البواطن والأعماق فإن ذلك ما يدعوني إلى استنهاض عزائم تلاميذه واستحثاث همم أبنائه واستنفار أقلام المقربين إليه فلا شك في أنهم واجدون جميعًا في شخصية الرجل العظيم ما يستحق الدرس والبحث والتأمل، وتسجيل سيرة هذا الفقيد الكبير لون من الوفاء وبعض من البر وإحياء للذكرى.

ووليُّ الدين وأمثاله من ثروتنا القومية التي يجب العناية بها والمحافظة عليها، وكتابة تاريخها وتوضيح أثره والاستفادة من تجاربه بعض الواجب علينا تجاهها، فلعل تلاميذه ومحبيه وعارفي فضله يتداعون إلى تنظيم جهودهم وكتابة مذكراتهم ونشر ذكرياتهم عن عَلَمٍ قضى وتاريخ مضى وحياة خالدة.

رحم الله فقيدنا العظيم ورضي عنه وجزاه عن جهاده وأمد في حياة زميليه المربيين الكبيرين السيدين العظيمين: محمد شطا وأحمد العربي.

صور وذكريات

صور وذكريات من حياة الفقيد الكبير الأستاذ محمد سعيد دفتردار[☆]

كان موته[١] ـ طيب الله ثراه ـ مفاجأة لي مرتين، مرة حين فاجأني خبره المؤسف وأنا بعيد عن المدينة ومرة حين علمت أنه ودع الحياة في نفس الوقت من فجر اليوم الذي سافرت فيه إلى الرياض.

لقد تركته سليمًا صحيحًا معافى. وغادرت المدينة على أمل اللقاء به في أسرتنا الصغيرة (أسرة الوادي المبارك) حيث يسعدنا بعلمه الغزير وشعره الرقيق وفكاهاته اللطيفة وتعليقاته الطريفة ولكن أصدق المواعيد حل بشيخنا العلامة ففقدنا بفقده عَلَمًا من أعلام المدينة ولواء من ألوية المعرفة وشاعرًا من شعراء الطليعة وأديبًا من أسرة الوادي المبارك.

وحياة شيخنا العلامة حياة خصبة حافلة معطاءة فقد ولد في المدينة وترعرع في الشام[٢] ودرس في مصر[٣] وطاف بكثير من بلاد الإسلام وجمع في ثقافته بين القديم والحديث وبين الناحيتين النظرية والعملية فهو مطلع على اللغة مثقف في الشريعة عالم بأصول المذاهب.

وقد أعانه كل ذلك على التعبير واستقامة اللفظ ودقة الحكم وقد استمعنا في «أسرة الوادي المبارك الأدبية» إلى طائفة من أبحاثه الأدبية كان فيها دقيق التعبير صادق التصوير وملازمة البيان، ولا أزال أذكر من أبحاثه تلك بحثه اللغوي عن «المترادفات».

وكان شيخنا العلامة يمتاز بالحفظ والرواية والدراية والفهم العميق. وظل

(☆) ولد بالمدينة المنورة، عام ١٣٣٢هـ وأتم تعليمه الأولى بها، واسندت إليه معتمدية المعارف بالمدينة المنورة، وإدارة أول مدرسة ثانوية بها وهي مدرسة طيبة الثانوية بعد عودته من انتهاء دراسته وأداء فريضة الحج من عام ١٣٦٢، علما بان الدراسة بدأت في يوم الثلاثاء ١٢ من ذي القعدة ١٣٦٢هـ. ارجع مدرسة طيبة الثانوية في ٥٠ عاما. البليهي . محمد صالح ص ٤٧٠

(١) كان موته في عام ١٣٩٢هـ (٢) للدراسة.

(٣) التحق بالأزهر حيث حصل على العالمية منه عام ١٣٩٥، ثم درس في كليـة الشريعة حيث حصـل على التخصص في التدريس، وقد اتم ذلك في عام ١٣٦١هـ. انظر موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي طبعة (١) القسم الأول ص ٣٦١ . وله مؤلفات عدة.

إلى آخر حياته ـ وقد أطل على السبعين ـ يتقن الحفظ ويجيد الرواية فلا يكاد يغيب عنه شاهد ولا تند عنه مسألة.

وكان شيخنا متشعب المعرفة متعدد المواهب ينظم الشعر ويجيد القصة ويعالج فن الترجمة ويكتب في تاريخ الأدب.

ولكن أبرز تلك المواهب ـ في رأيي ـ موهبته الشعرية وربما كانت أحق مواهبه شهرة لدى القارئين ولكنها في الحقيقة أبرزها وآصلها. وظل الشعر إلى آخر حياته ملاذه ينفس به عن نفسه ويصور فيه مشاعره وأحاسيسه وما تنفعل به نفسه من مظاهر وأحداث وقد أسمعنا منذ شهور قصيدتين من أجمل الشعر وأرفعه وأرقه نظم أولاهما في لبنان تصويرًا لحادثة عاطفية ـ ربما عرض لها بالتفصيل زملاؤنا (أسرة الوادي المبارك) وقد أجمعوا هم على طبع الديوان ونشره.

ونظم الثانية في المدينة تخليداً لمنظر هنا في المسجد النبوي في رمضان ولا تملك نفسك وأنت تستمع إلى هذا الشعر من أن تهتز طربًا وإعجابًا بتصويره الجميل وتعبيره البديع وأسلوبه المشرق، وأن تصيح: هذا شعر يا له من شاعر.

وإذا صح ما يقال عن الوراثة الشعرية فإننا لنذكر في هذا اللقاء أن جده لأمه كان هو شاعر المدينة المشهور إبراهيم الأسكوبي[(١)].

وكان فقيدنا الكبير يحفظ شعره ويحتفظ بديوانه[(٢)] وينشد بعض قصائده وأبياته كلما لاحت مناسبة أو سنحت فرصة، ولكنه انسجامًا مع خلقه السمح وطبعه الرضي لا يتحدث عن ذلك الجد الشاعر أو غيره من كبار أسرته بما يشعر السامع بالتفاخر والتباهي والرغبة في التعاظم أو الاستعلاء.

ولكن فقيدنا الغالي كان محبًّا للمدينة المنورة مغرمًا بها إلى حد الوله والهيام. وذلك أمر طبيعي فحب الوطن من طبيعة البشر فما بالك إذا كان وطنًا كالمدينة له في كل تاريخ ذكر وفي كل قلب هوى.

---

(١)، (٢): هو إبراهيم بن حسن الاسكوبي، ولد بالمدينة المنورة عام ١٢٦٤ وتوفي غرة جمادى الآخرة ١٣٣١هـ وديوانه طبع علم ١٤٠٤هـ/١٩٩٨م محققا له د. محمد العيد الخضراوي.

وكان فقيدنا موصول الأواصر بهذه المدينة الحبيبة ورث حبها عن آبائه وفيها ولد وعلى أرضها نشأ وتحت سمائها ترعرع. وكان من فضل الله عليه أن جعلها مسكنًا له طول حياته فعاش متقلبًا بين جنباتها محفوفًا بأنوارها.

وقد طبع حبه القديم لهذه المدينة كل آثاره فأكبر كتبه «أعلام المدينة المنورة»[1] وعنوانه يدل عليه. وقد هدف من وراء تأليفه إلى إبراز أعلام أبناء هذا البلد من العلماء والشعراء والأدباء والقضاة وغيرهم من النابغين وذوي المواهب في القرنين الأخيرين، وشعره حافل بالحديث عن المدينة يصور فيه حبه وشوقه وانفعالاته تجاه هذا البلد الحبيب.

وقصصه التي طبعت وهي «الأفندي»[2] و«المجيدي الضائع»[3] و«الحاجة فلحة» تدور أحداثها في المدينة وشخصياتها وأبطالها إلا ما شذ شخصيات مدنية.

أما كتابه الأخير «ذخائر المدينة المنورة»[4] فإن اسمه يدل عليه وهو كتاب كبير آثر مؤلفه أن يخرجه للناس في حلقات تيسيرًا للقراء وتسهيلًا عليهم وقد أخرج منه حلقتين. كما أن الأستاذ الجليل كان متحمسًا أشد التحمس لتحقيق نشر كتاب «تحفة البشر في أعيان القرن الثالث عشر» للداغستاني لأنه يضم تراجم من شعراء المدينة في القرن الثالث عشر.

ومن المؤكد أن فقيدنا الكبير كان يخطط لمشروعات أدبية أخرى متنوعة. ومن المؤكد كذلك أنها جميعها لا تخرج عن الإطار الذي أشرنا إليه ولكن الأجل لم يمهله.

وأول ما أصدر من كتبه قصة «الأفندي» وقد تفضل يومها مشكورًا فأهدانيها ـ كتبت عنها حينذاك دراسة نقدية موضوعية وكنت ـ ولا أزال ـ أحمل في نفسي للأستاذ الجليل كل إكبار وإجلال.

---

(١) نشر صاحبه بعض ما جاء فيه على صفحات مجلة المنهل...
(٢) قصة في ٣٩ صفحة نشرها دار المنهل بجدة.
(٣) مجموعة قصصية ـ مكة دار قريش عام ١٣٨٩هـ.
(٤) طبعت عام ١٣٩٠هـ في ٨٤ صفحة عن دار الأنصار. بيروت.

ولم يكن دافعي إلى دراستها ونقدها إلا إعجابي بفكرتها وتقديري لمنشئها وحرصي على أن تأخذ حقها من الذيوع والانتشار. ولكن يبدو أن أستاذنا الجليل قد انزعج قليلًا من بعض ملاحظات وردت في تلك الدراسة.

وعبر عن عدم ارتياحه بكلمة قالها لبعض رفاقنا. فقد قال ـ رحمه الله وغفر له: إن فلانًا «يعنيني» قد ظلمني في نقده لقصتي.

وقد انزعجت كثيرًا لرأي الأستاذ الجليل في نقدي لقصته برغم إيماني الكبير بأنني كنت موضعيًا في كتابتي وبرغم حرصي على أن تكون تعبيراتي دقيقة بحيث لا تؤذي مشاعر الأستاذ الجليل من قريب أو بعيد.

ولكن النقد هو النقد ويندر أن تجد من يتقبله بروح رياضية. ومع ذلك فقد بقيت أتحين فرصة أو مناسبة لأناقش معه ـ وبمشاركة زملائنا في أسرتنا الأدبية الصغيرة ـ ما أوردته من أفكار وملاحظات عن قصة «الأفندي» ولكن الفرصة لم تسنح.

ولكنني فوجئت بالأستاذ الجليل ذات يوم وهو يقدم لي قصته الثانية «المجيدي الضائع» وقد طبع على صفحتها الأولى إهداء كريمًا موجهًا لي. ولم أعرف هل هذا الإهداء تعبيرًا عن رضاه عما كتبته عن قصة «الأفندي» أم أنه تصوير لطبعه الرضي وقلبه الوفي وخلقه السمح.

ولم أكتب شيئًا وقتذاك عن هذه القصة واكتفيت بما دار حولها من نقاش في إحدى جلسات ندواتنا الصغيرة بحضور الأستاذ الجليل.

لقد تكررت الإشارة في هذا المقال لما كان يتمتع به الفقيد الكبير من دماثة في الخلق ورقة في الحاشية ولطافة في المعشر. وقد انعكس ذلك مع أدبه وتراثه فلا تجد في شعره هجوا ولا في نثره نقدًا ولا في ترجماته سيئات.

وأذكر بهذه المناسبة أن نقاشًا طويلًا دار بيني وبين فقيدنا الكبير في الجلسة التي خصصت لدراسة كتاب: «تحفة المحبين والأصحاب في صحة ما للمدينة من الأنساب» تأليف عبدالرحمن الأنصاري.

فقد أخذ الأستاذ الجليل على المؤلف أنه تناول في ترجمته لأسر المدينة

وشخصياتها الحسنات والسيئات معًا وكان من رأي فقيدنا الكبير أن المؤلف قد أساء من حيث أراد الإحسان فإن ذكر السيئات والنقائص عمل لا يليق بالعلماء والباحثين ولو برئ عمل الشيخ الأنصاري من ذلك لكان عمله أدنى إلى التمام وأقرب إلى الكمال. وأخذ يبرر رأيه بأن في تسجيل السيئات والنقائص تشنيعًا على المترجم لهم، وإشاعة للسوء عنهم وإيذاء لأبنائهم وأحفادهم ومن يلوذ بهم.

وقد خالفته في ذلك مخالفة شديدة وكان ما ذهبت إليه هو أن الإنسان مركب بفطرته من الحسنات والسيئات، الفضائل والنقائص، من الفجور والتقوى ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾. فالعناية بجانب الخير دون جانب الشر، وتصوير الإنسان في إطار الفضيلة وإهمال الرذيلة، وذكر المحاسن مجردة عن المساوئ فيه مخالفة صريحة لطبيعة النفس البشرية، وتجاهل لمقوماتها الأساسية في حياة الإنسان، وإغفال لواقع قائم، ومحو لشطر التاريخ.

ولو أن كل فرد في الدنيا سلك هذا السبيل لأصبح التاريخ كائنًا مشوهًا له عين واحدة وأذن واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، ولك أن تتصور هذا الكائن الممسوخ البشع.

ومع هذا فأنا أتفق مع الشيخ الجليل في نقطة جانبية واحدة وهي أنه لا يجوز للمؤرخ أن يستغل التاريخ لتكبير السيئات وتضخيم النقائص والتهويل من شأن المساوئ.

ثم إن الإنسان ملك نفسه ما دام نكرة مجهولًا أما إذا دخل التاريخ فقد أصبح ملك الدارسين والباحثين أي أنه أصبح ملكًا لغيره.

هذا خلاصة ما دار في تلك الجلسة. وقد تكرر النقاش في مناسبات أخرى. ولكن الأستاذ الجليل ظل مصرًّا على رأيه بل وكان يعتز بأنه في ترجمة الأعلام في المدينة حرص على تنفيذ خطته ولم يحد عنها قيد أنملة.

وأرجو ألا يفهم أحد من كلامي هذا أنني أستهين بكتاب شيخنا الجليل.

إن الواقع الذي لا مراء فيه أن فقيدنا الكبير قد تكبد الكثير في سبيل حصوله على تراجم رجال المدينة وسد بذلك فراغًا كبيرًا وقدم سفرًا نفيسًا سيظل من مفاخر جيلنا.

وكل ما أردت أن أشير إليه هو الارتباط القوي بين الأخلاق السمحة الرضية لفقيدنا الكبير وبين تراثه الفكري وهو ارتباط أصيل عميق الدلالة.

ومما لا شك فيه أن لتدين شيخنا الراحل أثر عميق في سجاياه الكريمة وأخلاقه الرضية. أذكر هنا حادثين يصوران أصدق تصوير ما كان يعمر فؤاد الفقيد الراحل من إيمان صادق وتدين عميق فقد سافر إلى خارج المملكة في صيف العام الماضي وعاد معه حمل ثقيل. وكان كمية من الورق المقوى كتب عليه بخط الثلث الكبير آيتان كريمتان من كتاب الله تدعوان إلى الصلاة وتحثان على أدائها. وهما:

﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾ و﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

ومن المؤكد أن الأستاذ الجليل قد تكبد جهدًا ومالًا في سبيل إعداد الرواسم وفي سبيل طبع هذه الكميات الكبيرة ثم في سبيل تحملها وإهدائها للناس دون مقابل ولا شك في أن الأستاذ الجليل كان مدفوعًا إلى عمله هذا بروح المؤمن الذي يحرض على إقامة الصلاة والمحافظة عليها إذ هي عمود الدين من حفظها فقد حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

ودعانا في العام الماضي إلى حفلة عشاء في مناسبة إسلامية وفوجئنا في نهاية الحفلة بالأستاذ الجليل يرفع يديه داعيًا وتابعناه وإذا بلسانه ينطق بدعوات مؤثرة هزتنا من الأعماق ونقلتنا من الأرض إلى السماء ومن عالم المادة إلى عالم الروح ويطيل الدعاء وتخشع الأصوات للخالق البارئ المصور وتعنو الوجوه للحي القيوم فلا ينتهي من دعائه وابتهاله إلا وقد تنت الأعين وخفقت القلوب... كانت لحظات لا تنسى.

سبقت الإشارة إلى أن لفقيدنا الكبير جوانب متعددة في الشعر والقصة وتايخ الأدب وتراجم الأعلام وهناك جانب آخر يقتضينا الحق والواجب أن نعرض

له في هذا الحديث وذلك ما نستطيع أن نطلق عليه الجانب الاجتماعي.

ولفقيدنا الكبير صلاته الاجتماعية الكثيرة المتنوعة وتفرض عليه هذه الصلات أن يتعرف إلى ما يعيشه الناس من أزمات ومشكلات ومتاعب. ويأبى عليه شعوره المرهف وإحساسه النبيل وإداركه لمسؤوليته أن يقف صامتًا مكتوف اليد ولذلك فقد كان يلجأ إلى القلم ليصلح عن طريقه المشكلات العامة مستعينًا بعلمه وخبرته. وله مقالات وجهود مشكورة في هذا المجال.

قلت في بداية الحديث: إن فقيدنا الكبير «جمع في ثقافته بين القديم والحديث وبين الناحيتين النظرية والعملية» وقد عَنِيتُ بالناحية العملية ما يمكن أن أطلق عليه احترام العمل اليدوي.

وهو من سمات شيخنا الجليل التي يكاد ينفرد بها وهو في صنيعه هذا يشبه تلك الطائفة الكريمة من العلماء الأعلام في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ممن كانوا لا يرون غضاضة أو بأسًا في ممارسة صنعه أو امتهان مهنة إلى جانب ما يضطلعون به من تاليف وتصنيف أو محاضرة ومناظرة أو تدريس وتاديب، كما أنه بصنيعه هذا يعطي صورة عن الرجل المتمدن في الحضارة الغربية في عصرنا الحديث ولعل ذلك يعود في الدرجة الأولى إلى أن الأستاذ الجليل التحق في أوائل فتوته بمدرسة الصنائع في الشام فاكسبه ذلك حب الصناعة واحترام العمل اليدوي.

وكان يتقن عددًا من الحرف وكان يعمل في بيته كلما وجد إلى العمل سبيلًا ولا يرى حرجًا في أن يراه أصدقاؤه ومعارفه أثناء عمله، وكذلك فقد كان لا يتحرج عن الحديث في هذا الموضوع والاعتذار بانشغاله في عمل من هذه الأعمال.

وإلى حبه العمل اليدوي ومثابرته عليه يعود السر في حيويته التي ظل يتمتع بها إلى آخر حياته فقد ظل - رحمه الله - نشيط الجسم خفيف الحركة سليم البدن بعيدًا عن الخمول والترهل بفضل نشاطه العملي الدائب

وحركته الجسدية المستمرة.

ومما يذكر أن منزله مرتفع الدرج وكان يسكن في الطابق الأخير منه ولعله الطابق الرابع فكنا نعاني مشقة ورهقًا في الصعود كلما دعانا لزيارته ولم نكن نبلغ الغاية إلا وقد هدّت قوانا وأوشكت نياطنا أن تنقطع.

وكان ـ رحمه الله ـ يعجب من ذلك ويعلق تعليقات مرحة إذ كان يصعد في اليوم الواحد مرات دون أن يعاني وهو في شيخوخته ما نعاني.

وإكمالًا للصورة التي حاولت أن أرسمها لشيخنا الجليل أحب أن أذكر ميزة من ميزاته كان لها ـ دون شك ـ أثرها الكبير في اشتداد قوته واستمرا حيويته. تلك هي دعابته وتفاؤله. لقد كان دائم التفاؤل كثير الدعابة محبًّا للمزاح اللطيف والتعليقات المرحة.

كان تفاؤله قائمًا على ثقة بالله لا تحد وكانت دعاباته ومزاحاته صادرة عن نفس تحب البساطة وتكره التعقيد من أجل كل ذلك عاش راضيًا ومات راضيًا رحمه الله وغفر له ورضي عنه.

الحب أبو العجائب ـ أو: جناية الصحافة على الأدب(*)

فكري أباظة كاتب صحفي لا يكاد يجهله أحد من قراء العربية، يمتاز بخفة دمه رغم ضخامة جسمه وعذوبة وأدب ورشاقة أسلوبه رغم دسامة موضوعاته. وبشدة حيويته رغم تقدم سنّه. فهو خفيف الدم إذا كتب أو خطب أو تحدث. واستطاعت هذه الخفة أن تكسب له الأصدقاء والخصوم فالكل معجبون به مقدرون له مجمعون عليه ولعل هذا التناقض الذي تجمع فيه زاد من حب الناس واعتزازهم به. ونعني بالتناقض خفة دمه وثقل جسمه فمن يراه بجسمه الضخم ونظارته السميكة ووجهه الرزين ينكمش منه ويظنه من أولئك «الثقلاء» وربما ازورّ واستعاذ برب الفلق، فإذا تكلم متحدثًا أو خطيبًا تغيرت الصورة تمامًا واختفى ذلك الجسم وانشغل السامعون والمستمعون بصوت يهز النفوس وأسلوب يسحر القلوب وكلمات تلعب بالألباب.

وفكري رشيق الأسلوب قادر على أن ياسرك ويستهويك ويستأثر بك ويحول بينك وبين أن تتأبى على قراءة مقاله أو تقف دون نهايته سواء أكتب في الأدب أو في السياسة أو في الإصلاح الاجتماعي، وهو يتمتع بحيوية نادرة رغم أنه في مرحلة الشيخوخة منذ زمن غير قصير، فهو كثير الحركة محب للسفر دائم التجوال. وإن كان من أعجب العجب أن هذا السفر الدائم والتجوال المتصل والحركة الدائبة لم تستطع أن تحول بينه وبين أن يكتب مقاله الأسبوعي. لقد ظل رئيسًا لمجلة المصور أكثر من عشرين سنة فلم يتخلّف مرة عن كتابة الافتتاحية. ثم عصفت به العواصف فأقصته عن مجلته ولو بقي لما توقف عن كتابة مقاله في صدر المجلة. وهل هناك دليل على حيويته أكثر من هذا الدليل.

(*) نشرت يوم الثلاثاء بجريدة المدينة المنورة الموافق ١٣٨٩/١١/٢٧ العدد ١٧٨١

أهدى إليه مرة الأديب الصحفي الأستاذ أحمد الصاوي محمد كتابًا من كتبه بهذه العبارة: «إلى الرجل الذي تتنازع الفخر به: الصحافة والنيابة والمحاماة» وهذا كلام صحيح فله تاريخ طويل في الصحافة والمحاماة ومجلس النواب.

وقد أشرنا إلى بعض تاريخه في الصحافة، ونضيف إليه أن الأستاذ فكري ظل نقيبًا للصحافة والمحاماة أعوامًا طوالًا.

أما بالنسبة للمحاماة فإنه لم يتركها منذ حصل على إجازة الحقوق قبل ما يقرب من نصف قرن وقد ترك في تاريخها آثارًا بعيدة المدى.

وأذكر من قصصه التي سمعتها أيام أن كنت أدرس في الجامعة قصة قصيرة تدل على مدى عبقريته ونبوغه في ميدان المحاماة.

فقد شكا أهل قرية من القرى التي يكثر فيها النصارى من أن المسلمين يزعجونهم بالأذان في هدأة الليل وخصوصًا في بداية الليل وفي أواخره فهم بأذانهم في مسجدهم يقلقونهم ويعكرون صفوهم ويحرمونهم من نومهم.

ويطالب السكان النصارى من المحكمة أن تمنع الأذان. وعقدت المحكمة جلستها للنظر في شكوى سكان القرية النصارى ضد سكانها المسلمين، واختار المسلمون فكري وكيلًا يتولى الدفاع عنهم وعرض محامي النصارى شكواهم وطالب باتخاذ الإجراءات التي تحمي موكليه من الإقلاق والانزعاج وتقدم محامي المسلمين فكري وطلب من المحكمة أن تأذن له بإجراء تجربة فأذنت له وكان قد أحضر «هاونًا» كبيرًا وضع في المحكمة وأخذ فكري يحرك يد الهاون حركات سريعة قوية فأحدث أصواتًا أزعجت القضاة والخصوم والمتفرجين مما اضطر المحكمة إلى أن تتدخل وتطلب من فكري أن يتوقف عن هذا الدق.

فاستجاب لذلك فكري أباظة ثم وقف وأخذ يؤذن أذانًا جميلًا أخّاذًا، وبعد أن انتهى منه توجه للمحكمة طالبًا منها أن تقرر أي الحركتين أشد إثارة للإزعاج حركة ناقوس الكنيسة وقد سمعت المحكمة نموذجًا منه أم صوت الأذان. ولم تجد المحكمة بدًّا من أن تقرر الحقيقة وأن تحكم برفض

الدعوى وإلزام المدعي بالمصروفات.

أما بالنسبة للنيابة فقد عاش فكري مجلس النواب منذ إنشائه إلى إلغائه وكان له فيه صوت مسموع وعلم مرفوع وسمعة مدوية، وكانت حنجرته الذهبية من أبرز معالم ذلك المجلس، وكان له في كل قضية حوار وفي كل مشكلة رأي وفي كل موضوع حديث.

لم يُصدِر فكري أباظة في حياته الطويلة العريضة غير كتابين ـ فيما أعلم ـ والسر في ذلك هو انشغاله بالكتابة السياسية الحزبية والإصلاح الاجتماعي، وهذه أمور وقتية تشغل الناس وتستثير اهتمامهم فترة تقصر أو تطول ولكنها لا تكتسب صفة الدوام والاستمرار فلا بد لها من أن تنتهي إلى حد ومن أن تقف عند غاية.

صحيح أنها أمور تدفع بصاحبها إلى الشهرة السريعة والصوت المدوي والاسم اللامع. ولكن ذلك لا يدوم طويلًا إلا إذا كان إلى جانبها أدب سوي أو شعر أصيل أو فن بارع، ونستطيع أن نطبق هذا الكلام على ثلاثة من الأعلام المعاصرين هم طه حسين وعباس العقاد وإبراهيم المازني وهؤلاء الثلاثة يقتعدون قمة الشهرة في العصر الحديث ـ مما لا جدال فيه أن كتاباتهم السياسية ومعاركهم الحزبية كان لها الفضل الأول فيما كسبوا من شهرة وما وصلوا إليه من بعد صيت ونباهة شأن ولو لم يكن لهؤلاء الأعلام الثلاثة أصالة عالية واتجاهات فكرية رفيعة واهتمامات ثقافية سامية لكانوا كبعض النابهين من الصحفيين وتنتهي شهرتهم بانتهاء مشاركتهم في الحياة السياسية أو التنظيم الحزبي أو بانطفاء شموع حياتهم على أبعد تقدير، ومن الواضح أن أيًا من هؤلاء الأعلام الثلاثة لم يحرص إطلاقًا على جمع مقالاته السياسية لأنها في رأيه ـ ورأي الحق ـ مقالات محدودة الهدف أدت الغرض منها وبذلك فقدت قيمتها وأصبح خير مكان لها بطون الصحف التي نشرت بها باعتبارها جزءًا من التاريخ.

ونعود إلى فكري أباظة وقد أشرنا إلى أنه لم يصدر في حياته الطويلة ـ فيما نعلم ـ غير كتابين هما كتاب (الضاحك الباكي) في جزئين صدر الجزء الثاني

بعد الأول بحوالي عشرين عامًا! والكتاب الثاني هو «الحب أبو العجائب» ولن أعرض هنا للكتاب الأول لأنه ليس تحت يدي الآن ولكني سأعرض للكتاب الثاني.

وكتابه هذا ليس جديداً فقد صدر قبل عشر سنوات ولكنني لم أقرأه إلا في الأسبوع الماضي. وأول ما يحسن الحديث عنه هو عنوان الكتاب. والأستاذ محمد فكري أباظة موفق تمامًا في اختيار أسماء كتبه وذلك شيء طبيعي من كاتب يمتاز بخفة الروح وحلاوة الحديث ورشاقة القلم، ولا نعني بالتوفيق هنا مجرد اختيار الاسم المثير أو العنوان الجذاب، ولكننا نعني بالإضافة إلى ذلك التوفيق في توثيق العلاقة بين الاسم والمسمى أو بين العنوان والكاتب، فلو قلت عن كتب الأستاذ فكري: إنها تقرأ من عنوانها لكنت صادقًا في كلامك دقيقًا في تعبيرك.

وكتاب «الحب أبو العجائب» يقع في مائتي صفحة من الحجم الصغير ويحتوي على اثنتي عشرة قصة أَعُدُّها من خير ما قرأت في دنيا القصص.

وليس في إمكاني أن ألخص هذه القصص فإن أي تلخيص سيقضي على ما فيها من جمال وروعة وفن.. ولكنني أحب أن أشير إلى «ميزة» تضاف إلى مميزات الكاتب الأصيل تلك هي قدرته على التحلل من القيود. فقصته لا تخضع لتلك القيود الصارمة التي يحرص كثير من القصصيين والنقاد على الانضواء تحت لوائها وكأنها قانون حتى يعتبر الخارج عليها خارجًا عن القانون - كما يعبر علماء الجريمة - يستحق اللوم والتثريب والعقاب.

ومع أن قصصه «متمردة» على القيود متأبية على الخضوع فإنها تستأثر باهتمام كل من يقرأها فلا يشعر بملل أو نشوز أو تهافت رغم ما فيها من تحرر وانطلاق ورغم ما حفلت به من شروح وتعليقات واعتراضات لم تكتب في الهامش ولكن في صميم القصة.

إن قصص فكري أباظة من نوع فريد تحفل بروعة التعبير وجمال التصوير وتمتاز بالتحليل الدقيق والنظرات الصائبة والنقدات الواعية. ومع كل ذلك

فهي قصص نابعة من الواقع منتزعة من المجتمع أو كما يقول فكري في نهاية مقدمته: «إن كل ما نشر من وقائع في هذه القصص إنما استمد من الحقيقة والواقع لا من الخيال، وكم رأيت في دنيا الواقع ما هو أدهى وأمر مما هو في دنيا الخيال».

أرجو أن أعود إلى هذه القصص مرة أخرى بالدرس والمناقشة والتحليل فهي جديرة بذلك، وحسبي هنا ما قدمت وأختم حديثي بسطور قليلة أنقلها من المقدمة كنموذج لأسلوب المؤلف الأنيق الرشيق - أعني الأسلوب لا المؤلف - يقول: «هذه المجموعة من القصص التي أقدمها لك الآن لا أخدعك فأزعم لك أنني كتبتها اليوم أو أمس أو أول أمس، لقد كتبتها منذ سنوات عندما كان القلب يدق.. يدق لنفسه وللآخرين دقات.

وليس معنى هذا أن القلب عندي شاخ. لا. القلب لا يزال قويًّا نابضًا فتيًّا شابًّا وإن شاب الشعر شيئًا من البياض وإنما دقاته انتظمت فلم تعد تصيبها الحمى كلما جرحتها سهام العيون والأهداب، واتزنت بحيث لا تتخاذل أو تضطرب أمام سحر الساحرات وفتنة الفاتنات، وقانا الله سحرهن وجمالهن وشيطنتهن...».

وبعد أفلا يرى القارئ معي أن الصحافة قد جنت على الأدب وأن استئثارها بفكري أباظة قد أضاع على دنيا الأدب كنوزًا فكرية ثمينة.

ضياء الدين رجب

ضياء الدين رجب شخصية من أبرز شخصياتنا الأدبية(١) وعَلَمٌ شامخ من أعلامنا الكبار في دنيا الثقافة والمعرفة. ويمتاز عن أقرانه وأنداده ـ وما أقلهم ـ بنشاط دافق وحيوية نادرة وليس أدل على ذلك من مقالاته التي تطالعك كل صباح حاملة إليك الجديد من الأفكار والدسم من المعارف في أسلوب نقي وعبارة منتقاة، ومن أشق الأمور على الأديب أو الكاتب أن يلتزم بتقديم مقال كل يوم دون أن ينحدر أو يسف بل يظل في مستواه الرفيع محافظًا على تلك الصورة التي ألفها القراء وتعودها المثقفون. أستاذنا ضياء الدين رجب واحد من القلة النادرة التي استطاعت أن تتصدر صفحات الصحف اليومية وأن تفرض وجودها الأدبي على الناس وفرض الوجود الأدبي في غاية الصعوبة لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال لأنه يتطلب معينًا لا ينضب من المعلومات والمعارف وعقلية بارعة واعية تستطيع وصل هذه المعلومات بالحياة وحيوية دافقة تحسن اختيار الموضوعات وتقف سدًّا أمام العقبات التي تعترض الكتابة والمعوقات التي تعترض النشر.

وأستاذنا ضياء الدين رجب دخل الميدان مزودًا بكل أسلحته، دخله مزودًا بسلاح العلم فقد نشأ منذ طفولته الأولى محبًّا للاطلاع مغرمًا بالثقافة متفتح القلب للمعرفة وكان إلى جانب ذلك ذكي الفؤاد متقد الذهن ألمعي الفكرة. وبهذه الخصائص النادرة تمكن أستاذنا من أن يستوعب من العلم في وقت مبكر ما يعجز عن استيعابه غيره في عشرات السنين، ودخل الحياة العملية ولم يكمل العقد الثاني من عمره، وكان المظنون أن تشغله هذه الحياة كما شغلت غيره وأن تضعف في نفسه شعلة النشاط العلمي، ولكنه فاجأ عارفيه بما لم يكن في حسبانهم فقد ازداد شغفه بالعلم وتضاعف

---

(١) ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٣٥هـ وتلقى تعليمه بها على أيدي علماء المدينة بالمسجد النبوي الشريف عمل بالتدريس. ثم شارك في تحرير صحيفة المدينة المنورة في أول عهدها، وله اسهامات في الصحف المحلية عن طريق الكتابة بها. ثم اشتغل بالقضاء عام ١٣٩١هـ ثم بالمحاماة له ديوان شعر «زحمة العمر» وهو يضم ثلاث مجموعات (١) زحمة العمر (٢) سبحات (٣) رثاء. وطبع هذا الديوان على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل الشاعر عام ١٤٠٠هـ دار الاصفهاني جدة ويقع في ٤٨٠ صفحة من القطع الكبير.

إكبابه على القراءة، وقد نشأ منذ صغره حر الفكر متوهج الشعور شديد الإيمان بعظمة الكلمة وتلاقي كل هذه الخصائص في أديبنا الكبير فتحت أمامه نوافذ تهب منها عليه كل التيارات فيتلقاها بنفس متفائلة وذهنية متيقظة وبذلك استطاع أن يجمع الثقافة الحديثة إلى الثقافة القديمة وأن يهضمها هضمًا سليمًا.

لقيت أستاذنا الجليل - أول ما لقيته - في كتاب «ذكرى الكشافة العراقية» وكنت أيامها تلميذًا في المرحلة الابتدائية، وكان هذا الكتاب من أوائل ما وقع في يدي من كتب وقد راقني قصيدته في تحية الكشافة ومطلعها - كما أتذكر:

هـذا الحجاز وهـذه أعلامه خفقت وحن حطيمه ومقامه

ويبدو أن هذا اللقاء كان فأل خير قادني إلى لقاء أكبر سعدت به كل السعادة وترك في نفسي أعمق الأثر.

وأستاذن أستاذنا الجليل في أن أبدأ القصة من أولها.

كنت تلميذًا بالقسم الابتدائي بمدرسة العلوم الشرعية وقد قضيت فيها سنوات المرحلة الابتدائية ضمن مجموعة غير كبيرة من رفاق ظللنا ننتقل من صف إلى صف ونادرًا ما كان يتخلف أحد من مجموعتنا وقد أوجد هذا اللقاء المتصل بيننا ترابطًا عقليًا قويًا ومتقاربًا في الأمزجة والاتجاهات وخلق نوعًا من التنافس المحبب ترك في أنفسنا وعقولنا آثارًا عميقة بعيدة المدى وكان يتولى تعليمنا والإشراف علينا مجموعة كريمة قليلة العدد ولكنها متجانسة الميول صادقة العطف مخلصة الاتجاه وكنا شغلها الشاغل فهي مشغولة بنا في ساعة الدرس وهي مشغولة بنا في فترات الراحة بين الدروس ثم هي مشغولة بنا بعد انتهاء الدروس فكنا نلتقي بها بين العصر والمغرب ثم بين المغرب والعشاء ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كان لنا لقاء معها صبيحة يوم الجمعة حيث كنا نعقد ندوة إضافية أسبوعية تمتد حتى قرب صلاة الجمعة.

واحد من هذه المجموعة كان كاتبًا رصينًا والثاني كان شاعرًا مجيدًا وكلهم

كانوا يغرمون بالأدب ويتعشقون الثقافة ويقرأون الرسالة والهلال والمقتطف.

ومن عجيب ما حدث أن التنافس الذي كان قائمًا بيننا كتلاميذ انتقل إلى الأساتذة وتركز هذا التنافس البناء المستمر في أستاذين فاحتضن أحدهما فريقًا من الطلبة واحتضن الأستاذ الثاني فريقًا آخر ومع أن هذا الاحتضان شمل جميع المجالات، فقد برز بشكل واضح في الندوات الثقافية، وعلى سبيل المثال أذكر أن أحد الأساتذين كان يختار قصيدة يكلف أحد طلاب فريقه بحفظها وإلقائها فيأتي الأستاذ زميله فيختار قصيدة أطول لأحد طلابه وهكذا كان لهذا التنافس أثره المحمود فلم نترك مقاعد المدرسة الابتدائية إلا بعد أن حصلنا على ثروة لا يستهان بها من الشعر الفصيح.

ومن الطريف أنني قرأت اليوم في إحدى صحفنا مقابلة مع طالب في السنة النهائية من المرحلة الثانوية وقد سأله المحرر عن بيت الشعر الذي يردده فلم يجد غير (بيت) من الزجل العامي لإحدى المغنيات ليس فيه معنى جيد ولا فكرة طريفة! وتستطيع أن تقارن موقفًا بموقف واتجاهًا باتجاه.

قلت: إن أساتذتنا كانوا في شغل شاغل بنا وأشرت إلى بعض مظاهر ذلك فيما سبق، وأضيف أن الأستاذ الذي كان يشرف على الفريق الذي كنت أحد أفراده فاجأني ذات يوم بأنه اتفق مع أستاذ جليل وشاعر نابغ على أن يعطيني دروسًا في (الإنشاء) وطلب إليّ أن أذهب لمقابلته في وقت حدده وسعيت إلى دار الأستاذ الكبير وتلقاني حفيًّا بي بعد أن حدد لي ساعة أو ساعتين من صبيحة كل جمعة في بيته وقضيت ما يقرب من عام أتردد على بيت الأديب فيلقاني بالكثير من بشره وسماحته وأدبه الجمّ وكنت أغادر بيته الكريم في كل مرة وقد أضفت معلومات إلى معلوماتي وتفتحت أمامي آفاق جديدة ولعل القارئ قد أدرك أن (أستاذي) الذي عنيته هو أديبنا الكبير وشاعرنا المحلّق وعلّامتنا الجليل (ضياء الدين رجب).

ومعذرة إذا كنت قد شغلت وقت القراء بحديث (شخصي) فأنا أرمي إلى عدة أهداف:

أولها: (تصوير) عهد من أمتع عهود حياتي وفي تصويره مجال للمقارنة والبحث فلا شك في أنه قد طرأت مفاهيم جديدة واتجاهات مغايرة.

ثانيها: أن اعترف بأفضال أساتذة أجلة لهم عَلَيَّ وعلى غيري من زملائي أياد بيضاء من الواجب أن تذكر فتشكر.

ثالثهما: أن أبين أهمية التوجيه والرعاية بالنسبة لِشُداة الأدب فكثيرًا ما يكون لهذا التوجيه أعظم الأثر في حياة الأديب الناشئ وكثيرًا ما يقيه الزلل والعثار وهذا يخالف الاتجاه السائد في هذه الأيام.

رابعها: أن أوضح الفرق بين أستاذية وأستاذية. فأستاذية شيخنا قائمة على الإخلاص للعلم والإيمان بالثقافة وينبع من ذلك جمال التضحية ونكران الذات فأستاذنا الجليل ينظر إلى العلم نظرة إسلامية عميقة ترتفع عن قيود المادة وتسمو على مظاهر النفع الشخصي المحض. فهو لا يطلب إليك انتفاعًا ماديًّا مقدمًا ولا مؤجلًا. بل إنه ليحرص - حفظه الله - على «نسيان» ما قدم فلا يشير إليه من قريب ولا من بعيد. وهو لا يحاول أن يجعل من أستاذيته غلا في عنق تلاميذه يقيدهم ويحول بينهم وبين الحرية والانطلاق كما يفعل غيره - ولا أريد أن أسمى أحدًا.

خامسها: أن أقدم الدليل الصريح على ما يتمتع به أستاذنا من عظيم الشيم وكريم المزايا ليعرف القراء ممن لم يتصلوا به اتصالًا شخصيًّا أن أحاديثه في مجال الأخلاق والإصلاح الاجتماعي - وما أكثرها - نابعة من نفس خيرة وطبع نقي وقلب سليم.

تحدث مرة عن الحب أثناء مناقشته مع (صاحبه) فكانت كالآتي:

قلت: السبب واضح أنك جعلتهم محل رجائك فلو أسقطت رجاءك وأبقيت الاحترام والتقدير لتجاوبوا معك بالاحترام والتقدير وخلصت وخلصوا من هذا البريق وهذه المنفعة الزائدة على الاحترام والتقدير.

قال: والمتماثلون والمتكافئون ألا يتراجعون ويتنافسون؟

قلت: يحصل ذلك ولكن بالمزاج والإحساس بالندية والمماثلة من بدء الصلة.

قال: ماذا أصنع؟

قلت: في ماذا؟

قال: في الذين أحبهم من وسط قلبي إلى أعماقه كما يقول الأدباء كلهم يبادلون الحب بالحب ولكن لا قدرة لهم على شيء، لا يملكون أن ينفعوا لأنهم مثلي.

قلت له - وقد أحسست بشيء من الغبطة: يا أخي أنت فيما يظهر لا تصلح للحب ولا يصلح الحب لك، ما دمت تفترض فيه أن له ثمن والحب لا ثمن له إلا الحب، ثم أنا لست معك في أن الأحباب المخلصين عاجزين. فالحب الصحيح يخلق الله فيه القدرة فيفعل ما لا يفعله القادرون الذين تحترمهم لقوتهم وقدرتهم. المهم ألا تجعل النفع شرطًا في الحب وإلا فسد.

فأستاذنا الجليل يؤمن إيمانًا عميقًا بأن «الحب لا ثمن له إلا الحب» وأن الحب الصحيح «يخلق الله القدرة فيه فيفعل ما لا يفعله القادرون» ولو أتيح للباحث تتبع هذا في حياة أستاذنا الكبير لوجد عشرات الأمثلة بل لوجد أن هذا قاعدة يندر أن تشذ في حياة الأستاذ الجليل.

ورد في ما سبق كلمة (نسيان) والنسيان من مميزات العبقرية في أديبنا الكبير ويبدو أن (مرض) النسيان ليس مرضًا بالنسبة لأستاذنا الجليل بل هو مظهر نعمة حظي بها فإن نسيانه كثيرًا من المظاهر المادية سببه انشغال ذهنه بالأمور الفكرية. وهو في هذا ليس بدعًا من المفكرين ورجال العلم وهناك كثير من الحوادث والأحداث التي تروى عنهم في مجال النسيان.

ومن الغريب أنني منذ فارقت الأستاذ الجليل بعد حصولي على الشهادة الابتدائية لم ألقَه إلا مرتين، مرة في أحد شوارع المدينة لقاءً عابرًا، ولقيته مرة أخرى في منزل وزير صديق في جدة ولم أستطع أن أتبين في اللقاء الأول ما إذا كان الأستاذ الجليل قد عرفني أم لم يعرفني، أما في اللقاء الثاني - وقد كان لقاء طويلًا - فقد ظهر لي أنه نسيني. وأنا لا ألوم الأستاذ الجليل على هذا النسيان بل إنني لأتخذ منه دليلًا على سموه النفسي إذ لو

كان من ذلك الطراز الذي يهمه جمع التلاميذ والمريدين حوله لتمجيده والتصفيق له أو لو كان من أولئك الأدباء الذين يحرصون على استغلال كل صلة لهم بكاتب ناشئ أو بارز للإشادة بجهودهم وتوجيهاتهم والامتنان عليهم لما استطاع «النسيان» أن يحول بينهم وبين ما يريدون، ولكن أستاذنا من طراز آخر. وإن كنت - مع ذلك - أعترف بتقصيري تقصيرًا معيبًا في مجال (المجالات الاجتماعية) - لا بالنسبة لأستاذي الجليل فقط - بل بالنسبة لكثير ممن أحبهم أصدق الحب وأُجِلُّهم أعظم الإجلال ولهذا (المرض) الذي أعانيه أسباب ليس هنا مجال شرحها.

وأنتقل من هذا الحديث (الشخصي) الذي يمسني إلى حديث (شخصي) يمس الأستاذ الجليل. ولا أدري ما إذا كان يأذن بنشر هذا الحديث أم يعارض؟ فإن أذن فذاك وإن غضب فليس الذنب ذنبي على أية حال ولست مسؤولًا عنه وإنما مسؤوليته تقع على (الأديب الكبير) الذي فتح كل الأبواب أمامي في أول لقاء بيني وبينه وطلب إليّ أن أحطم كل السدود والقيود عندما أكتب في الموضوعات التي كان يكلفني بالكتابة فيها. صحيح أن ما يكتب في «دفتر» لا يطلع عليه غير التلميذ وأستاذه يختلف تمامًا عما ينشر في كتاب متداول أو صحيفة سيارة، ولكن صحيح أيضًا أن حياة الأديب ليست ملكًا له ولكنها ملك للنقاد والباحثين والقراء. على أني أحب أن أبادر فأُطمئِن أستاذنا الجليل فليس في الأمر ما يدعو إلى القلق أو الغضب فهو أيسر من ذلك بكثير ولكنني أحببت أن أشير إلى الطريقة الناجحة التي كان يتبعها الأستاذ الجليل في تعليم الناشئين الكتابة.

وإن كان يبدو أن للأستاذ الكبير شروطًا فيمن يمنحهم الحرية في الكتابة فليس كل راغب وقد أوضح الأستاذ ذلك في مقال كتبه قبل شهور قليلة جاء فيه قوله: «إلى ناشئتنا الذين يشتغلون بصناعة الأدب.. للعظة والذكرى أسوق هذه الكلمات الجامعة المانعة للإمام الجاحظ وهو ينصح طالبًا يريد تعلم الكتابة.

يقول له الجاحظ: «فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة وتنتسب إلى هذا

الأدب فقرضت قصيدة أو حبّرت خطبة أو ألّفت رسالة فإياك أن تدعوك ثِقتُك بنفسك ويدعوك عُجبُك بثمرة عقلك إلى أن تنحله وتدعيه ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب فإن رأيت الأسماع تصغي له، والعيون تحدق إليه ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله.

فإن كان ذلك في ابتداء أمرك وفي أول تَكلُّفِك له فلم تر له طالبًا ولا مستحسنًا فلعله أن يكون ربضًا نفسيًّا أن يحل عندهم محل المتروك فإن عاودت ذلك مرارًا فوجدت الأسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية فخذ في غير هذه الصناعة واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه».

ويعقب أديبنا الكبير على ذلك بقوله: «خطر لي أن أستعيد نصيحة الجاحظ أتوجه بها إلى أبنائنا بعد أن مججت الكثير من المنشور من شعر ونثر لا أدري بأي شعور كُتِب ولا بأي لغة هُذِّب، فالقواعد العربية مفقودة فيه، والخلل في الوزن بلا حساب» ويختم تعقيبه بقوله: «وأنا أجيز للصحف تشجيعهم ولكن بعد مذاكرتهم فيما يقدمون ومناقشتهم وأخذ تفويض منهم في إباحة التعديل والتقويم فإن الاستمرار على الخطأ يُركِّبه ويراكبه ويفسد المَلَكَة ولا نتيجة لذلك إلا الاغترار بما لا يغتر به لأنه هباء في هباء».

تلك نصيحة الأديب القديم يعيد نشرها الأديب المعاصر ليذكر بها الغافلين والمضَلَّلين (بفتح اللام الأولى) والحائرين والمخدوعين. وأديبنا الكبير متفائل أكثر مما يجب لو خطر له أن أحدًا ممن عناهم بقوله سيسمع له، أو يصيخ لكلامه، أو يلتفت لنصيحته، فهم يتخبطون وسط تيار عميق لا يرحم، وهم لا يطيقون أن يسمعوا باسم الجاحظ أو غيره من أدباء المسلمين القدامى لأنهم يعيشون مشدوهين بضلالات سارتر ودعارات فرانسوار ساغان وتهاويل سلامة موسى.

وهم يميلون إلى الأمور اليسيرة والطرق السهلة ولا بد أنهم ضحكوا كثيرًا وهم يقرأون ما كتبه أستاذنا الجليل من أنه كان يُدَرس (بضم الياء وفتح الدال) من الآجرومية وهو في العشرين من عمره. ولا بد أنهم اتهموا الأستاذ الكبير بتبلد الذهن وتحجر الفكر لأنه لو لم يكن كذلك لما احتاج إلى

الآجرومية وغير الآجرومية كما يفعل كتاب اليوم.

وقد أخطأ أحدهم في كلمة ولما نُبِّه إليها لم يرجع إلى الصواب بل اعتذر بأعجب عذر يمكن أن يقال في مناسبة كهذه حيث قال: «إنني حينما كتبت الكلمة... لم أتحر وضعها من حيث القياس اللغوي إذ جرى بها قلمي ما يجري في كل ما يكتب بالموهبة الفطرية والبداهة المتأصلة الفطرة التي يسميها «من؟» أحيانًا الموهبة من أهم متطلبات الكاتب الأديب لأن الذي يكتب عباراته بعد الفحص والاختيار والموازنة وتحقيق واقع إعراب الكلمات وصرفها واشتقاقها كاتب صنعة بعيد عن الموهبة الفطرية كاتب متكلف لا يُشرِكُ وجدانَه الأدبي وإلهامه الفكري وانبثاقاته الخيالية فيما يكتب لأنه يشحذ قدرته في القاعدة التي ينبغي أن تخضع لها عباراته».

ثم يقول الكاتب الفاضل: «أظن بطريقة غير مباشرة أن لي بعض علم بقواعد اللغة وأصولها. والواقع أني حتى اليوم لم أهتم بها كثيرًا وكم من أخطاء فيما أكتب أحتسبها عادة مع أخطاء سيبويه الثمانين»!

وهذا كلام لا يحتاج إلى تعليق... اليوم.

لا أدري ما إذا كان رأي أستاذنا الجليل في تلميذه كاتب هاته السطور أيام كان في بداية الطريق يدرس عليه ويتلقى توجيهاته، ولكن يبدو أنه كان حسن الرأي وإلا لاعتذر عن تعليمه ونفض يديه منه، على أن الأديب الكبير عاد فسجل رأيه في «قطوف» وقد تحدث عن أسرتنا الأدبية الصغيرة التي دعاه أخي محمد هاشم رشيد إلى حضور إحدى ندواتها واعتذر ثم عقب على ذلك بقوله: «وبعد... فهذه الكلمة السريعة الخاطفة تحية للمضطلعين بهذا العبء والقائمين بهذه الرسالة في دار الهدى وفي الطليعة منهم: النجمان المتألقان الأستاذ عبدالعزيز الربيع ومحمد هاشم رشيد. وما خصصتهما إلا لأنهما كان لي موضوع أمل حققاه، ومناط رجاء وَصَلَاه من يوم عرفتهما ناشئين تبعثهما روح منطلقة وطموح نفس دائبة تتنسم أريج العطر في رياض الأدب والفن، ومناهل المعرفة».

وهي شهادة أعتزُّ بها كل الاعتزاز. وسأظل أذكرها ما امتدت بي الحياة. وإن كان من الواجب أن أعيد الحق إلى نصابه والفضل إلى ذويه... والأمر الذي لا مراء فيه هو أن أستاذنا الجليل صاحب فضل لا يجحد في دفعي إلى تحقيق الأمل المرجو والرجاء المؤمل فلقد أولاني ثقته وغمرني بعطفه وفتح لي خزائن علمه وكان لي نعم الرائد والموجّه والدليل.

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى الحديث الشخصي الذي يمس الأستاذ الكبير، أو بعبارة أدق أعود إلى الحديث عن النسيان. وهو من مميزات أستاذنا الأديب الشاعر ومن محاسن الصدق أن أقرأ اليوم مقالاً للأستاذ نشره في جريدة البلاد وكان عنوانه «حوار بين سائقين» وختمه بقوله «وبعد فها أنا أتدخل في هذه المسألة وإن كنت غير متصور للموضوع تمامًا مع أني زبون ثابت لسيارات الأجرة في أكثر الأحيان وما أكثر ما نسيت فيها عباءتي وحقيبة أوراقي وأوارق الناس على الأصح وربما نسيت نفسي فيها والحمد لله على عدم وجود عداد».

وهذا نص (مهم) رفع في (تقرير) هذا النسيان العجيب والنسيان شر ونقمة على بعض الناس، ولكنه نعمة من نعم الله على أستاذنا الجليل، كما سبق أن أشرت ـ ومع أنه ينسى كثيرًا من الأمور المادية فهو يذكر المسائل الفكرية بصورة تستثير الدهشة فعندما كان أخي الشاعر المبدع هاشم رشيد يدعوه لحضور ندوتنا الفكرية الصغيرة تذكر ندوة مماثلة قبل أكثر من ثلاثين عامًا بل إنه ليذكر قصيدة قالها قبل ثلاثين عامًا.

يقول الأديب الكبير: «قابلني في مطار المدينة وأنا عائد لجدة الابن الصديق الأستاذ محمد هاشم رشيد وتحدث إليّ في لحظات الانتظار لحركة الطائرة عن ندوة الأدب في المدينة وتمنيت ـ لولا الظرف الطارئ ـ أن أجيب الدعوة لحضورها في تلك الليلة.

وقد سمى لي صاحب المحاضرة الذي نسيت اسمه. وإنه لشرف كبير يسعدني الحظ بفرحته وأرجو الله أحر الرجاء ألا أحرم في قابل الأيام القريبة ـ إن شاء الله ـ شهود هذه الندوات المباركة الثرية بأفضل المعاني في أنضر المغاني

طيبة ومرابعها الفيح.

ولقد أهاجت تلك اللحظات مع الأستاذ هاشم رشيد سخي الكوامن وشجيها وتذكرت قصيدة لي قبل ثلاثين عامًا بعنوان «يا نفسي» أذكر منها:

هل تذكرين صدى العقيق ومجد هاتيك الرحاب

أيام كانت والحياة ولا عناء ولا اكتساب

الشعر يسبح والهوى والفن بينهما نهاب

فهو يذكر قصيدة قبل ثلاثين عامًا بل ويذكر عنوانها. مع أنه ينسى عباءته وأوراق الناس وينسى نفسه!

حديث الأديب الكبير عن السيارات ـ كما أوردناه فيما سبق ـ يذكرنا بذلك الحديث الشخصي الذي تجاوزناه أكثر من مرة بسبب هذا الاستطراد الذي لا حيلة لنا فيه. وهذا الحديث أو هذه القصة تتلخص فيما يلي:

خرج الشاعر الأديب من بيته في القاهرة ذات صباح ليركب سيارته فوجدها ولكنه لم يجد السائق فظن أنه ذهب لبعض شأنه وسيعود فركب وكانت معه كالعادة مجموعة من صحف الصباح أخذ يقرأها في انتظار السائق ولم يمض وقت طويل حتى (هلَّت) فتاة رقيقة أنيقة وأدخلت رأسها من الجانب الآخر في السيارة وقالت بصوت ناعم رقيق: (أفندم؟) ورفع أستاذنا رأسه بتثاقل ونظر إليها بمؤخر عينه وعبر بشفتيه دون أن يتكلم عن امتعاضه من هذه التي جاءت تقطع عليه قراءته وانصرفت الفتاة وعاد أستاذنا إلى صفحة يقرؤها وينتقل من صحيفة إلى أخرى ومرت فترة وإذا بالفتاة تعود مرة أخرى وتدخل رأسها تقول للأستاذ الجليل (أفندم أي خدمة؟) ونظر إليها عابسًا وأشاح بوجهه وخُيِّل إليه أن هذه الفتاة تتعرض له لحاجة في نفسها.

وانصرفت الفتاة مرة أخرى وغابت فترة أطول من الأولى ثم عادت إلية للمرة الثالثة تطل على الأستاذ الجليل بوجهها الفاتن وشعرها المصقل وتسأله إن كان يطلب خدمة. واحمرّ وجه الأستاذ من الغضب وحنق على السائق

الذي سبب له بتأخره هذا الإحراج، وهمّ أن يوجه إلى الفتاة كلامًا شديدًا ويطلب إليها أن تنصرف لشأنها وتبحث عن بغيتها عند رجل آخر، وأدركت الفتاة ما جال بخاطره فبادرته قائلة له بلهجة مهذبة وبابتسامة رقيقة: إن هذه السيارة سيارتها وإنها تأسف لانزعاجه وتنبه الأديب الكبير من (نسيانه) وخرج من السيارة ليجد سيارته واقفة غير بعيد عن سيارة الفتاة وبجانبها السائق وعليه أمارات القلق والحيرة.

ثم أكتشف أن سيارته تشبه سيارة الفتاة تمامًا، وقد ركبها معتقدًا أنها سيارته وقدم أستاذنا الجليل للفتاة اعتذاره الحار وأسفه الشديد. وقد احترمت الفتاة أستاذنا العربي ومظهره الوقور وانهماكه في القراءة، كل ذلك أبعد من ذهنها أي تصور آخر ولم تشأ أن تعكر على الأستاذ صفوه وتوقعت أن يكتشف هو نفسه هذا اللّبس الذي وقع فيه. ولكن الانتظار طال دون جدوى فاضطرت آسفة إلى توضيح الأمر له.

هذه الحادثة واحدة من حوادث نسيان الأديب الكبير ومن المؤكد أن له كثيرًا من الحوادث في هذا المجال لو فَرَغ لها لقدَّم لنا لونًا من القصص الواقعي الجميل.

و (النسيان) يحتل جزءًا كبيرًا من حياة أستاذنا فقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى، وقع في يدي (نص) جديد للأستاذ الجليل يقول فيه: «عجيب أمر هذه الذاكرة في الإنسان، تحجب عنه في أكثر الأحيان ما يتصل بحاجته وضرورته فيمحي محوا مهما تعب في محاولة اذّكاره، وأحيانًا يضع ما يريد أن يذكره في «المفكرة» فينسى المفكرة نفسها، فقد ربط لي مرة صديق خيطًا في أصبعي لأتذكر به موضوعًا كلّفني به. وبعد ساعتين لمحت الخيط في أصبعي، وقلت بمرارة: ما هذا وألقيت به! وفي بعض الأحيان تجود الذاكرة وتسخو ولكن لاحظوا أن وجودها وذكرها يكون بدون مناسبة ولا حاجة، فتقفز إلى الذهن أمور لا أدري كيف قفزت ولا كيف طفت وحضرت، من شدة ما عفا عليها الزمن وبدون أي موجب أو سبب أخذت تتخطر وتتهادى بين عيني».

وليس غرضي أن أستعرض هذا النص في ضوء ما يقوله علم النفس عن التذكر والنسيان ـ فذلك أمر يطول بحثه.

ولكني أحببت أن أشير إلى ما (للنسيان) من أثر في حياة شاعرنا الأديب. وحبذا لو فكر أستاذنا في تأليف كتاب عنوانه: «أنا والنسيان» كما فكر قبل أكثر من عشر سنوات في تأليف كتاب بعنوان: «أنا والعلم» ولست أدري لماذا لم يخرجه للناس بعد، ورغم مرور هذا الزمن الطويل!

كان أول لقاء بيني وبين الأديب الكبير في كتاب: «ذكرى الكشافة العراقية» مع قصيدته «هذا الحجاز وهذه أعلامه».

والواقع أن (الشاعرية) هي الصفة الفكرية الأولى من صفات أديبنا فهو شاعر. وشعره من طراز رفيع تتجلى فيه الأصالة والفحولة والسمو.

ومع أنه اتجه منذ فترة طويلة إلى الكتابة فقد ظل محافظًا على مستواه الشعري العالي، كما يتجلى ذلك في قصائده التي ينشرها بين الفينة والفينة وفي رباعياته التي تمتاز بعمقها وجمال صوغها.

وإنك لتلمس بوضوح حبه للشعر وتعلقه الشديد به في كثير مما يكتب، وعلى سبيل المثال أذكر هنا تعليقه على مهرجان بشارة الخوري - يقول الأديب الكبير: «كانت رائعة حقًّا ومعجبة حقًّا الصورة التي أعجبت الصديق الأستاذ عبدالمجيد شبكشي التي تمثل فيها رئيس جمهورية لبنان وهو يصفق بكلتي ذراعيه لا كفيه للشعراء في مهرجان الخوري فما أجل هذا التكريم من صاحب الشأن في البلاد ورئيسها للأدب والشعر في شخص شاعر الأرز وأمير بيانه».

وفي تعليقه على حضور الوزير الشاعر (عبدالمنعم الرفاعي) من الأردن هذا المهرجان رغم مشاغل الوزارة ولا سيما في الظروف يقول: «ولفتة بارعة أخرى شدني إليها الأستاذ عبدالمجيد: ألا يترك مكان الشعر في الأردن صاحبه ولو أحاطت بصاحبه شواغل الحكم ومشاغله وزحمته السياسية وأعباؤها.. فاختار عبدالمنعم الرفاعي لهذا الموقع لا أعتقد انه أعتبرها رسالة

من رسالات الجو الصادح في روحه وحياته فتفرغ لها ليؤدي حقها الكبير في شرف واعتزاز لا يَقلّان - إن لم يزيدا - على جاه الحكم ومسؤولياته وهي بشارة رغم أنف المتشائمين تؤكد أن الأدب بخير مهما تطاولت عليه الطوائل وامتدت إليه الغوائل» وفرحة الأديب الشاعر بهذا التكريم الذي ناله الشعر فرحة تكاد تقفز من كل كلمة من كلماته.

وينتهز أستاذنا العلامة مناسبة إلقاء المستشرق الفرنسي (شارلي بيلا) محاضرته عن «الأشعار المنصفة عند العرب» فيبادر إلى التعبير عن فرحته بهذا النصر الجديد للشعر القديم على يد المستشرق العلامة فيقول: «كانت محاضرة رائعة حقًا.. فقد جمعت إلى شموخ النظرة الواعية وقمة الأدب الحقيقي جمال الأسلوب ورشاقة الغرض ورصانة البيان» ويجد الفرصة مواتية للدفاع عن الشعر الأصيل ومهاجمة المدَّعيّ الدخيل فيقول بحماسة مؤمنة وبحرارة صادقة: «فلقد ردنا (المحاضر) وهو يستشهد بقضية بحتة إلى فحول من الشعراء القدامى كادت - لولا نمط من أمثال هذا المحاضر الفحل - أن تطويهم موجات الصراع المتطرف بين القديم والحديث وأنا واثق أن الكثير من هؤلاء المدعين للتجديد عاجزون حتى عن نطق أسمائهم نطقًا مضبوطًا صحيحًا فصيحًا».

كم أنا آسف لأن شعر شاعرنا الكبير لا يزال مطويًا في بطون الصحف، وكم سأكون سعيدًا حين أقرأ هذا الشعر بين دفتي ديوان أو أكثر، فلعل شاعرنا يبادر إلى تحقيق أمنية الكثيرين من محبي الشعر الأصيل، لعله يفعل.

وإن كنت عثرت على نص لشاعرنا الكبير ورد فيه قوله عن قصيدة ذكرها من بواكير نظمه: «وقد ذابت هذه القصيدة فيما ذاب من شعري تبددت في ظروف قاسية عصيبة تعرضت لها في حياتي» ضياع هذه الثروة الشعرية من شعر شاعرنا الكبير أمر مؤسف له حقًا، والحديث عن تعلق أستاذنا بالشعر ورأيه فيه يستدعي الإشارة إلى رأيه في الأدب عامة، ورأيه في الأدب رأي جدير بالإشارة والإشادة والتنويه لأنه رأي نابع من طبع أصيل وعقل واع وإيمان عميق برسالة الأديب وأهمية الكلمة.

يقول الأديب الكبير: «هذا الأدب لا يمكن أن يعيش حيا يسمع ويرى سمعًا قادرًا على الإسماع ورؤيا قادرة على الإبصار.. أقصد أن يكون الأديب مستطيعًا اجتذاب الأسماع واجتلاب الأنظار كذلك بحيث يصنع الحواس المتهيئة للأخذ عنه والكسب منه فليس خطأ في طبيعة الأدب أن يعيش الأديب لنفسه هو ويراها هو وكفى، ولا يتوفر هذا المقصد إلا حين يكون كل أديب شاعرًا. ولا أعني أنه يقرض الشعر ولكني أعني وقدة الشعور ولهب الحس وضرام العاطفة، ذلك هو صحو الإنسانية المتكامل في الأديب أثرًا وتأثيرًا.

إنه ليس أديبًا متمكنًا من لم يعش لِفنِّه وإحساسه عيشة المتفرغ فيؤدي رسالة الحق والخير والجمال وتأدية متساوية متناسقة. فلا تكون للأديب من أدبه غاية ولا مطمع، ولكن طموح في التعمق والتغلغل والتمكن فمن وهب الأدب كله أعطاه بعضه. وبهذه المعاني تتوفر للأديب لذة الحياة أدبًا، ومتعة الموت أديبًا لأن امتداد الحياة لا يقبل أن تسمى موتًا ولا يرضى بالرثاء فيها».

هذا هو رأي أستاذنا العلامة في الأدب فنًّا مُعبرًا ورسالة حية، وفي الأديب عقلًا ملهمًا وشعورًا مُتَّقدًا، إنه يرسم صورة للأديب الحق كما ينبغي أن يكون ويضع منهجًا للأب الإنساني كما يجب أن يخرج للناس ولن تجد مثل هذا المنهج في قوته وصرامته ورصانته وتركيزه.

مع أنني تحدثت فيما سبق عن كثير من جوانب شخصية أستاذنا الجليل فإنني أشعر أن حديثي سيظل ناقصًا إذا أغفلت الحديث عن جانبه الديني، إذا ساغ هذا التعبير، وقد تزود أستاذنا منذ صغره بزاد ضخم من الثقافة العربية والدينية أهَّلته لأن يتصدر للفتيا والقضاء، وإنك لتلمس اتساع الدائرة الدينية التي يجول فيها أستاذنا الكبير في كل ما يكتب، وتلمس إلى جانب ذلك حبه المتغلغل في أعماق نفسه للإسلام واعتزازه بهذا الدين اعتزازًا نادر المثال، وقد تعاون حبه للإسلام مع ثقافته الواسعة الشاملة على أن يجعل منه أديبًا إسلاميًّا من طراز رفيع؛ فهو معني بالإسلام مهتم

بالمسلمين، حريص على أن يبرز عظمة هذا الدين بأسلوب يصل إلى نفسك دون أي تزيّد أو افتعال، لأنه أسلوب تمده الثقافة الواسعة والعقلية الواعية والفهم العميق، وهو أسلوب يبلغ أعماق القراء على اختلاف مستوياتهم وثقافتهم واتجاهاتهم، ومن الأمثلة على ذلك ما أشاعه بعض المستغربين من أبناء أمتنا الإسلامية من أن (معرفة النفس) فكرة غريبة سواء أكان مصدرها الغرب القديم (اليونان) أم الغرب الحديث (أوربا) وأعتقد أن هذه القضية من الأمور التي لم ينتبه إليها المسلمون فهي كشف (غربي) رائع، فيأتي أستاذنا الجليل ليعرض رأيًا مخالفًا مُصحِّحًا لهذا الوهم الكبير.

فماذا يقول؟ اقرأ هذا التحليل الدقيق والعرض الجليل:

«أعجبني قول أحد الفلاسفة أن النفس كالعملة ذات وجهين إذا أسفر أحدهما احتجب الآخر واختفى، وسر إعجابي أن هذه النظرة هي ذات النظرة الإسلامية لحقيقة النفس وأن التعمق في محاولة معرفتها وسبر أغوارها هو الدليل الكاشف لمعاناة الإنسانية كلها، ومن لم يعرف نفسه ويغوص في أطوائها لا يمك أن تتحقق له أدنى المعارف، وهذا الاتجاه يثير بالغ الاهتمام نحو النفس لأنها مصدر التهذيب ومحك الصلاح والإصلاح ومن لم يعرف نفسه جهل كل شيء».

ويستمر الأستاذ الجليل في هذه الطريقة وبهذا الأسلوب حتى يقنعك بأن هذه النظرية الفلسفية نظرية إسلامية لم تَخْفَ على المسلمين.

ويجد الأستاذ الجليل أن هناك محاولات ترمي إلى التهوين من عنصر الإيمان كركيزة تفوق كل الركائز في تحقيق الانتصار فيروي لهم قصة قصيرة تهز أركان هذه الدعوى.

يقول الأستاذ الجليل: «قال بعضهم: إن الجندي الإسرائيلي انتصر في ٥ يونيو لأنه أكثر حضارة من الجندي العربي..! ما أشد غفلتهم وانخداعهم واغترارهم ليستمعوا إلى هذه القصة عن أخلاق العرب ـ ثم يروي القصة الآتية:

«حكى عبيد بن محسن السلمي قال: لقد رأيتنا وإنّا لنطأ على ظهور الرجال

من جيش الفرس ما مسهم سلاح قتل بعضهم بعضًا ولقد رأيتنا أصبنا جرابًا من كافور فحسبناه ملحًا لا نشك أنه ملح فطبخنا لحمًا وجعلنا نلقيه في القدر أي نلقي من الكافور فلا نجد له طعمًا، فمر بنا رجل معه قميص وقال يا معشر العرب لا تفسدوا طعامكم فإن ملح هذه الأرض لا خير فيه. هل لكم أن تأخذوا هذا القميص فأخذناه منه وأعطيناه رجلًا منا يلبسه نطيف به ونعجب به أي نتفرج عليه استغرابًا، فلما عرفنا الثياب إذا ثمن ذلك القميص درهمان يعني أنهم إلى ذلك الحين لا يعرفون ما هي الثياب ولكن هؤلاء الذين لا يعرفون الثياب ولا يفرقون بين الكافور والملح هم الذين نصر الله بهم الإسلام، هؤلاء العرب الذين عندما أسر واحد منهم ابنة كسرى وطلبوا فداءها طلب ألف درهم فقالوا له: لو طلبت مائة ألف لدفعنا أجابهم بقوله: كنت أحسب أن الألف نهاية العدد».

وهكذا يلجأ الأستاذ في نقض تلك الدعوى التي تعاونت قوى البشر على محاولة تركيزها في أذهان العرب وتثبيتها في قلوب المسلمين إلى هذا الأسلوب (الواقعي) الذي يغني عن عشرات الخطب الرنانة والمقالات المجلجلة ولا يعلق على هاتين الحادثتين إلا بكلمتين يعلق على الحادثة الأولى بقوله: «يعني أنهم إلى ذلك الحين لا يعرفون ما هي الثياب ولكنهم هؤلاء الذين لا يعرفون الثياب ولا يفرقون بين الكافور والملح هم الذين نصر الله بهم الإسلام».

ويعلق في النهاية بقوله: «إنه الإيمان وكفى.. فاللهم نفحة إيمان»

وشعوره الديني المتغلغل في أطاور نفسه، وفهمه الواسع العميق لأسرار هذا الدين يدفعه كل ذلك إلى أن يعني بالإصلاح الاجتماعي في ضوء الإسلام عناية فائقة، وهو محتفل كل الاحتفال معني به كل العناية، بل إن ذلك هو رسالته في الحياة منذ «طفولته» فقد أعدته كل الظروف المحيطة به الأسرية والوراثية والاجتماعية ـ أعدته لأن يكون معلمًا ولازمته هذه الصفة حتى اليوم، وقد سبق أن أشرت إلى أن أستاذنا الجليل قد درَّس الآجرومية وهو في سن العشرين.

وأستأذِنُ أستاذنا الجليل في نقل النص الذي وردت فيه هذه الحقيقة

وهو كما يلي:

«**قال السائل اللطيف**: من أسن أنت أم زيدان؟ قلت: زيدان من أولادي وأنا من تلاميذه، قال السائل: وكيف؟ قلت: خذ الجواب في مثل: كنت موظفًا في الأوقاف العامة ودخل علي شيخ «هرم» أي مسن كثيرًا مع التعب وأقبل بحرارة يريد أن يتناول يدي ليقبلها، فقلت له: حرام يا سيدي الشيخ، قال: وأين الحلال إذا كان هذا حرامًا؟ هل نسيتني إني تلميذك قرأت عليك الآجرومية في المدينة صحيح أني كنتُ شيخًا في الخمسين وكنت شابًّا في العشرين ولكن هذا لا يمنع من أداء حق المشيخة، قلت له: اكتم السرّ يا شيخ ولا داعي لذكر هذه الأسئلة فإنها لا تقترن عند الناس إلا بمسألة العمر، فلا بد أن يكون الأستاذ أكبر يعني أسن من تلاميذه بلا جدال، قال: تزوجت؟ فقلت: وأعقبت وتوظفت، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقلت: لماذا؟ قال: لا أحسب أن العلم يعيش بين الزوجة والولد والوظيفة! قلت له: يا شيخ، هذه وظيفة العلم اليوم (أن يتوظف فقط) وحوقل ثانية وانصرف».

ولهذا النص أهمية كبيرة في مجال الحديث عن أديبنا العلامة فهو يقرر في صراحة أن الأستاذ الجليل قد درَّس «بفتح الراء وتشديدها» الآجرومية وهو في سن العشرين وهذا دليل على النبوغ والنضج المبكر.

ودليل على أن أستاذنا لم يقعد لتدريس «الآجرومية» إلا بعد أن قطع مراحل لا يستهان بها في دراسة النحو في تلك السن المبكرة ومن الطبيعي أنه درس إلى جانب ذلك كثيرًا من العلوم العربية والشرعية والإنسانية.. هذه واحدة.

أما الثانية فهي مسألة العمر وهي مسألة تشغل أذهان الناس كثيرًا ويغريهم النضج المبكر فيذهبون فيه المذاهب ويدفعهم حرصهم على التعلق بالحياة إلى «تصغير» أعمارهم لأن تقدم العمر إيذان بقرب توديع الحياة وذلك ما يتفاداه كل كائن بشري.

ونظرًا لأن الحديث عن الأعمار قد يدفع إلى الكذب وقد يجر إلى (مشادات) لا تحمد عقباها قال الإمام الشافعي: «ليس من المروءة أن يسأل الرجل عن سنه».

وقد لحظ ذلك أستاذنا الجليل فلجأ إلى فلسفته الخاصة فزاد في عمره سنوات - أمد الله في حياته النافعة - فأراح بذلك نفسه من مناقشات ربما تركت آثارًا عميقة لا تندمل بسهولة.

وقد استطاع بأساليبه الخاصة أن (يقنع) كثيراً من الناس بعمره (غير الحقيقي) وكنت أحد (المقتنعين) إلى أن جمعتني الظروف ببعض زملاء الأستاذ الجليل وأثيرت هذه المسألة فأكدوا لي أن عمر الأستاذ الجليل أقل بكثير مما يذاع ويشاع أو مما أذاع هو وأشاع. وفلسفة الأستاذ الجليل في هذا المجال جزء من فلسفة العامة التي يمكن أن يطلق عليها (فلسفة التفاؤل) فأستاذنا متفائل دائما في كل ما يكتب، وقد استطاعت هذه الفلسفة أن تجعله «مُصلحا إيجابيا» في كل ما يعالج من شؤون الحياة وأن تصبغ أدبه بصبغة تفاؤلية مرحة وأن تضفي على أفكاره ألوانا من البهجة والإشراق.

وفلسفة التفاؤلية تنسجم مع طبيعته النقية وأخلاقه الرفيعة. وإن كنت لا أحب أن يتوهم أحد بأنني أتهم الأستاذ الجليل بالبساطة التي تبلغ حد السذاجة، ولا بالسهولة التي تصل إلى درجة الغفلة، فأستاذنا بريء من ذلك، فهو ذو ذكاء ولوذعية وقدرة عجيبة على الاستيعاب والنفاذ إلى بواطن الأمور، وكان له كل ذلك خير معاون في الفترة التي قضاها في القضاء، ولا بد أن القراء الذين يتتبعون كتابات أديبنا الكبير قد لاحظوا ما أشرنا إليه عند تعرضه لذكرياته في القضاء وحوادثه مع الخصوم المتقاضين. وليت الأستاذ الجليل يؤلف كتابًا عن أيامه في حقل القضاء بعنوان (أنا والقضاء) هذه ثانية.

أما الثالثة فهي ما يمتاز به أسلوب الأستاذ الجليل من سخرية لاذعة لا يفطن لها القارئ العابر كما ورد في نهاية النص: «قال: هل تزوجت؟ قلت:

وأعقبت وتوظفت، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. قلت: لماذا؟ قال: لا أحسب أن العلم يعيش بين الزوجة والولد والوظيفة، قلت له: يا شيخ هذه وظيفة العلم اليوم ـ أن يتوظف فقط».. وضع ما شئت من خطوط تحت العبارة الأخيرة وتاملها طويلًا ففيها مجال واسع للمقارنة بين وظيفة العلم اليوم ووظيفته قبل ذلك وفيها مجال للموازنة بين العلم الذي يطلب للعلم والعلم الذي يطلب للوظيفة وشتان بين علم وعلم ودراسة ودراسة. ولا يغيب عن البال ما تعنيه عبارة السائل الذي دهش عندما سمع أن الأستاذ الجليل قد تزوج وأعقب وتوظف. فهي تصور لنا تلك الجهود العظيمة التي كان يصرفها الأستاذ وأبناء جيله من طلبة العلم في سبيل الاستزادة من العلم بحيث إن العلم أصبح شغلهم الشاغل لم يترك لهم مجالًا للتفكير في أي ضرورة أخرى من ضرورات الحياة.

لقد سيطر عليهم العلم ففنوا فيه فناء المريد في شيخه ـ كما يعبر المتصوفة ـ وبذلك حصلوا منه على الكثير، ومن المصادفات اللطيفة أن يصل إلى يدي وأنا أكتب حول هذه النقطة عدد من مجلة اليمامة وفيه مقابلة مع المستشرق الفرنسي (شاول بيلا) ورد فيها هذا السؤال:

أنت عضو بارز في موسوعة المعارف الإسلامية فما هو عملك فيها؟

وقد أجاب المستشرق بقوله:

«أوه: أنا عضو في التحرير وعضو في الإدارة وأدير الطبعة الفرنسية. وكما تعلم فالموسوعة تطبع في ليون لكنني أعمل أربعة أيام في الأسبوع وأشرف أثناءها على اختيار المواد وعلى اختيار المؤلفين وأجمع المواد وأترجمها أو أشرف على ترجمتها وأقرأ وأضيف وأحذف وأسجل المراجع. هذا إلى جانب الأعمال اليدوية ومنها تصحيح التجارب وتشكيل الكلمات ولقد ترجمت مقالة من اللغة الإنجليزية إلى الفرنسية بلغت ستين صفحة ولم أستطع الانصراف إليها أثناء العمل فترجمتها أيام السبت والأحد والاثنين».

وقد علق الأستاذ الدكتور كاتب المقابلة على ذلك تعليقًا ذكيًا فقال: «نسيت

أن أسأله عن نوع الأعصاب التي تتمتع بها شريكة حياته».

بقيت ملاحظة على الهوامش وهي إقبال ذلك الشيخ المسن الذي تعدى السبعين أو الثمانين بحرارة على يد الأستاذ الجليل يريد أن يتناولها ليقبلها وهو تقليد لطيف لا يرضى عنه فلاسفة التربية في عصرنا الحاضر كما يستنكره كل شباب الجيل الذي (تمرد) على كل القيم والأخلاقيات و(رفض) كل المبادئ السامية والمثل العالية وأصبح وجوديًا لا يخضع لقيود دينية أو تقاليد عرفية أو نظم اجتماعية ولكنني مع ذلك أقرر أنه تقليد لطيف يدل على كرم الأخلاق وأصالة المحتد وتعظيم العلم وتقدير المعلم وهو تقليد مصدره الحب والإعزاز والاعتراف بالجميل.

منذ شهور قليلة ألقى أستاذنا العلامة محاضرة في جامعة الملك عبدالعزيز الأهلية وقال في مقدمتها إنه لا يحمل من الشهادات غير الابتدائية ومع ذلك أصبح أديبًا وشاعرًا وقاضيًا ومحاضرًا وأغفل و«محاميًا» والواقع أنه كل ذلك وأكثر من ذلك أيضًا، وليست العبرة بنوع الشهادة فكثير من عظماء العالم لم يتح لهم تعليم «نظامي» ولكنهم استطاعوا أن يدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه بجهودهم وكدهم وحيويتهم ودأبهم وأصبحوا هم يمنحون الشهادات العالية.

بل إن انتشار التعليم وفتح أبواب الجامعات على مصاريعها لكل من لديه القدرة ومن لا يملك شيئًا خلق نوعًا من الأمية يمكن أن نطلق عليه: «الأمية الجامعية».

أما بعد: فليس ما قدمناه ـ بكل تأكيد ـ دراسة عن أديبنا الكبير فإعداد الدراسة يتطلب دراسة كل إنتاج الأستاذ الأديب الشعري والنثري، وجمع ذلك من بطون الصحف أمر يكاد يكون متعذرًا. ولكن ما قدمته لمحات خاطفة من حياة أستاذنا الكبير هدفت به إلى تحية أستاذنا وتقدير فضله والاعتراف بجميله ـ حفظه الله وأمد في حياته النافعة.

أشواك.... وأشواق

رحم الله الشاعر اللواء(*)

(١ ـ ٢)

كان خبر موته مفاجأة عنيفة بالنسبة لي ولكثير من أصدقائه فقد رأيته قبل أيام من اليوم الذي غادر فيه دنيانا.

وقد زارنا في نادي المدينة المنورة الأدبي وبقي معنا بعض الوقت وكان كعادته مرحًا باشًّا يشارك في ألوان الحديث. وخرج على أمل أن يلقانا في قريب.

ولم تمض أيام فإذا بنا نفاجأ بخبر موته بدون مرض أو وعكة. وكأنها زيارة مودع. وهكذا فقدنا زميلًا فاضلًا من زملاء الصبا وأخًا كريمًا من إخوان الصفا. ومنذ أن انعقدت بيننا أواصر الود ونحن في المرحلة الأولى من مراحل الدراسة ظلت هذه الأواصر تزداد قوة ورسوخًا بالرغم من أن كلًّا منّا سلك في حياته العملية طريقًا مختلفًا عن طريق الآخر.

كانت رسائله البريدية واتصالاته الهاتفية متصلة متلاحقة. وكانت دعواته لزيارته في مقر إقامته بالطائف تتجدد كلما التقينا في إطار من المحبة الصادقة والكرم الأصيل.

كان شديد الحب لمسقط رأسه ـ عنيت المدينة المنورة ـ وإن كانت ظروفه قد فرضت عليه الإقامة في الطائف. ويبدو أنه عقد العزم على أنه يقضي ما تبقى من حياته في المدينة فأخذ في بناء عمارة له. وكان مهتمًّا بها شديد الحرص على انتهائها مدفوعًا بهاجس داخلي. وقد جند نفسه لذلك وكان يشكو من بطء الإجراءات الأولى، فلما انتهت فرّغ نفسه لإنهائها في أسرع وقت. وبينما كان يجلس على كرسي يراقب العمل وينظر الإنجاز وإذا به يسقط من كرسيه. وفي لحظات ودع عالمنا الفاني إلى العالم الباقي وترك في

(*) هو اللواء المتقاعد/ علي حسين عويضة.

نفوس أهله وأصدقائه حسرة ولوعة وحزنًا عميقًا وأسفًا بالًا لقد تحقق له ما كان يتمناه في البلدة التي أحبها ودفن في ثراها الطاهر رحمه الله وغفر له وأدخله فسيح جناته.

لقد كان فقيدنا ابنًا بارًا من أبناء بلادنا العزيزة، قام بأداء واجبه المنوط به في عزم وإخلاص وصدق، ووصل في السلك العسكري الذي كان يعمل به إلى رتبة لواء قبل أن يعتزل الخدمة ويقول في مقدمة الديوان: «وذلك بحكم طبيعة الأعمال التي قمت بها في خدمة الدولة والتي كانت تستنزف جُل وقتي لأهميتها وكثرة مشاغلها الشاقة».

وكان فقيدنا الغالي متعدد المواهب كان محدثًا لبقًا يملك المجالس بحديثه العذب. وساعده على ذلك ثقافته الواسعة وخبراته الطويلة وقراءاته المتنوعة.

وكان شاعرًا يقرأ الشعر ويتذوقه تذوق الخبير وكان ينظمه منذ طفولته ويقول في مقدمة ديوانه: «وبصفتي ممن تولعوا بالشعر وتأثروا بمعانيه الجذابة المصوغة في أبيات مقفاة موزونة جعلت له رونقًا وجمالًا وأكسبته شهرة لا تخفى على أحد - بادرت وأنا في مقتبل العمر ودون سن البلوغ أحاول نظم الشعر وأكثر من قراءته وحفظه حتى تمكنت من نظم عدد من القصائد في مناسبات حدثت آنذاك» فشاعرنا الفقيد يقرر أنه ممن «تولعوا بالشعر وتأثروا لمعانيه الجذابة» ويقرر أنه بادر وهو «في مقتبل العمر ودون سن البلوغ (يحاول) نظم الشعر (والإكثار) من قراءته وحفظه».

وكان الفقيد علمًا من أعلام الموسيقى كما شهد له بذلك أرباب هذا الفن في مناسبات مختلفة ومن الغريب أنه لم يتحدث عن الموسيقى في مقدمة ديوانه مع أن معايشته للموسيقى تعدل معايشته للشعر، وإن كان قد أشار في مقدمة إحدى قصائده وهي القصيدة الحادية عشرة في الديوان تحت عنوان «شعر ونغم» أشار إلى ذلك إشارة عابرة حيث قال: «كانت الأبيات المصحوبة بنغمات العود تعبر عن الترحيب الصادق...» وكان تفوقه في مجال الموسيقى أكبر بكثير من تفوقه في الشعر.

كان فقيدنا الغالي مهتمًّا أشد الاهتمام بإصدار ديوانه وكان قد حدثني بامتعاض واستياء عن بعض العقبات التي تقف في طريق صدوره وقد طمأنته وهونت عليه الأمر. وقد صدر ديوانه بعد ذلك من نادي الطائف الأدبي. وكانت فرحته بذلك كبيرة وأفضل مشكورًا فأهداني نسخة من الديوان، وكان في نيتي أن أخصه بمقال أدبي ولكن مشاغلي الكثيرة - وقد تخففت منها الآن - حالت بيني وبين ذلك وكان - رحمه الله - حريصًا على أن يقرأ هذا المقال ولكن الأمور لا تسير دائمًا كما نشتهي ونريد، فها هو المقال يظهر ولكن بعد أن أصبح فقيدنا في ذمة الله.

«في موكب الأبطال» هو اسم ديوان فقيدنا العزيز وتحلي غلافَ الديوان الأمامي لوحةٌ فنية جميلة أبرز ما فيها فارس يركب فرسًا. ومع أن الفرس في حالة هيجان واندفاع فإنك ترى الفارس في وضع هادئ. وعلى أية حال فهذه ملاحظة صغيرة. فلندخل إلى الديوان. وتتصدره أربع صور لأصحاب الجلالة الملك عبدالعزيز والملك فيصل والملك خالد وصاحب السمو الملكي الأمير فهد ولي العهد المعظم وكان المفروض أن تؤخذ صورة للملك سعود ففي الديوان عدد من القصائد موجهة لجلالته. ويبدو أن اختيار هذا الاسم «في موكب الأبطال» يعود إلى أن طائفة كبيرة من قصائد الديوان موجهة إلى أصحاب الجلالة وصاحب السمو وهم بكل تأكيد أبطال عظام في تاريخنا الحديث لكل منهم دوره الكبير وجهاده المعروف وعطاؤه العظيم.

ويبدأ شاعرنا ديوانه بمقدمة يتحدث فيها عن الشعر فيقول: «إن للشعر صفات لا نظير لها في عالم الفكر والفن والأدب. وأبرز هذه الصفات أن أكثر الناس يعشقون الشعر ويتشوقون إلى سماعه على الدوام في كل زمان ومكان حتى البسطاء والجهلاء منهم لأن في الشعر ذوقًا رقيقًا تتقبله النفوس بالغبطة والارتياح وتتجذب لا شعوريًا إلى الاستمتاع بمعانيه المثيرة وأوزانه المنتظمة في قوافي متعددة كلها حلوة النغم يطرب السامع لها مثل ما تطربه أعذب الألحان وأجمل الأصوات.

وكلام الشاعر هذا فيه نظر - كما يقولون - ويحتاج إلى بعض التوقف

والمناقشة، فأما أن الشعر له صفات لا نظير لها في عالم الفكر والفن والأدب فهذا صحيح وأما أن أبرز هذه الصفات «أن أكثر الناس يتشوقون إلى سماعه على الدوام في كل زمان ومكان» فلا أظن أن الواقع يؤيد ما ذهب إليه الشاعر، إلا إذا كان يتحدث عن فترة سابقة. ويبدو فعلًا أنه يتحدث عن فترة ما قبل التلفزيون وغيره من المخترعات الحديثة ويؤكد ذلك قوله: «حتى البسطاء والجهلاء منهم» فقد أدركنا رجالًا جهلاء أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ولا يميزون الألف من العصا ومع ذلك فهم يحفظون الكثير والكثير جدًّا من القصائد والمقطوعات وينشدونها بطريقة سليمة. أما في الفترة الأخيرة فإن الأدباء والنقاد كثيرًا ما يناقشون مستقبل الشعر بل لقد وصلت الحال إلى مناقشة أهمية الشعر وهل له ضرورة لينسب للإنسان!

ونلاحظ الآن أن دواوين الشعر هي أقل الكتب تصريفًا كما نلاحظ أن كثيرًا من المثقفين - وبعضهم يحمل مؤهلات دراسية عالية - لا يقرأ الشعر ولا يأنس له، وحتى إذا أراد أن يستشهد ببيت من الشعر قرأه مكسورًا! وتحفل صحفنا بقصائد هي أشبه بالقصائد لا يربطها بالشعر رابط حتى ولو مثل خيط العنكبوت، ومع أن الشاعر يقول: «إن للشعر صفات لا نظير لها في عالم الفكر والفن والأدب» نراه ينزلق لا شعوريًّا - وينسى أنه ذكر كلمة الفن متوسطة بين كلمتي الفكر والأدب - ينزلق لا شعوريًّا - إلى الموسيقى والطرب فيقول عن الشعر وأوزانه وقوافيه: «كلها حلوة النغم يطرب السامع لها مثل ما تطربه أعذب الألحان وأجمل الأصوات» وهذا يؤيد ما سبق أن أشرنا إليه من أن معايشته شاعرنا الفقيد للموسيقى والألحان تعدل معايشة للشعر بل إن الحقيقة هي أن معايشته للموسيقى والألحان تفوق كثيرًا معايشته للشعر فهو يقول في المقدمة: «ثم شاءت الأقدار أن احتجبت عن نظم الشعر ردحًا من الزمن إلا القليل منه حين يستوجب الحال في مناسبة ما».

أشواك.... وأشواق

رحم الله الشاعر اللواء

(٢ ـ ٢)

يحتوي ديوانه «في موكب الأبطال»[١] على سبع وأربعين قصيدة، وإذا لاحظنا اهتمام الشاعر بتسجيل تاريخ نظم القصيدة ـ وهي ميزة تستحق الإشادة، لأنها تتيح فرصة للناقد يستطيع عن طريقها تتبع التطور الذي مر به الشاعر ـ إذا لاحظنا ذلك ولاحظنا أن ثمانية من هذه القصائد نظمها الشاعر في الأعوام ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢ فمعنى ذلك أن الشاعر نظم منذ سنة ١٣٦٥ إلى سنة ١٤٠٠ وهي السنة التي صدر فيها الديوان كما نعتقد لأنه لا يوجد تاريخ صدور الديوان، تسعٌ وثلاثون قصيدة هي قدر يسير إذا قيس بالنسبة لطول المدة التي تجاوزت ثلث قرن من حياة الشاعر الفقيد. ولم يشر الشاعر إلى أنه حذف كثيرًا من قصائده أو بعضها في المقدمة، بل إن ما في المقدمة يؤيد أن ما في الديوان هو كل شعره، يقول الشاعر في مقدمة ديوانه: «وبصفتي ممن تولعوا بالشعر وتأثروا بمعانيه الجذابة المصوغة في أبيات مقفاة موزونة جعلت له رونقًا وجمالاً وأكسبته شهرة لا تخفى على أحد ـ بادرت وأنا في مقتبل العمر ودون سن البلوغ أحاول نظم الشعر وأكثر من قراءته وحفظه حتى تمكنت من نظم عدد من القصائد في مناسبات حدثت آنذاك وقد عنّ لي الخاطر أن أدونها في كراسة ثم أضيف عليها كل ما يجدّ من شعري حتى جمعت هذه القصائد المشتملة على المديح والحماسة والغزل».

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن ما في الديوان هو كل ما نظمه من شعر طول حياته وهو أمر يدعو إلى التساؤل، ولعل صديقنا الشاعر النابه الأستاذ السيد ماجد الحسيني ـ وتربطه بالشاعر الفقيد كثير من الوشائج ـ يملك

---

(١) صدر هذا الديوان ضمن إصدارات نادي الطائف الأدبي. إصدار رقم (٥٧) طبعة أولى بتاريخ ١٤٠٠هـ طباعة دار الزايدي للطباعة والنشر.

تفسيرًا لقلة قصائد الشاعر ويبدو أن الشاعر لم تغب عنه هذه الملاحظة فقد ورد في المقدمة: «ثم شاءت الأقدار أن احتجبت عن نظم الشعر ردحًا من الزمن إلا القليل منه حين يستوجب الحال في مناسبة وذلك بحكم طبيعة الأعمال التي قمت بها في خدمة الدولة والتي كانت تستنزف جُل-وقتي لأهميتها وكثرة مشاكلها الشاقة» ولكن هل هذه حجة مقنعة؟ وذلك ما أشك فيه.

يشتمل ديوان «في موكب الأبطال» على موضوعات ثلاثة كما حددها الشاعر في النص السابق، المديح والحماسة والغزل.

نلاحظ أن مديحه نابع عن وفاء وصدق وحب وإيمان، أما غزله فقليل جداً إذ لا يتجاوز في الديوان كله ثلاث قصائد وهو وضع غريب بالنسبة لشاعر من عشاق الفن يملك الكثير من مزايا رجل المجتمع الناجح.

كم كنت أتمنى أن يكون الشاعر حيًّا ليقرأ مقالي ثم يجيب على ما فيه من ملاحظات ويضع النقط فوق الحروف. ولكن لو كان الشاعر موجودًا أكان سيفعل ذلك أم تحول بينه وبين ذلك حوائل وحوائل...؟

أما حماسته فتكاد تشمل جُل-قصائد الديوان وذلك أمر طبيعي بالنسبة لرجل قضى معظم حياته في السلك العسكري يعمل في صدق وإخلاص وإيمان.

والفكرة التي يخرج بها الناقد بعد قراءة الديوان تتلخص في أنه شعر تقليدي فلا تلمح غالبًا في صوره ولا تعبيراته أي نوع من التجديد، بل ويبدو أن شاعرنا الفقيد لم يكن على أي صلة بالدراسات النقدية الحديثة. بل ولا يتابع أي مناقشة كانت تدور حول أي قضية من قضايا الشعر. وقد كان أثر بعض الشعراء عليه في النصف الأول من القرن الماضي تأثيرًا قويًّا ونخص بالذكر الشيخ العلامة الشاعر عمر بري فهو يحرص في قصائده على أن تكون الشطرة الأخيرة من القصيدة هي الشطر الأول من مطلع القصيدة وهي طريقة تقليدية معروفة في قصائد شعراء الفترة السابقة.

ولم يَعُد الشاعر على قصائده قبل نشرها بالتهذيب والتنظيم، بل نشرها في

صورتها الأولى كما جمعها في كراسته التي أشار إليها وليته فعل فهناك ألفاظ وتعابير كانت في حاجة إلى تعديل وتقويم ونذكر على سبيل المثال قوله في قصيدة بعنوان «فاهنأ بعيد الفطر»:

«يا ابن الكرام وذي الفخام ومن بهم»

وذي الفخام في حاجة إلى تقويم وقوله:

«اقبل تحية مخلص لك في حمى طيبًا»

وطيبًا هذه يعني بها الشاعر طيبة وهو اسم من أسماء المدينة وليس هناك من ضرورة لحذف التاء المربوطة والاستغناء عنها بألف ممدودة. وقوله في قصيدة بعنوان «الفجيعة الكبرى».

إن العروبة اقسمت بالله أن تمح الأسى بمهارة وذكاء

فكلمة «تمح» كما رسمها الشاعر في حاجة إلى تعديل إذ المفروض أن يكون «تمحو» ببقاء الواو ولا داعي لحذفها.

وبعد: فأرجو ألا يفهم أحد من كلامي أن الديوان غير جدير بالقراءة فالواقع أنه جدير بالقراءة ولكنني نظرت فيه نظرة المؤرخ الدارس ولم أقرأه قراءة القارئ المستمتع.. وأنا أشعر أنني بحاجة إلى أن أعود إليه لدراسته بطريقة أخرى، ففيه من ذكريات الطفولة والصبا، وفيه مشاعر نبيلة وأحاسيس وجدانية، وفيه لمحات ووثبات، وفيه عفوية وبساطة، وفيه صدق وإيمان، وفيه ما ينم عن خلق الشاعر ونفسيته وطبيعته واتجاهاته.

إنني لأرجو أن أعود في وقت قريب إلى ديوان الشاعر لأكتب دراسة مفصلة عنه. أما ما كتبته الآن فهو نتيجة الدراسة السريعة الملاحظات، العابرة.

وأختتم كلامي عن الديوان وصاحبه بهذين البيتين قالهما الشاعر في بداية حياته الشعرية في عام ١٣٦٢هـ(١).

أفعم البشر قلوبًا فجرى من فؤادي شعره منهمرا

يمطر الشكر على جمعكمو ليرى منكم ودادا مزهرا

---

(١) مطلع قصيدة من ديوانه صفحة (٣١).

كما أختمه بأبيات قالها بعد ذلك بعشرين سنة[1]:

يا ليلة قد دنا فيها الأحباء ... هذي سماؤك أفراح وأضواء
بشائر السعد قد لاحت بنضرتها ... فكلها أزاهير وأنداء
تلألأ النور في الآفاق فَأْتَلَقَتْ ... به زَبَرْجَدَةٌ في الحفل خضراء
توحي إلينا بأن الليل مُبْتَهِجٌ ... وأن آفاقه باليمن غراء

رحم الله الصديق الشاعر وأجزل له العطاء والثواب وأسكنه فسيح جناته.

(١) ألقيت في حفل عقد قران عام ١٣٨١هـ انظر الديوان ص ٩٩

مع الأيام

مؤلف عامي:

من الأخبار الطريفة في صحف الأسبوع الماضي أن رجلًا عاميًّا ألف كتابًا باسم «المنتخب في ذكر قبائل العرب» ولم أطلع على الكتاب ولكن يبدو أنه كتاب قيم وفي حجم كبير.

أما أنه قيم فدليل ذلك أن أحد العلماء الأفاضل عرض ما فيه من أخطاء فلم يتجاوز عددها الأربعة، وإذا كان الشاعر يقول:

«كفى المرء فخرا أن تعد معايبه»

فإننا نقول: كفى هذا الكتاب قيمة ألا تتجاوز أخطاؤه أصابع اليد الواحد، مع أن كثيرًا من كتب العلماء الأعلام حفلت بعشرات الأخطاء ولم يطعن ذلك في قيمتها، وأرجو أن يلاحظ القارئ أن موضوع الكتاب من الموضوعات العلمية الهامة.

وأما أن حجمه كبير فإن واحداً من الأخطاء الأربعة التي عرض لها العالم الفاضل وقع في الصفحة (١٧٤).

وهذه ظاهرة تستحق التسجيل والدرس وهي ذات دلالة عميقة لا تخفى، أما المؤلف فهو عبدالرحمن بن زيد.

شاعر كبير:

هو الأستاذ أحد بن إبراهيم الغزاوي ويمتاز بالنشاط والدأب فلم ينقطع عن دنيا الأدب والشعر منذ عرفه الناس أديبًا وشاعرًا كما يمتاز بحبه لشعره وغيرته عليه وحرصه على إبرازه في أجمل قالب.

وهو شاعر فيه كل صفات الشاعر ورفاهة في الحس ورقة في الطبع وتذوق للجمال. وقد لقيته مرتين كانت الأولى في مجلس خاص وكنت أيامها طالبًا

في المرحلة الثانوية خرجت منه شديد الإعجاب بعقله وذوقه. أما الثانية فكانت في حفل عام أقيم في مكة لتكريم فريق من الكشافة السورية كان قَدِمَ الحج وكنت أحد أفراد الكشافة الذين انتدبوا لمرافقة هذا الفريق كما كان من حسن حظي أن كنت أحد خطباء الحفل.

وقد ألقيت خطبة في تحية الفريق وعرضت أثناء الخطبة لأبيات من قصيدة للأستاذ الغزاوي ومنها هذا البيت:

فما الرياض سوى ام القرى وطنًا ولا دمشق سوى صنعا وبغداد

وكان ضمن حاضري هذا الاحتفال الشاعر الفلسطيني الكبير المرحوم أبو الإقبال اليعقوبي. فقاطعني بصوته المرتفع قائلًا: وأين فلسطين فتجاهلت مقاطعته واستمررت في إكمال خطبتي ولكنه - رحمه الله - عاد إلى مقاطعتي صائحًا: وأين فلسطين؟ أين فلسطين؟ لا يجوز أن تنسى فلسطين وأُخْرِجتُ فعلا فلجأت إلى الصمت وخصوصًا أن مقاطعته أثارت همسًا وكلامًا بين المدعوين. ولكن الأستاذ الغزاوي أنقذني مشكورًا وكان يجلس إلى جوار الشاعر اليعقوبي فقال يخاطبني أدخِل فلسطين في البيت قُل: فقلت:

فما الرياض سوى ام القرى وطنًا ولا فلسطين ودمشق سوى صنعا وبغداد

وانكسر البيت ولكن الشاعر الفلسطيني سُرّ ورضي وأخذ يتمتم بعبارات الاستحسان وكان ذلك خير عزاء عن كسر البيت.

ونعود إلى الهدف من هذه الكلمة وهي التساؤل عن شعر الأستاذ الغزاوي. يعتبر الأستاذ الغزاوي من الشعراء المكثرين وقد علمت أن له مجموعة ضخمة جدًّا من الشعر الغزلي والوصفي والقومي، إلى جانب مدائحه وقد نشر فعلًا شيئًا قليلًا منها، ولكننا ندعو الشاعر الكبير إلى ترتيب شعره وإصداره في عدد من الدواوين فشعره ثروة من ثروات أمّتنا لا يجوز إهمالها أو إغفالها. وأنا واثق من أن شاعرنا لو بادر إلى نشر شعره لضرب الرقم القياسي في وفرة الشعر ولزاحم صديقنا الشاعر المبدع الأستاذ طاهر زمخشري وتغلب عليه.

فهل يستجيب شاعرنا الكبير؟ ذلك ما نرجوه، وما نشك في أنه سيفعل.

وتحية للشاعرين الكبيرين الغزاوي... والزمخشري.

صحفي كبير:

الأستاذ عثمان حافظ أحد مؤسسي جريدة المدينة يكتب اليوم فصولًا قيمة عن تاريخ الصحافة في ربع قرن. وأشهد أنه وُفِّق في جذب انتباه القراء وفي نقل المعلومات التي يكتبها إلى نفوسهم بكثير من الحذق والبراعة. وهذه الفصول التي يكتبها الأستاذ عثمان من الواجب أن تكتب ليعرف الأبناء تضحية آبائهم وليعلموا قصة أولئك الرواد الذين شقوا الطريق بكل ما فيه من عثرات وعقبات وأشواك، حبذا لو جمعت هذه الفصول - بعد انتهائها - في كتاب يؤرخ لحقبة هامة من تاريخ بلادنا[1].

وحبذا لو بادر الأستاذ الكبير في نشر مذكراته الأخرى، وأذكر منها الآن، مذكراته عن منطقة عسير فقد حدثني بطرائف منها، وأخبرني أنه زارها قبل عشرين سنة، وأنه أعد مذكرات عنها. فحبذا لو بادر مشكورًا إلى نشرها على الناس ففيها متعة وفيها ثقافة وفيها تاريخ. وحبذا لو بادر العلماء الأفاضل من رجالاتنا فنشروا مذكراتهم عن التاريخ الذي عاصروه قبل أن يضيع، وقد أحسن الأستاذ عبدالحق نقشبندي بنشر بعض مذكراته عن المدينة المنورة في فترة الحرب العظمى وإن كنا نرجو أن يعود إليها فيزيدها شرحًا وينشرها على الناس في كتاب.

كما أحسن الأستاذ الدفتردار في نقل لمحات عن تلك الفترة في قصته التي أخرجها للناس منذ زمن باسم «الأفندي» وقد تناولها بالشرح والتعليق في مجلة الإذاعة ونحن في انتظار مذكرات من العلماء الأعلام من رجال أمّتنا.

---

(١) صدرت هذه الفصول في كتابين. الجزء الأول - طبعة أولى صدر في ١٣٩١/٤/١٥هـ والطبعة الثانية عام ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م وعدد صفحاته (٥٦٧) وهو يتناول تاريخ الصحف التي كانت تصدر بالمملكة.
والجزء الثاني صدر في عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ويقع في (٢٩٦) صفحة يتناول فيه قصة جريدة المدينة والطابع والناشر. شركة المدينة للطباعة والنشر. جدة (دار العلم حاليا).

سؤال

الأستاذ حسين سرحان(☆) أديب أصيل من أدباء أمّتنا وهو أحد اثنين يكاد ينعقد الإجماع على اطلاعهما وأصالة أدبهما وتفتح عبقريتها واتزان تفكيرهما ويكادان يتشابهان حتى في موقفهما من الحياة والأحياء وهو موقف ربما حرمهما من بعض المتع الزائلة ولكنه كسب لهما إعجاب المثقفين والواعين وجعلهما في منزلة كريمة يغبطان عليها.

وأسلوب السرحان ـ كأسلوب زميله ـ أسلوب قوي متلاحم النسيج فيه صفاء ورنين وهو من الأدباء القلائل الذين يجيدون ـ كما كانوا يعبرون قديمًا ـ ولو سلم من الكسل عن النشر لقدم لأدبنا ثروة أدبية إنسانية.

وهو متحرر الفكر، أثار أكثر من تعليق في كثير من الأوساط ولكنه جاد في نظرته إلى القضايا الأدبية لا يعبث ولا يستغل ولا يستهين سُئل منذ أيام عن الشعر الجديد الذي لا يتقيد بوزن أو قافية فكان جوابه صريحًا لا لبس فيه واضحًا لا خفاء معه وهو أنه يشجب هذا اللون من الكلام ويرفض أن يسمى شعرًا.

وهو لا يشجع الشبان على أن يتثقفوا ثقافة من القصص والروايات التي تصدر هذه الأيام. ولكنه يطلب منهم أن يأخذوا من منابعه الأصيلة الحقيقية.

التقيت الأستاذ السرحان مرة أو مرتين أيام أن كنت أدرس في مكة وكثيرًا ما كان يدور الحديث عنه في ندوتنا الصغيرة ومن أبرز نظرائه الأستاذ أحمد جمال صاحب ديوان الطلائع والأستاذ علي حسن غسال صاحب ديوان

(☆) حسين علي سرحان

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٤هـ درس في مدرسة الفلاح له أعمال مطبوعة منها ثلاثة دواوين شعر ـ وعمل في عدة وظائف حكومية أنظر موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين ـ القسم الثاني ـ أحمد سعيد سلم من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي.

«في فجر العمر».

ولعل أحد أصدقاء السرحان أو المتصلين به يكتب لنا دراسة عن حياته وأدبه.

هذه كلمة أكتبها تمهيداً لسؤال لا أدري إلى من أوجهه.. ولهذا السؤال قصة من الواجب أن يعرفها القراء، وقصة هذا السؤال أن جريدة عكاظ نشرت قصة «محتال إيطالي» كان يخدع الناس بأساليب مختلفة. وقد أهديت هذه القصة واسمها قبل أن أنسى «الدجال الأكبر» إلى الأستاذ السرحان «تحية لإشرافه على صفحة البلاد الأدبية» وقد سألني أحد الأصدقاء عن سر هذا الإهداء لأنه لم يعرف هو السر وقال إن الأدباء يعرفون سر الصنعة في عالم الأدب.

فقرأت القصة سطورها وما بين السطور فلم اهتدِ إلى هذا السر، ولا أكتم القارئ فمستوى الذكاء عندي ضعيف، ولذلك فكثيرًا ما تخفى عليّ أمور هي بالنسبة لذي الذكاء المتوسط بدهية لا تحتاج إلى تفكير. وتخلصًا من هذا المأزق قلت لصديقي: إن السر يكمن في قلب الكاتب، على وزن: المعنى في قلب الشاعر» ولكن صديقي لم يرضه هذا الجواب وظن - وبعض الظن إثم - أنني أسخر من سؤاله أو أنني على أضعف الاحتمالات أضن بالسر عليه على طريقة الغزالي في «المضنون على غير أهله» ورغم كل التأكيدات فإن صديقي لم يقبل كل ما قدمت من أعذار وتخلصًا من هذا المأزق الثاني وهو أشد من المأزق الذي قبله وحرصًا على ألا أفقد صديقي. وفقدان الأصدقاء - كما يعرف الشعراء أو كما لا يعرفون - من مهم الأمور في قديم الزمان وفي حديثه ولو أردت أن تجمع ما قاله الحكماء والشعراء في التسامح مع الصديق وفي إقالة عثراته والإغضاء عن هفواته والإقلال من معاتبته لقضيت عمرك كله ولم تنته من هذا الجمع، وكل هذه الأقوال التي ينقص العمر دون أن تجمع إنما تهدف إلى حفظ كيان الصداقة والحيلولة دون فقدان الأصدقاء. وتمشيًا مع هذه القاعدة الحكيمة التي ما أشك في أن الأستاذ السرحان والأستاذ كاتب قصة «الدجال الأكبر» أو مترجمها ومهديها إلى الأستاذ السرحان يتفقان أو يتفقون - أعني السرحان والكاتب والناشر

والمترجم والمهدي ـ إذا كانوا أكثر من شخصين ـ معي على احترامها.

ومعذرة على استعمال كلمة «احترام» فإن للعلماء رأيًا فيها وفي عروبتها وأصالتها وتمشيًا مع هذه القاعدة الحكيمة فقد رأيت أن أنشر هذا السؤال فلعل أحداً ممن يعنيهم الأمر يتفضل بإزاحة الستار الصفيق عن سر هذا الإهداء. ولعل صديقي بعد ذلك يقتنع بأنني بريء النية سليم الطوية وأنني مثله في الجهل حذو النعل بالنعل.

لقاء... كل أسبوع(*)

نشرت إحدى صحفنا المحلية منذ مدة خبرًا صغيرًا في مكان غير بارز عن علم من أعلامنا، وهو خبر أعتقد أن الكثير من القراء قد مر به دون أن يحفل به وخاصة أن الصحيفة قدمت لاسمه لقبًا غير اللقب الذي اعتاده الناس، فلقد اعتاد الناس أن يسبق اسمه كلمة السيد لا كلمة الشيخ كما ورد في الصحيفة. وليست للّقب أي قيمة بالنسبة للعلماء الأعلام وأستاذنا «سيد» لا بحسبه فحسب بل بثقافته الواسعة وعلمه الغزير وخلقه العالي وإخلاصه لأمّته ووفائه لشعبه وثقافته في أداء الواجب في زمن عز فيه الإخلاص والوفاء والتفاني في الواجب لغير مصلحة مادية.

ورد في الخبر الآنف الذكر أن أستاذنا العلامة[1] ترك حياة الوظيفة أو كما ذكرت الصحيفة «أحيل إلى المعاش». وأستاذنا وأضرابه من العلماء ورجال الفكر النابهين لا يحالون إلى المعاش بهذا المعنى الاصطلاحي الضيق فالإحالة للمعاش بالنسبة للموظف العادي الذي قضى حياته الوظيفية في عمل رتيب معناها الخلود إلى الراحة وقتل الفراغ بالتافه من الشؤون.

أما بالنسبة لهؤلاء المتازين من الرجال فإن للإحالة معنى آخر هو انصرافهم من دنيا الوظيفة الضيقة إلى عالم الثقافة الرحيب يقرأون ويدرسون ويفكرون ويبحثون.

وأستاذنا - أطال الله حياته - رائد من الرواد الكبار لا في الأدب فحسب ولكن في الثقافة بمعناها الواسع العريض. فأستاذنا شاعر كبير كانت قصائده تسحر السامعين بألفاظها وصياغتها ومعانيها وبذلك الصوت الساحر الذي يفيض عذوبة وروعة مما يذكرك بصناجة العرب؛ الأعشى.

ولم يكن أستاذنا - وصل الله في حياته النافعة - مجرد شاعر القصائد أو

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/١١/٢٧هـ الموافق ١٩٦٣/٤/٢٢م العدد (١٦٢)

(١) هو الأستاذ أحمد العربي. ولد في المدينة المنورة عام ١٣٢٣هـ تخرج في دار العلوم بالقاهرة ١٣٥٤هـ عمل في عدة وظائف تعليمية ثم تقاعد عام ١٣٨٢هـ

الأبيات ليقال إنه شاعر ولكنه كان محبًّا لوطنه مؤمنًا بعروبته مخلصًا لإسلامه كان أكثر من شاعر.. كان مصلحًا اجتماعيًّا وكان لا يدع مناسبة تَمُرّ إلا وقف يستحث قومه ويدعوهم إلى النهوض ويحذرهم مغبة الجهل والكسل والخمول. ومن أبرز قصائده قصيدته «تحية النسور» وأذكر هذه القصيدة بالذات لسبب لا يعرفه أستاذنا كما لا يعرفه الكثير من الناس! فقد فوجئت في أول زيارة تفتيشية لي لمدارس الشمال عام ١٣٧١هـ بطلاب إحدى المدارس ينشدون في الصباح هذه القصيدة بلحن جميل آسر وكنت أظن أن هذا النشيد خاص بهذه المدرسة ولكنني انتقلت إلى بلد آخر فسمعت نفس النشيد وهكذا بالنسبة لجميع مدارس الشمال.

ولست أدري حتى هذه اللحظة من هو ناقل هذه القصيدة - أو هذا النشيد الوطني إن شئت الحقيقة - ومن هو ملحنها. ولكن الذي أدريه تمامًا هو أنني كنت أغتبط تمامًا وأنا أسمع هذا النشيد بأصوات هؤلاء الصغار الصادرة من حناجرهم الذهبية ذات الرنين الموسيقي الذي لا ينسى.

ذكرت هذه القصة ليعرف الناس مدى انتشار شعر أستاذنا ومدى اهتمام الناس به.

لقاء... كل أسبوع(*)

أذكر أن تلاميذه تداعوا قبل سنوات إلى حفل أقاموه لتكريم أستاذنا الكبير في الطائف وكان حفلًا رائعًا أثنى عليه الأستاذ جميل داود المسلمي ثناء عظيمًا. لقد عبر تلاميذه يومها عن شعورهم الفياض وعواطفهم الزاخرة نحو أستاذنا الجليل وكانت بادرة طيبة تدل على الحب والوفاء والإعجاب، بشخص يستحق حقًّا هذا الحب والوفاء والإعجاب فهو رجل كله مواهب وكله مزايا كان كريم الخلق نقي النفس صافي الضمير لم يكن يعرف الحقد ولا اللؤم ولا الخسة.

كان يحرص أن يكون فوق شهوات الإنسان، كان يحرص أن يكون رجلًا يفتح قلبه لطلابه ولكل من يتصل به من قريب أو بعيد، لم يكن يبخل عليهم بشيء حتى المال وكان هو في حاجة إليه، كان إنسانًا حتى في نصائحه، لم يكن يحاول الغلو والمبالغة، كان منطقيًّا مع نفسه ومع الآخرين.

وكان نزيهًا نزاهة تستثير الإعجاب. لم يخدعه منصب، ولم يُغْرِهِ لقب، ولم تعصف به مغريات مهما يكن نوعها فدخل الوظيفة وخرج منها طاهر الذيل عف الضمير.

هذا هو الرجل الذي كرمه تلاميذه قبل سنوات، فهل يتداعى اليوم تلاميذه وقد وصل كثير منهم إلى مراكز ضخمة وتسلم بعضهم الوزارة؟ هل يتداعى اليوم أبناؤه لتكريمه وهو يدخل مرحلة جديدة مثمرة؟ كما فعلوا بالأمس؟.

سيدي الأستاذ

إننا ننتظر والناس كلهم ينتظرون أن تخرج ما لديك من ذخائر في الشعر والنقد والأدب والبحوث. وهذه الذخائر من حقوق أبناء أمّتك وقد عودتنا وربيتنا على أن نبادر بإعطاء كل ذي حق حقه، كما علمتنا الجرأة في الحق والشجاعة في المطالبة به فهل تسمح لي ـ باعتباري أحد تلاميذك وابن من

(*) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٩/١٢/١٣٨٢هـ الموافق ١٣/٥/١٩٦٣م العدد (١٦٤)

أبناء أمّتك ـ أن أذكرك بهذا الحق وقد آن الأوان لإخراجه للناس؟

وهل تسمح لي أن أذكرك بحق آخر هو المذكرات؟ نعم المذكرات.

وما زلت منحازًا بعرض جانبًا　　من الذم أعتدّ الصيانة مغنمًا
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى　　ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لي يستفزني　　ولا كل أهل الأرض أرضاه منعمًا
ولم أقض حق العلم إن كان كلما　　بدا طمع صيرته لِيَ سلما
أأشقى به غرسًا وأجنيه ذلة　　إذا فاتباع الجهل كان أحزما

كان أستاذنا ـ أدام الله النفع به ـ يسير في تربية تلاميذه على سياسة واضحة؛ فكان شديدًا في غير عنف لينًا في غير ضعف، كان يسوس مجموعة متنافرة من الطلاب فمنهم الغني المترف الذي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ومنهم الفقير الذي يعيش الكفاف ومنهم المعتد بنفسه المعجب بشبابه المعتز بماله وفيهم الطالب الضعيف البائس ولكنه كان يسوسهم بحزم وحكمة، كان القوي ضعيفًا أمام الحق كما كان الضعيف قويًا أمام الحق، كان يقدر الطالب المجدّ المهذب وإن كان فقيرًا، وكان يقسو على الطالب الكسول النزق وإن كان ابن التاجر الكبير أو الموظف الخطير وكسب بذلك احترام الجميع.

لقاء... كل أسبوع(*)

عاد منذ أيام إلى أرض الوطن الأستاذ السيد عبيد مدني[1] بعد فترة من الوقت قضاها في مصر. وأنا معجب بهذا الرجل رغم أنني لم ألقه غير مرات قلائل فهو رجل مثقف ثقافة واسعة ولم تتح لي الظروف الاطلاع على تاريخ حياته الأولى ولكن ما من شك في أنه صاحب الفضل في تكوين نفسه هذا التكوين القوي وفي تزويدها بزاد رائع من الثقافة والمعرفة. وأنت تجلس إليه فتشعر بكثير من الارتياح لأنك تجلس إلى رجل يحسن أساليب الحديث وتلمس بوضوح ما وراء حديثه الذي يبدو عاديًا من رصيد ضخم من الثقافة الحية والتفكير الواعي.

ويمتاز السيد عبيد مدني بأنه متمكن في أكثر من ناحية من نواحي المعرفة فهو كاتب وهو شاعر وهو مؤرخ. ويخطر ببالي كلما ذكرت السيد عبيد ذلك الحادث اللطيف الذي حدث عندما كان السيد عبيد ينشد قصيدة في مدح الرجل العبقري الملك عبدالعزيز بن سعود فقد كان ينشد قصيدة دالية من نظمه في تحية الملك في إحدى الحفلات الكبيرة وعندما وصل إلى قوله:

عبدالعزيز ومن إذا ذكر اسمه قام الجميع له ودوى النادي

عندما قال هذا قام جميع الحاضرين ودوى النادي بالحديث والحركة. وهو حادث طريف يذكر مؤرخي العرب بحادث مماثل تقريبًا فلقد كان الخليفة الفاطمي العظيم «المعز لدين الله» قادمًا من تونس إلى مصر بعد أن فتحها قائده «جوهر الصقلي» وأسس بها مدينة القاهرة وكان الخليفة يسير في موكب ضخم فقابله في الطريق الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي ويسميه النقاد «متنبي المغرب» إجلالًا لمكانته وتمجيدًا لشعره فهو في المغرب يقابل أحمد بن الحسين المتنبي في الشرق. واستأذن الشاعرُ الخليفةَ في إنشاد قصيدته فلما وصل إلى قوله:

(☆) نشرت في مجلة الرائد الأسبوعية بتاريخ ١٣/١٠/١٣٨١ العدد ١٠٥

(١) ولد في المدينة المنورة علم ١٣٢٤هـ ومات في عام ١٣٩٦هـ ـ تعلم بالمدينة المنورة وعمل في عدة مناصب حكومية. وله رحلات علمية استطلاعية للعديد من البلاد الإسلامية وله بضعة مؤلفات.

أبني العوالي السمهرية والسيو ف المشرفية والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تبع في حمير

ترجل الجيش وكل من في المواكب ولم يبق راكبًا إلا الخليفة وكان هذا هو الجواب على تساؤل الشاعر.

هذان موقفان عظيمان في تاريخنا الأدبي وقع الأول في شمال أفريقيا ووقع الثاني في قلب جزيرة العرب وبين الحادثين ما يزيد عن ألف عام وكلما ذكرت أحدهما ذكرت الآخر وكلما ذكرتهما ذكرت السيد عبيد مدني والشاعر المبدع وبالمناسبة أحب أن ـ أتساءل عن ديوان السيد عبيد أو إذا شئنا الدقة فنحن نتساءل عن دواوين عبيد مدني فمن المؤكد أن لديه ثروة شعرية لا يستهان بها فلماذا لا ينشرها جميعًا على الناس، أو على الأقل لماذا لا يختار منها ما يملأ ديوانًا ضخمًا واحدًا. آمل أن يكون قد حان أوان تقديم هذا الديوان إلى النشر[١].

وأنا معجب بالسيد عبيد مدني لأنه رجل وطني لا يحب الملق ولا النفاق وقد أتاحت لي الظروف في العام الماضي أن أحضر موقفًا تجلى فيه نبل السيد وجرأته وصراحته وقد نقلته إلى القراء في مقال لي نشر بجريدة المدينة.

وبقيت ميزة أخرى للسيد عبيد مدني هو أنه مؤرخ، وقد سماه بعضهم (مؤرخ المدينة) فقد ألّف كتابًا عن تاريخ المدينة[٢] لم أطلع عليه، ولكن حدثني عنه صديق فاضل، كما قرأت عددًا من المقالات نشرها الأستاذ الكاتب في جريدة المدينة.

وأستطيع على ضوء ما سمعت وما قرأت أن أحكم على مؤلَّف مؤرخنا الكبير أنه مؤلف ثمين لأنه يعني بفترات من تاريخ المدينة تعتبر في حكم المجهولة ومن هنا وجب عليّ وعلى حملة الأقلام أن نستحث المؤرخ الكبير على المبادرة بإنجاز كتابه وطبعه وإخراجه للناس ووجب عليه هو أن يكرس جهوده لتقديم مؤلَّفه الذي أصبحت الحاجة ماسة إليه. وخاصة وأن الأستاذ الكبير

---

(١) صدر له في عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ديوان «الدنيات» في ثلاثة أجزاء وذلك بعد وفاته.

(٢) «تاريخ المدينة المنورة» في خمس مجلدات.

يملك من وسائل النشر ما يمكنه من إخراج هذا المؤلف بالصورة التي يحبها. كما لا نشك في أن الجهات التي تشرف على شؤون الثقافة في بلادنا كوزارة المعارف والمديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر سوف تبادر إلى بذل كل مساعدة ممكنة لإخراج هذه التحفة الفريدة.

وهذه طائفة من الخواطر انثالت على ذهني وأنا أقرأ في إحدى الصحف المحلية خبر قدوم الأستاذ السيد عبيد مدني أحد رواد الأدب في بلادنا وأحد مؤرخينا الأفذاذ رأيت أن أسجلها تحية تقدير وإعجاب.

لقاء... كل أسبوع(★)

تحية أخرى لمعالي الأستاذ محمد عمر توفيق... الوزير الأديب.

أثار المقال الذي نشرته الرائد[1] في الشهر الماضي بعنوان (تحية لمعالي الوزير الأديب) كثيرًا من التساؤل والاستفهام وتلقيت عددًا من رسائل قرائي الكرام يعلقون ويناقشون ويطلبون تفسيرًا لما كتب. وقد تطوع بعضهم - مشكورًا - فحاول أن يخلق (علاقة) بين المقال والعنوان وكانت علاقة لم أفكر فيها ولم تخطر لي على بال، فقد أوغلوا في اقتراحات عجيبة تدل على خيال خصب وقدرة على التوليد والربط (غير المحكم).

منذ مدة وبالرغم من أنه لم يخطر ببالي وأنا أكتب هذا المقال أنه سيثير كل هذه التساؤلات فقد سرني أن يثير اهتمام القراء إلى درجة كبيرة بلغت درجة الحماسة لسبب واحد هو أن الوزير الأديب يحظى بإعجاب الجماهير ولا سيما الطبقة الواعية منهم.

ولست أدري من المسؤول عن إثارة هذا (الإشكال) الطريف.

وسأشرح الوضع للقراء وأترك لهم تحديد (الجهة المسؤولة). فقد كتبت المقال تحت عنواني الدائم (لقاء.. كل أسبوع). ثم أهديته لمعالي الوزير الأديب، وعند كتابة المقال على الآلة الكاتبة لم يكتب الإهداء فكتبت خطابًا خاصًّا للصديق أبي مدين رئيس التحرير وطلبت منه أن يلاحظ كلمة الإهداء عند طبع المقال. ثم خطر ببالي أن الصديق قد ينسى هذه الملاحظة بسبب كثرة مشاغله وقد يدفع بالمقال إلى أحد مساعديه ويغفل عن تنبيهه، أو قد ينبهه

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/١١/٢١هـ الموافق ١٩٦٣/٤/١٦م العدد (١٦١)

(١) الرائد. مجلة أسبوعية، كانت تصدر في جدة، رئيسي تحريرها الأستاذ: عبدالفتاح أبو مدين رئيس نادي جدة الأدبي الثقافي فيما بعد، صدر العدد الاول منها مع غرة ربيع الأول من عام ١٣٧٩هـ، وكانت تصدر في عامها الأول نصف شهرية حتى العدد (٢٤)، ثم صارت تصدر أسبوعية مع دخول العام الثاني في يوم الاثنين من كل أسبوع، واستمرت هكذا حتى ١٣٨٣/١١/٢٩ حيث احتجبت عن الصدور.

وكان المرحوم الربيع زاوية ثابتة في الرائد تحت عنوان «لقـاء كل أسبوع». انظر كتاب «وتلك الأيام»، الصادر في ١٤٠٦/٦/١هـ/١٩٨٦/٢/١٠م لمؤلفه عبدالفتاح أو مدين.

الرائد جريدة أسبوعية سياسية أصدرها عبدالفتاح أو مدين عام ١٩٥٩ وهي صحيفة قوية شاملة «الصحافة العربية» نشأتها وتطورها ص ٣٧٠ لمؤلفه أديب مروّة منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

ولكنه قد لا يذكر في الوقت المناسب. ومن أجل ذلك عدت فكتبت كلمة الإهداء بالقلم تحت العنوان زيادة في التأكيد ولكن الرائد نشرت المقال بعد أن حذفت العنوان الأصلي ووضعت كلمة الإهداء عنوانًا للمقال. ولست أدري بعد هذا سبب هذا التغيير أهو خطابي الخاص الذي لم يوضح الغرض كما ينبغي أم هو رغبة «الرائد» في إبراز المقال أم هو سبب آخر.

وأعود إلى توضيح العلاقة بين المقال والعنوان كما رغبت الرائد أو إلى توضيح العلاقة بين المقال والإهداء كما رغبت أنا. والمقال كما هو واضح بين صدى تأثير الأدب والأدباء في شتى المجالات ويذكر بوضوح أن الأدباء قد يكونون رسل خير وسلام عندما تخفق السياسة ويفشل الدبلوماسيون وقد يحققون من الأغراض السياسية ما عجز عنه هؤلاء والمقال يؤكد بعد ذلك حقيقة أخرى وهي أن الأدب عنصر فعال في حضارة أي أمّة مهما بلغت من الرقي السياسي والعسكري والعلمي، يضرب الأمثلة على ذلك بأكبر دولتين في العصر الحديث تتمتعان بأكبر امتيازات تمتعت بها أمّة في التاريخ هما أمريكا وروسيا فهما يتبادلان «سفراء الأدب» ويرحبون بهم أجمل ترحيب ويستقبلونهم استقبالًا قلبيًا حارًا بعيدًا عن تقاليد السياسة ومراسيم الدبلوماسية ويفتحون لهم قلوبهم ويحدثونهم حديثًا صافيًا معطرًا بأريج المحبة والاعتزاز والتقدير.

والأستاذ محمد عمر توفيق أديب بارز من أدباء الطليعة في بلادنا. وقد قضى فترة من حياته يعالج الأدب البحت ثم تحول إلى معالجة مشاكل مجتمعه وقد أصاب نجاحًا في ذلك ضاعف من قراء أدبه والمعجبين بفنه وبهذه الصفة - أي بصفته أديبا نابه الذكر - عرف لدى الكثرة الكاثرة من القراء. صحيح أن له مزايا أخرى كثيرة ليس أكبرها شأنًا أنه إداري من الطراز الأول وأنه مثالي في حياته وتصرفاته وعلاقاته بالناس.

ولكن صفته كأديب اجتماعي ناجح يحاول عن طريق الكلمة أن يقود مجتمعه إلى حياة أفضل - هي الصفة التي غلبت عليه ومن أجل ذلك اعتبر المواطنون اختياره للوزارة تكريمًا للأدب ممثلًا في شخصه، وهكذا كانت

دولتنا تقدر الأدب وتعتز برجال القلم، لقد اختارت أديبًا نابهًا هو الأستاذ حسين عرب للوزارة، وهي تختار اليوم أديبًا آخر هو الأستاذ محمد عمر توفيق، وقد اختارت قبل ذلك أديبين لامعين ليكون الأول أمينًا للعاصمة في مكة المكرمة والثاني رئيسًا لبلدية المدينة هما الأستاذ عبدالله عريف والأستاذ علي حافظ. وهذه أدلة حية على مدى تقدير دولتنا للأدب وإيمانها بحملة المشاعل ورجال القلم.

هذه المعاني هي التي كانت ببالي وأنا أكتب إهداء المقال إلى معالي الوزير الأديب ولعل هذا يوضح العلاقة القوية بين المقال والمهدى إليه المقال.. معالي الأستاذ محمد عمر توفيق.

مع حمد الجاسر

قرأت التحقيق الصحفي الذي قدمته جريدة البلاد مع أستاذنا العلامة الشيخ حمد الجاسر في عددها الصادر في ١٣٩٣/١٢/٢٧هـ ومع أنه حديث طويل استغرق أكثر من صفحتين فقد كان ـ والحق يقال ـ حديثًا لبقًا خفيف الروح أشهد أنني استمتعت استمتاعًا لا حدّ له، وأستاذنا الجاسر ـ في الحقيقة والواقع نموذج من النماذج الفريدة في بلادنا وفي تاريخنا المعاصر، إنه نموذج للعالم الذي وهب نفسه للعلم ونذر حياته للثقافة فلا تراه إلا قارئًا أو باحثًا أو دارسًا أو منقبًا. ولو أتيح له أن يكتب مذكراته أو أن يؤلِّف كتابًا عن حياته في صحبة العلم والمكتبات لاطلعنا على لون من الجهاد العلمي يعز نظيره، ومهما اختلفت الآراء في أستاذنا حمد فإن أمرين لا اختلاف عليهما؛ أحدهما عصاميته التي مكّنته أن يبني مجده العلمي الباذخ، وثانيهما دوره الكبير في نهضتنا المعاصرة.

وقد أكثرت من تكرار كلمة «أستاذنا» ولست أعني بذلك مجرد تعظيم «أستاذنا» الجليل ـ حفظه الله ـ ولكنني أعني الأستاذية بمعناها الأكاديمي فقد كنت ـ فعلًا ـ واحدًا من تلامذته عندما كان مدرسًا في المرحلة الثانوية بمكة وكنت يومها ـ ولعل أستاذنا يذكر ذلك ـ من أنجب تلاميذه وأحبهم إلى نفسه، أو هكذا كنت أشعر يومها على الأقل، وكنت أحرز دائمًا في امتحاناته الدرجة النهائية وربما نقصت درجة أو درجتين. وقد حافظت على ذلك المستوى بالنسبة لدرسه فلم أهبط عنه.

لم تكن الدروس التي كنا نتلقاها على أستاذنا الجليل في تلك الأيام تعطي صورة عن غزارة علمه أو ربما كان هو في البداية فلم تتضح له معالم الطريق وبالتالي فلم يحدد مكانه بعد.

ولكن حقيقتين كانتا واضحتين أمام أبصارنا وضوحًا لا ريب فيه هما: حيوية أستاذنا وحريته، كان كتلة متقدة من النشاط في داخل الصف. لا أذكر أنه جلس مرة على كرسي ـ كما كان يفعل كثير من زملائه. كان

يتحدث بحيوية عجيبة ولا تساعده إلا يده اليمنى أو أصبعاه السبابة والوسطى إذا أردت الدقة، وكان تصرفه هذا شذوذًا على القاعدة إذ إن من التعارف عليه في تلك الأيام أن يلتزم مدرسو المواد التي كان يدرسها أستاذنا نوعًا من السمت يضفي على الدرس نوعًا من الجمود والرتابة المملّة، وكان الجلوس على الكرسي من أسس هذا السمت.

كانت حيوية أستاذنا إحدى هاتين الحقيقتين. أما الحقيقة الأخرى، فهي حريته؛ أعني حرية فكره، كنا نلحظ ذلك بوضوح. وإذا قبلت حيويته التي أشرنا إليها بوجه أو بآخر فإن حرية رأيه كانت تقابل منا معشر تلاميذه بدهشة ممزوجة بالإعجاب.

ولكن من المؤكد أنها كانت تقابل من فئة أخرى بالاستنكار والغضب، ومن الجدير بالذكر أنني لقيت أستاذنا في المدينة في الشهر الماضي بعد غياب دام أكثر من عشرين عامًا لم نلتق فيها إلا على صفحات الجرائد والمجلات فإذا بأستاذنا رغم مرور السنين من عمره - المديد إن شاء الله تعالى - لا يزال كما عرفته يتمتع بحيويته الدافقة وفكره الحر المستنير. وقد كنت وأنا أستمع إليه أستعيد صورته وأنا جالس على مقعد الدراسة أتلقى شرحه وتوضيحه فإذا الصورة هي الصورة - صورة الأمس هي صورة اليوم - إذا استثنيت صبغة الشعر السوداء بصبغة الشعر البيضاء الحديثة، وقد أذكرني هذا بذلك الشاعر الذي يقول:

يا عز هل لك في شيخ فتى أبدًا وقد يكون شباب غير فتيان

ولعل الشيء الجديد الذي لفت نظري في هذا اللقاء هو ما يتمتع به أستاذنا من روح الدعابة المحببة التي تجعل منه رفيقًا مؤنسًا خفيف الظل لطيف المجلس.

(رأي في النقد)

وإعجابي بأستاذنا الجاسر لا يمنع من مخالفته في بعض آرائه.

وبالمناسبة فقد تحدث الأستاذ الجليل عن النقد وقال: «أنا اعتقد أن الكاتب

أو المؤلِّف الذي يضيق صدره بالنقد ليس مخلصًا لمهنته أو لفنِّه فهو متى ضاق صدره دفعه إلى أن يخرج عن صفته العلمية خروجًا يحمله على أن يتطلب كل وسيلة من وسائل التشفي من الناقد إن حقًّا وإن باطلًا. وأنا لا أنزِّه كل الناقدين فالنقد وسيلة إصلاح وتقويم لا أداة هدم وتدمير وبحث عن المثالب».

وهذا كلام (مثالي) أوافقه عليه تمام الموافقة ولكن المشكلة هي أن كل المؤلفين تضيق صدورهم بالنقد، ولعلنا نعجز تمامًا إذا حاولنا أن نجد مؤلفًا من بلادنا أو البلاد العربية لا يضيق صدره بالنقد ثم لا يدفعه هذا الضيق بالنقد إلى أن يتطلب كل وسيلة من وسائل التشفي من الناقد، وحسبنا أن نرجع إلى ما كتبه الناقد اللبناني الشهير مارون عبود عن المتاعب التي عاناها في عالم النقد لنعرف المصاعب التي تقف أمام الناقد فتعوقه عن أداء رسالته. ولو أردت أن أصور المتاعب التي تعرضت لها، في الفترة التي كنت أعالج فيها شؤون النقد ـ على قِصَرِها ـ وأنشر بعض ما تلقَّيتُ من رسائل وبعض ما اصطدمت به من مشاكل لرأى القراء ألوانًا من العجب العجاب.

ومن الغريب أن يستشهد الأستاذ بالمعارك التي دارت في مصر ويقول: «إن الأدب في مصر بلغ ذروة الازدهار عندما كانت حرب النقد حامية الوطيس بين الدكتور طه حسين وعبدالرحمن شكري والمازني والرافعي وعندما كان الدكتور زكي مبارك يملأ مجلة الرسالة بمقالاته النقدية التي تصدى بها للرد على الدكتور أحمد أمين، وعندما كانت الرسالة تزخر بكثير من المناقشات الأدبية والأبحاث النقدية».

أقول: إنه من الغريب أن يستشهد الأستاذ حمد بهذه المعارك. وأنا مع الأستاذ حمد في «أن الأدب في مصر بلغ ذروة الازدهار عندما كانت حرب النقد حامية الوطيس» ولكنني أختلف معه كل الاختلاف حين يجعل تلك المعارك التي دارت رحاها في الفترة التي يشير إليها أمثلة تحتذى وتطبيقًا لقوله: «إن النقد وسيلة إصلاح وتقويم لا أداة هدم وتدمير وبحث عن المثالب»، فلقد حفلت هذه المعارك بكل ما يشكو منه أستاذنا الجليل من

الهدم والتدمير والبحث عن المثالب، وحتى المعارك النقدية في بلادنا والتي أشار إليها بقوله: «وأذكر أن ببلادنا في عشر الستينيات انتعشت فيها الحركة الأدبية بفضل المعارك النقدية التي كانت تنشر في صحف ذلك العهد».

هذه المعارك لم تسلم من الأدواء التي أشار إليها أستاذنا، بل لقد غصّت بهذه الأدواء بشكل كبير.

ولا أعتقد أن أستاذنا سيطالبني بالنصوص والأمثلة فهي تحت يدي، وإن كنت واثقًا من أنه يعرفها أكثر مني، وحسبي أن أذكر موقفًا لواحد من كبار الأدباء هو طه حسين وأنا أختلف مع الأستاذ حمد حول هذا الرجل اختلافًا كبيرًا ليس هنا مجال ذكره. ويكفي أن أشير إلى موقفه من أحد تلامذته وهو زكي مبارك، فقد ضاق الأستاذ بنقد تلميذه ضيقًا شديدًا أفقده كل قدرة على ضبط نفسه، ودفعه دفعًا إلى تصرف ـ أقل ما يوصف به أنه تصرف أهوج بعيد عن الكياسة والذوق وكرم النفس، فقد فصله من الجامعة بصورة تعسفية ولم يشفع له عنده وقفته إلى جانبه ودفاعه عنه عندما تعرض لأزمته «كتاب الشعر الجاهلي» تلك الأزمة التي كادت تعصف به، كما لم يشفع له جهوده الكبيرة في خدمة الثقافة والمعرفة وأنه من أنجب طلاب الجامعة ومن أوسعهم ثقافة ومن أعلاهم صيتًا.

وقد كان هذا الفصل التعسفي الظالم بداية المصير المؤلم الذي انتهى إليه الرجل العصامي المكافح زكي مبارك، أما بقية خصوم طه حسين من النقاد فلو كان في مكنته أن ينتقم منهم لفعل بهم الأفاعيل.

فإذا عجز رجل كطه حسين عن ضبط نفسه وضاق صدره بالنقد ضيقًا تجاوز كل حد فكيف يقرر الأستاذ الجليل «أن الكاتب أو المؤلف الذي يضيق صدره بالنقد ليس مخلصًا لمهنته وفنه»؟.

إن النتيجة التي أريد الوصول إليها هي أن يترك الكاتبون هذا التشهير بالنقد وأن يوطنوا أنفسهم على قبول المعارك الأدبية بكل ما تحفل به من خير وشر ومن كمالات ونقائص «فأي كذا خلقت ـ كما يقول النحاة» ولا سبيل

إلى العثور على النقد العف النزيه الخالي من الشوائب، كما لا سبيل إلى العثور على المؤلف الذي لا يضيق صدره بالنقد، ومن الطريف أن المنقودين عادة هم الذين يتجهون بالنقد إلى غير وجهته السليمة بينما توجه كل حملات الغضب والنقمة إلى الناقدين وحدهم، ومع كل هذا فإن الحقيقة التي لا ريب فيها أن المعارك النقدية بكل النقدية بكل سيئاتها أجدى على الأدب والثقافة من ركود النقد وخمول الناقدين.

ولو أراد باحث أن يضطلع بعملية غربلة وإحصاء للمعارك الأدبية بقصد مقابلة حسناتها بسيئاتها لوصل إلى نتيجة تؤكد له رجحان الحسنات على السيئات وهذا يكفي.

«أتكذبني وأنا أكبر من أبيك»

والحديث عن الأستاذ حمد يذكرني بحادثة طريفة قصها عليّ في لقائي الأخير معه بالمدينة المنورة.

فقد كنا نتحدث عن الكتب والمخطوطات وما تتعرض له من ضياع فقص عليّ القصة الآتية:

قال لي: إنه قرأ بإحدى المكتبات واطّلع على مخطوطه أظنها - الشك مني - لابن زيد فأعجبته فنقل اسم المخطوطة والمؤلف ورقمها في الفهرس، ونقل بعض نصوص منها، وعاد في العام التالي لمعاودة القراءة ونقل نصوص أخرى وطلب المخطوطة فأجابه ناظر المكتبة بأنه لا يوجد في المكتبة كتاب بهذا الاسم لهذا المؤلف فذكر له الرقم وأطلعه على المعلومات التي سجلها في مفكرته عن هذا الكتاب أثناء زيارته للمكتبة في العام الماضي، فإذا بالناظر يصيح فيه قائلًا أتكذبني وأنا أكبر «أسن» من أبيك، وسكت الأستاذ الجليل على مضض إذ ليس لهذا المنطق «الأعرج» إلا السكوت المحض وهل من الممكن أو اللائق تكذيب رجل في هذه السن العالية - حتى ولو كان في حقيقة الأمر أكذب من مسيلمة!

مُعلّم وذكريات(*)

أما المعلم فهو أستاذنا وصاحب الأيادي علينا محمد صادق كردي، وقد ودّع الدنيا منذ زمن قريب بعد جهد متصل وكفاح دائب في سبيل العلم والوطن ومن المؤسف أنني لا أعرف الكثير من تاريخه، ولكنني أذكر أول لقاء بيني وبينه فقد كنت طالبًا في المرحلة الثانوية بمكة حين دخل علينا الفصل مدرس جديد يدرس الأدب والنصوص. وقد استرعى أنظار الطلاب بقامته المديدة وبسطة جسمه، ثم أخذ يدرس لنا الأدب والنصوص بطريقة جميلة وأسلوب رائع، وإنني لأذكر تمامًا إنشاده الجميل للشعر وما فيه من نغمة موسيقية تأسرك وتشد أذنك وقلبك.

ولا تزال بعض أبيات أبي تمام مدونة في ذهني كأني أسمعها اليوم من فم أستاذنا الجليل. لم يطل مقام أستاذنا بيننا فقد اختير مفتشًا للمعارف وكان ذلك ثالث ثلاثة في مديرية المعارف يحملون لقب مفتش، وبالرغم من قصر المدة التي قضاها مدرسًا لنا فقد ترك في نفوسنا أعمق الأثر بشخصيته المتزنة وأخلاقه العالية وعلمه الغزير وأسلوبه المحبب. وقد علمت أنه انتدب فترة من الوقت مديرًا للمدرسة الثانوية بالمدينة ولم ألقه فيها فقد كنت بعيدًا عن المدينة مشغولاً بالدراسة بين مكة ومصر. ولكنني سمعت كثيرًا من الثناء المستطاب عليه ممن أتيح لهم أن يلقوه أو يعملوا معه.

ثم لقيته مرة أخرى في القاهرة في دار البعثات السعودية حيث قَدِم إليها مراقبًا تحت رئاسة المربي الكبير ولي الدين أسعد، وكنت إذ ذاك طالبًا، وقضى فترة قصيرة انتقل بعدها مديرًا لدار البعثات السعودية بالإسكندرية ثم مشرفًا على الطلاب هناك، وجميع الطلاب يذكرون ما كان يحبوهم به من ألوان الرعاية ويسبغه عليهم من صنوف العطف، وكان ـ رحمه الله ـ يتحمل بشجاعة نادرة ما يحمله الطلاب من متاعب ومسؤوليات، أذكر بهذه المناسبة ـ أنني عندما كنت طالبًا ـ أصبت بمرض في إبهام رجلي وبادر

(☆) نشرت بجريدة المدينة المنورة بتاريخ ٢٨ من ربيع الأول عام ١٣٨٦ العدد ٧٠٧

أستاذنا الجليل فاتصل بمستشفى المواساة حيث حجز لي غرفة خاصة واتفق مع مدير المستشفى الدكتور/ طالب النقيب باشا على أن يقوم بإجراء العملية.

وفعلًا قام النقيب باشا بإجرائها ثم بقيت بالمستشفى أيامًا حتى التأم الجرح ثم أذن لي بالخروج فخرجت.

وقدم كشف الحساب فدفعه أستاذنا محمد صادق كردي، وعندما أرسلت الأوراق إلى المسؤولين عن الصرف في المعارف اعتذروا عن دفع المبلغ بحجة أنني آخذ مبلغًا شهريًّا مقطوعًا وأنه ليس من حقي أن آخذ مبالغ أخرى للعلاج. وأخبرني الأستاذ بالموضوع ضمن حديث عابر وأسلوب يعتبر غاية في الرقة واللطف. وعندما شعر بأنني أحرجت لأنني لا أملك المبلغ ولأنه فوق طاقتي وعد بتسوية الموضوع، وأعرف أن مكاتبات كثيرة دارت حول الموضوع ولكنني لا أعرف النتيجة التي انتهت إليها.. وإن كنت لا أستبعد أن يكون الأستاذ الجليل قد تحمل دفع المبلغ من جيبه الخاص لأنه ليس من السهولة إقناع المشرفين على النواحي المالية.

وقد زرت أستاذنا بعد ذلك مرات كثيرة - أثناء ما كنت طالبًا وبعد أن تخرجت - فكان يلقاني حفيًّا بي مبتهجًا بقدومي، وكنت أجد في حديثه متعة ذهنية وفي مجلسه متعة ذوقية، ولم يحدثني قط عن موضوع العملية، ولكنني وجدت من واجبي أن أثير موضوعها معه فأثرته في إحدى الجلسات فابتسم بحنو ورقة وقال: ذلك شيء قد انتهى، ولم تُجْدَ كل محاولاتي فقد كان يصر على أن الموضوع قد انتهى ثم بلباقة عجيبة يحول دفة الحديث.

ذكرت قبل قليل أن الذي قام بإجراء العملية لي هو الدكتور/ طالب النقيب باشا مدير مستشفى المواساة بالإسكندرية وقد هدفت بذلك إلى أن أبين بالدليل العملي مدى اهتمام المرحوم محمد صادق كردي بأبنائه الطلاب ومدى حرصه على راحتهم ومدى عنايته بتوفير أحسن الضمانات لمن يتعرضون لأمراض وأوصاب وعلل.

ولمستشفى المواساة بالإسكندرية تاريخ طويل نبيل حافل لن ينسى، أما

النقيب باشا فقد كان بالإضافة إلى شهرته في عالم الطب نجمًا لامعًا من نجوم المجتمع وقد أصبح مضرب المثل ولعل بعض القراء يذكرون المثل المشهور «يا بخت من كان النقيب خاله».

والنقيب المقصود هنا هو الدكتور/ طالب النقيب باشا ـ وقد توفى منذ سنوات رحمه الله، وإذا كان هناك من يجهل الدكتور/ طالب النقيب باشا، فإن كل القراء يعرفون ابنه الدكتور إبراهيم النقيب بسبب ارتباط اسمه بحادثة معينة شغلت الناس فترة من الزمن. والحديث عن الفترة التي قضيتها بمستشفى المواساة يذكرني بحادثتين هامتين؛ أولاهما عاطفية وسأترك الحديث عنها إلى فرصة أخرى، أما الثانية فهي حادثة سرقة فقد انتهز أحد الإخوان الكرام فرصة وجودي في المستشفى وذهب إلى الشقة التي أسكنها وكنت أسكن مع عائلة إيطالية وطلب من الخادمة أن تعطيه الحقيبة الموجودة في غرفتي لأن بها ملابس أحتاجها في المستشفى، ولم تشك الخادمة في هذا القادم بعد أن أخبرها بأنني في المستشفى وأنني أقيم في الغرفة رقم كذا وأنني سأعمل العملية الفلانية ودخلت الخادمة إلى الغرفة ثم خرجت وقالت للقادم: الهمام إنه توجد حقيبتان واحدة فوق الأخرى فأيهما المطلوبة؟ ولم يخنه ذكاؤه فأسرع يقول: الحقيبة السفلى وتوهم أنها هي الحقيبة الأهم، ودخلت الخادمة فأخذت الحقيبة وأعطتها له.

وقضيت في المستشفى المدة التي قضيتها ثم عدت إلى المنزل لأكتشف فقدان الحقيبة ولما سألت الخادمة أخبرتني بتفاصيل الموضوع، والواقع أن الخادمة قد كانت ذكية جداً فقد استطاعت أن تصف لي السارق وصفًا دقيقًا هداني إلى معرفة السارق، وبعد محاولات يطول شرحها اعترف السارق بالسرقة وأعاد الملابس المسروقة ولكنه لم يعد المبلغ ـ ولم يكن كبيرًا ـ بحجة أنه بدده ثم وعد بتسديده كُتُبًا، وفعلًا أحضر لي تاريخ الجبرتي كقسط أول.. ولم يحضر شيئًا بعد ذلك.. أما السر في تعويضي عن المبلغ بالكتب فيعود إلى أن صاحبنا السارق كان....... هل تصدقونه؟.

ومن الحوادث التي ترتبط باسم فقيدنا العظيم أيام أن كان مفتشًا حادثان

عجيبان ارتكب أحدهما طالب وارتكب الآخر أستاذ:

أما الحادث الأول فيتلخص في أن طالبًا ذكيًّا استطاع في إحدى المدن الكبرى أن يسطو على أسئلة امتحان الشهادة الابتدائية ويفتح الظروف ويستخرج ورقة من كل ظرف ويستعين بأحد الأساتذة في كتابة الأجوبة، وكادت الأمور تسير في هدوء وستر لولا أن ظرفًا من ظروف الأسئلة لفت نظر عضو من أعضاء لجنة الامتحان عند فتحه فقد لاحظ أن أحد جوانب ظرف من الظروف يختلف عن بقية الجوانب إذ كان مغلقًا بنوع خشن من الصمغ وقد استَلْفَتَ العضوُ الهمامُ نظرَ زملائه فأخذوا في فحص الظروف وقد تبين لهم أن الظرف قد فتح بآلة حادة رقيقة ثم أعيد قَفلُه، وعلى ضوء ذلك أعيد فحص جميع الظروف فتبين للجنة أن الوضع واحد وإن السطو قد شمل جميع الظروف، ولكن يبدو أن ضيق الوقت قد أعجل الطالب المذكور فلم يستطع قفل جميع الظروف بالدقة المطلوبة مما ساعد على كشف العملية وبالتالي إلى إلغاء الامتحان، وقد انتدب فقيدنا العظيم ضمن لجنة أُلِّفَت للتحقيق في الموضوع. وقد انتهت من تحقيقها بإدانة عدد من الطلاب وأحد المدرسين ثم أعيد الامتحان مرة أخرى.

أما الحادث الثاني فإن أحد مديري المدارس النائية ضاق ذرعًا ببعض المدرسين من مدرسته ففصلهم من العمل وزعم لهم أن مديرية المعارف هي التي قررت فصلهم، وكتب لمديرية المعارف يخبرها بأن هؤلاء المدرسين قد ماتوا، وعلى أثر ذلك طوت المديرية قيدهم.. ومرت فترة طويلة حاول فيها المدرسون مع مدير المدرسة العودة إلى مدرستهم ولكن المدير أصر على عدم إعادتهم ففكروا أن يسافروا لمقابلة المسؤولين في مديرية المعارف يلتمسون منهم النظر في قضيتهم بعين العطف وذلك بإعادتهم إلى أعمالهم، وقابلوا المسؤولين فعلًا ولكنهم فوجئوا بأن قيدهم قد طوى بسبب انتقالهم إلى رحمة الله.

ولكنهم أكدوا للمسؤولين بأنهم أحياء يرزقون وكانت قضية انتدب فقيدنا العظيم لبحثها والتحقيق فيها. وكان أظرف ما في الموضوع هو إجابة مدير

المدرسة عن دعواه بأن المدرسين المشار إليهم ماتوا مع أنهم أحياء يرزقون. فقد أجاب بأن الجاهل كالميت لأنه ميت معنويًّا وإن كان حيًّا ماديًّا، وهؤلاء جهلة فهم إذن أموات كما حكم بذلك الإمام الشافعي في أبياته التائية، أو الهائية المعروفة.

هاذان حادثان طريفان كان للفقيد الكبير فيهما دور هام ولو أُتيح له أن يكتب مذكراته - ولعله قد فعل - لحفلت بالطريف المدهش.

أما بعد..

أما بعد فهذه كلمة قصيرة عن فقيدنا الكبير وذكريات جميلة بعضها عن فترة من أسعد فترات العمر قضيتها في رعاية رجل جم المآثر ترك أعمق الآثار وأخلدها، وبعضها ذات صلة وثيقة ببعض.

ولست أريد أن أقصر هذه الكلمة على تمجيده والإشادة بفضله والاعتراف بجميله، ولكنني أريد كذلك أن أهيب بتلاميذ الفقيد وزملائه وعارفي فضله أن يكتبوا تاريخه وأن يسجلوا أخباره وأن ينشروا آثاره، فهو من رجال العلم وأستاذ من أساتذة الجيل ومربٍ من خيرة المربين، وهو واحد من أسرة (الكردي) بمكة، وهي أسرة كريمة لها تاريخها في خدمة العلم ومشاركتها في تدعيم الثقافة وأفضاها في دنيا الطباعة والنشر.

ويخطر ببالي في هذا المجال الأستاذ الجليل عبدالرحمن صباغ، فله مشروع نبيل في خدمة التربية والمربين، وفي تسجيل أعمال المعلمين ونشر تاريخ العاملين في حق العلم والثقافة بمعناها الأوسع، وقد بدأ بداية طيبة تبشر بالخير وأحسن النتائج.

ويبدو لي أن فقيدنا محمد صادق كردي من زملاء الأستاذ الصباغ؛ عاصره في مكة ثم في مصر في فترة طويلة ومن شأن هذه المعاصرة أن تتيح للأستاذ الصباغ مجالات للحديث عنه. وتخليد مآثره وآثاره. وإننا لمنتظرون.

رسالة إلى...
عبدالعزيز الرفاعي

سامحك الله يا صديقي وغفر لك على ما فعلته بي، ولا أظنك غافلًا، عن فعلتك التي فعلت.

لقد قرأت ما لا أحصي من الكتب واطلعت على ما لا سبيل إلى حصره من المقالات. وتلقيت ما لا أستطيع تعداده من الرسائل، ولكن كلمتك التي طلعت بها على الناس وأطلعني عليها الأديب الأستاذ محمد كامل خجا. كانت الكلمات القليلة التي هزتني من الأعماق وعصفت بكياني عصفًا شديدًا ونقلتني بلمسة سحرية، ولا أريد أن أقول بكف عفريت ـ إلى أجمل فترات العمر وأخصب أيام الشباب. كانت أيامًا حافلة بالعمل زاخرة بالإنتاج. قرأنا فيها من الكتب والمقالات ودواوين الشعر ما يرتعد الناشئة اليوم لو حدثتهم عنه ـ وكتبنا فيها من الأدب والشعر والنقد ما يملأ عددًا من المجلدات الضخام، وأصدرنا فيها من المجلات الخطية الأسبوعية والشهرية ونصف الشهرية ما أذهل ذلك المسؤول الكبير الذي احتفى بها أيما احتفاء عندما وضعناها على مكتبه.

وأنت تعلم في هذا الخصوص ما أعلم. وعقدنا فيها من حلقات الدراسة والمناقشة والبحث ما يعادل أيامنا في تلك الفترة الذهبية ـ لقد كان لنا في كل يوم لقاء بل أكثر من لقاء. كنا نلتقي في الحرم حول الكعبة وفي متنزهات المسفلة قرب بركة ماجد وعند المكتبات المحيطة بباب السلام لقاء يوميًا لا يكاد ينقص أو ينقطع وكان محور حديثنا الأدب ومهوى أفئدتنا الثقافة كان لحصولنا على الكتاب الجديد رنة فرح غلاب في نفوسنا، وكانت اللذة التي نشعر بها في صحبة الكتاب لا تعدلها لذة، وكانت قروشنا القليلة حافلة بالخير والبركة كنا ـ كما قلت في كلمتك الرائعة: «رفقة من الأدباء والشعراء تجمعنا صداقة صافية ينظم عقدها الشعر والأدب والكتب».

نعم يا صديقي كنا رفقة... وكان عهد... أما العهد فقد انقضى ولن يجود الزمان بمثله، ولكن صوره وذكرياته ستظل في قلوبنا خالدة باقية لن تجور عليها الأيام. ولن يطمسها غبار النسيان، أما الرفقة فقد سار كل واحد منها في طريقه الذي رسمته له الأقدار. ولكن الصلات لم تضعف ولم تَهُ فهم يلتقون بالأشباح والأرواح، يلتقون عن طريق الكتب والصحف فحسب وإنما يذكرك بكل الرفقة وبكل ما حواه ذلك الماضي البعيد من حياة نشطة وعمل متصل ودأب لا يعرف الكلال، ومن صراع شريف وتنافس كريم وأحلام ذهبية وآمال عريضة.

ولست أدري - يا صديقي - لماذا لم تجدّ تلك الرفقة إلى تسجيل تلك الفترة الخصبة المثمرة وإلى تخليدها في أدبنا؟ فهي جزء من تاريخنا الأدبي لا يكفي أن تكون محصورة في قلوبنا حية في ضمائرنا بل لا بد أن يعرفها الناس.

ولقد بدأت أنت فصورت في كلمتك الرائعة بعض الملامح وأوجزت بعض التاريخ وأرجو أن يكون ذلك حافزًا لك أو لواحد من أولئك الرفقة على كتابة تاريخ تلك الفترة وتسجيل ذلك العهد.

وكنت وفيًّا - كالعهد بك - عندما عرضت لصديقنا محمد سعيد شِيشَّة ولدكان والده - رحمهما الله - فما يجوز لذاكرة الزمن أن تنسى هذا الأديب الدؤوب الذي جعل من دكانة السمن منتدى أدبيًّا تنعقد فيه ندوات يومية، ما أشك في أنه كان لها آثارها في الأدب وفي إنتاج بعض الأدباء، ولعلك تذكر أنه كان يصدر وحده مجلة (خطية) أسبوعية باسم «رسالة الناشئة».

ولقد كان لسجاحة خلقه وسماحة نفسه ورقة شعوره وكرم طبعه مهيئًا للدور الذي قام به، ولو سار في طريقه بدون أن تعترضه العوائق والعقبات لكان له في دنيا الأدب شأن غير هذا الشأن ومكانة غير هذه المكانة.

لا أدري يا صديق كيف عرفته ووصلت حباله بحبالك. وإن كان من المؤكد أن اتصالك به، وأنتما من أبناء بلد واحد أمر سهل ميسور، أما اتصالي أنا به فله قصة أحب أن أتحدث بها إليك لأنها قصة أثيرة إليّ عزيزة على نفسي:

كنت يومئذ في الصف الخامس الإبتدائي وكنت قد بدأت «أفتح عيني» ـ كما كانوا يعبرون ـ وفتح العينين كناية عن بداية العلم والتمييز والتطلع بالنسبة للطفل فهو يدخل مرحلة جديدة يحاول فيها أن يتعرف على الحياة حوله متجاوزًا نطاق أسرته وأقاربه والمحيطين به، إلى غيرهم من الناس، وكنت قد بدأت الدخول في هذه المرحلة تدفعني إلى الأمام حيوية دافقة وذهنية متفتحة ونفسية متطلعة وقلق لا يرحم ويشدني إلى الخلف خجل شديد وحساسية مفرطة وتربية خاصة لها تقاليدها وجذورها، لم تستطع عوامل الدفع أن تدفعني إلى الأمام رغم قوتها لأن بلدي ـ حرسه الله ـ محاطًا بسور يحد من حرية الانطلاق، مما حدا بي إلى أن أبحث عن مجال يحقق لي رغبتي في الانطلاق والانعتاق، وقد وجدته في الكتب والمجلات فأكببت على القراءة والاطلاع وأصبحت ألتهم كل ما يقع في يدي فقرأت ما لا أعد من الكتب وحفظت ما لا أحصي من الشعر. وفي هذه الأثناء نشرت إحدى الصحف في زاوية للتعارف بين الناشئين والمراهقين وكان فيها اسم محمد سعيد شِشَّة وعنوانه في المدعى.

ووجدت في الكتابة إلى صاحب هذا الاسم فرصة لفتح نافذة جديدة أتعرف عن طريقها إلى جديد لا تنشره صحيفة مكة، ولم أتردد فأمسكت بالقلم وكتبت له رسالة ألبي فيها رغبته في التعرف إلى صديق جديد. ولم يطل انتظاري فقد وصلني رده المطول بعد عشرة أيام ـ وكان البريد يصل المدينة ثلاث مرات في الشهر ـ وقد رحب بي أجمل ترحيب وقدم لي بعض المعلومات عنه. وأكد لي أنه سيوافيني برسائله بصورة مستمرة ما دام يجد الجواب على رسائله. وأعجبت بخطه وحسن تعبيره وطول نَفَسِه في الكتابة. ورددت على رسالته برسالة أخرى.

وانتظمت بيننا الرسائل مدة عامين أو أكثر وأصبحت رسائله بالنسبة لي نافذة جديدة، ولم تتوقف بيننا الرسائل إلا عندما سافرت إلى مكة لمواصلة دراستي الثانوية هناك. ومن يدري فربما كان لهذه الرسائل آثار مباشرة أو غير مباشرة على رحلتي إلى مكة. حيث قضيت فيها سنوات ـ أعتبرها من

أجمل سنوات حياتي ـ تعرفت فيها إلى مجموعة كريمة من الأساتذة الأجلاء والعلماء الأفاضل استفدت كثيرًا من علمهم وفضلهم.. وسأظل مدينًا لهم مدى الحياة، كما ارتبَطْتُ في تلك السنوات بنخبة من الزملاء والأصدقاء والمعارف تركوا في نفسي آثارًا بعيدة المدى، ومنهم هؤلاء الرفقة ـ الذين تحدثت عنهم في كلمتك فاستثرت شهيتي لمشاركتك الحديث عن تلك الفترة التي نقلتني من حال إلى أحوال، والتي عشتها بكل أبعادها بعيداً عن عوامل الجذب التي كان لها سلطانها عليّ في المدينة في بداية حياتي.

لقد كانت الرسالة الأولى من رسائل محمد سعيد شِشَّة هي أول رسالة أتلقاها ثم أخذت رسائله تترى. وكانت تصلني على المدرسة الإبتدائية ويبدو أن ذلك حدثًا غريبًا.

ولذلك فقد كانت إدارة المدرسة ترسل هذه الرسائل إلى أبي وكان معلمًا بالمدرسة ويبدو أن والدي قد ساوره شيء من الشك تجاه هذه الرسائل التي تصل لابنه الصغير ولم يتردد فقد فتح رسالتين أو ثلاث واطّلع على محتوياتها فاطمأن على أنه ليس في الأمر ما يدعو إلى القلق أو الريبة. ومن الطريف أنني لم أعلم القصة وفتح الرسائل هذه إلا بعد وفاة والدي بسنوات فقد حدثتني بذلك أمي في إحدى المناسبات، ومن الطريف كذلك أنني كنت أجهل نطق لقب صديقي محمد سعيد وكنت أنطقه بفتحتين على كل من الشينين! ثم اتضح لي بعد أن وصلت مكة والتقيت بصديقي أن النطق الصحيح يكون بكسر الشين الأولى وفتح الشين الثانية مُشددة وعلمت أن «الشِشَّة» لقب أسرة كريمة ذات غصون وفروع. وعلمت بعد ذلك أن «الشِشَّة» اسم لحي كان ضاحية من ضواحي مكة يقضي فيه بعض سكانها كثيرًا من أمسياتهم ـ وقد أصبح اليوم حيًّا جميلًا منسقًا من أحياء مكة ـ شرفها الله.

كذلك طريقة نطق اسم الشارع الذي يقيم فيه دكان أبيه وهو المدعى ولم أعرف النطق الصحيح لاسم هذا الشارع إلا بعد أن عرفت النطق الصحيح للقب صديقي ـ أي بعد رحيلي إلى مكة وإن كنت لم أعرف حتى الآن سبب

هذه التسمية وما هو هذا المدعى بصيغة اسم المفعول ادعى.

التقيت بصديقي محمد سعيد شِشَّة في مكة وكان أكثر لقائنا ـ كما وصفت يا صديقي في دكان أبيه، أما لقاؤنا الثابت فكان في ليلة الجمعة حيث كنا نجتمع في الدكان ثم ننطلق لبعض ساعات طوالًا نطعم ونشرب ونتحدث في الأدب والشعر والنقد والكتب وفي كل ما يتصل بذلك من قريب أو بعيد.

يرحم الله العم مصطفى فلقد كانت دكانه خيرًا وبركة على الأدب ورحم الله محمد سعيد فلولاه لما كان لهذا الدكان ذكر في تاريخ الأدب وبالتالي لما استأثرت بحديثك القيم ولما كان هذا التعليق.

«صور من العيد بين شاعرين»

خطر ببالي وأنا أهم بكتابة مقال عن العيد قصيدة لشاعر من رجالاتنا المبرزين في دنيا الثقافة والأدب تحدث فيها عن البائسين في العيد كنت قرأتها منذ فترة طويلة وقد أخذت أبحث عنها في كتاب بَعُد به العهد وأثناء البحث أذكرني صديق كريم بقصيدة أخرى مشابهة لشاعر عربي شهير وقد عثرت عند صديقين كريمين على الكتاب الذي يحتوي على القصيدة وعلى ديوان الشاعر الآخر.

أما القصيدة الأولى فهي لأستاذنا وصاحب الأيادي علينا السيد أحمد العربي وعنوانها «أيها العيد» وهي منشورة في كتاب وحي الصحراء.

أما القصيدة الثانية فهي لشاعر العراق الشهير معروف الرصافي وعنوانها «اليتيم في العيد» وهي منشورة في ديوانه.

وقد ذكرت شاعرًا آخر أرى أنه أحق بأن يكون موضع الدراسة والبحث بدلًا من الرصافي بسبب اشتهاره بالبؤس شهرة غلبت عليه دون الآخرين حتى أصبح اسمه في أذهان الناس مرادفًا للبؤس وقد دعاني ذلك إلى مراجعة ديوانه معتقدًا أنني سأعثر فيه على أكثر من قصيدة أوحى إليه بها العيد فصور بها بؤس اليتامى وأنات الأيامي وأحزان المشردين في أيام العيد. وتصفحت ديوانه من ألفه إلى يائه فإذا به خلو من أي حديث عن هذه المعاني التي تخطر للنابغين من الشعراء في العيد، ودهشت لذلك أشد الدهش ثم تذكرت أن بؤسه ليس بؤسًا بهذا المعنى الذي يعانيه أولئك الذين قست عليهم الحياة فأذاقتهم من صنوف الشدة ألوانًا وجرعتهم الكثير من صعاب الحياة وعلقمها ولكنه «بؤس أدبي» إذا جاز هذا التعبير، فهو لون أدبي يلقى من الناس استجابة وقبولًا لأنه يلمس فيهم جانب الرحمة والعاطفة وخاصة في الشعوب المظلومة المضطهدة التي تنكب بألوان من الاحتلال الأجنبي والاستعمار الغربي. وقد كان لحافظ في هذا النوع الأدبي ميزة يتميز بها عن شوقي فقرَّبه من الناس وكَسِب به عطف الجماهير.

وتذكرت كذلك أن حافظ كان على صلة بطائفة من كبار الموسرين والزعماء البارزين، فكان يقضي معهم فترات العيد في لهو وفرح ومرح يتحفهم بما حفظ من الطرف والحكايات والنوادر، ويضحكهم بما يفيض من روحه الضاحكة وطبيعته المرحة ويقابلونه بالمثل فيغمرونه بألوان من العطف السابغ والهبات السخية والهدايا السنية، ورجل يعيش في هذا الجو الذي يفيض بالمسرة وينضح بالعطر ويتدفق بالخير لا يستطيع أن يجد مجالاً يرى فيه بؤس البائسين ودموع الحزانى وعبرات الأيامى وقسوة الأيام.

ولكن حافظًا[1] نظم طائفة من القصائد في الحث على رعاية الأيتام والإحسان إلى الضعفاء والأرامل والعناية بالأطفال والمشردين والعميان وذوي العاهات. فكيف نستطيع أن نفسر الدوافع إلى نظم هذه القصائد في ضوء ما سبق أن ألمعنا إليه؟

والتفسير سهل وميسور فكل ما نظمه حافظ من قصائد ومقطوعات في هذه الأغراض الاجتماعية لا يتجاوز الاثنتي عشرة قصيدة ومقطوعة وهي قدر يسير لا يكاد يذكر في حياة شاعر عاش ما ينوف عن الستين عامًا واشتهر بألقاب الشاعر الاجتماعي وشاعر الشعب وشاعر البائسين.

والناقد الدارس لهذه المجموعة من القصائد يلاحظ أن كثرتها الكاثرة إنما نظمها الشاعر تلبية لدعوة وجهت إليه من الجهات التي تعنى برعاية طوائف الثكالى والأيامى والأيتام. ولا تكاد تجد قصيدة أو مقطوعة قالها الشاعر بباعث عن انفعالاته أو نتيجة لتاثره بمنظر أو حادثة أو حديث بينما لا يكاد يخلو ديوان من دواوين الشعراء المعاصرين له من عدد من القصائد والمقطوعات صوروا فيها بؤس الإنسان وقسوة الزمان ومرارة الحرمان، وانفعلوا بما رأوا من حوادث أو سمعوا من أحاديث.

---

(١) الشاعر/ محمد حافظ إبراهيم

ميلاده: لم يستدل على تاريخ ميلاد له، فقدر سنة (٣٩) تسعة وثلاثون سنة بعد كشف طبي يوم ٤/فبراير سنة/١٩١١م أي ولد يوم ٤ فبراير ١٨٧٢م

وفاته: توفي في الساعة الخامسة من صباح الخميس ٢١ يولية ١٩٣٢م بعد إحالته إلى التقاعد بنحو أربعة أشهر ونصف انظر مقدمة ديوانه الجزء الأول طبعة ١٩٦٩م بيروت.

وكان الشاعر حافظ يجد في هذه المناسبات مجالًا طيبًا للبروز فهو بارع في تصوير فظاعة البؤس. قادر على استدرار الدموع يساعده على ذلك تلك الصور التي انطبعت في نفسه منذ طفولته وشبابه وهي صور كئيبة حزينة خلفها ما مر به من شقاء وحرمان وفشل وإخفاق فلم يوفق في دراسته ولم ينجح في عمل ولم يصل إلى هدف مع أنه سعى حتى كاد ينتعل الدماء ولكنه عاد ولم يعقب إلا التندم.

كما كان يساعده صوت جهوري وحنجرة ذهبية وإلقاء رصين كثيرًا ما كسب له الفوز على الأقران وغطى على ما في قصائده من ضعف في الشعور أو نقص في الخيال أو اهتزاز في الصور.

ومع أن هذا الفوز كان مؤقتًا يزول بزوال صداه من النفوس بعد فترة من الوقت فقد أكسب الشاعر شهرة كبيرة لأن المستمعين للشعر لا يحصيهم العدد خاصة عندما ينشد الشعر صناجة العرب في القديم أو شاعر النيل في الحديث. أما قراء الشعر المتذوقون له فقلة قليلة.

وقد هيأت الظروف للشاعر حافظ طائفة من المعجبين والأدباء الشباب يشيدون بذكره في الصحف ويهتفون باسمه في المحافل لأنهم بذلك يخدمون فكرة أو ينشرون مذهبًا لا يقصدون شاعرًا.

ونعود إلى الحديث عن الشاعرين العربي والرصافي، ويتفق الشاعران في المعاصرة فقد قضى الرصافي أكثر حياته في القرن العشرين ولم يودع هذه الحياة إلا في ١٦ مارس ١٩٤٥م، أما شاعرنا أحمد العربي - أمد الله في حياته النافعة - فهو ابن هذا القرن العشرين.

ويتفق الشاعران كذلك في شرف النسب فكلاهما ينتسب إلى أسرة علوية النسب ولكن شاعرنا يمتاز بعروبته من ناحية الأب والأم - حسب ما وصل إلى علمي.

أما الرصافي فهو من أب كردي وأم عربية، يقول الزيات: إن أمَّه من بدو العرب أما أبوه فمن بدو الكرد.

وقد كان والد شاعرنا عالمًا فاضلًا يشتغل بالتدريس أما والد الرصافي فقد كان منتسبًا إلى الجندرمة «الدرك» والجندرمة هم المسؤولون عن الأمن خارج المدن في الأرياف والقرى أما الشرطة فكانوا يتولون الأمن داخل المدن حسب النظام العثماني.

وقد كان لذلك أثره فالبيئة العلمية التي نشأ فيها شاعرنا العربي أتاحت له أن يدرس دراسة نظامية حتى نهاية المرحلة الجامعية فهو من أوائل الحاصلين على شهادة عالية ومن رواد نهضتنا العلمية الحديثة.

أما الرصافي فإن بُعد والده عنه وعدم اتصاله به إلا في فترات متباعدة أسبغ على حياته الأولى كثيرًا من الاضطراب فلم يتح له أن يدرس دراسة نظامية بل إن تأثير ذلك رافقه طول حياته فظل مضطربًا لا يعرف الهدوء ولا الاعتدال ولا الاطمئنان.

ويتفق الشاعران في أن كلًّا منهما مارس التعليم أما شاعرنا فقد مارس التعليم منذ انتهاء دراسته العالية فقد عمل أستاذًا في المعهد العلمي السعودي وفي مدرسة العلوم الشرعية ثم عين مديرًا لمدرسة الأمراء بالرياض ثم مديرًا للمعهد العلمي السعودي ومدرسة تحضير البعثات. وانتقل بعد ذلك إلى المعارف مديرًا للتعليم الابتدائي والثانوي وبعد ذلك انتقل مديرًا عامًا لمديرية الأوقاف التي تحولت أخيرًا إلى وزارة.

ثم عين عضوًا في مجلس الشورى. وهكذا قضى في خدمة المعارف ما يزيد عن ربع قرن. أما الرصافي فقد عين معلمًا بمدرسة أولية في إحدى القرى بالعراق. ثم عين مدرسًا للغة العربية في المدرسة الإعدادية ثم دعي إلى الآستانة ليدرس اللغة العربية في المدرسة الملكية الشاهانية كما قام بالتدريس في مدرسة الواعظية، وتوجه إلى القدس ليتولى تدريس آداب اللغة العربية بدار المعلمين.

وعين بعد ذلك مفتشًا للغة العربية بوزارة المعارف ثم نقل إلى تدريس اللغة العربية وآدابها في دار المعلمين العالية ثم انتقل إلى أعمال أخرى حتى

أحيل إلى التقاعد.

ويتفق الشاعران في أن كلًّا منهما كان كبير النفس شديد الأنفة ولكن كبر النفس في شاعرنا العربي دفعه إلى أن يختط لنفسه خطة عُمَرية صارمة التزم السير عليها فلم يحد عنها قيد أنملة ولذلك ظل حيث ينبغي أن يكون مثلًا حيًّا للخلق الفاضل في أسمى صوره فلم ينحدر إلى لهو أو هجاء أو سخف.

أما كبر النفس في الرصافي فقد دفعه إلى الهجاء والتعريض والإساءة ثم هوى به إلى السكنى في حي البغايا «يشرب العرق ويلعب الورق ويستبيح الجمال» كما قال هو مفرد في حياته. ولكن الحرية التي منحها الرصافي لنفسه مكنته من أن ينتج شعرًا كثيرًا حفل به ديوانه الضخم، أما شاعرنا العربي فقد وقفت خطته العمرية الصارمة حائلًا بينه وبين أن يقول في كل أغراض الشعر بل إنها حالت بينه وبين أن ينشر كل ما نظم لأننا نستبعد أن تكون هذه القصائد القليلة المنشورة في وحي الصحراء وفي بعض الصحف المحلية هي كل ما نظم شاعرنا العظيم. فأين شعره الوصفي وأين شعره الغزلي وقد قضى في ربوع النيل فترة من أخصب فترات شبابه إضافة إلى ما كان يتمتع به من صباحة الوجه ورقة الشعور وفصاحة اللسان والوجدان.

وحين نعود إلى القصيدتين نجد أن قصيدة الرصافي عينية القافية بينما نجد قصيدة أستاذنا العربي نونية القافية. وقد صاحب التوفيق شاعرنا العربي فإن قافية النون الممدودة بما فيها من جرس خافت وما يسبقها من مد طويل توحي إلى النفس بنوع من الانفعال الحزين يؤثر أبلغ الأثر في نفوس القارئين والسامعين.

أما قصيدة الرصافي فقد اختار لها قافية العين المضمومة ويبدو أنه اعتمد على المضمون فقد صاغها على شكل قصة وبذلك ضمن مسايرة القارئ له رغم ما في القافية من صعوبة وجفاف.

ولجوء الشاعر الرصافي إلى القالب القصصي اضطره إلى الإطالة فبلغت أبياته الثلاثة والثمانين بيتًا وهي قدر غير يسير، أما قصيدة شاعرنا العربي فلم تتجاوز أبياتها الثمانية عشر بيتًا ولكنها قصيدة آسرة تصور ما أثاره العيد من شجون الشاعر حينما ذكره باولئك البائسين مما دعاه إلى عقد مقارنة لطيفة بين ما يصنعه الموسرون وما يصنعه البائسون في أيام العيد وقد اختص الأطفال بالحديث فصور لوعتهم ولجوءهم إلى أمهاتهم اللائي لا يملكن لهم نفعًا.

وقد ذكر الموسرين بجيرانهم الذين يطوون بطونهم جوعًا بينما هم يشكون بَشَمَ البطون.

وقد تساءل. أي فضل للعيد يستاثر فيه بالطالع الميمون، بينما الفقير الكئيب يرجع منه بنصيب الأسد المغبون. ويقرر أن كل دهر الموسرين عيد قد أغناهم عن عهده الظنون.

أما قصيدة الرصافي فتحكي قصة مؤثرة تهز العواطف وتستثير الشجون وقد أضفى عليها القالب الشعري كثيرًا من الروعة... وكان بودي أن ألخصها للقراء ولكن ذلك سيضاعف من حجم المقال وآمل أن أعود إلى القصيدتين مرة أخرى بالدرس والتحليل.

وإن كنت أحب أن أشير إلى عيب وقع فيه الرصافي فقد اضطرته القافية إلى أن يسمي أحد أبطال القصة «بوزع» وقد سبق للنقاد أن انتقدوا جريرًا لاستعماله هذا الاسم الشاذ.

وتحية لأستاذنا العلامة أحمد العربي الذي يتنازع الفخر به الشعر والكتابة والخطابة والإدارة مع أصدق التهاني بالعيد المبارك.

لقاء... كل أسبوع(*)

(١ ـ ٢)

سَنَّت مجلة الآداب البيروتية سُنَّة حميدة إذ أنها تكلف ثلاثة من الأدباء بمراجعة العدد فيقرأ أحدهم الشعر وينقده ويتولى الثاني نقد القصص أما الثالث فمهمته أن يعلق على المقالات والبحوث. وهكذا لا يسير ما يكتبه الأدباء دون أن يترك أثرًا قويًّا وصدى عميقًا.

خطرت ببالي هذه السُّنَّة وأنا أقرأ عدد الصيف الذي أخرجته مجلة الرائد وأحاول أن أتتبع صدى هذا العمل النبيل في محافل الأدباء وفي كتاباتهم.

ولا أريد أن أقول إن الصدى بقدر ما كان قويًّا في نفوس القراء كان ضعيفًا في أقلام الأدباء كما لا أريد أن أعلل أو أحلل ولكنني أحب أن أعرض لبعض ما ورد في عدد الصيف استعراضًا خفيفًا فإن من الظلم أن يمر هذا العمل الكبير دون أن يلقى ما هو جدير به من عناية ودرس.

وأول ما يلقاك في هذا العدد مقال الأستاذ محمد حسين زيدان بعنوان «الصيف.. ضيعت اللبن» والأستاذ زيدان كاتب عصامي متمكن معدود من الرعيل الأول في نهضتنا الأدبية الحديثة كون نفسه وكوَّنته الأحداث التي تصنع الرجال.

ولست أدري لماذا خطر ببالي وأنا أكتب هذه الكلمة الكتاب الذي وضعه مؤلف أمريكي وسماه «التطور الكبير» تحدث فيه حديثًا رائعًا عن التطور الذي مرت به أمريكا وعن المراحل السريعة التي قطعتها بين عصر العربة التي تجرها الخيول وعصر السيارة والطائرة.

ولست أدري لماذا خطر ببالي هذا الكتاب في هذه اللحظة ولكن الذي أدريه هو أن الأستاذ الكبير يعرف الكثير عن تطور بلادنا الكبير فقد أدرك العهد

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٧/٦هـ الموافق ١٩٦٢/١٢/٣م العدد (١٤٣)

السابق صبيًّا وفتى وشارك في نهضة هذا العهد الزاهر الذي نعيشه. وهو بهذا وبثقافته الواسعة وعقله اليقظ الواعي وقلمه المصقول المتمكن يستطيع أن يكتب لنا مذكرات عن الأحداث والظروف التي عاصرها ستظل من الذخائر الخالدة في أدبنا الحديث وأذكر أنني قرأت له مقالًا عن «السقائين» وعن طريقتهم في التعامل وعن نظمهم ومحاكماتهم - أعتبره من المقالات القليلة التي أعتز بها في أدبنا الحديث فهل يتفضل الكاتب الكبير بالبدء في كتابة هذه المذكرات. أم هل يتفضل فيؤرخ لنا الفترة السابقة في حياة أمّتنا عن طريق ترجمة حياته كما فعل سلامة موسى في كتابه «تربية سلامة موسى». ذلك أمل نعتقد أن الأستاذ كفيل بتحقيقه.

و«الصيف ضيعت اللبن» مثل قديم ورد بهذه الصيغة كما ورد بصيغة أخرى هي «في الصيف ضيعْتِ اللبن» بسكون العين وكسر التاء في جميع الحالات والأصل فيه كما قال الميداني أن: «دخنتوس بنت لقيط بن زرارة» كانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخًا كبيرًا فكرهته فطلقها ثم تزوجها فتى جميل الوجه وأجدبت فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة فقال عمرو: «في الصيف ضيعت اللبن» فذهبت مقالته مثلًا يضرب لمن يطلب شيئًا قد فوته على نفسه. ويقول الميداني إنما خص الصيف لأن سؤالها الطلاق كان في الصيف أو أن الرجل إذا لم يطرق ماشيته في الصيف كان مضيعًا لألبانها عند الحاجة.

ولكن الأستاذ زيدان فسر المثل تفسيرًا جميلًا ما في ذلك شك أما أن التفسير يتفق مع الملابسات التي صاحبت قول المثل أو لا يتفق فذلك شيء آخر. ولست أدري لماذا تجاهل الأستاذ الكبير فصل الربيع بينما ذكر الشتاء والصيف والخريف. والربيع فصل بارز في دنيا العرب وهو عنوان على الخير والخصب واعتدال الجو كان وما يزال.

لقاء... كل أسبوع(*)

(٢ ـ ٢)

وفي مقال الأستاذ الكبير بعد ذلك معلومات طريفة وجديدة كتحديد الصيف لسداد الديون وأن المرابين اليهود هم الذين حددوا هذا الموعد ولعل طبيعة الفصول هي التي حددت هذا الموعد إذ في الصيف تنضج الثمار وتشتد حركة البيع والشراء ويتلو ذلك تصفية الحساب وتسديد الديون.

وتحدث الأستاذ الكبير عن رحلة قريش إلى الشام وأثر هذه الرحلات فقال: «رحلة الصيف إلى الشام أوصلت قريشًا إلى فنون من المعرفة والعلم بهذه الصلة بعالم آخر وجد فيها الإسلام رجاله الفاتحين الذين عرفو أسلوب الحكم وإدارة الدولة وقيادة الشعوب كل هذا إرهاص للنبوة ودليل على أن العرب لم يكونوا الجاهلين الغافلين.

لقد كانوا ضالين بعقيدة مشركة فلما هداهم الله لعقيدة التوحيد وجد التوحيد الأمّة الفاهمة الحريصة على مكارم الأخلاق».

والأستاذ يؤيد بهذا فريقًا من العلماء المؤرخين الذين يذهبون إلى القول بأن العرب لم يكونوا أمّة جاهلة من حيث الثقافة والمعرفة ولكن جهلهم مُنصَبّ على فساد عقيدتهم ولهم على ذلك طائفة من الأدلة أذكر منها دليلًا واحدًا أذكرنيه الأستاذ عن المرابين اليهود.

ذلكم هو الربا فقد قرر هؤلاء العلماء أن بعض الحواضر العربية وصلت في معاملاتها التجارية بما في ذلك الربا إلى أحدث ما وصلت إليه الحضارة الأوروبية الحديثة.

ولست أدري على أي أساس بنى الأستاذ فكرته التي تقول إن اليهود ما عاشوا إلا في قرى وقد ثبت تاريخيًّا أنهم سكنوا المدن إلا إذا كان المقصود

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣/٧/١٣٨٢هـ الموافق ١٠/١٢/١٩٦٢م العدد (١٤٤)

بكلمة قرية معنى أوسع من المعنى المحدد في أذهان الناس عن القرية كما ورد في الحديث الشريف: «أُمِرتُ بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة».

ومن المعلومات الطريفة حقًّا ما ورد في مقال الأستاذ الكبير من أن شهر رمضان سمي بهذا الاسم لأنه كان يأتي في شدة الحرارة وأن العرب لجأوا إلى طريقتهم في النسيئة واستطاعوا بذلك أن يثبتوا هذا الشهر فلا يأتي إلا في الصيف.

بقي شيء واحد، وهو: هل كانت العرب تصوم هذا الشهر أو بعض أيامه؟ وإذا كانت تفعل ذلك فلماذا حرصوا على أن يكون في أشد الفصول حرارة؟ مع أنه كان في إمكانهم أن يستغلوا النسيئة فيثبتوا شهر رمضان في فصل من الفصول المعتدلة، أم أن عملهم هذا دليل آخر على شدة عزيمتهم وقوة شكيمتهم وقدرتهم العظيمة على التحمل والصبر.

ومن المعلومات الطريفة كذلك ما أورده الأستاذ في مقاله عن.. «نبوخذ» امبراطور بابل الذي أذل اليهود واحتل فلسطين فاتصل بوادي القرى فأعجبه جو تيماء فجعلها عاصمة صيفية[1] وهذه ناحية تاريخية هامة وربما كان أهم ما ورد في المقال من حقائق، وليت الأستاذ الكبير قَصَرَ حديثه على هذه الحقيقة وأوسعها شرحًا وتفصيلًا، وليته يبادر مشكورًا بنشر بحثه عنها كما وعد في مقاله.

وسلام على الأستاذ الكبير «الشيخ» الذي يتجدد شبابه وكأن الشاعر عناه عندما قال:

يا عَزُّ هل لك في شيخ فتى ابدًا ... وقد يكون شباب غير فتيان

---

(١) ٥٥٥ ـ ٥٣٩ . ق.م

لقاء... كل أسبوع(*)

قرأت في أسبوع واحد قصيدتين جميلتين نشرت إحداهما في «أخبار الظهران» ونشرت الأخرى في «القصيم». أما القصيدة الأولى فقصيدة عاطفية رائعة للأستاذ محمد سعيد الشيخ علي الحنيزي بعنوان سألتني أسماء مطلعها:

سألتني أسماء ذات مساء ... عن سكوتي وحيرتي وفتوري
ما الذي أسكت الهزاز عن الشدو ... وهذا الربيع فجر الطيور
أيها الصادح الذي أسكر الزهر ... فذاعت أسراره في العبير
عد إلى وكرك الجميل وردد ... نغمات مع الصباح البكور
يا نجي الطيور والحقل والور ... د ترنم على أغاني الغدير
ما حنين الأوتار ما نغم العود ... وما نسمة الصباح المنير
غير الحانك التي هي فجر ... ودموع لجرح قلب كبير

ويستمر الشاعر في قصيدته التي بلغت ثلاثة عشر بيتًا على هذا النسق الرائع والشاعر كما يبدو من قصيدته هذه ومن إصداره ديوانًا سماه «النغم الجريح» - لم أطلع عليه بعد - شاعر متمكن يحسن علاج القريض وليس في القصيدة ما يدعو إلى الملاحظة غير تكرار كلمة الطيور في القافية، وصحيح أن علماء العَروض أجازوا للشاعر أن يكرر القافية بشرط أن يكون بين البيتين اللذين تكررت فيهما القافية ما لا يقل عن سبعة أبيات، وصحيح أن الأستاذ الشاعر لم يكرر كلمة الطيور إلا بعد ثمانية أبيات، ولكننا كنا نؤثر عدم تكرارها وخاصة في قصيدة قصيرة لم تتعدّ أبياتها الثلاثة عشر بيتًا، على أن هذه ملاحظة على الهامش وربما لم يغفل عنها الشاعر ولكنه تجاهلها لسبب من الأسباب.

أما القصيدة الثانية فهي قصيدة متماسكة فيها رصانة وفيها قوة بقدر ما في

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨١/٩/٨هـ الموافق ١٩٦٢/٢/١٣م العدد (١٠١)

السابقة من رقة وسهولة وهي للأستاذ عبدالعزيز محمد.

ومن المصادفات الغريبة أن يكون عدد أبيات هذه القصيدة كعدد زميلتها السابقة؛ ثلاثة عشر بيتًا.

والقصيدة بعنوان «القصيم الذهبي» ويبدو أن شاعرنا معمور الفؤاد بحب القصيم وحب بريدة «الرابضة في القلب منه» والحق أن مقدمة القصيدة هي نفسها شعر راقص لا ينقص إلا الوزن، ولذلك فلا أحب أن أحرم القراء من الاستمتاع بها، فأنا أنقلها لهم.. يقول الشاعر: «القصيم حينما يصدح كروانه. ويغني هزاره وتتهامس أشجاره، والقصيم في الصباح والأصيل وفي كل آن.. متعة للنفس وسلوان للحزين، في رياحينه الفيح تأرجات الندى، وفي رماله الذهبية رقصة الجمال إن في كل ذلك «لسر عبقري خالد» تتراءى فيه صور التفوق.

وقبل أن أورد القصيدة أو بعضًا منها أحب أن أذكر القراء بأن هذه المقدمة وهذه القصيدة لشاعر، والشاعر لا يرى بعينيه فقط بل يرى بخياله وشعوره وعواطفه ويرى بحواس أخرى غير منظورة ﴿**ألم تر أنهم في كل واد يهيمون**﴾ وتعبير القرآن بالهيام تعبير عبقري معجز.

وقد أحببت أن أذكر القراء بذلك حتى يكونوا على بينة من الأمر وأذكر بهذه المناسبة حديثًا أورده الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه «حياة الرافعي» جاء فيه: «جلست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافعي ونذكر من خبره فقص عليّ فقال:

كان الرافعي يجلس على هذا الكرسي من هذه الغرفة وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة.. ومضى الحديث بيني وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس فأخذ الرافعي يصفها لي وصفًا لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته وأطاوعه القول على تصويرها كما هي في نفسه فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة ما لم يجتمع مثله لامرأة وتمثلت صورتها لعيني كما أراد أن يصف

فلما بلغ آخر الحديث عنها قدم إلى صورتها في ورقة لأرى بعيني مصداق ما سمعت..

قال الأستاذ توفيق الحكيم: ونظرت إلى الصورة التي صورها لي حديث الرافعي وإلى الصورة التي في الورقة فكأنما استيقظت من حلم جميل...

يرحمه الله لقد كان شاعرًا».

هذا شأن الشعراء فلنعد إلى القصيدة

الرؤى والجمال ملء إهابه   وسنى الحسن في اتقاد شبابه
تتغنى به الطيور نشاوى   تتراءى مزدانة في رحابه
شفه منه روضة ومحياه   ونفح الأريج ملء ترابه
وخرير الماء ينساب لحنا   عبقريا في وهنه واضطرابه
ودموع الرمال بها النور   زكيا في سهله وقبابه
إنها صورة تغنى بها الأهل   وشاموا الجمال ملء إهابه
صنعتها يد الإله فباتت   آية الله حيث لاذت ببابه

هذه بعض أبيات القصيدة وهي أبيات قوية رصينة آسِرة. أما بقية الأبيات فأرجو أن يعود إليها الشاعر فهي في حاجة إلى هذه العودة فالبيت الثالث مثلًا جاء هكذا:

صدحت للحياة ماس بها الحسن   وللطير لحن بغدوه وانقلابه

والشطر الأول لا غبار عليه أما الشطر الثاني فلم أستطع أن أقرأه فهل هناك خطأ مطبعي؟ أم هل هناك زيادة أو نقص؟ فذلك ما لا أدريه.

والبيت السابع هكذا؟

والضباب البديع يزجي رداء   انيقًا بخطوه وانسيابه

وما قيل عن البيت السابق يقال عن هذا فلابد أن هناك كلمة ناقصة ولا بد من إجراء تعديل في الشطر الأخير حتى يستقيم البيت.

أما البيت الذي قبل البيت الأخير فقد ورد هكذا:

تـلـك يـا عـاشـق الجمـال مـزايـا   لـيـس يـحـظـى بمـثـلـهـا أتـرابـه

وهـو بيت جميل رائع المعنى رائع الصياغة ولـولا أن الشاعر نسي في غمرة نشوته أن قافية القصيدة مجرورة فرفع قافية هذا البيت وهذا ما يسميه العروضيون بـ «الإقواء» فيما أذكر، لولا أن الشاعر فعل ذلك لكان بيته هذا من عيون هذه القصيدة التي تستثير الإعجاب.

وأرجو ألا يدهش القارئ إذا أعلمته أنني عندما أمسكت بالقلم لكتابة هذه الكلمة لم يكن من قصدي أن أعرض لهاتين القصيدتين بالملاحظة أو النقد ولكن قصدي القاصد هو أن أسجل اغتباطي بنشر قصيدتين عربيتين رائعتين في أسبوع واحد بعد أن خَفَت صوت الشعر الأصيل وأصبح العثور على قصيدة جيدة في صحفنا من الأمنيات النادرة.. أما ما يسمونه بالشعر الجديد فهو جديد حقًّا، أما أنه شعر فذلك أمر يحتاج إلى نظر.

أجل لم يكن من قصدي إلا أن أحيي الشاعرين الرقيقين وأن أسجل اغتباطي بهذه الظاهرة الطيبة التي تبشر بعودة الشعر الأصيل.

فمعذرة للأستاذين الشاعرين وأجمل تكريم وألف تحية.

لقاء... كل أسبوع(*)

(١ ـ ٣)

إنه أديب ـ ما في ذلك شك ـ أديب بكل ما تحمله الكلمة من معان[١] حتى بذلك المعنى الشعبي حيث يصفون فتى خجولًا رقيق الحاشية فيقولون عنه إنه «أديب حشيم» تحكم عليه بذلك من أول وهلة حتى ولو لم تكن لقيته قبل أو اتصلت به من قريب أو بعيد. فهو دقيق التقاطيع متناسق الأعضاء دائم الابتسام رغم هالة الحزن التي تلف وجهه والتي لم أعرف لها تفسيرًا لأنها تناقض الابتسام الدائم والمرح الذي يواجهك به كلما قابلته أو تحدثت إليه.

وإن كان من المعروف أنه فقد أباه في السنوات الأولى من حياته وربما كان هذا هو السبب في هذه الهالة الحزينة التي بقيت رغم مرور السنوات الطوال. وربما كان هذا أيضًا هو سر الابتسام الدائم والمرح اللذان يقابلانك كلما لقيته أو جلست معه ويبدو أن هذا المرح وذلك الابتسام كانا مصطنعين في البداية بقصد التغلب على مرارة الحزن والظهور أمام الرفاق بمظهر لا يثير الشفقة أو العطف وبعض النفوس الحساسة ومنها نفس «صاحبنا» لا تطيق نظرات الرثاء والتحسر لأنها نفوس كبيرة ومنذ قديم قال شاعر العربية:

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

وقال:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أَنَفٌ أن تسكُن اللحم والعظما

كان ابتسام صاحبنا ومرحه ـ كما قلنا ـ مصطنعين وبمرور الأيام أصبحا طبيعيين.

وربما صح هذا التفسير لهذه الهالة الحزينة التي تلف وجه صاحبنا فإن لم

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٣/١/٤هـ الموافق ١٩٦٣/٥/٢٧م العدد (١٦٦)

(١) هو الأستاذ. حسن عبدالله القرشي، وله إنتاج أدبي وفير.

يصح هذا التفسير وإن كنا أوغلنا في الخيال فمعذرة للصديق الكبير.

ونترك الخيال لنعود إلى الحقيقة فنقرر أن صاحبنا عصامي بنى نفسه بناءً محكمًا. وليس أدل على هذه العصامية من أنه أصبح شيئًا كبيرًا في دنيا الأدب فنظم الشعر وأخرج عدة دواوين وعالج القصة والرواية فقدم أشياء حازت إعجاب القراء والنقاد وتمرس بالدراسات والبحوث فأصدر أنواعًا منها تعتبر من مفاخر أدبنا الحجازي. كما كتب عددًا كبيرًا من المقالات ـ عالج فيها الكثير من الشؤون.

والغريب أنه قد وصل في دنيا الوظيفة إلى مركز يتمناه الكثيرون ولم يقنع بما وصل إليه في دنيا «الثقافة الرسمية» إن جاز هذا التعبير فتقدم وحصل على «التوجيهية» ثم التحق بجامعة الملك سعود بالرياض بكلية الآداب وهو الآن في طريقه إلى التخرج.

ولن يفيد صاحبنا من حصوله على الشهادة الجامعية مركزًا أو مرتبًا كما يفعل الكثيرون المنتسبون فقد تعدى ذلك الطور منذ عهد بعيد ولن يزيد كثيرًا من المعلومات التي يجهلها إلا في قليل جدًا من فروع المعرفة.. ولكنه أراد بحصوله على الشهادة أن «يقف» أمام تيار هؤلاء الجامعيين الذين لا يعترفون بأحد ولو فاقهم ثقافة حتى لكأن الشهادة الجامعية هي كل شيء ولو كان صاحبها جامد الشعور متبلد الاحساس محدود الثقافة هزيل التفكير!

لقاء ... كل أسبوع(*)

(٢ ـ ٣)

عرفت صديقنا الأديب البارع منذ عهد «التلمذة» أو منذ عهد الطلب ـ كما كانوا يعبرون قديمًا ـ كنت طالبًا بالمرحلة الثانوية وكان هو موظفًا. ولا أدري كيف عرفته ولكن الذي أدريه تمامًا هو أنني منذ عرفته حتى هذه اللحظة لم أعرف فيه إلا خلائق النبل والأريحية والرقة والكرم وحسن اللقاء.

صحيح أننا لا نلتقي كثيرًا بسبب أنني أعمل في بلد ويعمل هو في آخر وحتى في الفترة الأولى من تعارفنا وعندما كنا في بلد واحد لم نكن نلتقي كثيرًا إذ يبدو أن ظروفه كموظف وارتباطاته برفاقه من الموظفين لم تكن تسمح له بأن يلقى رفاقه من «الطلاب» وخاصة الفقراء منهم إلا نادرًا.

وأرجو ألا يظن ظان أنني أتهم صديقي بالغطرسة والكبرياء فالحق الذي لا مراء فيه أنه كريم النفس مرهف الحس رقيق الشعور شديد التواضع خفيف الظل غير أنني حاولت أن أفسر سبب قلة اللقاء في السنوات الأولى من تعارفنا. وقد يكون السبب الذي ذكرته ـ وهو يشير إلى بعض التقاليد الاجتماعية صحيحًا ـ وقد يكون السبب هو «الخجل» الذي كان يسيطر على شخصيتي وكان يفرض علي نوعًا من الانطواء وقد تكون هناك أسباب أخرى.

والخجل بالنسبة لي تقابله بالنسبة لصديقي جرأة محمودة وشجاعة أدبية يعود لهما الفضل في اقتحامه كثيرًا من الميادين وفي التعرف على كثير من الشخصيات الأدبية الكبيرة في العالم، وأذكر أنني زرت معه حين التقينا بمصر أديب الإسلام الكبير سيد قطب في منزله بحلوان ودار بيننا حديث طويل ربما عرضت له في مناسبة أخرى.

(*) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٣/١/١١هـ الموافق ١٩٦٣/٦/٣م العدد (١٦٧)

وتواضع صديقنا ليس موضع نقاش ولكنني أذكر على سبيل المثال أنني كتبت له منذ مدة خطابًا بدأته بلقب «سعادة» ورد عليّ برسالة رقيقة يعتب علي فيها عتابًا أرق من النسيم على كتابة هذا اللقب ويتساءل في لوذعية قائلًا: «وأين هي السعادة يا صديقي».

وقد أشرنا فيما سبق إلى الكرم باعتباره إحدى صفات صديقنا البارزة أما الكرم بمعناه الواسع فذلك أمر لا مجال للنقاش فيه، وأما الكرم بهذا المعنى الضيق الذي تعارف عليه الناس فأعترف بأن صديقي لم يتفضل بتوجيه أي دعوة لي وإن كان من الانصاف أن أسجل على نفسي أنني لم أوجه إليه أي دعوة - على «الأقل في الفترات التي زار فيها المدينة - وإن كان قد نالني من كرمه ثلاثة أشياء: ديوانه الأول «الابتسامات الملونة» وديوانه الثاني «مواكب الذكريات» ثم «محفظة نقود».

أما الديوانان فقد تفضل مشكورًا بإهدائهما إلي عند صدورهما.

ومن الغريب أن الصديق تفضل بإهداء ديوانيه إلي ولكنه أمسك عن إهداء بقية كتبه عندما أخذت أعالج شؤون النقد وأركز اهتمامي بصفة خاصة على إنتاج أدبائنا الوطنيين.

ولم أستطع أن أعرف سبب ذلك، أهو اعتزازه بنفسه؟ فهو يرى أن في إهداء كتبه معنى من معاني الدعاية - وهو واثق من أن اسمه قد أصبح لامعًا لا يحتاج إلى مزيد من الدعاية - أم هي فكرة اقتصادية لأن أصدقاء صاحبنا كثيرون وهو حريص على أن يرضيهم جميعًا وإرضاؤهم يستدعي أن يقدم لهم كمية كبيرة من النسخ وفي ذلك خسارة مالية محققة.

وأنا مع الصديق الأديب إذا كانت هذه نظرته فإن من واجب الأدباء أو النقاد والمثقفين أن يكونوا عونًا لكل أديب فإن من الأمور التي تستثير العجب ما يلاحظه الناقد من أنه رغم أن نسبة التعليم قد ارتفعت في كثير من الأقطار العربية وأن عدد الجامعيين قد بلغ أرقامًا ضخمة فإن توزيع الكتاب الجاد ذي الموضوع الرصين لا يزال ضعيفا ضعفًا مزريًا.

وألف نسخة من كتاب من هذه الكتب تساق إلى شرائه جميع الأقطار العربية بالطبل والزمر ومع ذلك لا تنفد طبعته إلا بعد مضي عدة سنوات! ومن أجل ذلك يلجأ المؤلفون إلى طرق غريبة في سبيل نشر إنتاجهم. ربما عرضنا لها في مقال آخر.

والحديث عن كرم صديقنا الأديب اللامع يدفعنا إلى أن نعرض لحفلة الشاي الضخمة التي أقامها في داره تكريمًا لصاحب السمو الملكي الأمير مساعد بن عبدالرحمن وزير المالية. والجديد في هذه الحفلة هو توزيع الداعي «مجموعة طيبة من صميم مكتبته على المدعوين ـ بطريق القرعة ـ فنال كل مدعو كتابًا قيمًا» كما روت ذلك مجلة المالية والاقتصادية.

وهذه طريقة جديدة وجميلة تستحق التنويه والإشادة وإذا كنت فيما سبق قد تغاضيت عن حقي في زيارة منزل صديقي فإنني الآن مُصِرّ على المطالبة بهذا الحق فلعلي أضيف إلى مكتبتي كتابًا نادرًا من الكتب القيمة التي تحفل بها مكتبة صديقي أو لعلي أحصل على ما ينقص مكتبتي من مؤلفات صديقي لأضعها جميعًا على محك النقد ومن أنذر فقد أعذر.

ومن العجيب أن مؤلفات صديقنا ـ رغم كثرتها وتنوعها ودسامتها ـ لم تلق ما هي جديرة به من نقد وشرح وتعليق، وهذا دليل على ركود حركة النقد في بلادنا ركودًا يستدعي الرثاء.

لقاء... كل أسبوع(*)

(٣ ـ ٣)

ولم أزر ـ كما عرف القراء ـ مكتبة صديقي التي وصفتها مجلة المالية والاقتصاد بأنها كبيرة ولكنني أعرف ثقافة صديقي فهو مثقف ثقافة واسعة جديرة بأن يحسده عليها كثير من شبابنا «الجامعيين» وحملة الشهادات العالية.

ولعل القراء يذكرون تلك المسابقة التي قدمتها جريدة البلاد في العام الماضي للقراء والتي تحتوي على مائة سؤال. وقد كان صديقنا هو الفائز في هذه المسابقة ويعرف القراء بقية التفاصيل.

وليس معنى هذا أن ثقافته ضئيلة لو لم يفز في هذه المسابقة فالواقع أن ثقافته من النوع الواسع العميق لا من النوع المدرسي المحدود، وهي الصفة التي غلبت على أكثر أسئلة البلاد. ولكن فوزه في هذه المسابقة أثبت رسوخ قدمه في دنيا الثقافة المدرسية ورسوخها في دنيا الثقافة العريضة، على أن صديقنا مع ذلك أديب موهوب يتذوق الجمال ويتفهم أسرار الفن ويحسن الأداء. ويتحمس لروعة التعبير وفنية الفكرة. أذكر أنني عندما كنت أدرس دراستي العالية بمصر كنت أسكن مع زميلين كريمين، أصبح أحدهما الآن موظفًا كبيرًا يشار إليه بالبنان، أما الآخر فلم يستطع مواصلة دراسته لأنه كان يؤمن بأفكار مثالية لم يستطع أن يوفق بينها وبين واقعية الحياة.

وكان هذان الزميلان يتمتعان بحساسية غريبة خلقت بينهما جوًّا «غير ودي» فكانا كثيري النزاع والخلاف وكانت مناقشتهما تتسم بالحدة والعنف وكنت أنا أقوم بدور وسيط السلام بينهما فكنت أوفق في كثير من الأحيان.

وفي إحدى الليالي احتدم النقاش بينهما ـ لسبب لا أذكره الآن ـ وتطور الأمر إلى اشتباك بالأيدي وكان اشتباكًا رهيبًا ووجدت نفسي مضطرًّا إلى التدخل

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٣/١/١٨هـ الموافق ١٩٦٣/٦/١٠م العدد (١٦٨)

لإيقاف هذا الاشتباك حتى لا يتطور إلى ما لا تحمد عقباه، وفعلًا قمت بفض النزاع وإبعاد أحدهما عن الآخر ووفقت بعد جهد ولكن الثورة المحتدمة في أعماقهما دفعت أحدهما إلى أن يمسك شيئًا صلبًا - لا أذكره لبعد العهد به - ثم قذف به زميله وتشاء الصدف أن أتلقى أنا الضربة في الجزء الأمامي من رأسي واندفع الدم بقوة - من رأس الوسيط - وصدق المثل العامي «ما ينوب المخلص إلا تمزيق ثيابه» أو تحطيم رأسه!

وفوجئ الخصمان الكريمان بخطر الدم المتدفق وذلك شيء لم يكن في حسبانهما ولكنه أعاد الهدوء إليهما وأخذ يتعاونان من أجل إيقاف الدم ومعالجة الموقف الجديد.

وانتهى الأمر بسلام وكان هذا الحادث ذا أثر عميق في نفسي دفعني إلى نظم قصيدة طويلة صورت فيها الحادث وتحدثت عن مشاعري وانفعالاتي ونشرت القصيدة في العدد الثاني من مجلة «النواة» وهي مجلة كان أعضاء البعثة بمصر قد قرروا إصدارها وإن كان من المؤسف أنه لم يصدر غير العدد الأول والثاني منها ثم توقفت لأسباب.

وقرأ صديقنا الشاعر الكاتب القصيدة وأعجب بها وكتب لي يقول: لولا أنه يعز عليه أن أُصاب بسوء لتمنى أن تكثر الحوادث التي تدفع إلى هذا الإنتاج الشعري الرفيع - أو كلامًا كهذا - فرسالة صديقي ليست بين يدي الآن وإن كانت لا تزال باقية بين أوراقي بعد هذا الزمن الطويل. وربما كان صديقي يعني ما يقول وربما كان يعني الحث والتشجيع وشحذ العزيمة.

أما قصة «محفظة النقود» التي سبقت الإشارة إليها فهي قصة مؤلمة ولذا آثرت تركها إلى فرصة أخرى.

وبعد فهذه طائفة من الخواطر والذكريات عن الصديق الأديب الكاتب الشاعر الإنسان القاص الباحث، صاحب ديوان «البسمات الملونة» و«مواكب الذكريات» و«الأمس الضائع» و«سوزان». وكاتب «أنات الساقية» «وفارس بني عبس» و«شوك وورد» الأستاذ حسن عبدالله القرشي. أكتبها تحية لوفائه وتقديرًا لأدبه واعتزازًا بصداقته.

«شاعر من بلادي»

يحدثنا التاريخ الأدبي حديثًا طويلًا عن أثر الشاعر في العصر الجاهلي ويذكر أن القبيلة التي ينبغ فيها الشاعر تبتهج ابتهاجًا كبيرًا وتقيم الاحتفالات ومعالم الزينة والأفراح وتأتي وفود القبائل المختلفة لتقديم التهاني ولتشارك في احتفالات هذه القبيلة المحظوظة وكيف لا تكون محظوظة وقد نبغ فيها شاعر.

وربما ظن القارئ العادي أن هذه مقصورة على العرب وعلى سكان العصر الجاهلي ولكن التاريخ الأدبي يحدثنا كذلك أن كل الأمم المتمدنة حتى في العصور الحديثة تنظر إلى الشاعر نظرة إجلال وإكبار وإعزاز والمثقفون جميعًا يذكرون رأي ذلك العظيم الإنجليزي الذي سئل ـ وكانت بريطانيا في أوج عظمتها تحكم امبراطورية لا تغرب عنها الشمس ـ أو كما قال الشاعر الفحل محمود غنيم يصف الامبراطورية الإسلامية ويشبهها بالامبراطورية البريطانية:

ملك كملك بني التاميز ما غربت ... شمس عليه ولا برق تخطاه

لقد سئل ذلك العظيم عما إذا كان الإنجليز يؤثرون التنازل عن «شكسبير» شاعر الإنجليز أم التنازل عن الامبراطورية. وكان الجواب السريع الحاسم لائقًا بعظيم يعرف نفسه ويعرف قومه ويعرف قيمة الثقافة ويؤمن برسالة الشاعر.

ولقد قال ذلك العظيم إنه وقومه يؤثرون التخلي عن جميع أجزاء الامبراطورية ولكنهم لا يقبلون التفكير في التخلي عن «شكسبير»! وأضاف ذلك العظيم بأنه سيأتي على الإنجليز زمان يتفرقون في الأرض ولا يجمعهم غير شعر شكسبير.

وربما كانت هذه المعاني ماثلة أمام أحمد شوقي عندما نظم قصيدته عن «شكسبير» وقال فيها:

دستورُهم عجبُ الدنيا، وشاعرُهم يَدٌ على خلقهِ للّه بيضاءُ
ما أنجبت مثل «شكسبير» حاضرة ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وَحْدَه «إنجلترا» شرفا ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء
لم تكْشَفُ النفسُ لولاه ولا بُلِيت لها سرائر لا تحصى وأهواء
شعر من النسق العالي يؤيده من جانب ... إلهام وإيحاء
من كل بيت ... تسكنه حقيقة من خيال الشعر غراء
وكل معنى كعيسى في محاسنه جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة كلاهما فيه إضحاك وإبكاء
مهما تُمَثَّل تُرَ الدنيا ممثَّلةً أو تُتْلَ فهي من الإنجيل أجزاء

ويتحدث شوقي عن أثر الشعر في قصيدة أخرى فيقول:

حسن في أوانه كل شيء وجمال القريض بعد أوانه
ملك ظله على ربوة الخلـ ـد وكرسيه على خلجانه
أمر الله بالحقيقة والحكـ ـمة فالتفتا على صولجانه
لم تثر أمة إلى الحق إلا بهدي الشعراء وخطا شيطانه
ليس عزف النحاس أوقع منه في شجاع الفؤاد أو في جبانه

وقد نشرنا في الشهر الماضي حديثًا مطولًا في «الرائد» عن سوق عكاظ الذي ينعقد في ألمانيا للاستماع إلى أحدث ما نظم الشعراء وكيف تفيض القاعة الكبرى بالمستمعين الذين يملأون جوانبها والذين يقفون بين الممرات ثم الذين يقفون الساعات الطوال خارجها يستمتعون بالشعر من غير سأم أو ملل.

نسوق هذه المقدمات بين يدي حديثنا عن شاعر ظهر منذ شهور قليلة وأخذ ينشر شعره في جريدة البلاد. ولم أتعرف على هذا الشاعر من قبل ولم أقرأ له شعرًا أو نثرًا إلا قصائده التي أشرت إليها وإلّا كلمة قصيرة نشرتها «الرائد» ضمن كلمات كتبها عدد من الأدباء والقراء عن أمنياتهم بمناسبة العيد المبارك وقد نشرت «الرائد» صور هؤلاء الكاتبين ولكنني لم أتبين صورة شاعرنا من بين الصور، إذ لم يكتب عليها ما يشير إلى أصحابها. ولعل الرائد واثقة من أن جميعهم من المشاهير والأعلام فلم تجد داعيًا

لكتابة الأسماء وربما كانوا كذلك فعلًا ولكن الخطأ يعود إلى جهلي وعدم متابعتي لما يكتب وينشر فمعذرة.

ونعود إلى شاعرنا ويبدو أنه في ميعة الشباب ودليلنا على ذلك أن جميع ما نشر من شعره يدور حول الحب والغزل وأحب أن أستدرك فأقول إنني أعني بجميع ما نشر من شعر شاعرنا ما اطّلعت عليه من شعره فربما نشر شعرًا آخر في صحف أخرى لم أطلع عليها. ولا أعتقد أن المصادفة وحدها هي المسؤولة عن عدم اطّلاعي على شعر لشاعرنا في غير الحب والغزل.

والمهم أن اتجاه الشاعر هذا - في الحدود التي تحدثت عنها - لفت نظري وعجبت أن يوجد في عصرنا هذا الذي يموج بالحوادث والأحداث والذي لا تطلع شمس يوم من أيامه إلا على أعجوبة جديدة أو رأي جديد أو اتجاه غريب - عجيب أن يوجد في هذا العصر الهائج المائج شاعر يعيش بنفسه في إطار ضيق يحده جمال المرأة وسحر الأنثى وابتسامة الحبيب.

ولكنني مع عجبي هذا كنت ألاحظ أن شاعرنا هذا يتمتع بمواهب شعرية طيبة فهو يجيد صياغة القريض وفي شعره قوة وتماسك وفيه جهد مبذول ورغم أن موضوعه الذي يتحدث عنه محدود فإن الصور التي يقدمها الشاعر فيها تنوع وفيها طرافة وإن لم يكن فيها جدة بمعنى هذه الكلمة الواسع.

ويمتاز شاعرنا بميزتين كذلك: قدرته على استعمال القوالب الشعرية المعروفة مع ما في استعمالها من صعوبة جعلت كثيرًا من شعرائنا المحدثين يفرون من استعمالها بحجة أو بأخرى. أما الميزة الثانية فهي طول النفس الشعري فلم أجد في كل ما قرأت لشاعرنا مقطوعة قصيرة بل كلها قصائد طوال رغم ضيق الدائرة التي يدور فيها الشاعر.

وهاتان ميزتان عظيمتان لا يستهان بهما وخاصة لشاعر في بداية الطريق.

وهذا لا يمنع من القول أن الشاعر قد تندّ عنه قافية أو يستعصي عليه لفظ أو تنحرف به سبل التعبير، وإذا كان هذا يحدث لكبار الشعراء، فحدوثه

بالنسبة لشاعرنا لا ينقص من قدره ولا يطعن في كفاءته.

على أنني ألاحظ اتجاهًا جديدًا في شعر هذا الشاعر فأمامي الآن آخر قصيدة نظمها الشاعر وعنوانها «ليلة العيد» فقد حاول فيها الشاعر أن يخرج قليلًا عن النطاق الضيق الذي فرضه على نفسه فقد تحدث فيها عن العيد وعن آثاره في النفوس الفقيرة والقلوب المكلومة ولكنه حديث قصير عابر.

وقد افتتح الشاعر قصيدته بهذه الأبيات البارعة:

طلائع العيد تترى عذبة الصور ... وطابع البشر يكسو أوجه البشر

وموكب العيد يدنو صاخبًا طربًا ... في عين والهة أو قلب منتظر

ونفحة العيد هزت في الدجى مهجًا ... وبسمة البشر أجلت لمحة الكدر

واستروح الكون أفراحًا تخللها ... بمقدم العيد مرحى مقدم الفجر

يا ليلة العيد والآمال مشرقة ... كم في دجاك تجلى موكب السمر

كم في دجاك تهاوت حولنا متع ... روحية السحر عليائية الأثر

والبيت الأول بيت جميل ما في ذلك شك ونخص بالذكر كلمة «عذبة» فهي عذبة حقًا في موقعها من البيت ومثل ذلك يمكن أن يقال عن البيت الثاني وإن كنت أشعر أن كلمة «طربًا» لا تتفق مع الشطر الثاني وموكب العيد صاخبًا في عين والهة أو قلب منتظر تعبير منطقي معتدل، أما أن يكون هذا الموكب «طربًا» أيضًا فمسألة فيها نظر كما يقولون.

ولم تعجبني جملة «نفحة العيد» في البيت الثالث فهي ممعنة في القدم كما أن جملة «أجلت» في الشطر الثاني كلمة فيها عنف وشدة لا تتناسب وكلمتي «مسحة» و«لمحة». أما البيت الرابع فهو بيت رائع حقًا لو نقل إلى قصيدة أخرى فكلمة «الفجر قلقة الوضع بين قوافي هذه القصيدة ولست أدري كيف استطاع الشاعر أن يحرك جيم الفجر وهل استأذن معاجم اللغة أم أنه رأى أن سلطة الشاعر أقوى من سلطة اللغة واللغويين!

والبيت السادس بيت جميل وإن كان في نفسي شيء من كلمة «عليائية» وقد تحدث الشاعر بعد ذلك عن الأطفال الفقراء والأيتام فخصهم بثلاثة أبيات

وهو موضوع يستغرق قصيدة الشاعر جميعها لو أراد ولكنه يبدو وكأنه يعيش في جو مترف ببعده عن أن يحس بإحساس المعذبين والبؤساء.

وقد انتقل بعد ذلك إلى مخاطبة رفاقة وأحبابه فناجاهم مناجاة رقيقة وحبيبة ويبدو أن الشاعر يتحدث عن رفيق بالذات بدليل قوله:

قد لامه في هواكم كل رفقته	وهده السهد حتى عاش للفكر
يا حادي العيس هل في الركب من خبر	لظامئ القلب من شرقية الخفر
قد شاقه الحسن في عيني موكله	بالقلب تقتله بالرمش والحور
يا ربة الحسن والإلهام يا أملي	وربة الشعر والإلهام والوتر
أهواك مهما الاقي فيك من كلف	وأبذل العمر حتى ينتهي عمري
يا منبع الطير في أغلى موائله	ومبعث الوحي للولهان في السحر
كم أذكر الفجر تطوينا غلائله	والطل يكسو زهور الروض بالقطر
والبدر يسبح في لألائه جذلا	والنجم يرقب طيف الأرض في حذر
ونسمة الفجر قد هبت تداعبنا	رقيقة اللمس وانسابت على الزهر

وهكذا استغرق الشاعر أكثر أبيات القصيدة في الحديث عن حبه ومحبوبته. ولا نحب أن يفوتنا أن ننبه إلى بعض المآخذ العابرة فكلمة «يا حادي العيس» كلمة عجيبة نابية في هذا الموقف وهي أشبه بقافلة من السيارات الأمريكية الفخمة الأنيقة تسير في عجب واختيال وفجأة يخترق هذه القافلة جمل يحتل مكانًا بينها.

وتصور منظر هذا الجمل بين العربات الأمريكية الفخمة. وإذا صح ما استنتجناه من أن صاحبنا شاب مترف زاد عجبنا من أن يفكر في العيس وحاديها! وأين هي العيس يا صديقي؟ وهل عندك عنها من خبر في عصر الذرّة والصواريخ والأقمار الصناعية؟

وكلمة «القطر» بتحريك الطاء في قوله: «والطل يكسو زهور الروض بالقطر» كلمة غير سليمة من الناحية اللغوية.

كما لا نحب أن نغفل الإشارة إلى بعض التعبيرات الرائعة كقوله في وصف

حبيبته إنها: «شرقية الخفر» فهو تعبير رقيق وفّق فيه الشاعر إلى حد كبير. وقوله «كم أذكر الفجر تطوينا غلائله» تعبير يدل على ذوق مرهف. كما صاحب التوفيق الشاعر في قوله:

والبدر يسبح في لألائه جذلًا والنجم يرقب طيف الأرض في حذر

وليتأمل القارئ النجم وهو يرقب طيف الأرض في حذر فهو تعبير شعري يدل على فهم ورقة وشاعرية.

وبعد.. فهذا شاعر جديد نرشحه للمجد إذا ثابر وصابر: إذا ثابر على النظم وصوغ القريض، وصبر على القراءة والاطّلاع وتزود من اللغة والقواعد بالزاد الكافي.

أما شاعرنا الذي تحدثنا عنه فهو الأستاذ الشاعر يحيى توفيق.

لقاء... كل أسبوع(*)

(١ ـ ٢)

لا أدري ما إذا كانت آداب الرسائل تسمح بنشر رسالة خاصة كتبها صديق من الأحياء من غير إذنه. ويبدو لي أن من الضروري النص على كلمة «الأحياء» لأن «غيرهم» قد استبيحت أخبارهم وأسرارهم ورسائلهم فنشر الأستاذ محمود أبو رية رسائل مصطفى صادق الرافعي إليه في كتاب كبير ونشر ميخائيل نعيمة أسرار ورسائل جبران خليل جبران إلى صديقته «ميشيلي» ونشر كثير من رسائل ملوك وملكات أوروبا وكثير من رسائل العظماء والعباقرة هناك بعد وفاتهم.

لا أدري ما إذا كانت آداب الرسائل تسمح بنشر رسالة خاصة دون موافقة مرسلها. وأغلب الظن أنه لا مانع من نشر رسالة ما دام أنه ليس في نشرها إساءة مادية أو أدبية لكاتبها. وما دام أن نشرها يهدف إلى خدمة الأدب والفكر والأغراض العامة.

أسوق هذه المقدمة قبل أن أنشر رسالتين خاصتين إحداهما مرسلة إليّ من صديق كريم والثانية مرسلة من صديق آخر إلى صديقي وقد تفضل فأرسلها إليّ مرفقة برسالته.

وتبدأ القصة من أنني كنت أبحث بين أوراقي عن ورقة خاصة لها أهميتها بالنسبة لي، وبدلًا من أن أعثر على الورقة عثرت على الرسالتين اللتين أشرت إليهما.

ومن المصادفات الطريفة أن البحث عن الورقة في الليلة التي أعلن في صبيحتها استقلال الجزائر ولهذا التحديد أهمية ستظهر فيما بعد.

أما الرسالة الأولى فهي من صديقنا الكاتب الشاعر، وإن شئت الحقيقة؛

(*) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٨/٤/١٣٨٢هـ الموافق ١٧/٩/١٩٦٢م العدد (١٣١)

الشاعر الكاتب الأستاذ ماجد أسعد وتاريخها ١٩٦٤/٧/١٤م ولتحديد التاريخ أهمية خاصة كما سنرى.

وهذا هو نص الرسالة بعد حذف عبارات شخصية عن بعض الأصدقاء لا تهم القراء.

عزيزي عبدالعزيز

هذه رسالتك أخيرا أتسلمها فتخفف شيئا من لاعج البعد وإني شاكر لك هذا الإخلاص على النوى والشوق على النأى.

وأشكرك شكرًا آخر على أن أجهدت نفسك في البحث عما كلفتك به ولك العذر.........

وتقول: أطل في رسالتك، وإنك لتعلم أن ذلك نوع لا أتقنه من المراسلة أما علاقات القلوب فلا دخل فيها للكلمات والحروف.

ويسرني أن أنبئك أنني كملت المجموعة الأولى من ديواني تحت اسم ـ نجوى ـ وهو الآن في مدينة النسيم ليتصفحه بعض أدبائنا وقد وضع له ـ أحمد حوحو ـ مقدمة.

وإنني الآن شارع في المجموع الثانية تحت اسم « أحاسيس قلب» وجعلت إهداءه للمدرسة كذكرى لعهودي بها وقد تم ثلثه للآن.

ويصلك بطيه كتاب من الحوحو يبين نظريته في شعر أخيك ونظرية زميله العامودي.

لا جعله الله آخر عهد بك وجمعنا على رضا وإخاء وإلى اللقاء.

ماجد أسعد

أما رسالة الأستاذ أحمد رضا حوحو فنصها كالآتي:

عزيزي السيد ماجد

اعذرني يا صديقي عن هذا السكوت الطويل فمنذ أن طلعت الطائف لم

أعرف فترة استراحة وأنا كثير الترحال بين مكة والطائف وأخيرا استقر بي المقام في الطائف ولكن مع الأسف انقطعت عن الكتابة والمطالعة حيث أخذت في علاج عيوني عند الدكتور خيري الذي ألزمني بالابتعاد عن اليراعة وما يمت إليها بصلة.

طالعت «نجواك» ووجدت فيه متعة وأعجبت به وبمعانيه الفلسفية وكذلك اطلع عليه الأستاذ العامودي وهو شاعر نقادة ولقد أعجب بمعانيه أيما إعجاب ولكنه يرى أن أسلوبه أقل متانة وقوة من معانيه فيرى في القصيدة الواحدة مثلا أبياتا بلغت درجة عالية من حيث المعنى والأسلوب بينما يجد بعدها أبياتا لا تقل قوة في معناها عن سوالفها لكنها تقل عنهم أسلوبا فهو يعجب بمعانيك على العموم وينصحك أن تكثر من مطالعة كبار الشعراء وبالأخص ابن زيدون وذلك لتكتسب أسلوبه وألفاظه الموسيقية - هذا رأيه.

أما أنا فإني أقول لك امض في طريقك قدما فسيكون لك شأن عظيم في دنيا القريض. فإنه لا يوجد في المدينة اليوم من يفري فريك، وليبارك الله يا صديقي فإن مهمة الأدب مهمة فكرية شاقة.

وتقبل تحية أخيك المخلص

الطائف

٦٤/٧/١٠

أحمد رضا حوحو

سأبقي النجوى عندي بضعة أيام حيث أطلع عليها بعض الشعراء هنا وآخذ رأيهم لأنه لا يمكن أن يسلك الشاعر سبيل النجاح إلا بالنقد الصحيح.

لقاء... كل أسبوع(*)

(٢ ـ ٢)

نشرت في العدد الماضي الرسالتين الخاصتين اللتين عثرت عليهما بين أوراقي لأنني رأيت من المناسب أن نشرهما في هذه الآونة استكمالاً للحديث الذي أثرته عن ديوان صديقي ماجد والجواب المطلوب الذي تفضل به الصديق العزيز.

ولعل القارئ قد لاحظ أن الأستاذ ماجد نظم ديوانًا كاملًا كان يعتزم أن يقدمه إلى القراء باسم نجوى كما كان يعد ديوانًا ثانيًا أنجز ثلثه باسم (أحاسيس قلب) كان كل ذلك في منتصف عام ١٣٦٤هـ أي أنه لو سار في طريقه لقدم لنا حتى الآن بضع داووين تحتوي على مئات من القصائد الشعرية. وما ورد في الرسالتين يؤيد رأيي الذي سبق أن أبديته في السيد ماجد كشاعر.

ولست أدري كيف تقلص الديوانان وكيف اختفت نجوى وأحاسيس قلب وتلك الثروة الشعرية الضخمة لتحل محلها «حيرة»[1] في قزامتها وقماءتها وضآلتها.

هذا سؤال نعتقد أنه يحتاج إلى جواب إنها خسارة فادحة لأدبنا في المجال الشعري أن ينحرف صديقنا عن الاتجاه الذي كان يسير فيه ـ إذا كان قد انحرف فعلا، كما فعل صديقنا خالد رجب ـ أما إذا لم ينحرف ـ وذلك ما نرجوه ـ فإن معنى هذا أن صديقنا يحتفظ بثروة شعرية ضخمة نعتقد أن من الواجب أن تخرج للناس فهل يفعل الصديق الشاعر.

وإذا كان ذلك رأي الأديبين الكبيرين حوحو والعامودي في شعر صديقنا ماجد ـ وكان صديقنا إذ ذاك قريب عهد بالمدرسة الابتدائية ـ وهو رأي من

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٥/٣هـ الموافق ١٩٦٢/١٠/١م العدد (١٣٢)

(١) ديوان شعر ـ ١١٢ صفحة. طبع بمطابع دار العلم للملايين ـ بيروت عام ١٣٨٦هـ.
وله ديوان آخر «ضياع» صدر ضمن إصدارات نادي الرياض الأدبي ١٧٣ صفحة عام ١٤٠١هـ

حق صديقنا أن يعتز به فماذا يكون رأيهما فيه وفي شعره بعد أن قطع مرحلة طويلة من حياته الطويلة المديدة - إن شاء الله - حافلة بالدرس المثمر والاطلاع العميق والتأمل الدقيق.

ونعود إلى رسالة صديقنا ماجد لنناقشه في موضوع الرسائل المطولة وقد اعتذر عن الإطالة في الرسالة بسبب «أن ذلك نوع لا يتقنه من المراسلة» ومع ذلك فهو يكتب الآن «رسائل طائرة» تمتاز بالطول والعمق. ولست أدري ماذا يكون الحال لو كانت رسائله «سائرة» وليست «طائرة» إن كل رسالة منها كانت تملأ عددا من «الرائد».

فهل أفهم من هذا أن الصديق عدل عن فكرته أم أنه أخذ في معالجة الرسائل المطولة حتى استقام له الأمر وأصبح يتقن هذا الفن من الرسائل. علم ذلك عند الصديق العزيز.

ومرة أخرى نعود إلى رسالة الأستاذ أحمد رضا حوحو وهي رسالة ذات أهمية مزودجة فالأستاذ أحمد ابن الجزائر وهو في نفس الوقت ابن المدينة ساهمت كل منهما بنصيب في تكوينه حتى خرج للناس أديبًا يجمع بين الثقافتين القديمة والحديثة.

وكان من أدباء الطليعة له فضله الواضح في تدعيم أدبنا وإرساء قواعده. ولعله أول أديب في نهضتنا الأدبية الحاضرة يترجم من الفرنسية - التي كان يتقنها - إلى العربية كما أن له جهده غير المنكور في دعم «مجلة المنهل» وقد كان كريم الخلق حسن المعشر فاستطاع أن يضم مجموعة كريمة من الشباب حوله أثر فيها تأثيرًا واضحًا وكانت له مواهب متعددة فلم يكن قاصرا على نوع من الثقافة ولكنه كان خصب الفكر متعدد الجوانب.

وقد استطاع أن يحصل على مراكز ممتازة في المملكة ولكنه فكر وأطال التفكير في مستقبل وطنه الأول «الجزائر» فرأى أنه في حاجة إلى جهده وإخلاصه ولا سيما وهو يرسف في أغلال الاستعمار الذي حاول جاهدا أن يقضي على الثقافة العربية والدين الإسلامي وأن يفصل الجزائر عن الأمة

العربية ليلحقها بفرنسا.

فآثر أن يذهب إلى هناك ليقوم بنصيبه في الجهاد ونفذ ما عزم عليه وسافر إلى الجزائر يخدم الدين والثقافة العربية في معهد ابن باديس. واشتعلت الثورة وأخذ المستعمرون في تحطيم كل أجهزتها وكان المثقفون هم طليعة الكفاح وتعرضوا من جراء ذلك لعسف الفرنسيين واضطهادهم والتخلص منهم.

ولم يتخل أحمد حوحو عن شرف الواجب ولم يؤثر الانطواء والهرب ولم يهادن الفرنسيين كما فعل غيره فتعرض من جراء ذلك لحوادث عنيفة انتهت بالقضاء على حياته فمضى شهيد الواجب.

وقد كنت أتحدث مرة مع أحد الأصدقاء عن الشهيد الكريم فكان الصديق يضع اللوم على أحمد رضا نفسه ويبدي دهشته عن تخليه عن مركزه المرموق هنا ليعرض حياته للخطر هناك وكان يتهمه بقصر النظر وعدم تقدير العواقب مما جعله يلقى بيده إلى التهلكة.

وقد تذكرت وأنا أستمع إلى حديث صديقي ما أورده المفسرون في تفسير الآية الكريمة ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ وقد فسر كثير من المفسرين الآية التفسير الظاهر الواضح الذي يتبادر إلى ذهن كل عربي يقرأ هذه الآية الكريمة ولكن بعض المفسرين فسروها تفسيرا يتفق وروح الإسلام الذي يدعو إلى العزة ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ لقد فسروها بأنه يجب على المسلمين ألا يتخلوا عن الجهاد فإنهم بتخليهم عنه يعرضون أنفسهم للخطر وأيديهم للتهلكة!! وما أروع هذا التفسير وما أسماه.

ولعل سياق الآية يدل عليه بقوله تعالى: ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾.

إن أحمد رضا لم يلق بيده إلى التهلكة ولكنه على العكس أنقذ نفسه وقومه

من التهلكة. وكان أحد الأبطال الذين كتبوا بدمائهم وثيقة النصر للأمة الجزائرية المسلمة.

وإنه ليطيب لنا أن نقف الآن لنحيي صديقنا الأديب البطل في هذه اللحظات الحاسمة التي تقف فيها الجزائر المسلمة على عتبة الاستقلال بعد كفاح مرير تنحني له الرؤوس إجلالًا.

وإنه لمن المصادفات الطيبة أن أعثر على رسالتي صديقيّ الكريمين في هذا الوقت بالذات حيث يعلن استقلال الجزائر وحيث يقف صديقي ماجد منافحًا عن شعره مدافعًا عن جهوده في خدمة الثقافة والشعر.

لقاء... مع الزيات

(هذه عدة حلقات عن الزيات كتبتها في بغداد على أثر سماعي بوفاة أديب العربية البليغ وقد حالت ظروف دون نشرها في حينها، ويطيب لي أن أنشرها اليوم بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته، ففي مثل هذا الشهر من العام المنصرم ودّع الزيات دنياه ـ رحمه الله وطيب ثراه).

كنت في قاعة المسافرين وكنت أجلس على طرف كرسي مستطيل يجلس في وسطه على طرفه الآخر رفيقان من رفاق السفر، وقد أخذا يتحدثان حديثًا طويلًا لم أعِ منه شيئًا وإن كنت في ظاهر الأمر أشاركهما بالاستماع والتعليق الخاطف.

كان ذهني موزعًا وفكري مشتتًا وأعصابي مرهقة لأسباب لا أجد من المناسب أن أتحدث عنها، وفجأة التقطت أذني كلمة هامسة قالها أحد الرفيقين للآخر قال له: إن هذا الخبر سيزعج فلانًا (يعنيني) واستعذت بالله من الشيطان (في سري) وانتظرت لحظة على أمل أن يواصل رفيقي حديثه ولكنه صمت.. وكان من الممكن أن أنتظر وقتا أطول كما تعودت ذلك من نفسي، أو كما عودت نفسي على ذلك، ولكن حالتي النفسية المضطربة أبت على هذا الانتظار فبادرت في شوق ولهفة أسأل عن ذلك الخبر، ولكن سؤالي ضاع وسط الضوضاء التي حدثت من جراء النداء الذي انطلق من «الميكروفون» يدعو المسافرين للتوجه إلى الطائرة المتجهة إلى بغداد.

وركبنا الطائرة وبعد أن استقر بنا المجلس دفع إليّ صديقي مجلتين أخذت أقلبهما بوجه السرعة فإذا بي أقع في كل منهما على مقال في تأبين أديب العربية الكبير أحمد حسن الزيات[1] وأزعجني الخبر حقا وبصورة أكبر مما تصور صديقي.. فلقد أنساني هول الخبر ما كان يشغل بالي ويحطم أعصابي ولم يعد يملأ تفكيري إلا هذه الخسارة الإنسانية التي «يصعب العوض عنها أو العزاء عنها» كما عبر الزيات في تأبين صديقه الرافعي.

---

(١) مات يرحمه الله في عام ١٩٦٨م

ومن غريب المصادفات أن أتلقى نعي الزيات وأنا في طريقي إلى العراق فلقد كان للزيات أثر كبير في تاريخ العراق كما كان للعراق صدى بعيد في أدب الزيات.

لقد اختير الزيات لتدريس الأدب العربي في دار المعلمين العالية فقضى ثلاث سنوات[(١)] يبذل الكثير من علمه وأدبه وجهده، كانت سنوات قليلة في حساب الزمن ولكنها كانت سنوات كثيرة في حساب الشعوب.

جاء الزيات إلى العراق وقلبه يخفق بحب الإسلام ونفسه ممتلئة بحب العرب وذهنه عامر بأمجاد الشرق.

جاء وفي إهابه عزم مصدره الحب لوطنه الكبير، وإيمان منبعه الاعتزاز بدينه الإلهي، وإخلاص مبعثه الإعجاب بأصالة قومه الذين سادوا العالم بالعدل وحكموا الدنيا بالقرآن ونقلوا البشرية من حال إلى حال.

وبهذه الروح السامية، أو بتلك العزيمة المتوثبة، وبذلك العقل المتفتح عمل في العراق، يدرّس طلابه في النهار فيخلق فيهم الذوق الأدبي وينشر فيهم الخلق الإسلامي ويبعث فيهم الأمجاد الغابرة.

ويلقي محاضراته في الليل مُنقِّبًا عن تراث الأجداد باحثًا عن كنوز الآباء مُهيبًا بجيل الحاضر أن يسترد عظمة الأمس، وبأبناء اليوم أن يستعيدوا مكانهم تحت الشمس.

فقد خرج الزيات من العراق بعد أن ترك رصيدا من الأبناء والأثر الطيب والسمعة العطرة، وترك الزيات العراق بعد أن حمل ألوانًا من الذكريات الجميلة وصنوفًا من الأفكار الناضجة وكثيرًا من الحقائق الكبيرة.

أما الذكريات الجميلة فقد ظهرت في مقالاته عن العراق وقد جمع أكثرها في كتابيه القيّمين «وحي الرسالة»[(٢)] و «في ضوء الرسالة».

وأما الأفكار الناضجة فقد تجلت في أبحاثه ودراساته التي كتبها إبّان مقامه في العراق وقد جمع أكثرها في كتابه «في أصول الأدب».

---

(١) كانت الفترة ما بين ١٩٢٩/١٩٣٢م

(٢) نال جائزة الأدب عام ١٩٥٣م. والكتاب صدر في أربعة أجزاء وطبع عدة طبقات.

ويغالي بعض الباحثين حين يرد الفضل في إصدار «مجلة الرسالة» إلى السنوات التي قضاها الزيات في العراق. ففي هذه السنوات كما يرى هؤلاء الباحثون تبلورت الفكرة في ذهن الزيات عن المجلة وصح منه العزم على إخراجها إلى حيز التنفيذ.

وهو رأي لا أستطيع أن أرفضه رفضا قاطعًا لأن ما لديّ من معلومات ـ وهو قليل ـ لا يكفي لأن أبني عليها هذا الرفض. ولكن هذه المعلومات أيضا ـ رغم قلتها ـ لا تساعد على قبول هذا الرأي.

على أن هناك رأيا آخر لبعض الباحثين ربما كان أقرب إلى الاعتدال وهو أن خروج الزيات من العراق ـ (ويبدو أنه لم يسافر إلى غير العراق من الأقطار العربية والإسلامية إلا في السنوات الأخيرة من حياته حيث سافر إلى سوريا ـ)

يقول هذا الرأي: إن زيارة الزيات للعراق واتصاله برجاله وشبابه وهيئاته على اختلافها. قد ساعد كل ذلك على وضع الخطوط العريضة التي سارت عليها مجلته والأهداف السامية التي حاولت تحقيقها. وهو رأي فيه كثير من الاعتدال. ولكننا مع ذلك نرى من الواجب أن نذكر عوامل أخرى لها أثرها الكبير في اتجاه الزيات إلى ما اتجه إليه وما حققه من نجاح رائع في هذا السبيل.

وأحد هذه العوامل طبيعته ومزاجه النفسي ـ فقد كان رحمه الله ـ ذا نفس هادئة ومزاج معتدل، وثانيهما أُسرته وتربيته وبيئته، وثالثها ثقافته الدينية والعربية.

وأما الحقائق الكبيرة وهي حقائق عن العراق في الدرجة الأولى فقد سجلها في كتابه «العراق كما رأيته» وهو كتاب لم يظهر إلى الوجود وقد علل بعض الباحثين عدم ظهوره بأن ما كتب في هذا الكتاب يمس طائفة من الأحياء وطائفة من غير الأحياء لهم كثير من الأهل والأقارب وهؤلاء وأولئك يؤذيهم ما يقال فيهم وفي أقربائهم وأهليهم ويأمل هؤلاء الباحثون أن يرى كتاب الزيات النور ـ بعد أن انتقل مؤلفه إلى رحمة الله ـ ونحن نشاركهم الأمل

فبالإضافة إلى أن هذا الكتاب أثر من آثار الزيات - وكل آثاره جديرة بالبقاء والتخليد - فإن الأستاذ الزيات - رحمه الله - أشار في بعض ما كتب إلى أن لديه أسرارا تتصل بتاريخ الأمة العربية في العصر الحديث استقاها من مصادر لها وزنها وأهميتها وأنه سينشرها في كتابه عن العراق وهذا أيضا يضفي على كتابه أهمية لا يستهان بها.

فإذا علمنا أن هذا الكتاب سيكشف لنا عن حقيقة جديدة من نواحي أديبنا العظيم أدركنا أهمية هذا الكتاب.

فقد عرفنا الزيات أديبًا وناقدًا وباحثًا وقاصًّا ومترجمًا ومؤرخًا أدبيًّا ومصلحًا اجتماعيًّا ولكن هذا الكتاب سيضيف صفة جديدة إليه هي صفة المؤرخ السياسي.

لقاء مع الزيات
الحلقة الثانية

أشرت في الحلقة السابقة إلى علاقة الزيات بالعراق وإلى الرصيد الضخم الذي خلفه الأديب في العراق وإلى المكاسب العظيمة التي حملها معه بعد أن غادر العراق.

ولعل القراء قد فهموا من تلك الحلقة أن جو العلاقة تلك بقي صافيا لم يكدره مكدر. نقيًّا لم تشبه شائبة. رقيقا لم تعبث به نفحات السمائم، ولكن الواقع غير ذلك. فقد كتب أديب العربية الكبير مقالة أو مقالتين عن الشاعر العراقي المشهور (معروف الرصافي) تعتبر من خير ما كتب عن هذا الشاعر وقد أنصفه إنصافًا لم ينصفه قبله جميع من كتبوا عنه من النقاد والمؤرخين.

وقد دعته طبيعة البحث من جهة، وحرصه ـ يرحمه الله ـ على أن تكون موازينه غاية في الدقة إلى أن يعلل سبب إملاق الشاعر وتخلفه عن أن ينال في مجتمعه ما يستحق من صدارة وتكريم.

وقد عَزَا الزيات ذلك إلى صفات في الشاعر بعضها مما يشرف ويدعو إلى الفخر والاعتزاز وبعضها مما يعتبر في نظر الشرقيين مدعاة إلى القدح والانتقاص، وتعليل الزيات في الحقيقة سليم وواقعي ودقيق وقد صاغه ـ رحمه الله ـ بأسلوبه الموسيقي العف الجميل؛ وهو أسلوب يشير ولا يسيء، ويومئ ولا يفصح، ولكن ذلك لم يعجب أصدقاء الرصافي ومحبيه، فثارت ثائرتهم وهاج غضبهم واعتبروا ذلك سيئة تحسب على الأستاذ الزيات.

ومن الطريف أن أحد الأدباء كتب في أوائل هذا العام مقالًا عن الرصافي في مجلة العربي، وتحدث فيه حديثا مفصلًا مكشوفًا عن الأمور التي أشار إليها الزيات إشارة رقيقة مهذبة، ولست أدري كيف استقبل محبو الرصافي هذا المقال وهل غضبوا على كاتبه غضبهم على الزيات؟

الذي أتصوره هو أن مقال هذا الأديب سيمحو ذلك الأثر السيء الذي أحدثه مقال الزيات.

إلا إذا كان للمسألة وجه آخر هو أن مقال الأستاذ الزيات كتب على إثر وفاة الشاعر الرصافي في وقت كان فيه الحزن على أشده. أما المقال الأخير فقد كتب بعد سنوات طوال من وفاة الرصافي فلم يحدث من الأثر ما أحدثه المقال الأول، واختلاف النهار والليل ينسي، وربما كان للمسألة وجه غير هذا وهو أن مكانة الزيات الأدبية وحب العراقيين له جعلهم يستكثرون عليه صدور ما صدر مما اعتبروه إساءة في حق الشاعر الكبير وهكذا فحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد فات أصدقاء الشاعر - في غمرة الحب والاعتزاز - أن يذكروا أنهم أصدقاء الناقد والشاعر الكبير.

لقد ذكرتني رحلة الزيات إلى العراق رحلة أخرى حاولت أن أقنع الأستاذ الزيات بالقيام بها. فقد كان مما يحز في نفسي أن تحول الحوائل دون قيام طائفة من الأعلام الذين عنوا بالكتابة في الموضوعات الإسلامية بزيارة الأماكن المقدسة التي جعلها الله مثابة للناس وأمنا وخصها بالفضل والخير والبركات وتلك الأماكن التي شهدت خير الأنبياء وأفضل الملائكة ورأت ما لا يحصى من مفاخر الأرض وأمجاد السماء.

كنت أشعر بكثير من الأسف الممض كلما ذكرت أن شوقيًا - رحمه الله - لم يحج ولم يمتع ناظريه بتلك البلاد التي طالما هفت إليها روحه.

والتي طالما تحدث عنها حديثا شعريا يثير الشعور ويهز القلوب وقد ترك - رحمه الله - ثروة شعرية إسلامية شغلت الباحثين والنقاد وأصدروا حولها طائفة من الكتب الجيدة والدراسات القيمة.

ترى ما تأثير تلك المشاهد في نفس شوقي لو رآها بعين بصره كما تصورها بعين بصيرته؟ وهناك عالم آخر هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وهو الأديب الإسلامي الذي وضع لنفسه خطة إسلامية واضحة لم يحد عنها منذ بداية حياته إلى أن لقي ربه.

لقد نذر نفسه للإسلام يعمل من أجله ويكافح في سبيله ويحمل راية الجهاد في سبيل الدفاع عنه، لقد شغلته هذه البقاع المقدسة شغلا متصلا. شغلته روحانيتها، شغلته أمجادها، شغلته شخصياتها حتى لقد أبدع أدبا قصصيا إسلاميا فريدا غفل عنه الناس أو حيل بينهم وبينه.

كم تمنيت لو استطاع هذا الأديب العظيم أن يكحل ناظريه بتلك المرائي العظيمة في بلد الله وموطن رسوله، كم تمنيت.

أما العالم الثالث فهو أديب العربية الكبير أحمد حسن الزيات.

لقد كتب الزيات أدبا إسلاميا رائعا وتحدث كثيرا عن الأماكن المقدسة بقلمه البليغ وأسلوبه الأنيق، وسَنَّ سُنَّة حسنة حيث أصدر عددا خاصا من مجلة الرسالة(١) بمناسبة الهجرة(٢) في أوائل عهد الرسالة بالصدور.

واستمر في إصدار هذه الأعداد الهجرية الممتازة بدون انقطاع إلى أن توقفت الرسالة وهذه الأعداد وحدها ثروة جديرة بأن تكون موضع اهتمام المربين والموجهين ففي مقالاتها سمو الهدف ورصانة الأسلوب وجمال العرض.

وأعود إلى الأستاذ الزيات فكثيرًا ما سألت نفسي لماذا لا يزور صاحب القلم الشاعر والبيان الساحر مهبط الوحي ومأرز الدين ومثوى النبي - صلى الله عليه وسلم - وموطن الغر الميامين وكنت لا أجد الجواب.

إلى أن سنحت فرصة فاهتبلتها وكان ذلك قبل بضع سنين فقد كنت أزور القاهرة فالتقيت بصديقي الأستاذ أبي مدين(٣) وجرنا الحديث إلى ذكر الزيات واتفقنا على زيارته بمكتبه في مجلة الأزهر(٤) وسعينا إليه واستأذنّا سكرتير المجلة في الدخول إلى مكتبه فأذن لنا فورا ودخلنا مُسلِّمين فاستقبلَنَا هاشًّا باشًّا مُرحِّبا ودعانا إلى الجلوس في حفاوة صادقة.

---

(١) مجلة مصرية صدر العدد الأول منها في شهر يناير ١٩٣٣م، واحتجبت في عام ١٩٥٣م

(٢) عدد ممتاز كان يصدر سنويا مع غرة المحرم بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية

(٣) الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين رئيس نادي جدة الأدبي الثقافي

(٤) حيث كان الزيات رئيس تحريرها بعد احتجاب مجلة الرسالة.

وتحدثنا معه في شؤون الأدب كنا نسأل وهو يجيب وكانت إجاباته في الحديث كأسلوبه في الكتابة موجزة تقصر ولا تطول وتضيق ولا تتسع وفي أثناء الحديث سألَنَا عما إذا كنا قد اطّلعنا على العدد الأخير من مجلة الأزهر؟

فأجبناه بأننا لم نطلع عليه بعد فاستحضر لنا نسختين منه، ولفت نظرنا إلى مقاله الافتتاحي وقال لنا إنه كتبه استجابة لدعوة تلقاها من جريدة المدينة المنورة لينشر في عددها الممتاز الذي سيصدر بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيسها. ثم سأل: هل صدر هذا العدد؟ فقلنا إنه لم يصدر بعد. فقال: كنت أتوقع أن يكون قد صدر منذ مدة وأنه تأخر في الوصول إليّ. ولذلك فقد أعدت نشره في هذه المجلة وأشرت في ذيل المقال إلى أنه منقول عن جريدة المدينة.

وألقيت نظرة على عنوان المقال فإذا هو «على بئر أريس» وبئر أريس ـ كما يعرف ذلك المثقفون وسكان المدينة ـ بئر مشهورة في ضاحية قباء في مواجهة مسجد قباء من ناحية الغرب وتعرف باسم بئر الخاتم نسبة إلى خاتم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي وقع فيه من يد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه.

وانتهزت الفرصة وسألت الأستاذ الزيات عما إذا كان حج فأبدى أسفه! فسألته مرة ثانية عما إذا كان ينوى الحج قريبا، فقال: أرجو أن أتمكن من ذلك قريبا، فقلت: في هذا العام؟ فابتسم وقال: إنه يخشى الحرارة فأخذت أنا وصديقي أبو مدين نُهوِّن له الأمر ونذكر له التسهيلات العظيمة التي هيأتها الحكومة وأكدنا له أنه لن يتعرض لأي تعب أو مشقة وأننا سنكون خير عون له.

فشكرنا وقال إنه يأمل أن يتمكن من الحج في العام القادم، فقلت: إذا لم يستطع أستاذنا الحج ففي إمكانه القيام بعمرة وزيارة في فصل الشتاء أو الربيع، فقال إنه يفكر في ذلك فعلا، فقلت له: ويسرني أن أسعد بأستاذنا ضيفا عزيزا مكرما.. وأنا أنتظر أي إشارة من الأستاذ الكبير فشكر ووعد. ويبدو مع الأسف أنه لم يستطع التغلب على ظروفه النفسية والخاصة. كما

يظهر أنه يكره السفر فلم يسافر إلا إلى فرنسا لدراسة الحقوق وإلا إلى العراق كما سبقت الإشارة في الحلقة السابقة وإلا إلى سورية ليحضر مهرجان البحتري.

بعكس صديقه وزميله طه حسين الذي كان مغرما بالأسفار شريطة ألا تكون الطائرة هي وسيلة السفر كما يفعل صديقنا الفيلسوف أو المتفلسف صالح الجيهمان.

على أن الانطباع الذي تخرج به من مقابلة الزيات انطباع جميل يترك أعمق الأثر في نفسك إذ تشعر بعظمة هذا الرجل وأنت تجلس إليه ولكنك تشعر أيضا بأنها عظمة قائمة على الرقة واللطف والحياء والتواضع فلا تلمح في حديثه لهجة المتعاظم ولا في كلامه نغمة التعالي ولا في إشارته معنى الاستخفاف.

رفاعي من الأردن

وننتقل من شعر إلى شعر فقد نشرت الندوة كذلك قصيدة قوية تدل على أصالة ولكن هي قصيدة الأستاذ عبدالمنعم الرفاعي، وهو شاعر من الأردن، ولم يكن يعرف الناس شخصيته الأدبية إلا بعد أن تعرض لنوع عجيب من الغدر والعقوق دفعه إلى أن ينشر شيئا من شعره فإذا بشعر رصين قوي يدل على عمق ونضج.

وقصيدة الأستاذ الرفاعي المنشورة في العدد الصادر في ١٩٨٤/٢/٢٠م من الندوة بعنوان «شادن مرّ في حماه وحيا» قصيدة قوية رصينة تعطي صورة واضحة عن قدرة الشاعر الفائقة في الميدان الشعري وترد ردًا حاسما على أولئك الذين يسترون ضعفهم وتهافت إمكانياتهم بمهاجمة القافية واتهامها بأنها السبب في الحد من انطلاق الشاعر والحيلولة دون تحليقه، وهي تهمة ضعيفة وغير مقنعة ويعطي الفحول من شعرائنا كل يوم الدليل تلو الدليل على فساد هذه التهمة وعلى عدم قدرتها على مواجهة الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة. ولو كان المجال يتسع لنقلت القصيدة بكاملها ولكنني أكتفي بنقل بعض أبياتها نظرا لضيق المجال، يقول الشاعر:

هل تذكرت والزمان غزير	وحواشيك يانعات البرود
والشباب الندي فتح عينيه	على النور وابتسام الورود
والصبا يانع المنى من بهز	مشرئب وناعم أملود
طارحتني الهوى فسرنا وئيدا	وانطلاق الشباب غير وئيد
بُرعمٌ هزّ بُرعُمًا وتلاقى	غره الطل واخضرار العود
ما قطعنا الجنى ولكن رشفنا	من رحيق الحياة خمر الوجود
شادن مر في حماه وحيا	سائلا عن غرامي الفقيد

ولست أدري هل هذه القصيدة جزء من معلقة الشاعر المعروفة أم هي قصيدة جديدة مستقلة، وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأمر الذي لا شك فيه هو أن هذه القصيدة جديرة بالتنويه بل إن كل شعر الشاعر الذي اطلعت

عليه جدير حقا بكل ثناء وتقدير وإشادة.

وقد أحسنت الندوة في نشر هذا الشعر الجيد وفي تعريف الناس به وفي صقل أذواق القراء والارتفاع بهم إلى هذا المستوى الرفيع.

رفاعيون وحيات

نشرت الندوة منذ قريب عددا من القصص والمقالات عن الثعابين والحيات، ولست أدري ما الذي أذكرني ذلك الآن ولعله الحديث عن «الرفاعي الشاعر» فمن المعلوم أن طائفة من الناس بمصر عرفوا باسم الرفاعية اشتهروا بقدرتهم على السيطرة على أنواع الأفاعي حتى لقد ارتباط الاسمان ارتباطا عجيبا في أذهان الناس، فكلما ذكر أحدهما تداعى الثاني إلى الذهن بصورة عفوية، وقد خطر لي أن أعرف شيئا عن هذه العلاقة ـ كيف بدأت وما الأسرار التي تكمن وراءها؟ ولعل كثيرين سألوا أنفسهم هذا السؤال أما ماذا كان الجواب بالنسبة لهم فلست أدريه؟

على أنني استطعت أن أعثر على بعض المعلومات في المصادر التي بين يدي لعلها تلقي بعض الضوء على حقيقة العلاقة.

نظرات... وتعليقات

رئيس البلدية.. الشاعر

نشرة الندوة في عددها الصادر في ٨٤/٢/١٩ قصيدة للصديق القديم الأستاذ (علي أبو العلا) رئيس بلدية جدة المنتدب كان قد ألقاها في حفل العين العزيزية، وهي قصيدة (حلوة) فيها رشاقة ورعة وخفة ظل.

ومن عيون هذه القصيدة قوله:

دعونا نعود لتاريخنا	لمكة إذ قال فرسانها
يلبون بالحق وآي الرشاد	(رسول الهداية) إنسانها
ويسعون في الكون بالمكرمات	إذا أشعل النار شيطانها
أقاموا لنا الدين دين الإله	من الآي تترى وقرآنها

وليس غرضي أن أحلل هذه القصيدة ولكنني أحببت أن أنتهز هذه الفرصة لأحيي صديقا قديما... له عنايته بهذا اللون المحبب من الفن وحرصه على أن يشدو به في هذا الحفل الكبير.

وقد جرت العادة أن يكتفي رؤساء الإدارات حتى ولو كانوا من الشعراء حين يشاركون في حفل «رسمي» بإلقاء خطبة محدودة بإطار خاص لا يكادون يتجاوزانه فاهتمام الأستاذ الصديق بنظم قصيدته الرقيقة وإلقائها أمر يستحق التنبيه والإشادة وجميل أن يهتم الأستاذ للشعر نظما وإلقاء وهو بذلك يساهم مساهمة فعلية في تدعيم هذا اللون الراقي من الفنون الرقيقة بعد أن أخذ في الضعف والاضمحلال.

والصديق «علي» كان يعالج القريض منذ طفولته المبكرة وكان من الممكن أن يصبح من أعلام شعرائنا لولا انشغاله بالعمل والوظائف وإن كانت هذه القصيدة تدل على أنه لم ينقطع عن الشعر. ولعل لديه حصيلة طيبة سيطلع بها على الناس قريبا.. من يدري؟

وقصيدة الصديق الأستاذ تذكر بقصيدة شوقي المشهورة في تحية سعد

نجـــا وقـــائـل ربـانـــهـــا وزف الـبـشـــائـر ركـبـانـهـــا

ولعل من المناسب أن نذكر في هذا المقام بيت شوقي عن (الماء)

ومـا هـــو مـاء ولـكـــنـــه وريـد الحيـاة وشـريـانـهـــا

والقصيدة رقيقة جيدة وليس عليها من ملاحظات إلا قول الشاعر:

بـلادي وهـبـت حـيـاتـي فـدى وروحـي وقـد زاد إيـقـانـهـا

بـأن الـتـفـانـي لخيـر الـبـلاد بـقـاء يـخـلـد عـنـوانـهـــا

وتنصب الملاحظة على البيت الثاني فقد وردت قافية القصيدة كلها مرفوعة ولكن الشاعر نصب القافية في البيت الثاني فعنوان مفعول به ليخلد والفاعل مستتر ومن الصعب جدا أن تجعل عنوان نائب الفاعل ليخلد إذ لا ينسجم السياق.

على أن هذه الملاحظة العابرة لن تؤثر في روعة القصيدة وحلاوتها. وهناك بعض الشعراء الفحول في عصور الأدب المختلفة وقعوا في هذا «الإقواء» الذي وقع فيه الشاعر، وتحية للصديق القديم مع أحسن التمنيات.

رجل مات... والرجال قليلون(☆)

مات حامد دمنهوري[١] والموت غاية كل حي ولكن موت النابهين أولئك الذين زين الله بهم هذه الحياة كما زين السماء بالكواكب - كما يقول شوقي - يثير في النفوس ألوانا من الألم الممض والثورة الفاجعة وخاصة عندما يغادر هؤلاء النابهون الحياة وهم أكثر ما يكونون إشراقا ولمعانا.

وحامد دمنهوري واحد من هؤلاء النابهين الذين قطعوا طريق هذه الحياة بعد أن ملأوا كل ركن فيه بصنوف من الزهر وأفنان من الجمال.. وغرس هذه الزهور العبقة وهذه الأفنان العطرة بألوان الجمال ليس مهمة سهلة يستطيعها كل إنسان وإنما هي مهمة قاسية شاقة لا يقدر عليها إلا طائفة قليلة من البشر زودهم الله بالمواهب السامية وصقلوا هم هذه المواهب بالدرس الطويل والصبر المضني والكفاح المستمر والجهد الدائب والإيمان العميق والإخلاص العظيم.

وحامد دمنهوري منذ بدأ يخطو إلى دنيا الشباب كان يشعر بمسؤولية تجاه نفسه وتجاه أمّته وقد شعر بأن مكانه في خدمة أمّته هو مجال التعليم، ومجال التعليم أقوى المجالات، ولكنه أشدها عنفا وصرامة فالناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم من البشر فهم يغتفرون زلاتهم ويتلمسون الأعذار لهفواتهم ولا يستثنون من ذلك إلا المعلمين فهم وحدهم الذين يجب أن يكونوا فوق مستوى العواطف والضعف الإنساني.

عرف حامد دمنهوري كل ذلك فأخذ نفسه بنظام قاسٍ لا مجال فيه للتساهل أو التهاون أو الإعفاء ووجد في الرياضة خير مجال للترفيه البريء كما وجد في القراءة والكتابة ونظم الشعر وصوغ الأقاصيص ما يشغل فراغه وما يرضي حاجاته النفسية والعقلية ولذلك كان مبرزًا في دروسه متقدمًا على أقرانه متحليًا بأكرم الصفات الخلقية وأبلغها طوال دراسته

(☆) نشر الموضوع في جريدة البلاد بتاريخ ١٣٨٥/٩/١٤ العدد ١٢٠٦

(١) ولد بمكة المكرمة عام ١٣٤٠ ومات عام ١٣٨٥هـ

الثانوية[1] والجامعية[2] وكانت له صلاته الطيبة بأساتذته في المدرسة والجامعة وكانوا دائمًا يعجبون بخلقه الرضي وقلبه النقي وعقله المتفتح.

وعندما عاد إلى أرض الوطن ليقوم بواجبه في خدمة الرسالة التعليمية - التي أعد لها نفسه من قبل أكمل إعداد - ظل محتفظا بسماحة خلقه فلم يغره جاه ولم يخدعه منصب ولم يهزه مظهر فبقي حامد دمنهوري المدرس هو نفسه حامد دمنهوري مدير شعبة الثقافة بوزارة الداخلية هو نفسه حامد مدير عام الثقافة هو نفسه حامد دمنهوري وكيل وزارة المعارف.

تدخل عليه مكتبه فيروعك بقامته المديدة وجسمه القوي الرياضي المتماسك ولكنه لا يلبث أن يبعث في نفسك الطمأنينة بابتسامته الحلوة وترحيبه الحار وتواضعه الأصيل ثم تجد من ثقافته الواسعة وصوته الهادئ العميق ما يشع على وجهه وعلى الجالسين معه أنوارا تبعث البهجة والحب والإعجاب.

إنني لأذكر بكثير من الإعزاز تلك الأيام التي جمعتنا فيها دار البعثات بالقاهرة فقد كان في أواخر سِنِي دراسته الجامعية وكنت في أوائلها ولكن هواية الشعر والتعلق بالأدب جمعت بيننا في لجنة كان يطلق عليها - إن لم تَخُنِّي الذاكرة «لجنة الثقافة» كانت تتولى الإشراف على كل الشؤون الثقافية من محاضرات وحفلات وشؤون ثقافية أخرى. وكان من أبرز أعمال اللجنة في تلك الفترة إصدار مجلة سميت «مجلة الندوة» صدر منها ثلاثة أعداد وكان لفقيدنا العظيم الكبير جهود مشكورة.

ومما ذكر في هذا المجال أن دعوة وجهت من القصر الملكي في مصر إلى طلاب البعثات لحضور دعوة إفطار في يوم من أيام رمضان، وتقرر أن ينوب أحد الزملاء في إلقاء قصيدة وتقدم عدد من الشعراء؛ من شعراء البعثة بقصائد أعدوها لهذا الغرض وكان من بينهم الفقيد الكبير وانعقدت اللجنة الثقافية بعد أن تغيب عن حضور جلستها المرحوم حامد دمنهوري ليتيح للجنة حرية البحث والاختيار.

---

(١) دراسته في المعهد العلمي السعودي الذي تخرج فيه عام ١٣٥٨هـ.

(٢) دراسته بكلية دار العلوم بالقاهرة درس فيها عامين حتى عام ١٩٤٤م ثم التحق بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية «فاروق سابقا» التي حصل على درجة البكالوريوس منها في الآداب.

وبعد دراسة ومناقشة قررت اللجنة أن أصلح القصائد المقدمة هي قصيدة الأستاذ حامد ـ عليه رحمة الله ـ وقد ألقاها في الحفل المشار إليه ونالت إعجاب الحاضرين.

ويجرني الحديث إلى أن أشير إلى تعدد مواهب الفقيد العظيم في مجال الأدب. فقد كان أديبًا بالمعنى الأوسع لهذه الكلمة كما كانت له اليد الطولى في الفن القصصي، وتعد هذه المواهب دليلًا على الأصالة والنبوغ والتفوق.

الأمر الذي لا يجوز إغفاله في هذا الصدد هو هذا النجاح العظيم الذي حققه الفقيد الكبير في عالم الرواية. لقد نجح نجاحًا كبيرًا في هذا الميدان وأخرج للناس روايتين طويلتين تعتبران بحق عملًا فنيا متكاملا يستحق التقدير، لاقت الكثير من الاستحسان في الداخل والخارج.

وإنني لأذكر بهذه المناسبة أني قابلت الأستاذ حامد في «كازينو أوبرا» بالقاهرة وبينما أنا معه نتذاكر ذكريات الدراسة وما حفلت به من طرائف ومفارقات وحوادث وإذا برجل يهل علينا ويحيينا ثم يقوم الأستاذ حامد بمهمة التعريف وإذا بالقادم هو القاص المعروف الأستاذ أمين يوسف غراب ويبدو أنه كان على ميعاد مع الأستاذ حامد وتشعب بنا الحديث ثم تطرق إلى القصة والرواية وإذا بالأستاذ أمين يوسف يعتب على الأستاذ حامد لتقاعسه في إنجاز رواية كان يعدها ويستحثه على ضرورة إتمامها ويثني على أدائه القصصي ثناء عاطرا يدل على تقديره لأدب الأستاذ حامد واعتزازه بفنه الروائي.

وإن كان من العجيب في الروايتين العظيمتين اللتين أصدرهما فقيدنا الكبير أنهما لم تنالا ما تستحقان من عناية الدارسين والباحثين والنقاد في بلادنا مع أن صدورهما يعتبر حدثا تاريخيا ضخما[١].

وإن كنت أشارك في هذا التقصير فقد تفضل الفقيد الكبير فأهداني روايته

---

(١) الراوية الاولى «ثمن التضحية» صدرت الطبعة الاولى منها عام ١٣٧٨هـ عن دار الفكر بالرياض* وصدرت الطبعة الثانية عام ١٤٠٠هـ من اصدارات نادي الرياض الادبي وتقع في (٣٨١) صفحة، وقد ترجمت بعض فصولها إلى اللغة الإنجليزية بمعرفة السيد/ غ. شاهيندر. عن نادي الرياض الادبي.

الراوية الثانية «ومرت الأيام» صدرت عن دار العلم للملايين. بيروت. عام ١٣٨٣هـ انظر «موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين» من إصدارات نادي المدينة المنورة الادبي قسم (١) ص ٣٦٤

الأخيرة، ومرت الأيام ثم قابلته بعد وصولها إليّ بمدة فطلب إلي أن أكتب عنها.. وقد حرصت على أن أفعل وقرأت الرواية على أمل الكتابة عنها ولكنني رأيت أن الكتابة عن هذه الرواية تستلزم قراءة الرواية السالفة «ثمن التضحية».

وأخذت في قراءتها ولكن مشاغل حالت بيني وبين إتمام الدراسة التي كنت بدأتها. على أن من الواجب على الأدباء ورجال القلم والهيئات ذات الاختصاص أن تولي أدب الفقيد كل عناية واهتمام. كما أن على أسرة الفقيد ـ وأكثر أفراد أُسرة حامد من الشباب المثقف المستنير ـ أن تسارع إلى المحافظة على ما ترك الفقيد العظيم من آثار أدبية شعرية أو نثرية مخطوطة وأن تعدها للنشر والإذاعة فكل آثاره الفنية لَبِنات في صرح نهضتنا وكل إنتاجه أمانة في أعناقنا نحن مسؤولون عنه أمام الوطن والتاريخ والعلم.

لقد كتب حامد دمنهوري صفحات في تاريخ نهضتنا العلمية وكتب صفحات في تاريخ مجدنا الأدبي ومن حقه علينا وعلى أصدقائه ورجال القلم أن يتداعَوْا إلى إصدار كتاب أو كتب يدرسون فيها إنتاجه ويسجلون ما حفلت به ذاكرتهم من جميل الذكريات عن المربي والأستاذ والشاعر والكاتب والقصصي حامد دمنهوري ـ رحمه الله ـ وأجزل إليه.

تعقيبات وتعليقات

شاعر:

كتبت قارئة فاضلة في صحيفة اليمامة الغراء بعددها الصادر في ٣/٢/١٣٨٧هـ تثني على المقابلة الصحفية التي نشرت في اليمامة وتطرقت إلى السؤال عن السبب في عدم الحديث عن الأستاذ البواردي وهل يعني ذلك عدم الاعتراف به شاعرا وأديبا؟ إلى آخر ما ورد في السؤال وأحب أولًا أن أشكر القارئة الفاضلة على جميل ثنائها ثم أبادر إلى الاعتذار لصديقي الأستاذ سعد وللقراء جميعا عن عدم ذكر اسم الأستاذ البواردي ضمن من ورد اسمهم في المقابلة الصحفية.

والأستاذ سعد أديب نابه وشاعر من طراز رفيع، وقد سبق لي أن تحدثت عن شاعريته في دراستي لديوانه الأول «أغنية العودة» ونشرت تلك الدراسة سنة ١٣٨١هـ في مجلة الرائد المحتجبة وقد كشفت لي تلك الدراسة عن شاعرية أصيلة وعن فنان بديع، ويمكن الرجوع إلى تلك الدراسة في الأعداد الصادرة في النصف الثاني من عام ١٣٨١هـ من صحيفة الرائد.

والأستاذ سعد يمتاز بالدأب والمثابرة والتفتح والوعي وهو على صلة رائعة بكل ما تخرجه المطابع من جيد الثمرات، وهو بالإضافة إلى ذلك أديب منتج فقد صدر له حتى الآن:

١ ـ أغنية العودة[١]. **٢ ـ ذرات في الأفق[٢].**

٣ ـ شبح من فلسطين[٣]. **٤ ـ فلسفة المجانين[٤].**

٥ ـ أجراس المجتمع[٥].

---

(١) ديوان شعر طبع بدار الاشعاع عام/ ١٩٦١م.

(٢) ديوان شعر طبع بدار الاشعاع عام/ ١٩٦٢م بيروت.

(٣) مجموعة قصصية صدرت عام ١٩٦١م.

(٤) كتاب يتناول بعض قضايا الحياة والإنسان من خلال رؤية فلسفية يحلق فيها المؤلف في عوالم جديدة ويستنتج ويطرح افكار وآراء حول بعض قضايا العصر والإنسان ـ تهامة. جدة.

(٥) مقالة ـ دار الاشعاع عام ١٣٨٣هـ. بيروت.

وله عشرة مؤلفات أخرى في طريقها إلى الصدور[1].

وهذا إنتاج غزير يدل ـ كما قلت ـ على موهبة متفتحة وعلى استعداد أدبي وعلى نبوغ فطري صقلت كل ذلك قراءة واعية وإخلاص للفن وإيمان برسالة الأديب.

وتفضل صديقي الأستاذ سعد فأهداني ـ كما أشرت ـ ديوانه الأول (أغنية العودة) الذي سعدت بالجلوس إليه ساعات أنتجت تلك الدراسة المنشورة في صحيفة الرائد.

وتفضل صديقي الأستاذ الأديب فأهداني ما أصدر من مؤلفات أخرى وهي:

«شبح من فلسطين» «وفلسفة المجانين» «وأجراس المجتمع»، وكان المفروض أن أتابع بالنقد هذا الفيض من المؤلفات ولكن ظروفي الخاصة أبت عليّ ذلك لتجعل لصديقي فضل السبق المستمر.

على أنني أشعر أن من واجبي أن أعود إلى هذه المؤلفات القيمة فأجلس إليها ساعات أتبين ما فيها من جميل الأفكار وبديع النظرات ورائع الخواطر وسامي الأهداف، وأرجو أن أفعل ذلك قريبا.

ويطيب لي هنا أن أنقل للقراء فقرات مما ورد في تلك الدراسة التي ألمحت إليها.

«والأستاذ سعد البواردي كاتب ناصع البيان مصقول الكلمة جيد الأداء قدير على التصوير والتعبير في كل ما يعرض له من شؤون عالم النثر، فهل استطاع أن ينقل كل هذه المزايا إلى شعره؟»

«وبالرغم من عدم إيماني بهذا اللون من الشعر إلا أنني أشهد أن الشاعر كان بارعًا في تصوير الانفعالات وفي إبراز الأحزان القوية التي تعمر قلوب البائسين».

(ولكن الشاعر ـ رغم كل شيء ـ يعتبر حسن الظن فقد دفعه اليتم والبؤس إلى (منجم العبقرية) الذي خلق منه أديبًا يقدر الكلمة وشاعرا يعزف على

(١) صدر بعضها بعد نشر هذا الموضوع.

قيثارة الألم أروع الألحان».

«وشاعرنا واسع الأفق رحب التفكير متفاعل مع الحياة مؤيد بالإنسانية».

«وأحب أن أبادر فأذكر لصديقي الشاعر أنني ضد كل القيود التي توضع في طريق الفنان لتكبل فكره وروحه ولكنني اضطررت إلى هذا القول لأن شاعرنا (شاعر ملتزم) فهو لا يعتبر الشعر مجرد نوع من اللهو أو العبث أو اللهو الرخيص ولكنه يراه أداة بناءة تهزم الظلام وتنشر النور والشاعر في رأيه مصلح وهاد ومشعل ولأجل ذلك قلت ما قلت».

«والآن بعد أن رافقنا شاعرنا في رحلة طويلة نرى من واجبنا أن نقف قليلًا لنقول رأينا الأخير في شعره، أو لنقول خلاصة هذا الرأي فالواقع أن معانيه ودفقاته اللا شعورية أقوى من أدائه، وأداء روحه أقوى من فنه، وأداء شعوره أوسع من شعره».

هذا بعض ما ورد في تلك الدراسة المطولة التي كتبت عن ديوانه الأول «أغنية العودة» وقد أرسلها إليّ مع ديوانه الثاني ذرات في الأفق وأنا أحب أن أنشر هذه الفقرات لأنها تدل دلالة عميقة على سعة أفق صديقي وعلى إيمانه بقيمة النقد. وعلى ما يجب أن يكون من كريم العلاقة بين المؤلف والناقد.

يقول صديقي الأديب في رسالته المؤرخة في ١٣٨٢/١١/٩هـ ما يلي:

«لئن شكرتك سلفا على روحك العالية في النقد... وعلى الأخص الجوانب المشرقة التي كشفت جوانب الضعف في ديواني الأول «أغنية العودة» ـ لئن شكرتك سلفا على ذلك ـ فإنني سأشكرك وأشكرك حين يمتد قلمك الهادي الهادف الناقد إلى جوانب الضعف أيضا في هذا الديوان الثاني...»

شكرًا لصديقي الأديب الشاعر على نبيل خلقه وعميق وعيه ومعذرة له عن تقصيري في الكتابة عن ديوانه الثاني وعن بقية كتبه وأرجو أن أعود إليها في وقت قريب.

وشكرًا للقارئة الفاضلة التي أتاحت لي هذه الفرصة لتحية صديقي الأديب

الشاعر الأستاذ البواردي راجيا له طيب الإقامة في بيروت حيث يجد مجالًا طيبا لطبع كتبه من جهة ولإبداع آثار أدبية جديدة من جهة أخرى.

وحيا الله الشاعر الذي يقول:

انـا حـين اغـضـب فـي قـصـيـدي وأصـيـح مـن قـلـمـي وجـيـدي
فـمـن الـسـطـور الـغـاضـبـات أشـيـد لـلـدنـيـا نـشـيـدي

رأي.... وكتاب(*)

(شاعر... شاعر) ذلك ما تقوله نفسك عندما تلقاه لأول مرة من غير سابق معرفة فهو أنيق العبارة رقيق التعبير مرتب التفكير مجنح الخيال خفيض الصوت كأنه يهمس في مناجاة، ذلك هو مؤلف هذا الكتاب القيم «شعراء نجد المعاصرون»[(1)].

وعندما قرأت بعض الأخبار عن هذا الكتاب توقعت أن يكون كتابًا صغير الحجم ولكن عندما أطّلعت عليه وجدته كتابا كبيرا بذل فيه مؤلفه الكثير من الجهد والوقت والمال، حتى برز بهذه الصورة المشرقة التي تستثير الإعجاب.

ومما يثلج الصدر ما لقيه هذا الكتاب من عناية الكتاب والنقاد فقد عرضوا له بكثير من الدرس والمناقشة - وبصرف النظر عما في هذه الدراسات فهي تدل على أهمية الكتاب وقيمته الكبيرة.

وسنصاحب صديقنا الأستاذ (عبدالله بن إدريس) في جولة قصيرة مع كتابه، وأول ما يطالعك من الكتاب طبعًا هو غلاف الكتاب وقد رسم عليه المؤلف صورة رمزية رائعة وموفقة حقا أما اسم الكتاب «شعراء نجد المعاصرون» فهو تعبير دقيق عن محتويات الكتاب وصحيح أن الكتاب لم يستوعب جميع الشعراء المعاصرين - فيما نعتقد - ولكنه كما يعبر البلاغيون: من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء.

هذه واحدة أما الثانية فهي فكرة الاهتمام من الناحية الأدبية بكل جزء من أجزاء هذا الوطن على حدة على اعتبار أن لكل جزء ظروفه الخاصة والعوامل التي تأثر بها في أدبه وشعره وهذا الاهتمام يمكن الباحث من التفرغ لعمله ومن تقديم دراسات مركزة مجدية وخاصة عندما يكون هذا الباحث من أبناء الإقليم الذي يتحدث عنه ويبحث عن أدبه وشعره.

وبمرور السنوات ستتقارب الظروف والاتجاهات وتتفاعل الأفكار وتسير كلها

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٠/١١/٢٤هـ الموافق ١٩٦١/٤/٩م العدد (٥٨)

(١) طبعة دار الكتاب العربي بمصر في عام ١٩٧٢م.

في اتجاه وعندئذ يتكون أدب هذه الأمّة الموحَّد.

والحديث عن العنوان يقودنا إلى أن نتساءل عن المقياس الذي وضعه المؤلف الفاضل لتحديد نجدية الشاعر ولم يشر في مقدمة كتابه ولا في ثناياه إلى المقياس الذي وضعه وسار عليه وليته لم يغفل هذه الناحية المهمة ليكون القارئ والناقد على بصيرة من هذا الأمر.

فهل المقياس «أصل» الشاعر بصرف النظر عن مكان ولادته وموطن إقامته وهل في الإمكان تطبيق هذا المقياس تطبيقا دقيقا بالنسبة للشعراء في جميع بلاد العالم، ثم إلى أي مدى يعتمد هذا «الأصل» أعني إلى أي عدد من جدوده فإن كان هذا هو المقياس فإن بعض الشعراء القدامى الذين أورد أسماءهم باعتبار أنهم من نجد لا ينطبق عليهم هذا المقياس.

أما إذا كان المقياس هو المولد والنشأة فإن بعض الشعراء الحديثين في كتاب المؤلف لا ينطبق عليهم هذا المقياس ففيهم من ولد في غير نجد ولم يَرَ نجدًا إلا وهو شاب ناضج مكتمل.

وفي المقدمة التي وضعها المؤلف تخطيط لمنهجه في البحث وقد افتتحها بالحديث عن ماضي نجد المجيد في الشعر وقد عاد المؤلف فكتب فصلًا عنوانه «مركز نجد في الشعر، يعتبر تكملة لحديثه هنا»، ثم تساءل: هل من اللائق أن نغفل نهضتها الفكرية الجديدة وتاريخها الحديث أو نتجافى عن روائع شعرائها في العصر الحاضر وألا نسجل حتى أول خطواتها في النهضة العربية الدائبة؟» ونحن مع المؤلف في أنه ليس من اللائق. ولقد قام المؤلف مشكورًا بسد بعض هذا النقص بكتابه القيم الذي نتحدث عنه والمأمول أن يكون خطوة تتلوها خطوات وخطوات.

وليت المؤلفين والدراسين يحاولون أن يصلوا ما انقطع من (سلسلة التراث الأدبي) في هذه البلاد، وصحيح أن فترة الانقطاع طويلة جدا تمتد بضعة قرون ولكن الإخلاص والجهد الدائب كفيلان بالتغلب على كثير من الصعوبات.

وقد كانت فكرة المؤلف ـ بادئ ذي بدء ـ أن يقدم نماذج مختارة من شعر

الشعراء النجديين مع تراجم موجزة «لمجرد تعريف الرأي العام العربي بالمستوى الشعري المعاصر في هذه المنطقة الفسيحة من جزيرة العرب» وهذه الفكرة رغم أنها محدودة إلا أنها كانت ستؤدي خدمة طيبة لمن يريد مواصلة البحث والدرس وإن كانت الطريق التي اقتنع بها المؤلف أخيرًا - وهي أن يدرس الشاعر في ضوء المؤثرات النفسية - هي الأجدى والأنفع دون شك لولا الصعوبات التي اعترضت طريقه ودفعته إلى أن يسلك منهجا وسطا.

ويقول المؤلف الفاضل «في هذه الدراسة الموجزة عمدت إلى إلقاء ومضات سريعة على الحياة الأدبية والشعرية منها بوجه خاص - فيما قبل العصر الحاضر ليتسنى لنا من خلال ذلك الربط بين الماضي والحاضر ولندرك بالتالي مدى تأثير الحياة الروحية وما يرافقها من أحداث - على الحياة العقلية ومدى استجابتها لما يلائم حياة العصر من جدة الأفكار..» ولكن المؤلف يقول كذلك: «على أنني لم أتعرض لهذا الاتجاه عند شعراء جيلنا القائم ولم أعرج على ذكر هذه الناحية أو المرور بها عرضا وتركت للقارئ - من خلال المختارات الشعرية - أن يستنتج ويحكم».

ولم يبين لنا المؤلف الفاضل الأسباب التي دفعته لذلك وحبذا لو تحدث عن هذا الاتجاه عند شعراء هذا الجيل فإنه لو فعل لوصل إلى نتائج قيمة عن طريق الدرس والمقارنة، ولعل أحد الدارسين يضطلع بهذه المهمة فيقدم للعلم خدمات مشكورة.

وقد كتب المؤلف الفاضل فصلا عن «الشعر، نشأته وتطوره» عرض فيه عرضا متقنا آراء الباحثين في نشأته وتطوراته وقد ذكر المؤلف عندما عرض لقصة مضر بن نزار أن كلمة «هايدا هايدا»، «لا تزال حتى الآن على ألسنة أصحاب الإبل من بدو نجد وحاضرتها يستعملونها للغرض الذي كانت تستعمل له منذ عشرات القرون» وهذا استدلال جميل ومعلومات لم أعرفها من قبل.

أما الفصل الذي كتبه المؤلف عن «نجد والنهضة العربية» فقد عرض فيه المؤلف صورة صادقة عن الحكم التركي وأثره السيء في حياة العرب، ثم

تحدث عن الحركة الإصلاحية العظيمة التي قام بها الإمام المجدد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب وأثرها وخاصة بعد أن تضافرت مع القوة السياسية الممثلة في أمراء آل سعود وما قوبلت به هذه الحركة إلى أن انتصر الحق وظهر النور.. ووصل في بحثه إلى تأثير النهضة الدينية على الناحية العقلية وما قام به الشعر من مشاركة في تدعيم هذه الحركة الدينية أو مقاومتها. وقد كتب المؤلف هذا الفصل بروح الحقيقة والإنصاف.

ويعتبر الفصل التالي «الشعر في تلك الحقبة» متممًا للفصل الذي أشرنا إليه ولكني أحب أن أسترعي انتباه القراء إلى قول المؤلف في بداية هذا الفصل: «وفي زحام الفكر الذي استيقظ على صيحات النذير منبها أمّة العرب والإسلام إلى خطورة البقاء على تلك الجاهلية الجهلاء وبين ومضات الانتصار وبشائر توحيد كلمة العرب تحت راية الإسلام النقي المصفى، أو في هذه الأثناء تحركت أوتار القلوب الشاعرة واستلهمت قرائح الشعراء النجديين من واقعهم شعرا جيدا فيه من جودة التصوير والتعبير بقدر ما فيه من ازدواجية التحميس والتهييج والفرحة بانتصار الدعوة وقيامها».

ثم قوله بعد ذلك: «وإنصافًا للحقيقة الواقعية والتاريخ الذي لا يغفل يجب أن نعترف بأن الشعر في تلك الأيام لم يكن بالشعر الذي يعبر عن نفسية الشاعر وانفعالاته ولا هو يعطي صورة حقيقية عن بيئة الشاعر ومجتمعه وشؤون حياته المادية والروحية والفلسفة العامة لخبايا النفس الذاتية وزوايا المجتمع الإنساني المحدود واللا محدود بقدر وافٍ، ذلك أن أساليبه التعبيرية وموضوعيته الضيقة كانت (كلاسيكية) ميتة لم تتغير في مناهجها المألوفة كما هو الواجب تمشيا مع التغيير الفكري الذي واكب تلك الحركة الإصلاحية وعاشها بكل شعوره وإحساساته».

فهل يرى القراء شيئا من التخالف في هذين التعبيرين أم أن المؤلف أراد بالفقرة الأولى أن يقول إن الحركة الإصلاحية العظيمة التي قام بها المجدد الإمام محمد بن عبدالوهاب شحذت قرائح الشعر فأنتجوا شعرا وصفه المؤلف وصفا رائعا ولكن ذلك لم يستمر طويلًا ولذلك اضطر المؤلف إلى أن

يقول: «إن شعراء الفترة التي سبقت بزوغ فجر النهضة الحديثة وجلهم - إن لم يكونوا كلهم - نظّامون وليسوا شعراء بالمعنى الصحيح للشعر».

وأنا لا أدرى هل في الأمر حقيقة ما يستدعي التأمل والمناقشة أم هو وهم مني وسوء فهم ورحم الله أحمد بن الحسين.

وقد وفق المؤلف توفيقًا يغبط عليه في الفصل القيم الذي كتبه عن «الشعر المعاصر وعوامل تطوره» وهو فصل يمتاز بالدقة والشمول وإبراز الحقائق بطريقة لا تدع مجالا لشك أو شبهة ويدل على عقلية واعية وإحساس ملتهب ونحب أن ننقل إلى القراء قول المؤلف الواعي: «ولكن الطابع التقليدي في الشعر العربي لم يكن يوما من الأيام عامل ضعف أو تقهقر فيه بل على النقيض من ذلك فقد ربط هذا الطابع بين قديم الشعر وحديثه في جميع القرون التي مر بها حتى اليوم دون أي انقطاع يفقدنا فيه روابط الحياة الفكرية بين مختلف الظواهر الاجتماعية للأمة العربية والإسلامية عبر أجيالها وعصور حياتها المتباينة»، «وبالرغم من أن الشعر العربي في العصر الحاضر قد تقاذفته موجات عاتية من التجديد والابتعاد به عن سماته وطابعه التقليدي - إلا أنه ما زال تشده إلى تلك السمات والمميزات أواصر ووشائج متداخلة لا مندوحة للشعراء من الرضوخ لحكمها وسلطانها النفسي البالغ التأثير». وهذا الكلام يدل على بصيرة وألمعية وحسن فهم.

وقد وصل المؤلف في بحثه إلى دراسة «اتجاهات الشعر في نجد» وأوضح أن شعراء النهضة الحالية لم يكن لهم من جولات تذكر في الميدان الكلاسيكي إلا بقدر ما مهدوا للاتجاه الرومنتيكي، وقسَّمَ الشعراء إلى طبقات ثلاث؛ أصحاب نظرية الشعر التعليمية، والرومانطيقيين، وفريق المشارف على الواقعية، وتحدث عن الاتجاه الرومنتيكي ووصفه بأنه «يستأثر بالقدر الأكبر من نتائج الشعراء النجديين» لأسباب تعرض لها المؤلف في بحثه ووقف موقف المدافع عن الشعراء الذين سلكوا هذا الاتجاه ثم تحدث عن الاتجاه الواقعي في رأي النقاد وبالنسبة للشعراء النجديين وآثر الواقعية في المجتمع

ورسم الخطوط العامة وأخذ يبشر «بأن هذا الاتجاه أخذ يتبلور وتتضح معالمه منذ ثلاث سنوات تقريبا عندما تشجع الأدباء من كتاب وشعراء على مواجهة مشاكل الحياة الاجتماعية وجها لوجه».

وأشار إلى أبرز معالم الشعر الواقعي ومدلولاته ولم يَفُتْهُ أن يتعرض للفرق بين الصياغة الحديثة والصياغة القديمة، وهذا القسم من الكتاب يموج بالحيوية والحرارة والإيمان ويدل دلالة صادقة على سعة أفق المؤلف وعلى إيمانه بعدالة القضايا التي يدافع عنها وعلى تمسكه بالقيم الإنسانية وحرصه على أن يرتفع بكرامة الإنسان إلى المستوى الذي أراده الخالق وإلى أن يمجد الكلمة والحرف تمجيداً يتفق وما لهما من شرف ومكانة في دنيا الحضارة.

ونحب أن نشير ونحن نختتم الحديث عن هذا القسم إلى بعض النقاط؛ فقد أكثر المؤلف من الحديث عن الشعر التقليدي وهو شعر الرثاء والمدح والهجاء، أو بعبارة أخرى شعر المناسبات.. وشعر المناسبات فيما أتصور ليس شعرا تافهًا كله فكثير من القصائد التي قيلت في المديح أو الرثاء أو غيرهما من الأغراض قصائد لم يكن الدافع إليها الكسب المادي أو المجاملة الكاذبة بل كان الدافع لها الإعجاب الحقيقي بعظمة الممدوح أو المرثي وكثير منها تطرق لنواح اجتماعية هامة.

هذه واحدة، أما الأخرى فالواضح أن المؤلف الفاضل من أنصار الفن للحياة وليس الفن للفن وقد أنحى باللائمة على أنصار الاتجاه الأخير وقَسَا عليهم أو التمس لهم المعاذير كأنهم بعملهم هذا قد ارتكبوا ذنبًا يؤاخذون عليه إذا ثبت سوء نيتهم ويعذرون إذا ثبت حسن قصدهم أو وجود ما يدفعهم إلى سلوك هذا الاتجاه، وأعتقد أن الذي حَدَا بالمؤلف إلى أن يقف هذا الموقف هو حرارة إيمانه «بالإنسان» الإنسان الذي مجده الخالق ولذا فكل شيء يجب أن يكون في خدمته ولكن صديقنا المؤلف النابه يؤمن بحرية الفكر إيمانًا عميقًا ويدافع عن هذه الحرية في إخلاص وصدق جديرين بالإعجاب والتقدير، فهل يرى أن في محاولة فرض هذا الاتجاه ما يتنافى مع هذه

الحرية؟ لماذا لا نترك لكل أديب حريته في أن يختار الطريق الذي يروقه والاتجاه الذي يعجبه ونحن واثقون من أن طائفة كبيرة من الأدباء ستجعل الأدب في خدمة الحياة وأن الفريق الذي ينتج على أساس الفن للفن ينتج تراثا لا تستغني عنه الإنسانية من جهة، ومن جهة أخرى فإن ظروف الحياة وتشابك علاقات أفراد المجتمع في العصر الحديث وتداخل القضايا بشكل يصعب معه التخلي عن المشاركة فيها - كل ذلك سيدفع بهذا الطريق إلى أن يتجه اتجاهًا كاملًا إلى خدمة المجتمع أو على الأقل إلى المشاركة بقسط في هذا الاتجاه.

أما النقطة الثانية فهي تقسيم الشعراء النجديين إلى الطبقات الثلاث التي سبقت الإشارة إليها وفي هذا التقسيم ما يدعو إلى النظر لأن بعض الشعر الذي أورده المؤلف لا يتفق مع هذا التقسيم ثم إن الحكم لا يصبح كاملًا إلا بعد الاطّلاع على جميع إنتاج هؤلاء الشعراء والذي أورده المؤلف من أشعار هؤلاء الشعراء قدر بسيط لا يمكّن من هذا الحكم - فيما نرى - وإن كان المؤلف الفاضل لم يغفل ذلك فقد أشار إلى ذلك إشارة عابرة عند ترجمته بعض الشعراء وإن كان الذي لا شك فيه هو أن الأستاذ المؤلف قد وضع خطوطا أساسية تصلح قواعد لإقامة أبنية قوية شامخة رائعة وهذا وحده فضل كبير لا يستهان به.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد ترجم فيه المؤلف لثلاثة وعشرين شاعرا نجديا، والحق الذي لا مراء فيه أن هذه المختارات الشعرية التي اختارها لنا المؤلف وقد زادت عن الخمسين ومائة ما بين قصيدة ومقطوعة تعتبر كنزا ثمينا فقد كشفت عن شاعرية ممتازة وكانت في غمرة النسيان وأثبت أن في نجد شعراء وبعض هؤلاء الشعراء بعيد عن معرفة القراء لم يعرفوهم ولم يقرأوا لهم.

وكان بِوُدّي أن أنتهزها فرصة فأدرس هذه المختارات دراسة وافية أتعرف منها على اتجاهات هؤلاء الشعراء وأتبين مدى ما قدمه المؤلف من آراء تتفق أو تختلف مع ما ورد فيها. ولكن ذلك يستدعي كثيرا من الوقت

والجهد ولذا آثرت أن أدع هذه الدراسة إلى فرصة أخرى.

وحسبنا أن نشير إلى بعض الملاحظات التي عرضت لنا أثناء قراءة هذا القسم من الكتاب وأول ما يمكن أن يلاحظه القارئ هو أن المؤلف قد وفق في التراجم التي قدمها رغم إيجازها ففي استطاعة القارئ أن يتعرف على الشاعر المترجم له وعلى نواحي الضعف أو الامتياز فيه وهذا دليل على ألمعية المؤلف ونفاذ بصيرته.

أما الملاحظة الثانية فهي صراحته في التعليق صراحة لا يقوى عليها إلا المؤمن بعمله الواثق من نفسه ويبدو لي أن هذه الصراحة قد تُغضِب بعض الذين تمسهم من قريب أو بعيد، استمع إليه يقول عن أحد هؤلاء الشعراء: «كان شغوفا بالقراءة والمطالعات الأدبية وفي الأدب المعاصر بوجه خاص ولقد نمّى فيه العاطفة الوطنية وحب الإصلاح الاجتماعي إلا أن توفره واقتصاره على هذا الأدب وانصرافه عن الأدب القديم - وبالتالي عزوفه عن ربط القديم بالحديث - قد أفقده شيئا من العمق والارتواء العلمي والثقافي».

ويقول عن آخر: «وهو من الشعراء الذين كسلوا عن تنمية مواهبهم الشعرية وتغذية مَلَكاتهم بما ينعشها ويصقلها».

والملاحظة الثالثة هي أن المؤلف لا يدع فكرة تمر دون أن يعرض لها بالشرح والتحليل؛ يقول في ترجمة أحد الشعراء: «على الرغم من إحاطة الرومانتيكية بمعظم جوانب شعره فإن جوانب أخرى يحس القارئ فيها ميل الشاعر إلى شيء من الرمزية ولا أعني رمزية (ألبير أديب أو ثريا ملحس) مثلا وهي الرمزية التي تكفر بالخير والحكاية وبالتعليمية وإنما أعني أن شاعرنا ذاتيٌّ إلى حد كبير».

ويقول في ترجمة أحد الشعراء: «ويجمل بنا - للمناسبة - أن نذكر أن الشعر عند أولئك الرمزيين ليس وسيلة لإصلاح خلقي أو اجتماعي أو ديني وهو ليس للتعليم أو التهذيب أو لما يماثل هذه الغايات بل الشعر عندهم غاية.. إذن هو مقصود لذاته لا لما يحدثه من آثار.. إنه - حسب نظريتهم - لغة

جمالية ومتعة فكرية ولذا نجدهم يبالغون في الإيهام والغموض حتى إنهم أنفسهم ربما لا يدركون معاني الألفاظ والتعابير التي يستعملونها لترجمة خلجات عقولهم الباطنة لأنها تعابير واسعة الاحتمال وأكثر بكثير من الألفاظ تعقيدا.

أما الملاحظة الرابعة فهي دفاع المؤلف عن حرية التعبير دفاعًا مجلجلًا يستلفت النظر؛ اقرأ قول المؤلف في ترجمة أحد الشعراء: «ويبدو أن هذا الشاعر قد هجر قول الشعر فيما بعد ذلك التاريخ لاشتغاله بالوظيفة وعقابيلها - وما أكثر وأشد وبال الوظائف على الحياة الأدبية والحركة الفكرية».

ويقول في ترجمة آخر: «ولعلنا نستشف من وراء ذلك ظاهرة جديرة بالالتفات في حياة أدبائنا وهي فقدان الشجاعة في مواجهة الحقائق وخدمة قضايا الفكر».

أما الملاحظة الخامسة فهي موقفه من هؤلاء الشعراء موقف الرائد والداعية يدعوهم إلى العمل ويستحثهم على المضي فيه يهون على بعضهم ما يؤدونه من مصاعب ويستثير البعض الآخر ويصف فريقًا ثالثًا بالتقصير وبالعجز والجبن بقصد أن يدفعهم إلى العمل لا بقصد تحطيمهم أو الحط من قدرهم.

يقول عن أحد الشعراء: «على أنه قد انسحب من الميدان الأدبي شأنه شأن كثير من الشباب الذين يَلِجُون هذه المعركة ثم لا يلبثون أن يختفوا نهائيًّا عن أنظار المجتمع الذي يعقد على شبابه الواعين كبير الآمال والاستشراف لمستقبل فكري أعمق وأكثر نضوجًا».

ويقول عن آخر: «وعسى أن نرى ونقرأ له شعرا فيه كثير من نجاح المحاولة ونضوج التجربة مستقبلًا».

أما الملاحظة السادسة فهي أن المؤلف أخذ تراجم بعض هؤلاء الشعراء وما اختاره من شعرهم - أخذه من بعض الكتب المطبوعة! ولست أدري لماذا لم يطلب من الشعراء أنفسهم تراجم حياتهم وما يحبون تقديمه من شعرهم ثم يضيف إلى تراجمهم ما يراه جديرًا بالإضافة لمختاراتهم الشعرية ما

يعتقد أنه أحق بالنشر؟ وهذه الطريقة ـ فيما أعتقد ـ أجدى وأنفع لأن الشاعر سيقدم للمؤلف كثيرًا من إنتاجه الأخير الذي يحتفظ به وفي ذلك من المصلحة الأدبية للشاعر والمؤلف ما فيه. ولا ندري فربما فعل المؤلف ذلك ولكن بعض الشعراء لم يستجب له وإن كان هو لم يشر في كتابه إلى شيء من ذلك.

أما الملاحظة السابعة فهي ترجمة المؤلف لنفسه وهي طريقة جيدة تعطي القارئ فكرة حسنة عنه وتمكن الناقد مستقبلا من الاستفادة من هذه الترجمة في نقده للكتاب وفي تعليله لأعمال المؤلف.

وقد كان يسلك هذه الطريقة بعض المؤلفين المسلمين القدامى كما يفعلها الآن العلماء الغربيون.

أما الملاحظة الثامنة وهي تتصل بالشعر المنثور في كتاب المؤلف وقد التزم أغلبية الشعراء القافية والعمود الشعري فلم ينحرفوا إلى الاتجاه الخاطئ الذي يحاول بعض المعاصرين أن يجر إليه الشعراء بل إن تمسكهم بالقافية والعمود الشعري مع تقديمهم لهذه الروائع يعتبر دليلا عمليا على أن الدعوى التي تقول: (إن الشعر التقليدي ـ كما يسمونه ـ يحول بين الشاعر وبين التعبير عن رأيه) ما هي إلا دليل العجز والعي وإلا فإن الشاعر الموهوب يستطيع أن يتخذ من القافية أو التزام العمود الشعري المعروف قالبًا يصوغ فيه ما يحب من آراء دون أن تشعر بخلخلة أو اضطراب أو ضعف.

أما الملاحظة التاسعة فهي أن أكثرية الشعراء المترجم لهم في هذا الكتاب قد ولدوا في بيئات فقيرة ونشأوا في مهد الفقر ومدارج العدم وهذا سر ما يملأ أشعارهم من ثورة واندفاع.

أما الملاحظة العاشرة فهي أن مدينة عنيزة كان لها أكبر قسط من الفخر بشعرائها فقد بلغ رقما قياسيًّا بالنسبة لبقية المدن وهو يدل على أن هذه المدينة تتمتع بميزات طبيعية رائعة وبجو يدفع إلى ترقيق العواطف وتنظيم الشعر.

ولا يفوتنا ونحن نختتم الحديث عن هذا الكتاب أن نُشيد بالأسلوب الرائع القوي الذي كتب به المؤلف كتابه وهو أسلوب الكاتب المتمكن من ناحية البيان الذي يشدك شداً إلى قراءة ما كتب فهو أسلوب عربي رصين بعيد عن هذه الأساليب التي تشيع في الأوساط الأدبية في أيامنا هذه من الأساليب التي تتصف بالميوعة والسطحية والعامية.

وبعد فهذا كتاب قيم يقف في طليعة المؤلفات التي نفخر بها ونعتز بها وهو دراسة واعية تتصف بالحيوية والعمل وظهوره في هذه الآونة يعطي فكرة قوية ناصعة للمثقفين والكتاب في العالم عن النشاط الكبير الذي قطعناه في دنيا الثقافة وعن المستوى الرفيع الذي بلغناه في عالم المعرفة.

وبكثير من الاعتزاز والتقدير يطيب لي أن أقدم التهنئة الخالصة والشكر العظيم لصديقنا الأستاذ عبدالله بن إدريس على ما بذل من جهد موفق يستحق الثناء والإعجاب.

وأكرر الشكر مرة أخرى على كريم هديته وأرجو أن نلتقي معه مرات ومرات في أعماله الأدبية الضخمة التي يضطلع بها والتي ننتظر ظهورها بكثير من الشوق.

على هامش النقد
«أغنية العودة»(١)

هذا ديوان شعر يصدر في أيامنا والشعر يعاني فيها محنة عجيبة نتيجة لانتشار بعض المفاهيم والآراء المستوردة. فبعضها يقول: «إنه لا مكان للشعر بيننا في عالمنا المتطور فالشعر عمل العابثين واللاهين والفارغين ونحن في أشد الحاجة إلى الاستفادة من كل أوقاتنا ومن جهود شيوخنا وشبابنا في إنهاض أمّتنا وفي تدعيم كياننا والشعر مشغلة للناس ومضيعة للوقت»!

وبعض تلك الآراء أخذ يشكك العرب في أهمية الشعر العربي الموروث ويدعو إلى التجديد في كل شيء حتى نظام الشعر وقوالبه وإلا فنحن أمّة متأخرة لا تستحق الحياة في هذا العالم المائج الموار.

وفات أصحاب الرأي الأول أن قوة العقل تستدعي قوة الروح والوجدان وأن الفنون الجميلة توقظ الروح وتصقل الوجدان وتجعل من كل فرد في الأمّة إنسانًا متكاملًا يعيش الحياة كما يجب أن تعاش، أما إذا تجردت الحياة من الفنون الجميلة فإن حياة الإنسان حينئذ تصبه أشبح بالآلة التي لا تحس ولا تشعر ولكنها تؤدي عملا محدودا لا حياة فيها ولا روح، ومن أجل ذلك أصبح العلماء والأدباء والمفكرون يصفون الفنون بالرفعة ويتقبلون الفنون الرفيعة لأنها ترتقي بالإنسان من دنياه الماديّة الضيقة إلى عالم إنساني رحيب، وما أجمل قول معروف:

إن رمت عيشا ناعما ورقيقا فاسلك إليه من الفنون طريقا
واجعل حياتك غضة بالشعر والتـــمثيل والتصوير والموسيقا
تلك الفنون المشتهاة هي التي غصن الحياة بها يكون وريقا

وتصور جمال التعبير في قوله: «واجعل حياتك غضة» فإن الحياة إذا تجردت

---

(١) صدر في عام ١٩٦١م.

من الفنون تصبح جافة يابسة لا حياة فيها ولا اخضرار. وتصور جمال التعبير كذلك في قوله عن الفنون الرفيعة: «هي التي غصن الحياة بها يكون وريقا» فبغيرها يصبح غصن الحياة حطبا جافا لا ورق فيه ولا رونق ولا ماء.

وتستطيع أن تطبق هذا الرأي على جميع الأمم المتحضرة في القديم والحديث من أمة اليونان إلى الأمة الروسية أو الأمريكية في الحديث.

وفات أصحاب الرأي الثاني أن التجديد ليس معناه هدم القديم والتجرد منه واعتباره عارا ومَسَبّة فليس كل قديم بضار أو تافه وليس تقليد الغير هو التقدم والنهوض وإن كان مما يسر ما تشير إلى البوادر من أن الشعر العربي السليم الأصيل في طريقه لاستعادة مكانته واسترداد مجده.

هذه مقدمة بين يدي حديثنا عن ديوان «أغنية العودة» للكاتب الشاعر الأستاذ سعد البواردي الذي تفضل مشكورا بإهدائه إليّ.

وقد أصدر الأديب الشاعر كتابين وديوانا في وقت واحد وهو أمر يدل على نشاط الأستاذ وخصوبة أدبه وشدة عزيمته وإيمانه برسالة الأدب والأديب، وإن كنت لا أدري لماذا اختصني الشاعر بديوانه أهو اعتزازه بشعره أم تقديره لميزاني في الشعر أم لغرض آخر لا أدريه!

والأمر الجديد بالذكر هو أن قلة نادرة من الأدباء في الأدب العربي كله هي التي استطاعت أن تجمع بين الإجادة في الشعر والإجادة في النثر بدرجة واحدة وأما غالبيتهم العظمى فقد كانت تتفوق في ناحية دون أخرى.

والأستاذ سعد البواردي كاتب ناصع البيان مصقول الكلمة جيد الأداء قد يسر على التصوير والتعبير في كل ما يعرض له من شؤون عالم النثر، فهل استطاع أن ينقل كل هذه المزايا إلى شعره؟ ذلك ما سنراه.

سمى الشاعر ديوانه «أغنية العودة» وهو عنوان لإحدى قصائد الديوان وهذا دليل على اعتزاز الشاعر بهذه القصيدة وعلى أنه يضعها في المقام الأول من ديوانه. وهي قصيدة تحكي قصة امرأة مشردة من فلسطين ويدور حوار مؤثر بين الأم ووحيدها وُفِّق الشاعر في صياغته توفيقا يستثير الإعجاب.

وبالرغم من عدم إيماني بهذا اللون من الشعر إلا أنني أشهد أن الشاعر كان بارعا في تصوير الانفعالات وفي إبراز الأحزان القوية التي تعمر قلوب البائسين من لاجئي فلسطين المشردين.

ويبدو لي أنه كان بإمكان الشاعر أن يصوغ هذه القصة في القوالب الشعرية المعروفة ـ كما صنع شوقي ومطران وإيليا أبو ماضي وعزيز أباظة ـ فكثير من مقاطع القصيدة تسير على هذا النهج الرائع وتدل دلالة أكيدة على مقدرة الشاعر، وجميل من الشاعر أن تموج قصيدته بروح التفاؤل وأن يحارب الانهزاميين والهاربين وباذري بذور اليأس.

وقد أشرت إلى تمكن الشاعر من إبراز انفعالات البائسين والحزانى، وهذا ما يمكن أن يلحظه الناقد في أكثر قصائد الديوان فهناك روح حزين يسري في هذه القصائد حتى في الحماسية منها وأنت تشعر بأن هذا الروح الحزين يحد من انطلاق الشاعر ومن تحليقه حتى في المواقف الثائرة التي تستدعي من الشاعر أن ينطلق عاصفا جبارا مجلجلا.

فما إن يأخذ في الاندفاع حتى يتغلب عليه هذا الروح الحزين ويحول بينه وبين الارتفاع إلى أقصى مدى، وكم كنت أود لو أنني أعرف تفصيلات أوفى عن حياة الشاعر الأولى فربما استطعت أن أتعرف إلى أسباب هذا الحزن الذي يلف عواطف شاعرنا وأفسر دوافعه، ولكن ألا نستطيع أن نستشف ذلك من ديوان الشاعر؟ ربما استطعنا ذلك ففي الديوان قصيدتان هما «أبي» و«اليتيم البائس»، ويهدي الشاعر قصيدته الأولى إلى روح أبيه «الذي مات وما زال حلما جميلا يداعب مخيلته» ويقول فيها:

أبي عشت في عالم لا أراك ... يتيما بلا عائل يسعد
تمنيت في فرحة أن تراني ... وعز على الدهر ما تَنشُد
وحيد بلا مؤنس في الحياة ... يتيم بلا (والد) يسند

ويقول في قصيدته «اليتيم البائس»:

ما كنت مذ كنت حلما ... منمقا في خطاه
وإنما كنت يتيما ... ملفعا بشقاه
يا ويح أيام عمري ... كم ناصبتني العذاب
فكان لليتم أسري ... وكان حلمي سراب

••••

ملأت بالدمع أرضي ... وبالأنين سمائي
وجن في العمق نبضي ... تأوها من بلائي
وحين رمت لجرحي ... ضمدا وكلي جراح
ألفيت أصداء روحي ... تجيبني في نواح
ما أنت إلا يتيم ... واليتم أقسى عذاب
والناس سر اليتم ... قد فسرته الذئاب

فهذه نصوص واضحة صريحة تفسر لنا سر «شقاء» الشاعر في دنياه وسر هذا الحزن العميق الذي تغلغل في حناياه فصبغ بلون قاتم جميع مرائي الشاعر. فلقد نشأ شاعرنا يتيمًا إذ مات والده قبل أن يرى ابنه الحياة وكان لذلك أثره في نفسية الطفل الحساسة وفي شعوره المرهف ظل ملازما له حتى الآن، ولكن الشاعر - رغم كل شيء - يُعتَبر حَسَنَ الحظ فقد دفعه اليتم والبؤس إلى (منجم العبقرية) الذي خلق منه أديبًا يقدس الكلمة وشاعرا يعزف على قيثارة الألم أروع الألحان. وصدق شوقي حين قال:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحليمة منهما ... وبحسن تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له ... أما تخلت أو أبا مشغولا

والقسم الأول من ديوان الشاعر وهو يعادل ثلث الديوان تقريبا سماه الشاعر «مع قافلة البعث» وهو يتحدث فيه عن الحرية المقيدة والشعوب المكبلة التي ترسف في اغلال الاستعمار وتضرب هنا وهناك من أجل الحرية والخلاص وهو لا يهتم بأمته العربية وحدها وإنما يعتبر الحرية في كل

العالم جزء لا يتجزأ فهو يتحدث عن فلسطين والجزائر كما يتحدث عن قبرص وأفريقيا. وللشاعر قصيدتان عن فلسطين إحداهما أغنية العودة أما الأخرى فعنوانها فلسطين. وقد تحدثنا عن «أغنية العودة» أما فلسطين فقصيدة رائعة ولكنها تتحدث بهدوء في الوقت الذي ننتظر أن يكون حديثا يهز الاسماع والقلوب بعبارات نارية ومع ذلك فهي قصيدة من عيون قصائد الديــوان رغم قصرها ترفرف عليها روح التفاؤل الحزين إذا صح بين التفاؤل والحزن.

أما الجزائر فنصيبها من هذا القسم أربع قصائد وكلها قصائد قصيرة ولكنها مفعومة بالعواطف الثائرة مشحونة قوية من صدق التصوير وجمالي التعبير وروعة الإيمان بالشعب الأبي ومستقبله الباهر وأن كان يخيم على قصيدة «يوم الجزائر» وهي أطول القصائد الأربعة فتور لا يتفوق وجلال الموضوع وروعة الغرض. وربما نظمها الشاعر تلبية لرغبة من الرغبات في وقت لم تكن دواعي الشعر فيه متوافرة وربما كان لتنوع القافية والتزام الشاعر لقوله «ليوم الجزائر جد يا اخي» بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من غلبة الروح الحزين على شعر الشاعر ربما كان لكل ذلك أثر في هذا الفتور.

ويلاحظ على قصائد الشاعر عن فلسطين والجزائر وعمان أنه لا يتحدث فيها عن الإسلام. أما عن العروبة فحديثه عابر غير مقصود ولعل الشاعر يريد أن يكون «إنسانيا» لا يتقيد بحدود إقليمية ثم هو يرى في انتصار الحرية في أي مكان انتصارًا للعرب والإسلام.

وكل هذا كلام سليم لا غبار عليه، ولكن ألم تثبت التجارب أن انتصار الحرية في غير بلاد الإسلام لم تخلق من أولئك المواطنين أنصارا يقفون إلى جانب الحرية المظلومة في بلاد الإسلام ونتيجة لذلك ألا يرى أن تدعيم رابطة الإسلام بين الشعوب المسلمة هي الضمان القوي والسياج المتين وصحيح أن بعض البلاد المسلمة تخلت عما يفرضه الإسلام من تعاون وتآزر وتكاتف ومالت إلى صفوف أعداء الإسلام ولكن الملاحظ أن ذلك هو اتجاه الحكومات وليس اتجاه الشعوب، والإسلام دين العزة والقوة والحرية

والسلام لجميع الشعوب على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم.

والقسم الثاني من الديوان بعنوان «صور من الحياة» وفي هذا القسم وهو أطول أقسام الديوان تجد الشاعر البواردي شاعرا إنسانيا يحترق أسى على الإنسانية ويذوب شوقا إلى مجدها المنتظر ورفعتها المرتقبة، ويصور بريشته الحزينة البارعة آلامها المروعة ولكي يخلق من ضعفها قوة ومن استكانتها ثورة ومن إخفاقها نجاحا ثم يَحدُو لها لتَغُذَّ السير نحو الماء العذب والخضرة والخصب والحياة الآمنة السعيدة.

وشاعرنا واسع الأفق رحب التفكير متفاعل مع الحياة مؤمن بالإنسانية فبينما تجده في قصيدته «ابتهال» يقسو على المتكبرين والقساة وذوي المطامع ويهزأ بمطامعهم وأحقادهم ويسخر بما يجمعون من حطام الدنيا وما يلجأون إليه في سبيل ذلك من الملق والنفاق، ويدعو إلى الوئام والمحبة والسلام - تجده يتحدث عن «طائر» وعن متسول «آثر على شرف العمل خسة الاستجداء» وعن «الام» و«اليتيم» و«الأمل» وعن طائفة من الموضوعات الإنسانية التي تلمس أدق عواطف الإنسان ويصور كل ذلك تصويرا قوامه حب الإنسان وتمجيد الإنسانية وتحطيم كل ما يقف في سبيلها ويحول بينها وبين أن تعيش في حياتها مؤدية رسالتها سالمة من العبث والاستغلال والتسخير.

وقد تدفعه حماسته للإنسانية وتعجله لأن يراها في الحالة التي يرجوها لها ثم يرى طول الطريق وكثرة العقبات وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان وما حفل به تاريخ الإنسان من مآس وفواجع. قد يدفعه كل ذلك إلى نوع من التشاؤم الشديد والثورة العاصفة المدمرة كما في قصائده «في الطريق» «أمة الليل» «الغروب الرهيب».

ونصل إلى القسم الثالث من الديوان وقد عنون له الشاعر بعنوان «رثاء» وكل قصائد هذا القسم لا يتجاوز الأربعز ويستطيع الناقد أن يلمح من بعض قصائد هذا القسم وخاصة «شرارة في أفق أفريقيا» و«دمعة على راحل» ومن بعض قصائد الديوان السابقة كقصيدته «جنازة الأدعياء» مثلا

إلى أن الشاعر متأثر ببعض الاتجاهات المذهبية المعينة. ومع إيماني بسلامة الفكرة التي يؤمن بها شاعرنا النابه وهي أن الانتصار للحرية في أي جزء من العالم هو انتصار للحرية العربية وأن أي نصر تحققه الشعوب الضعيفة مهما كان جزئيًا فهو نصر لها جميعا. أقول مع إيماني بسلامة هذه الفكرة إلا أنني كنت أود لو عني الشاعر بقضايا عربية وإسلامية بدلًا من عنايته بالمأسوف على شبابه «باتريس لوممبا» وليست هذه رجعية أو تعجبًا ممقوتًا أو ضيقًا في الأفق أو قصرًا في النظر ولكنها الحقيقة المرة التي عرفناها من تجاربنا الكثيرة والتي علمتنا أن نعتمد على أنفسنا ندعم رابطتنا الإسلامية وألا نخدع بأولئك الذي يمدون لنا أيديهم لنسدهم ونشد أزرهم حتى إذا وقفو هني أرجلهم وأصبحو في غنى عنا اداروا لنا ظهورهم واتجهوا إلى أعدائنا ما دامت مصالحهم تنتهي بذلك.

وأحب أن أبادر فاؤكد لصديقي الشاعر أنني ضد كل القيود التي توضع في طريق الفنان لتكبل فكره وروحه ولكنني اضطررت إلى هذا القول لأن شاعرنا شاعر «ملتزم» فهو لا يعتبر الشعر مجرد نوع من اللغو أو العبث أو اللهو الرخيص ولكنه يراه أداة بناءة تزيح الظلام وتنشر النور والشاعر في رأيه مصلح وهاد ومشعل ولأجل ذلك قلت ما قلت.

أما القسم الأخير من الكتاب فهو «في مركب العاطفة» وربما يدهش القارئ وهو يرى شاعرنا يتغزل ويتحدث عن الجمال ويصور عواطفه وأشواقه وحبه بعد أن رآه في كل ما سبق من شعره رجلًا عابسًا يملأ عليه الجد والعمل والرغبة الصادقة في إسعاد الناس أقطار نفسه فما فيها متسع لشيء آخر. ولكن هل يصح أن يطلق على هذا القسم أنه من الغزل وتكريم الجمال ومناجاة الحبيب؟

الواقع أن سحابة الحزن لم تنقشع عن شعر الغزل لشاعرنا بل ظلت ترفرف عليه وأحيانا تشتد ظلمات هذه السحابة فيستسلم الشاعر ويكتفي بالتأوه والحنين وأحيانا تغلب عليه طبيعته «القلقة الإصلاحية» فينطلق هازئًا بالحب مقرعا للحبيب، متمردا على قلبه وعواطفه.

ولعل أجمل قصيدة أشرقت فيها روحه وسما شعره هما قصيدتاه «الصورة الجميلة» و«على منبر النجوى» وللقصيدة الأخيرة أهمية خاصة وربما ألقت قليلًا من الضوء على حياة شاعرنا وكمّلت الصورة التي بدأنا الحديث عنها في بداية هذا المقال ونعني الصورة الخاصة لشاعرنا الذي ذاق مرارة اليتم ولكنه وجد العزاء في حواء؛ حواء الأم، وحواء الزوج.

أما أهمية القصيدة فلأن الشاعر يتحدث عن «شريكة حياته» حديثا يفيض رقة وعذوبة وشوقا ومحبة، وهو بهذا يذكرنا بذلك الشاعر العربي النبيل - وقد نسيت اسمه - الذي جعل شعره الغزلي كله وقفا على زوجه الحبيبة فيها يتغزل ولمحاسنها يصف وعن شوقه إليها يتحدث فضرب بذلك أروع الأمثال على كريم وفائه ونبل شعوره.

والآن وبعد أن رافقنا شاعرنا في رحلة طويلة نرى من واجبنا أن نقف قليلا لنقول رأينا الأخير في شعره، أو لنقول خلاصة هذا الرأي؛ فالواقع أن معانيه ودفقاته اللاشعورية أقوى من أدائه أو روحه أقوى من فنه وأن شعوره أوسع من شعره ولذلك:

١ - فقد كانت الأبيات تضيق بما يحمّلها فلا تؤدي التعبير كاملا.

٢ - كان الشاعر يصوغ في أبيات قصيدة راقصة موضوعات ذات طابع جدي حزين كان يجب أن تصاغ في قصائد من البحور الطويلة والمديدة ليتفق الموضوع مع القالب.

٣ - كان الشاعر يلجأ إلى استعمال كلمات لا يقرها الوضع اللغوي.

٤ - كان نظام القافية يختل في ميزانه أحيانًا.

٥ - يضاف إلى كل ذلك أن شاعرنا مقل في شعره قصير النفس.

والملاحظ أن نثر الشاعر مجرد من هذه العيوب فلا تكاد تجد لها أثرا في كل ما كتب - وهو شيء ليس بالقليل - وربما كان سبب هذا أن الشاعر منكب على أدبه النثري كثير الممارسة له دائم المعالجة والمثابرة ولكنه في شعره مقيد بانفعالات خاصة في ظروف قليلة ودليلنا هذا الإنتاج الزاخر في عالم

النثر بينما لم يقدم في عالم الشعر غير ديوانه الذي لم تزد صفحاته كثيرا على خمسين ومائة.

على أننا واثقون أن الشاعر سيقدم لنا في المستقبل شعرا إنسانيا رائعا لا تنقصه الحيوية ولا النضج إذ إن ديوانه هذا هو باكورة إنتاجه الشعري وهي باقة جميلة وإن كان ينقصها الري الكامل لتستبين ألوانها الناصعة كما أنها تحتاج لقليل من التنسيق والتهذيب لتستكمل عناصر أناقتها وجمالها وبهجتها ونضرتها، والشاعر يملك كل تلك الوسائل وما عليه إلا أن يُولِي هذه الناحية من فنه شيئًا من العناية والالتفات.

وأشهد أنني ـ رغم كل هذا ـ قد استمتعت بقراءة الديوان فترات طيبة وعشت في جو عربي سليم من شوائب العجمة والتقليد والتبعية.

وتحية للشاعر الذي يقول بقوة وإيمان:

اصدح بشعرك لا تسل	وانثر قصيدك كالأسل
ما الشعر أن تصف الهوى	أو أن تغرّد للقُبَل
الشعر خاطر دمعة	هُزِمت.. ولوعها الخطل
الشعر صيحة تائه	ضنّت بزورقه السبل
الشعر أن تبني الحياة	وأن ترد صدى الأمل
الشعر أن تعطي الحقيقة	في سطورك كالشُّعَل
الشعر أن ترعى بأهداب القريض خطى العمل	
الشعر ثورة شاعر	صرخت به دنيا الجُمَل
الشعر دمدمة الشعور	إذا تنكّب واندمل
الشعر إيقاع الحياة	وصوت عِزَّتها... الأجل

على هامش النقد

«قصة الأفندي»

والأفندي.. كلمة تركية لها ماض عريق في تركيا وفي الشرق الإسلامي وكانت في يوم من الأيام لقبا كبيرا تتقطع دونه الأعناق ـ كما كان يعبر الأقدمون ـ فقد كانت لقبا ضخما لا يطلق إلا على أكبر شخصية بعد الخليفة العثماني وهو الصدر الأعظم. ثم أخذت في الانحدار حتى وصلت إلى مجرد لقب يطلق على الموظفين تمييزا لهم عن رجال الشارع وأصحاب الحرف.

هذه كلمة موجزة عن الأفندي ولعل بعض الراسخين في اللغة التركية ـ وهم كثير فيما أعتقد ـ يتفضل بإعطائنا فكرة مفصلة عن هذه الكلمة واشتقاقاتها وتطوراتها منذ عرفت في اللغة التركية حتى الآن.

هذا عن كلمة الأفندي. أما الأفندي نفسه الذي نريد أن نتحدث عنه في هذه الكلمة فهو بطل لقصة أصدرها منذ قريب الأديب العالم الأستاذ محمد سعيد دفتردار.

وأشهد أنني اغتبطت أشد الاغتباط لصدور هذه القصة لأن موضوعها يعالج فترة من الفترات التي مرت بالمدينة والتي كادت أن تصبح نسيا منسيا رغم ما حفلت به من أحداث كان لها أثر عميق لا ينسى في حياة سكان المدينة وفي مصائر كثير من أبنائها.

والأمر الذي يثير الدهشة حقا هو إغفال المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة إغفالا تاما. ولقد أتيح لي أن أطّلع على عدد من التواريخ المخطوطة والتي كتبت في السنوات الأخيرة فراعني أن أجد انشغال المؤلفين بالأحداث القديمة التي عني بها المؤرخون القدامى وأفردوا لها العديد من المؤلفات، أما العصور المتأخرة فلم يكد يعني بها أحد ولم يحاول مؤرخ أن يسجل التطورات التي مرت بهذا البلد العظيم ويحدد الأماكن التاريخية القديمة في أوضاعها الحاضرة ومسمياتها الحديثة.

ذلك نقص خطير نرجو أن نلفت إليه الأنظار ونوجه إليه العناية، عناية المؤرخين والباحثين وعناية المدارس فلو حاولت كل مدرسة من مدارس المدينة أن تقوم بدراسة محدودة لموطن من المواطن التي تزورها في رحلاتها القصيرة لقضاء يوم أو بعض يوم وتقدم تقريرا عنها من الناحية التاريخية والجغرافية ومن النواحي الأخرى وتربط فيها بين القديم والحديث - لو فعلت كل مدرسة ذلك وجمعت هذه التقارير ونظمت في كتاب لقدمت خدمات للثقافة والمعرفة لا تنسى.

ونعود مرة أخرى إلى قصة الأفندي وهي فيما يبدو - فيما وصل إلى علمنا - أول قصة يكتبها المؤلف أو بعبارة أدق أطول قصة ينشرها المؤلف على الناس.

وأول ما يطالعك من هذه القصة هي المقدمة التي قدم بها المؤلف قصته وهذه المقدمة - رغم إيجازها - تعطي القارئ المتعجل فكرة عن المدينة المنورة أيام الحكم العثماني وعن حياة أهلها وطرائق معائشهم ومدى اتصالهم بالعالم الخارجي وتأثرهم بالحوادث والأحداث، والحق أنها مقدمة رائعة جمعت فأوعت - كما يقولون - رغم إيجازها، ولو جعل المؤلف هذه المقدمة أساسا لقصته لكانت من القصص العظيمة التي تعتبر أساسا قويا لفن القصة الطويلة والرواية في بلادنا، فهل فعل المؤلف ذلك أم اقتصر على ناحية معينة؟ ذلك ما سنراه.

يقول الناشر عن هذه القصة إنها واقعية - أو كما عبر مؤلفها: «إن حوادثها من واقع حياتنا» وهذا كلام صحيح فالفترة التي يتحدث عنها المؤلف فترة ليست بعيدة ويوجد بيننا كثير من الرجال الأحياء الذين عاصروا هذه الفترة، ثم إن كثيرا من التقاليد والنظم التي وردت في القصة لا تزال موجودة بأكملها أو بتطوير فيها.

وقد قسم المؤلف قصته إلى عدد من الفصول ووضع لكل فصل عنوانا، مخالفا بذلك ما سار عليه كُتّاب القصة المحدَثون، ولست أدري لماذا لجأ إلى هذا مع أن من الأمور التي تكاد تكون من البديهات في عالم القصة أن يخفي الكاتب عن القارئ نتيجة ما سيكتب لأن ذلك أدعى إلى تشويقه

ودفعه إلى أن يقرأ كل ما كتب المؤلف واستمتاعه بما كتب حتى يصل إلى النتيجة، بل إن بعض كتاب القصة أوغلوا في حكاية التشويق هذه ولذلك كانوا ينهون القصة بغير نتيجة حاسمة للموضوع وحجتهم في ذلك أنهم يريدون أن لا تنقطع صلة القارئ بالقصة بمجرد انتهائه من قراءتها بل يريدون أن يفسحوا المجال لخيال القارئ فيتلمس الحلول ويحاول أن يصل إلى النتيجة.

لا أريد أن يفهم أحد من كلامي هذا أنني من الداعين إلى تقييد حرية الفنان بأي نوع من القيود، حتى ولو كانت قيود القواعد وما تواضع عليه النقاد من أسس فأنا ضد كل قيد مهما يكن نوعه، ولكن ملاحظتي تنصبّ على فكرة إذا لم يلتزمها الروائي والقاص أصبحت روايته أو قصته نوعا من التأليف العلمي ويبعد عن عالم القصة أو الرواية، وأنا واثق كل الثقة من أن القارئ لقصة الأفندي سيستمتع بها أكثر لو خلت من العناوين.

تحدث المؤلف في قصته عن الحُجاج في ذلك الزمان حديثا موجزا مع أنه كان يستطيع أن ينقل لنا صورة واضحة عن الحجاج وعن الظروف التي كانت تصاحب تنقلاتهم منذ مغادرتهم بلادهم حتى رجوعهم إليها وكان يستطيع أن يقدم لنا فصلا شيقا يهز المشاعر وخاصة عن حجاج القرم (حجاج أحمد أفندي) وأين هم حجاج القرم الآن؟ عِلْمُ ذلك عند روسيا وعند المخدوعين بها من الشباب.

وأشار الكاتب إشارة عابرة إلى المحمل الشامي - وكل ناشئة هذا العصر لا يعرفون شيئا عن المحمل الشامي ولا المحمل المصري، فكان بإمكان المؤلف أن ينقل إلى القراء صورة رائعة عن هذه البدعة الفاطمية وما يحيط بها من تاريخ طويل.

وتحدث عن موضوع الزيارة الرجبية في بضعة سطور وكان يستطيع أن يفرد لها فصلا خاصا فهي فعلا جديرة بذلك لما كان يبذل في سبيلها من جهود وأموال كان ظاهرها دينيا وكان باطنها سياسيا؛ قصد به العثمانيون شغل سكان الحجاز عن الأمور الجوهرية بأمور أخرى.

وهكذا نجد أن المجال رحب واسع أمام المؤلف الفاضل ولكنه ضيّق على نفسه لأسباب لا ندري هل تعود إلى المؤلف أو إلى الناشر. ونحب أن نؤكد للمؤلف الفاضل أنه يستطيع أن يجعل قصته هذه أساسا لرواية طويلة لا تقف عند الأربعين صفحة وإنما تصل إلى الأربعمائة.

وإلى أن يفكر المؤلف في إعادة صياغة قصته بالشكل الذي نرجوه نحب أن يبتعد عن طريقة التقرير - وهي لازمة من لوازم الذين يعملون في حقل التعليم - لأن هذه الطريقة تفسد سياق القصة وتكون بمثابة حجر في طريق للسيارات معبد ناعم أو بمثابة حجر يصدم الأضراس أثناء قيامها بمضغ أكلة شهية.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما ورد في الفصل الذي عنوانه «الدادة حُسْن وعاداتها ووظيفتها» يقول المؤلف «الدادات في منازل أهل المدينة هن عماد البيوت في خدمتها وتنظيفها والقيام على إعداد الطعام فيها».

وهذا أسلوب تقريري مدرسي ولكنه مقبول بوجه عام أما الأمر غير المقبول والذي يصدم إحساس القارئ فهو قول المؤلف بعد ذلك: «وليس من اليسير أن أذكر مهماتهن في المنازل» فهذه جملة تقف في وجه القارئ فجأة لتمنعه من مواصلة القراءة وتشعره بأنه لا يقرأ قصة وإنما يقرأ كتابا في فن من الفنون الأخرى.

ومن الأمثلة كذلك قول المؤلف في بداية الفصل الذي عنوانه «أزمة مالية» يقول: «استقبل الأفندي - كما ذكرت - موسم عام...» وجملة (كما ذكرت) تدخّل من المؤلف لا يرضاه سياق قصته، تدخل ينقل القارئ من حال إلى حال ويظهر أن المؤلف يخشى أن ينساه القاريء أثناء انسجامه مع القصة فهو يذكّره بنفسه بين آونة وأخرى.

ولعل القارئ قد لاحظ أنني قلت: «ومن أبرز الأمثلة على الأسلوب التقريري» أنّ هناك أمثلة كثيرة ولكنها مقبولة بوجه عام أما لو استطاع المؤلف أن يجعل القارئ يدرك ما يريد عن طريق تصرفات أبطاله لا عن

طريق تدخله هو بالشرح والتوضيح ـ لو استطاع المؤلف ذلك لبلغ درجة عالية من النجاح.

ومن الأمور التي تستلفت نظر الناقد ذلك التباين في شخصية أبطاله، ونذكر على سبيل المثال شخصية أحمد أفندي بطل القصة فلم نعرف عنه أنه رجل مثقف من سياق القصة بل كل ما عرفناه عنه أنه من طبقة الأفندية ولهذه الطبقة رأي في التعليم وفي العمل (خارج نطاق خدمة الحجاج) ومع ذلك نجد المؤلف يقول: «ولقد كان نقد العم زيني على الأفندي هو الجرح الذي امتنع عن الالتئام والصدع الذي تأبّى على الجبر فهو أبدًا لا يكاد ينساه. وكان دائما يتمثل بقول أبي طالب بن عبدالمطلب في رثاء صديقه مسافِر بن أبي عمر القرشي:

كم صديق فقدته وابن عم ... وخليل قضت عليه المنون
فتعزيت بالتأسي وبالصبر ... وإني بصاحبي لضنين
بورك الميت الغريق كما بو ... رك فينا الرمان والزيتون

أو كما يقول كثير عزة:

اريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل مكان

فكيف انتقل الأفندي أحمد من شخص عادي لم نسمع عنه أنه قرأ كتابا أو حضر مجلسا من مجالس العلم أو أكب على القراءة حتى في أيام محنته ـ إلى رجل مثقف يتمثل بشعر أبي طالب في رثاء صديقه مسافر، وقل من المثقفين في العصر الحاضر من يعرف أن أبا طالب شاعر وأن له رثاء في صديق اسمه مسافر بن أبي عمر.

هذا تباين غير مرضي لا من ناحية الشكل ولا من ناحية الموضوع على أن هذه الملاحظات لا تنسينا جهود المؤلف المشكورة ولمساته الفنية الرائعة التي تعطينا أقوى الأدلة على أن الأستاذ المؤلف يملك من المواهب الفنية ما تجعله قادرا على أن يخرج آثارا في القصة والرواية تدعم أدبنا القصصي وتنقله من حال إلى أحوال.

ومن ذلك تصويره لأحلام اليقظة عند الدلال مشيرف حيث يقول: «ثم يتجه خياله إلى هذه الخطيبة فيتصور أنها ضجيعته فيتناول الوسادة القطنية ويأخذ في تقبيلها ودغدغتها ويحدث أصواتا خافتة تمثل هذه الحركة الخيالية».

ومن الأمثلة الحية كذلك تصويره لما يخالج نفس «حياة» من ألوان الغيرة فيقول: «ولكنها كانت حياة تتعاور نفسها ما يتعاور نفوس أمثالها من الحموات فهي تحمل في نفسها دفائن من الحسد والكراهية والغيرة.. غرائز مكبوتة تحت ضغط من الحشمة والتربية العريقة والتأدب على أن أدب الكنة وتربيتها العالية واحترامها لسيدتها قد جعل التصادم بينهما من المستحيل على أن العجوز كانت مشغوفة بابنها معجبة به ترى نقائصه كمالا ونزواته رجولة وسوء تصرفه حكمة ورشدا، وربما قالت لنفسها: ويل لجواهر ماذا تريد من ابني؟ أتريد أن يلتصق بها ليل نهار؟ أما يكفيها أنه صابر عليها لا يألو جهدا فيما يسعدها ويرضيها ويسرها؟ لماذا لا تترك أحمد وشأنه هل تحب أن تعكر صفو حياته؟ دعي أيتها المرأة أحمد يرتاح منك ساعة يقضيها بين لداته وأصدقائه.. ألا تتركين ابني للمرح والسرور بين أصحابه؟).

وتصور ما في جملة «أتريد أن يلتصق بها ليل نهار» من تساؤل يحمل ألوانا من الغيرة والحسد والحنق.

ومن الحسنات التي لا يجوز إغفالها حرص الكاتب على أن يسجل طائفة من الألفاظ القديمة التي أوشكت على الانقراض وإن كان ضيق المجال أمام الكاتب ـ وهو ضيق فرضه على نفسه ـ قد اضطره إلى أن يشرح بعض هذه الكلمات بطريقة تقريرية وكان في إمكانه أن يترك الشرح لسياق القصة وحوادثها وما يدور بين أبطالها من حوار كما فعل حين شرح كلمتي (السوطرية) و(المحتسب).

أما نهاية القصة فهي نهاية أراد بها المؤلف محاربة الكسل والتواكل والاعتماد على الحجاج ولكنها خاتمة (فاترة) إذ لم يستطع الكاتب أن يشد القارئ

إليه شدًّا محكما من بداية القصة إلى نهايتها بسبب حرصه على الانتهاء من القصة مما اضطره إلى ترك ثغرات وفجوات كان لها أثرها في عرقلة سير القارئ ثم بسبب ذلك الأسلوب التقريري الذي لجأ إليه المؤلف بقصد أو بغير قصد حتى في تسجيل النتيجة الأخيرة لابن أحمد أفندي وكان يستطيع أن يترك ذلك لفهم القارئ.

ومرة أخرى نؤكد للكاتب الفاضل اغتباطنا بعمله ونرجوه مخلصين أن يجعل من قصته هذه أساسا لرواية طويلة تصور الحالة الاجتماعية للمدينة في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى أو على الأقل أن يكتب عددا من القصص الطويلة تكمل هذه القصة وتلقي أضواء كاشفة على المدينة في أواخر العصر العثماني البغيض الذي كاد أن يحوّل المدينة من بلد عربي إلى بلد تركي يتكلم التركية ويجهل العربية لغة الدين والقرآن ولغة الآباء والأجداد.

ولا يفوتنا في هذه الكلمة أن نحمد للأستاذ الفاضل جهوده في خدمة الثقافة وأن نشكره على نشاطه العظيم ومثابرته التي تستحق الإعجاب.

لقاء .. كل أسبوع

«حسن شيبة»

هذا حديث نسوقه في تحية مواطن كريم والإشادة بجهوده في خدمة حكومته وشعبه خدمة مبنية على أساس من العلم والفهم والإخلاص والحديث عن هذا المواطن العامل حديث يروق القارئين ويستأثر بانتباههم لأنه حديث يمس النواحي الحساسة في مجتمعهم وخاصة في هذه الفترة التي بدأ فيها الوعي يدق بعنف أبواب النائمين والكسالى والعابثين يدعوهم إلى العمل والجد والسير بنشاط مع إخوانهم وراء الرائد الأول والقائد المفدى.

فترات قليلة لقيت فيها هذا المواطن رغم أنه يعمل في البلد الذي أعمل فيه وذلك بحكم طبيعتي التي تؤثر الانطواء والانزواء وهي طبيعة تشاؤمية جرّت عليّ كثيرا من المتاعب والمشاكل فأنا في عرف بعض الناس متكبر يعطي نفسه أكثر من حقيقتها بينما الحقيقة أنني من أبعد خلق الله عن هذه الصفة السيئة التي ينكرها الإسلام وياباها على أبنائه، وأنا في عرف بعضهم موصوف بصفات أخرى لا داعي لذكرها الآن. وعلى كل فهذا استطراد لا أهمية له وإنما المهم أنه رغم الفترات القصيرة التي كنت ألقى فيها هذا المواطن الكريم فقد كان يَرُوعُنِي (بفتح الياء وضم الراء) بسَعَة أُفُقِه وكثرة اطّلاعه. وأذكر أنه حدثني أكثر من مرة عن موضوعات نشرت في بعض صحفنا حديثا يدل على فهم ووعي، وعندي عدد من الأمثلة عن ذلك، ووجه العجب في هذا أن مواطننا الفاضل يعمل في السلك العسكري ويضطلع بأعباء ثقال لا يضطلع بها إلا ذوو العزم من الرجال ومع ذلك فهو قارئ، ممتاز لا تفوته صحيفة ولا يغفل عن موضوع بينما نجد عددا كبيرا من المثقفين الذين لا تختلف طبيعة أعمالهم عن كل ما يتصل بالثقافة من قريب أو من بعيد لا يتمتعون بهذه المقدرة الفذّة.

ومواطننا الكريم يتمتع بذكاء نادر وحيوية فائقة وهو يعمل بنشاط يفوق نشاط ابن العشرين، حدثني أحد الأصدقاء بأنه يعمل في مكتبه طوال فترة

العمل الرسمي ثم يعمل في بيته فترة أخرى لا تقل عن الفترة الأولى ينجز فيها مئات المعاملات التي تتجدد كل يوم، ومع هذا فهو يحيط إحاطة شاملة بكل موضوع يتصل بعمله.

أذكر أنني اتصلت به أكثر من مرة في بعض حوادث لم يمض على حدوثها غير دقائق فوجدته يعرف كل تفصيلات الموضوع بشكل يثير الدهشة.

وحدثني أحد الأصدقاء أن سيارة من سيارات الإسعاف كانت تسير بسرعة زائدة وكانت أبواقها المزعجة تملأ الجو بصرخاتها فتصدى لها مواطننا الفاضل وأوقفها ليعرف المهمة التي تقوم بها في هذه اللحظة فاتضح أن السيارة لم تكن تحمل إلا (حطبا) ولا داعي لذكر بقية القصة وهكذا لا يدع هذا المواطن الكريم أمرا من الأمور دون أن يراقبه بعين اليقظة.

وميزة أخرى لمواطننا الكريم هي محافظته على الصلوات واهتمامه بأدائها جماعة في المسجد وحرصه على الأخلاق حرصا نابعا من إيمانه بدينه وحبه لمواطنيه ورغبته في أن يكونوا مُثُلا كريمة تليق بمن يسكنون في هذا البلد المقدس وعندي كثير من الأمثلة على ذلك لا يتسع المقام لشرحها.

وأمر آخر يدل على سعة أفق مواطننا وعلى مدى فهمه للواجب الوطني فهمًا مجردا عن الحرفية والجمود، هو حبه للعلم وبذل كل مساعدة في سبيل خدمة الطلاب ورفع شأن المدارس فلم يُدْعَ مرة إلى تقديم أي معونة لها علاقة بالعلم والتعليم إلا وبادر بتقديمها بسرعة لا يحول بينه وبين ذلك حائل من المرض أو الشغل أو النسيان، وإنه ليطيب لي أن أسجل له ذلك فقد ضرب بعمله أروع مَثَل للمواطن المخلص الذي يسترخص كل تضحية في سبيل خدمة مجتمعه كما وأني أذكر بكثير من الفخر والاعتزاز أنه الوحيد من رؤساء الإدارات الذي لم يتخلف عن حضور أي حفلة من حفلات المدارس أو معرض من معارضها أو مهرجان من مهرجاناتها وقَصْدُه القاصد من ذلك تشجيع أبنائه ورفع معنوياتهم ودفعهم إلى الأمام، حتى لقد أصبح له في قلوب الطلاب كثير من الإعزاز والحب.

ولمواطننا الكريم تاريخ حافل ليته يجد من الوقت ما يمكّنه من كتابته أو كتابة مذكرات عنه ينشرها على الناس وهو تاريخ طويل تمتد جذوره إلى أكثر من قطر فقد قرأت وأنا أكتب هذه الكلمة في جريدة البلاد بالعدد ٦٩٠ تحقيقا صحفيًا عن أحد الدعاة الإسلاميين في أفريقيا وقد جاء في آخره هذه السطور: «ويقوم بالدعوة للإسلام في أفريقيا فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى، ومن هؤلاء شاب أرسله السيد عبدالقادر إلى بونيا ليتوري في الكونغو ويبلغ هذا الشاب من العمر ٢٢ سنة وقد أسلم على يديه في عامين (٣٤٠) شخصًا. ومنهم أيضا الشاب عبيد سلوم باغميش من تريم بحضرموت... وبعد أن ذكر لي السيد اسم الشاب حاول أن يتذكر شيئا ثم قال هل تعرف حسن شيبة قلت: نعم إنه مدير شرطة المدينة المنورة، قال: جزاك الله خيرا لقد كلفني عبيد باغميش أن أبلغ حسن شيبة سلامه وتحياته، إنه يذكره بالخير فقد تعلم الكتابة على يديه في تريم بحضرموت وهو ما زال يذكر أستاذه دائما ويبلغه أصدق التحيات».

وبعد فهاتان تحيتان للمواطن النبيل حسن شيبة مدير شرطة المدينة المنورة إحداهما من الخارج من تلميذه الذي يقدره ويحفظ له الفضل ويذكره دائما بالخير ومن كل أولئك الذين أسلموا على يديه من الأفريقيين وإن كان لا يعرفهم ولا يعرفونه والثانية من الداخل من هنا من المواطنين الذين يقدرونه ويجلونه ويذكرون بالخير جهوده الموفقة في خدمة حكومته وإسعاد شعبه.

بين كاتب وشاعر (★)

قرأت في الصحف إعلانا عن ديوان جديد يصدر لصديقنا الشاعر محمد السنوسي[1] فظللت أترقب وصوله.. ثم قرأت مرة أخرى أن الديوان قد صدر باسم «الأغاريد»[2] وأنه صدر بمقدمة للأستاذ محمد سعيد العامودي. وأن بعض الصحف امتدحت هذه المقدمة ووصفتها بأنها شاملة. وقد اغتبطت لذلك أشد الاغتباط ففي صدور ديوان لشاعر كبير كسب لحياتنا الفكرية. وفي تصديره بمقدمة شاملة لأديب من الرعيل الأول كسب آخر لا يقل أهمية عن الكسب الأول. ولهذين السببين من جهة ولأن لي رأيا في ديوان السنوسي الأول ـ وأوشكت أن أقول دراسة ـ من جهة أخرى، فقد كنت في أشد الشوق للاطلاع على الديوان الجديد وعلى المقدمة الشاملة ولم يصلني الديوان مع الأسف الشديد لا هدية من الشاعر كما حدث بالنسبة للديوان الأول ولا عن طريق الشراء من المكتبات بالمدينة لأنه لم يعرض للبيع ـ كما يبدو.

حتى كان يوم من أيام الأسبوع الماضي حمل إليّ البريد فيه كمية من صحفنا ولي طريقة في قراءة الصحف فأنا أمر بها مرًّا سريعًا فإذا وجدت مقالا أو بحثا يستدعي القراءة المتأنية وضعت الصحيفة جانبا ثم أخذ ما يتجمع لدى مما أراه أهلا لقراءة هادئة متأنية وأنتهز فرصة ـ وغالبًا ما تكون يوم الجمعة ـ فأجلس إلى هذه الصحف أقرأ ما فيها من أبحاث ومقالات وأسجل في أوراقي ما أراه أهلا للتسجيل، وكعادتي رأيت فعلا في جريدة عكاظ ما لفت نظري إليه عنوانه وكاتبه، فعنوانه «الحضارة لم تحقق الفن» وهو موضوع ذو أهمية خاصة بالنسبة لي لأنني كتبت فصلا طويلا حول هذا الموضوع وتوقعت أن أجد في مقال عكاظ شيئا جديدا يمكن الاستفادة منه.

أما كاتبه فهو الأستاذ محمد سعيد العامودي وهو كاتب من الرعيل الأول

(★) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الأحد ١٢ من رمضان ١٣٨٦هـ العدد ٨٤٥

(١) ولد بمدينة جازان ١٣٤٢ وتوفى عام ١٤٠٧هـ، وديوانه صدر بجدة ـ دار الاصفهاني. (١٠٥) صفحة

(٢) صدر الديوان بجدة ـ دار الاصفهاني. (١٠٥) صفحة

من أولئك الأدباء الكرام الذين وضعوا الأسس القوية الأولى لنهضتنا الأدبية والفكرية ويمتاز عن كثير من أقرانه بأنه يجيد لغة أجنبية فقد كنت أراجع كتاب وحي الصحراء منذ قريب فرأيت مقطوعة شعرية جاء في مقدمتها أنها إحدى مقطوعات ثلاث ترجمت عن الإنجليزية شعرا وفازت بجائزة كانت قد رصدتها مجلة الهلال ـ على عهودها السالفة ألف سلام.

وقد سمعت في مناسبات كثيرة ثناءً مستطابًا على الأستاذ العامودي ولم أسمع أحدا يذكره بغير ما يجب، وهذا الإجماع العجيب على حب الرجل وتقديره والثناء عليه له دلالته العميقة دون شك، وقل أن يحظى أحد بمثل هذا الإجماع.

ومع كل ذلك فإن صورة الأستاذ العامودي: الأديب الشاعر الباحث غير واضحة في ذهني، لقد قرأت له ما نشر في وحي الصحراء كما قرأت كتابه «من تاريخنا» وقرأت بعض مقالاته التي ينشرها في فترات متباعدة ومع ذلك فإن صورته «الأدبية» غير واضحة المعالم في ذهني! لماذا؟ لا أستطيع أن أحدد الأسباب ولا أستطيع أن أنسب إليه هو بالذات سبب اهتزاز صورته في ذهني.

وربما كان الخطأ خطئي فأنا لم أسع إلى التعرف على الأستاذ الكبير وكان عليّ أن أفعل ـ لا سيما وأنا أعالج شؤون النقد وأعتنق فكرة الاتصال الشخصي بين النقاد والأدباء وقد سبق لي أن تحدثت عن هذه الفكرة في أكثر من مناسبة.

ولكن هل من العدل أن أتحمل وحدي تبعة هذا الخطأ، ألا يجوز أن يكون الأستاذ العامودي مشاركا لي في هذه التبعة؟ ليس في إمكاني أن أقول كلمة حاسمة في هذا الموضوع، ولكن في إمكاني أن أضع أمام أنظار القراء اتهاما صغيرا أستأن أستاذنا الكبير في تنبيهه إليه، وأرجو ألا يضيق به صدره وأن يتقبله بما عرف عنه من حلم وأناة وسعة صدر، وأن يرده إذا اقتنع بأنه اتهام باطل لا يقوم على أساس، وأحب أن أذكر للأستاذ الكبير إعجابي بأخلاقه وتقديري لفضله.

لقد تولى الأستاذ العامودي رئاسة تحرير مجلة الحج منذ بداية عام ١٣٧٠هـ، أي أن له حتى الآن ستة عشر عاما. ومع ذلك فقل أن تقرأ له فيها مقالة أو بحثا أو دراسة فهو يحرر المجلة على طريقة «ألبير أديب» وإن كنت أحب أن يكون واضحا أنني حَسَن الظن إلى حد كبير بالأستاذ العامودي سيء الظن بالأستاذ «ألبير أديب» كنت أود لو أن الأستاذ العامودي سلك طريقة الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب «مجلة الرسالة» فقد كان يكتب كل أسبوع مقالة وتكوّن له من ذلك حصيلة أدبية ضخمة ظهرت للناس مرة أخرى في كتاب من أربعة أجزاء باسم «وحي الرسالة» حصل به مؤلفه على جائزة الدولة التقديرية، وأذكر على سبيل الاستطراد أن الأستاذ الزيات كان موفّقا إلى أقصى حد في تسمية كتابه باسم «وحي الرسالة» وقد كان أبي ـ رحمه الله ـ معجبا أشد الإعجاب بهذه التسمية.

ونعود للأستاذ العامودي فلو أنه سلك طريقة الأستاذ الزيات أو سلك على أقل تقدير طريقة زميله وصديقه عبدالقدوس الأنصاري فكتب مقالا أو دراسة في كل شهر لرسم لنفسه صورة واضحة التقاطيع بارزة السمات ولترك ثروة أدبية ضخمة جديرة بالتقدير والاعتزاز.

ونستطيع أن نضع «كسل» الأستاذ العامودي مع توفر الظروف المواتية للكتابة والدراسة والإنتاج أمام «نشاط» الأستاذ المؤلف الذي تفرض عليه طبيعة عمله أن يتأبى على الإنتاج أيا كان نوعه ومع ذلك فهو يرتفع عن ظروفه ويفرض على نفسه أن ينتج فعلا كل عام وهو جهد لا يقدر عليه إلا الأقوياء من البشر نستطيع أن نضع الكاتبين وجها لوجه لندرك جدية الاتهام الذي نوجهه بروح الإخلاص والتقدير إلى أستاذنا العامودي.

ونرجع بعد ذلك إلى مقال الأستاذ العامودي «الحضارة لم تحقق الفن» ولا أريد أن أتحدث عن توفيقه العظيم في الدفاع عن الفن ولكنني سأتحدث عن نقطة أهم؛ إذ فوجئت في آخر المقال بمفاجأة لم تكن في حسباني على الإطلاق فقد عرفت أن هذا المقال الطويل العريض ليس إلا المقدمة التي كتبها الأستاذ العامودي لديوان الشاعر السنوسي الجديد «الأغاريد» ولو

كنت عرفت ذلك من أول الأمر لما قرأت المقال فأنا أوثر أن أقرأ المقدمة مع الديوان، أو إن شئت الحقيقة فإنني أفضل أن أقرأ الديوان قبل أن أقرأ المقدمة لأنني - كناقد - أحرص على أن أكوّن صورة عن الديوان غير متأثر بما قد يرد في المقدمة من ثناء أو قدح ولكن عكاظ أبت إلا أن تغير طريقتي في القراءة بأن أخرت ما حقه التقدم - كما يعبر علماء البلاغة - فقد جعلت التعليق الذي يشير إلى أن هذا المقال مقدمة لديوان «الأغاريد» في آخر المقال ولعلها توقعت عزوف الأدباء والشعراء عن قراءة المقال إذا عرفوا أنه مقدمة الديوان لأنهم يؤثرون - كما أوثر - أن يقرأوا المقدمة في الديوان بصرف النظر عما إذا كانت قراءة المقدمة تسبق قراءة الديوان أو العكس.

وإن كان من واجبي أن أقدم الشكر لجريدة عكاظ الغراء فمع أنها خدعتني - بحسن نية - عن معرفة حقيقة المقال فقد هدتني إلى طريقة جديدة في قراءة المقالات وهي أن أبدأ قراءة المقال من آخره - وهي طريقة استعملتها في قراءة بعض الكتب.

ومع طرافة المفاجاة التي هيأتها لي عكاظ بنشرها المقال بالطريقة التي أشرت إليها فإنني فوجئت بمفاجاة أخرى، أشد طرافة وهي «المقدمة» نفسها، فلم أتوقع أن أقرأ مقدمة الديوان بهذه الطريقة التي نشرت بها لأنها طريقة تستلفت النظر، وإلا فمن يتصور أن كاتبا يكتب مقدمة لديوان شعر فيتحدث عن الشعر والفن والحضارة وتاريخ الأدب وشعراء النهضة وعوامل الرقي والانحطاط في الأدب؟!

ثم يطيل الحديث حتى ينسى القارئ أنه يقرأ مقدمة لديوان معين ويظن أنه يقرأ دفاعا عن الشعر أو بحثا عن الفن أو حديثا عن الأدب فإذا كان ذا صبر على القراءة اصطدم في آخر البحث بكلمات تذكره بانه يقرأ مقدمة لديوان!

ذلك ما فعله الأستاذ العامودي مع الأستاذ السنوسي في ديوانه الجديد، فقد كتب وكتب ونسي الديوان وصاحب الديوان، ثم عندما استوفى ما لديه من أفكار حول الشعر وجد الديوان أمامه فتذكر أنه يكتب مقدمة لهذا الديوان فأخذ القلم ليضيف كلمات عن الديوان وصاحب الديوان!

قلت: إن الأستاذ العامودي نسي الديوان وصاحب الديوان، ولكن الذي أخشاه أن يكون الأستاذ العامودي قد «تناسى» الديوان وصاحب الديوان.
وأنا لا أستطيع أن أحدد العلاقة بين كاتب المقدمة وصاحب الديوان ـ وأغلب الظن أنها علاقة نشأت بالتبعية، إن صح هذا التعبير ـ فالأستاذ السنوسي صديق حميم للأستاذ الأنصاري، والأستاذ الأنصاري صديق حميم للأستاذ العامودي ومن هنا نشأت العلاقة ولعل الأستاذ الأنصاري هو الذي رغّب صديقه العامودي في كتابة مقدمة لديوان صديقه السنوسي، ولعل الأستاذ العامودي له رأي في شعر السنوسي، ولكنه بما طبع عليه من رقة وحياء ودماثة خلق لم يستطع أن يعتذر عن كتابة المقدمة.

فلجأ إلى هذا الأسلوب العجيب، ومع أن هذا مجرد افتراض فإن مما يرجحه في تقديري أنني لم أقرأ رأيا للأستاذ العامودي عن ديوان «القلائد»[1] عند صدوره عدا كلمات المجاملة التي يقدمها رؤساء تحرير الصحف والمجلات عن كل كتاب يهدى إليهم.

وإذا لم يصح هذا الافتراض فكيف نستطيع أن نفسر عمل الأستاذ العامودي؟ أغلب الظن أن الأستاذ العامودي فشل في العثور على ما يصلح مجالا للدراسة والنقد في الديوان الجديد فلجأ إلى هذا الأسلوب، وإذا كان الأستاذ العامودي لم «يفشل» ووجد شيئا يصلح للدراسة والبحث فلماذا عزف عنه؟ وكان يستطيع أن يصرف الجهد الذي بذله عن الشعر والفن والحضارة إلى دراسة شعر الشاعر واتجاهاته، والفروق بين ديوانه الأول والثاني وذلك هو الطبيعي في مثل هذه الحالات.

لا أدري لماذا وثب إلى ذهني وأنا أقرأ خاتمة المقدمة ما فعل العلامة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي مع أحد المؤلفين الناشئين فقد ألف هذا الأخير كتابا عن أحد أعلام الشعر ورغب إلى الأستاذ الرافعي أن يكتب له مقدمة، وقرأ الأستاذ الرافعي الكتاب فلم يجد فيه ما يستحق الدراسة فأعاد الكتاب إلى صاحبه واعتذر ببعض العذر ولكن المؤلف كان حريصا على أن يزين

---

(١) طبع بالقاهرة عام ١٣٨٠هـ (٢٢٠) صفحة

كتابه باسم الرافعي فألحّ على الرافعي إلحاحا شديدا ولم يتركه إلا بعد أن قبل أن يكتب المقدمة، وفكر الرافعي في طريقة يخرج بها من هذا المأزق فيرضي الكاتب الناشئ ولا يقول ما لا يعتقد فكتب عن الشاعر وهذا الكتاب مقدمة في خمس صفحات طوال لم يتعرض فيها للحديث عن الكتاب إلا بخمسة أسطر وبذلك أرضى ضميره وأرضى المؤلف الناشر!

أقول إنني لست أدري لماذا وثب إلى ذهني هذا الحادث وأنا أقرأ مقدمة الأستاذ العامودي لديوان «الأغاريد» فهل تشابه موقف الأستاذ العامودي مع الأستاذ السنوسي مع موقف الأستاذ الرافعي مع المؤلف الناشئ؟.

لا أستطيع أن أجزم في الأمر بشيء ولكن ما كتبه الأستاذ العامودي عن الديوان وصاحبه لا يبلغ ربع المقدمة أو خمسها. أما الثلاثة الأرباع أو الأربعة الأخماس فقد كانت حديثا عن الشعر والفن، وحتى إذا صرفنا النظر عن هذه النسبة الحسابية فإن ما قال الأستاذ العامودي عن الشاعر وديوانه ليس شيئا ذا بال، وربما عدت إلى الحديث عن ذلك في فرصة قريبة.

ومعذرة للأستاذ محمد العامودي.... وألف تحية.

لقاء ... كل أسبوع(*)

من أحب الأمور إلى نفسي أن ألتقي اليوم بكاتب شاعر أو إن شئت الدقة بشاعر كاتب انقطع عن دنيا الصحافة والنشر ثم عاد إليها والعود أحمد.

أما الأديب الذي أعنيه فهو الأستاذ «ماجد الحسيني»[1] أو «ماجد أسعد» أو «عبدالماجد أسعد» أو «عبدالماجد أسعد الحسيني» وهذه بعض أسماء الأديب النابغة وله أسماء أخرى ومن المعروف أن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى.

والأستاذ ماجد أسعد شخص سعيد فهو أديب الخلق لطيف المعشر ممتاز الصفات، وأرجو ألا يتسرع القراء فيظنوا أنني ألقي القول على عواهنه، فالواقع أنني أتحدث عن شاب تربطني به روابط في منتهى القوة فماجد أسعد هو رفيق الطفولة قضيناها في اتصال دائم لم ينقطع فقد دخلنا المدرسة الابتدائية في وقت واحد وتخرجنا سويا ثم انطلق كل منا في الطريق الذي رسمته له الأقدار وإن كانت الصلة بيننا ظلت موصولة الأواصر حتى الآن، وأنا أشهد أن الفضل في ذلك يعود إلى أخي ماجد؛ فإلى وفائه وإلى نبله يعود الفضل في تقوية أواصر الصداقة بيننا وفي تجددها فما وصل بلدا وعرف أنني فيه إلا وبادر بالسؤال عني في بيتي أو في الجهة التي أكون فيها، وما حلت مناسبة من المناسبات السعيدة الخاصة أو العامة إلا وكانت خطاباته وبطاقاته في طليعة ما يصلني من رسائل. بل إنني كنت أتلقى رسائله كلما مرت فترة طويلة لم تسمح لنا الظروف فيها باللقاء.

على أن الذين يعرفون ماجد ويعرفونني سيدهشون لاجتماعنا فطبيعتي تختلف كثيرا عن طبيعته فماجد شخصية مرحة يمتاز بميزة «يغبط عليها» تلك هي ميزة الاستهتار بالحياة ميزة عدم المبالاة فهو يعيش ساعته بكل جوارحه ويبدو وكأنه يسير في حياته على الطريقة التي تحدث

(☆) نشر في مجلة الرائد

(١) ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٤٢هـ - درس بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة وتخرج فيها ١٣٦٢هـ. تقلد عدة وظائف بوزارة الداخلية، ثم عمل مدير المكتب لمعالي وزير الإعلام حتى أحيل للتقاعد.

عنها الشاعر حين قال:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ولذلك فلم أره غاضبًا أو مقطبا أو حزينا طوال مدة صداقتنا الطويلة غير مرة أو مرتين إحداهما كانت بسبب مرض مفاجئ لوالدته الكريمة ـ وطبيعتي بعكس ذلك تماما فأنا أنظر لكل أمر مهما قل نظرة جدية ولذلك فأنا موصول الأواصر بالطبيعة التشاؤمية فكلمة تزعجني وبسمة لم أفهم سببها تثير أعصابي وإشارة عابرة تكدر خاطري، أو كما قال الأستاذ المرحوم أحمد أمين: «لكأن في نفسي مستودعا من اللون الأسود يسود المرئيات في عيني»

وإذا صح قول مصطفى صادق الرافعي:

اشبع سرورا وضحكا وصم عن الحزن صوما

من عاش يوما حزينا فعده مات يوما

وإذا اتخذنا من قوله قاعدة نطبقها فإن ماجد عاش حياته كلها أما أنا فلا أعتقد أنني عشت من حياتي أكثر من ربعها ويا ضيعة الأيام تمضي سَبَهْلَلا.

ونعود إلى الحديث عن ماجد الشاعر الكاتب وقد أشرنا في بداية هذا الحديث إلى رغبتنا في تقديم كلمة الشاعر على كلمة الكاتب وهدفنا من ذلك أن يذكر القراء بأن ماجد الشاعر شاعر وأن انصرافه عن الشعر ـ إذا كان قد انصرف عنه فعلا ـ خسارة كبيرة لأدبنا فشعر ماجد نسق رفيع من الشعر، من الظلم أن يحرم منه شعبنا وخاصة وقد ضعفت الملَكَة الشعرية وانصرف الشعراء والصحف عن نظمه ونشره.

ولو انصرف شاعرنا ماجد إلى الشعر لأخرج للناس طائفة من الدواوين ترتفع بأدبنا وتحقق له الانتصارات لا يستهان بها.

لقد قرأت الكثير من شعره وأعجبت به الإعجاب كله أعجبت بصياغته وأعجبت بالمعاني التي يطرقها وأعجبت بالروح الصوفي الذي يسيطر على شعره، وسيجد الناقدون وعلماء النفس الكثير مما يقولونه عن شعره وعن شخصيته ولعلهم واجدون في بعض ما قدمت من معلومات في هذا المقال

مفاتيح لشخصية شاعرنا النابغ وشعره الرفيع.

إن ماجدا في شعره نسر محلق وإن الأجواء الطليقة لتنتظر أن ترى هذا النسر الجبار فهل يستجيب لهذا النداء أم يؤثر الصمت كما فعل زميله الأستاذ خالد رجب رغم إهابتنا به؟

وماجد أسعد كخالد رجب من جيل واحد امتاز بشهوته للعلم ورغبته في القراءة وتعلقه بالثقافة فلقد قرأ كل منهما كمية من الكتب تعد بالمئات في شتى فروع المعرفة وكل منهما كوّن نفسه تكوينًا صحيحًا.

وقد طبع ماجد ديوانا صغيرا أسماه «حيرة» وهو اسم لا ينطبق على شعر الديوان بقدر ما ينطبق على الظرف الذي طبع فيه الديوان - ولئن لم يبادر الشاعر إلى طبع ديوانه طباعة لائقة فساشرح للقراء قصة ديوانه «حيرة» الذي لم يقرأه الناس لأسباب تعتبر جزءًا من قصة الديوان ومن أنذر فقد أعذر.

وتحية من الأعماق للشاعر الإنسان الذي يفيض وفاء ونبلا وأريحية.

لقاء كل أسبوع(*)

علي حسن غسال أو علي الغسال بتشديد الياء مضمومة وضم اللام الأخيرة على اعتبار أن الاسم واللقب يكونان شطر بيت من الشعر ومثله «عبدالعزيز الربيع» فهو اسم يكون شطر بيت ولصديقنا الأستاذ الغسال رأي في هذه الأسماء «الشعرية» التي تكوّن بيتا أو نصف بيت وفي دلالتها على بعض المفاهيم والاتجاهات بالنسبة لأصحاب هذه الأسماء.

ونعود للأستاذ علي حسن غسال بمناسبة الدراسة القيمة التي قدمها عنه أستاذنا الأديب الجهير عبدالله عبدالجبار في جريدة البلاد منذ أسبوعين، وتمتاز كتابات أستاذنا - رد الله غربته - بالشمول والعمق والاستقصاء وكتابته عن زميلنا الغسال دليل على وفاء أستاذنا للثقافة عامة ولأبنائه وتلاميذه خاصة.

وعلي حسن غسال واحد من شلة كريمة كانت تجمع بينها عوامل الزمالة والدراسة وتقارب السن وتشابه الظروف واتفاق الميول وحب الثقافة والتحمس للهدف والإيمان بالمستقبل - وإن كان هناك اختلاف واضح في الطبائع والأمزجة فهناك الشاب الخجول الذي يتكلم في همس ويبتسم في استحياء، وهناك الشاب الجريء الذي يتحدث في شجاعة ويعبر بصراحة عن كل المعاني بما في ذلك المعاني والأوصاف الحسية التي اتفق الناس على الكتابة عنها والإشارة إليها، وهناك الشاب الذي ملأ الدين عليه أمر نفسه فهو لا ينطق إلا في ضوئه ولا يعمل إلا بهديه، وهناك الشاب المستهتر الذي لا يقيم وزنا للأمور إلا في ضوء ما يسميه الحقيقة، وهناك أنواع أخرى من الشباب كانت تضمها هذه المجموعة الفريدة، وكان الحرم المكي هو المكان المختار لهذه المجموعة تلتقي فيه بعد مغرب كل ليلة فلا تدع شأنا من شؤون الأدب ولا مشكلة من مشاكل الفكر ولا اتجاها من اتجاهات الثقافة إلا عرضت له بالبحث والدرس والمناقشة، كما كان لشؤون الوطن المكان المفضل في هذه الأبحاث وكان علي غسال من الأصوات البارزة في هذا المجال

(*) نشر بمجلة الرائد

وكان شديد الحماس قاسي النقد صريح التعبير.

وقد انقسمت آراء المجموعة في علي غسال إلى قسمين؛ قسم يرى أن علي غسال ـ بما يحمل في نفسه من حيوية ورغبة صادقة في الإصلاح وجرأة في إبداء الرأي ـ سيقدم لوطنه خدمات لا تنسى وسيكون له شأن ذو بال في رفعة وطنه، أما القسم الآخر فكان يرى أن علي غسال شديد الاندفاع قليل الصبر ضعيف الجلد كثير التذمر لا يعجبه العجب، وهذا النوع من الشباب، سيصطدم بالواقع وسيتسرب إليه الملل بسرعة وسيستلم لليأس.

وسار كل واحد من أفراد المجموعة في طريقه فبعضهم واصل دراسته الجامعية وبعضهم وقفت به بعض الظروف فلم تمكنه من مواصلة الدراسة ولكن ذلك لم يثنه عن مواصلة دراسته الخاصة فعكف على القراءة والاطلاع والكتابة حتى أصبح يحتل مكانا مرموقا في دنيا الثقافة والصحافة وبعضهم شغلته شؤون الحياة الأخرى فانصرف إلى أعمال قطعته عن دنيا الأدب.

وكان علي غسال واحدا ممن واصل دراسته في كلية الآداب بجامعة القاهرة وعاد بعد انتهاء دراسته وأسندت إليه ـ كما أشار الأستاذ عبدالله عبدالجبار ـ مناصب علمية مهمة، وكان علي غسال واحدا من الشباب الجامعي الذين أدركوا بداية التطور الجديد لوزارة المعارف وكان المأمول أن يكون له دور كبير في خدمة الوزارة في عهدها الجديد.

ولكن طبيعته القلقة تغلبت عليه فلم يستطع مواصلة العمل وآثر الهرب مما أزعج أصدقاءه ومعارفه والذين كانوا يعقدون عليه أطيب الآمال.

وعلي غسال شاب عصامي مكافح نشأ ـ مثلي ومثل أكثر أفراد المجموعة ـ في عش الفقر ودرج في مهده وسار في طريق كله أحجار وأشواك، وقصته قصة رائعة وتاريخ كفاحه في طفولته وشبابه تاريخ مجيد لا أدري إذا كان من حقي أن أتحدث عنه.

على أنني أترك هذا الموضوع إلى أن يأذن الصديق الزميل وأكتفي بأن أشير إلى أن نشأته الأولى كان لها أثرها الكبير في تكوين طبيعته القلقة ومزاجه الحاد وكان ـ وهو المأمول أن يكون ـ لهذا المزاج وتلك الطبيعة التأثير الكبير

في توجيه زميلنا نحو البناء وتذليل العقبات وحل مشاكل الآخرين وتمهيد الطرق، فالقلق يصنع الحضارة والمزاج الحاد يبني المجد.

ولكن قلق زميلنا وحدة مزاجه من نوع خاص يشبه قلق أستاذنا الدكتور زكي مبارك فقد كون الدكتور زكي نفسه ولم يكن لأحد عليه فضل وكان يعتقد أنه بمجرد عودته من فرنسا سيستقبل استقبال الغزاة الفاتحين وسيكلل جبينه بالغار وسيوضع في أعظم المراكز وأخطرها، ولكنه فوجئ بما لم يكن في حسبانه إذ لم يجد أحدا في استقباله ووجد نفسه مضطرا مرة أخرى إلى أن يأخذ مكانه في الصف وإلى أن يزاحم - كما يفعل الآخرون - ليستطيع أن يتقدم ويحصل على مكان، وآلمه ذلك وثارت طبيعته القلقة وأمسك عصاه يهوي بها على رؤوس الكبار أصحاب المراكز الكبيرة وكان يظن أنه بذلك سيرغمهم على الاعتراف بحقه عن طريق التخويف وسينبههم إلى خطره وأهمية وجوده، ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعا، وكل الذي فعله هو أنه خلق له طائفة كبيرة من الأعداء تملك النفع والضر ولا نريد أن نذكر بقية القصة فقد عرضنا لها بكثير من التفصيل في مقال آخر سينشر بعد حين.

وهكذا فعل صديقنا الغسال فقد حمل عصاه منذ وصوله أرض الوطن وأخذ يهوى بها على مجموعة من المربين يتهمهم بالجهل والجمود وضيق الأفق ونسي في غمرة ثورته ما لها من فضل وأثر طيب في خدمة الأمة لا ينكران، ولم تكن هذه فاتحة طيبة بالنسبة لصديقنا على أي حال وإن كانت قد وضعته على المحك و«من غربل الناس نخلوه».

وكانت عصا الدكتور قلمه، أما عصا الغسال فلسانه.

وصديقنا الغسال شاعر مجيد وله تاريخه الشعري الطويل في مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية، وكان المأمول وقد (هرب) من ميدان الهندسة العامة بل من ميدان المعركة الحقيقية ضد الجهل والتخلف والأمية العقلية - كان المأمول أن يجد في الشعر متنفسا وأن يضع كل طاقاته في «بوتقة» الشعر وأن يخرج للناس شعرا إنسانيا أصيلا يخدم الوطن والعروبة

والإسلام ويفتح الآفاق الضيقة ويصقل الأذهان الكليلة ويمد القلوب بشحنات قوية من العواطف السامية، ولكنه خيب آمال محبيه وعارفيه وانطلق يكتب شعرا في الغزل والنسيب ويتحدث عن حبه وعواطفه المحدودة ـ كما حدثنا الأستاذ عبدالله عبدالجبار عن ديوانه الجديد الذي سيصدر قريبا باسم «الحب والشاعر».

وهذه نكسة أخرى هي في نظرنا أشد من النكسة الأولى ما كنا نود أن يرتكس فيها شاب وطني جريء وشاعر يتوقع الكثيرون أن يكون وترا من الأوتار القوية في معركتنا ضد الاستعمار والصهيونية وأعداء العرب.

صحيح أن شاعرنا تعرض في شعره الغزلي لبعض القضايا الإنسانية ولكن بصورة عابرة لا تتفق والصورة الماثلة في أذهان الناس عن علي غسال.

ولعل في ديوانيه الآخرين «الزحف المقدس» و«عبيد الأسبلي» تصحيحًا لوضع الشاعر واستعادة لمجده الشعري حيث يحلق في أجواء النور والعزة والكرامة ينشد أناشيد الكفاح والأمل والفخار.

هذه خواطر أثارتها في نفسي الدراسة القيمة التي كتبها الأستاذ عبدالله عبدالجبار عن علي غسال وديوانه «الحب والشاعر» رأيت أن أكتبها فلعل فيها إهابة لصديقنا الشاعر النابه علي غسال ليعود إلى قلب المعركة ليتحمل نصيبه منها بدلا من أن «يعتكف» هناك في «الجامعة العربية» على ضفة النيل يضيع وقته في الحب والغزل كما يضيع كثير من شبابنا الجامعي الذين يؤثرون الهرب إلى «الخارج» ليبتعدوا عن المشاكل وعن تحمل المسؤوليات وليعيشوا في دعة وهدوء في الوقت الذي يحتاج فيه وطنهم إلى كل الكفاءات من أي نوع وخاصة في هذه الظروف.

ومعذرة للأستاذ علي غسال الصديق الذي أحبه وأعتز به والذي تربطني به روابط لا تنفصم، فلولا حبي له واعتزازي به وإيماني بمواهبه ما خططتُ حرفًا مما كتبت.

وتحية له في «منفاه» الاختياري على ضفاف النيل.

لقاء.. كل أسبوع(*)

خالد رجب شخصية أدبية معروفة مجهولة؛ معروفة لأصدقائه ومعارفه والمتصلين به ومجهولة من غيرهم من الأدباء والقراء.

عرفته أيام كنت طالبا بإحدى المدارس الابتدائية وكان هو طالبا في مدرسة ابتدائية أخرى ولكن «جامعة» الأدب والتعلق به جمعت بيننا فكنت ألقاه في فترات متقاربة لأستمع إلى حديثه وأستمتع بشعره، وحديث خالد قطع من الذوق السليم والنكتة الرائعة والتعليق الساخر وقد وهبه الله خفة الظل ورقة الحاشية ورفاهة الحس والموهبة الشعرية وأضاف هو إلى ذلك - بجده وكده - الاطلاع الواسع والثقافة الرفيعة والفهم العميق لدقائق البيان وأسرار الأدب فهو في مجلسه محدث لبق يتفنن في أساليب الكلام فلا يمل حديثه مهما طال.

وأرجو أن يكون مفهوما لدى القراء أنه لا مبالغة في هذا الحديث وخاصة ما يتصل بالاطلاع الواسع فالواقع أن جيل خالد جُلّهم من القارئين الممتازين كانوا يقرأون المئات من الكتب النافعة ويحفظون الكثير من الأشعار الرائعة ويتدارسون مشاكل الفن ونظريات الأدب وتثور بينهم خصومات في الرأي ويعلقون على ما يدور من خلاف بين قادة الفكر وأساطين الرأي، كان ذلك في تلك الأيام قبل أن نقع فريسة لغزو «الورق» وكتب الجنس وروايات إحسان.

وكان خالد بتكوينه الجسدي وجديته الخفيفة وشَعْرِه الأشعث والصفرة البادية على شفتيه من آثار الإدمان على التدخين ثم من طريقته في المشي والكلام، واتباعه لوصية الشاعر عمر، كان خالد بكل ذلك مثالا للفنان في العصر الحديث، تلك صورته في ذهني قبل أكثر من خمسة عشر عاما أيام أن كنت طالبا في المدرسة الابتدائية ومنذ ذلك الحين لم تسمح لي الفرص بلقائه حتى كتابة هذه السطور وإن كنت قد سمعت أنه أصبح أبا لأسرة

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨١/٧/١٠هـ الموافق ١٩٦١/١٢/١٨م العدد (٩٣)

كبيرة وأنه أنجب ابنا أورثه الكثير من صفاته ـ حفظه الله وجعله وإخوانه قرة عين لأبيه.

وميزة خالد تمكنه من الشعر تمكنا عجيبا يدل على قوة وفحولة وشعره في تلك المرحلة يدل على أصالة وعمق وقد توقع له كل المتصلين به مستقبلا باهرا في دنيا الشعر ولكنه لسبب غير معروف آثر الانطواء والانزواء فضيع على نفسه وأمته ثروة ضخمة من الشعر، فهل آن الأوان لأن يخرج للناس ببعض أو كل ما ادخر من الشعر، وهل تستطيع كلمتي هذه أن تشده من بين المعوقات والمثبطات ليعود إلى عالم الشعر والإلهام فيغرد لنا ألحان الجمال والزهر والعطر والمجد؟ ذلك ما أرجوه.

لقاء... كل أسبوع(☆)

كان لخالد رجب صديق من أسرة كبيرة أصلها من الهند ـ والنص على الأصل له سبب سيظهر فيما بعد ـ وكان كريم النفس خفيف الظل يمتاز بلحية كبيرة جدا لا تتفق مع سنّه فقد كان صغير السن ولكن مشكلته هي إصراره على أن يكون شاعرا وأديبا رغم أنه لم يكن مستعدا لذلك وكان يلتقي بخالد فيأبى إلا أن يسمعه قصائده الطوال التي قضى الليل في نظمها وتنسيق عقودها وحاول خالد أن يقنعه بأن يترك الشعر والأدب وينصرف إلى ما هو أجدى وأنفع ولكن هذا الصديق كان يؤمن إيمانا قويا بأنه شاعر موهوب وكاتب لا يبارى وفشلت جهود خالد في إقناعه على الأقل بالامتناع عن إرغامه على سماع قصائده ولكن دون جدوى، فرأى أن يلجأ إلى أسلوب آخر فنظم قصيدة وأذكرني بعض أبياتها صديقنا الشاعر الصيرفي يداعبه بها يقول فيها:

أعبدالحميد ونسل الألى	لهم في المكارم أعلى قدم
ومن كان في الهند أجداده	يبيعون في السوق روتي قرم
إذا قال شعرا تميد الجبال	وتهتز منه عماد الحرم
وإن كان نثرا فذاك الذي	تصاب على إثره بالصمم

ولا تعطي هذه الأبيات فكرة كافية عن شاعرية خالد رجب فشعره متين الأسلوب محكم النسج ولكنها تعطي القارئ فكرة عن أدبه الساخر، والأدب الساخر نادر الوجود في أدبنا الحديث وليتصور القارئ سليل الألى (لهم في المكارم أعلى قدم) وهم في نفس الوقت يبيعون في السوق (روتي قرم) وروتي قرم ـ كما يقول صديقنا الصيرفي ويبدو أنه من الراسخين في علم اللغات ـ هو الخبز الحار.

أما مَيَدانُ الجبال واهتزاز أعمدة الحرم إلى آخر القصة التي تنتهي بالصمم

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨١/٧/١٧هـ الموافق ١٩٦١/١٢/٢٥م العدد (٩٤)

والعياذ بالله فإن السخرية التي جاءت عن طريق المبالغة والتهويل واضحة لا تحتاج إلى بيان.

ومن طرائف خالد رجب أنه تقدم مرة ليلتحق بإحدى مدارس اللاسلكي وانطبقت عليه الشروط المطلوبة وسافر إلى مقر المدرسة وذهب الطلبة لمقابلة المدير المسؤول فلما جاء دور خالد وكان صغير الجسم ضئيل الحجم قال له المدير كيف قُبلت وأنت بهذا الشكل فكان جوابه كعادته حاضرا وقال له ببراءة: إنه ليس خطئي يا سيدي فأنتم لم ترسلوا ضمن شروط القبول المقاييس المطلوبة للطول والعرض والسمك، وهي طرفة تدل على ألمعية وسرعة بديهة.

وقد كنت نظمت قصيدة - أيام أن كنت طالبا بالمرحلة الابتدائية - في تحية خالد رجب الصديق الفنان والشاعر الإنسان ولم أحتفظ بصورتها كعادتي ولم يعلق بذهني منها شيء.

ونظمت قصيدة أخرى في تحية الصديق الذي كان على اتصال دائم بخالد رجب فلا يكادان يفترقان وهو الأستاذ عبدالسلام العمري لم يبق منها في ذاكرتي غير بيتين هما:

أخي عبدالسلام إليك مني ... كالصبا أو كالنسيم

وهبتكها كراموز صحيح ... لإخلاصي وشكري والنظيم

وليس للقصيدتين قيمة فنية ولكنهما أثر لفترة رائعة من فترات الصبا الحالم يحمل عبير الماضي الجميل فهل أجد القصيدتين لدى الصديقين العزيزين وهل يتفضلان مشكورين بإرسالهما إليّ إن كانتا لا تزالا بين أوراقهما، أرجو أن يفعلا.

وتحية للصديقين الأديبين الشاعرين وأطيب التمنيات.

ماجد عشقي
عاش المجد ... في أكرم جوار

استأثر الله سبحانه في عامنا المنصرم برجلين كريمين من أبناء هذه الأمة.

لكل منهما منزلته واتجاهاته وأثره، ومع ذلك فلم يحظ أحدهما بقصيدة رثاء أو كلمة ثناء رغم كثرة أصدقائهما ومعارفهما المقدرين لمواهبهما!!

ولست أدري كيف نستطيع أن نفسر هذه الظاهرة التي لا تنطوي على وفاء لمن يستحقه ولا عرفان بالجميل لمن هو أهله ولا تقدير لمن هو جدير بالتقدير.

وهل تعقدت الحياة إلى درجة أصبحت تشغل الناس حتى عن أبسط الواجبات نحو أعزائهم ومحبيهم والعاملين من أجلهم، أم طغت المادية حتى على القيم الروحية والعلاقات الإنسانية.

وقبل ذلك انتقلت إلى جوار الله شخصية أخرى كان لها أكبر الأثر في تنشئة جيل قوي صالح كان مصيره للضياع لولا أن أتاح الله له هذه الشخصية العظيمة، وكان المأمول أن يهب تلاميذه وأقرباؤه وعارفو فضله إلى تكريم ذكراه والإشادة بجهوده والتنويه بالمهمة التي كان يضطلع بها ذلك الفقيد العظيم، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث وران صمت غريب أثار الدهشة والاستنكار.

مهما يكن من أمر فإن من واجبي أن أتحدث قليلا عن هذه الشخصيات الثلاث في ضوء معرفتي بها، عل-هذا الحديث يدفع كل من كان له صلة بهم إلى أن يسجلوا تاريخهم ويكتبوا سيرتهم وكل ما يتصل بهم من حوادث وأحداث، فإن من الظلم أن تضيع تجاربهم وآثارهم، وأن يلفهما ظلام الناس أو يعفى عليهما طوفان النسيان، وإن من العقوق ألا نحفل بمن وضعوا لَبِنات في تاريخ نهضتنا وبمن تحملوا أشواك الطريق من أجل أن يمهدوه للسائرين بعدهم والسائرين خلفهم.

أستاذ أجيال

قامة سمهرية، ووجه أعرابي، وسمرة تشير إلى أصالته في النسب العربي، وعزة تلمح منها عراقة الأصل وحركات تومي إلى سمو التربية، وطلاقة في الحديث تدل على الثقافة الواسعة والفهم العميق، ونظرات نفاذة مبعثها قوة الشخصية والاعتزاز بالنفس ورأس صغير لكنه مليء بالحكمة فليس فيه مجال لعبث أو فضول.

وصوت جهوري لا عيب فيه إلا ما يقطعه من نوبات السعال نتيجة إدمان صاحبه على التدخين منذ وقت مبكر.

بدأ حياته معلما وقد أقدم على هذه البداية عن إيمان وفهم واقتناع فلم تدفعه إليها الظروف ـ كما دفعت الكثيرين ـ ولم يتجه إليها لأنه عجز عن غيرها ولم يتمسك بها لانسداد الأبواب في وجهه.

بدأ حياته معلما لأنه آمن بخطورة رسالة المعلم واستطاع في وقت مبكر أن يدرك ببعد نظره وتفتح بصيرته ما لهذه الرسالة من آثار في حياة الأمة.

نقول: قد استطاع في وقت مبكر أن يدرك عظيم المسؤولية التي يمكن أن يضطلع بها المعلم المخلص، وأرجو أن يضع التاريخ من الخطوط ما شاء تحت كلمة «وقت مبكر» لأن فقيدنا العظيم أدرك الخطورة البالغة في رسالة المعلم عندما كانت نظرة الناس إلى المعلم تلك النظرة الضعيفة التي تتصف بالضعف والصغار، فقد كانت صورة المعلم في أذهان الناس تلك الصورة القاتمة التي رسمها الجاحظ لبعض معلمي الكتاتيب، وهي صورة تفنن في تشويهها الكاتب المبدع.

حتى صارت مضرب المثل في التشويه والشناعة، وحتى أصبح المعلمون أمثلة في الحمق وضيق الأفق وسوء التصرف.

وقد حدث في هذه الفترة التي نتحدث عنها حادث طريف فقد كان أحد أبناء العائلات الكبيرة يرأس شركة من شركات السيارات وكان مُدلًّا بنفسه نظرًا

لثروته الكثيرة وعائلته الكبيرة ومركزه الخطير بالنسبة لتلك الأيام، وقد حدث ذات يوم أن وقع خلاف بين هذا الرئيس وبين أحد المعلمين جاء يرافقه في شأن من شؤون عمله ويبدو أن الخلاف حدث بينهما ثم تطور قليلًا ولم يطق الرئيس أن يرى معلمًا يناقشه مناقشة الند للند.

فانزلق لسانه في وجه المعلم سافرًا: «روح أنت شيخ كتاب» ولكن الشيخ كان حاضر البديهة فلم يمهله بل رد عليه قائلًا: «نعم أنا شيخ كتاب أما أنت فشيخ عربجية»! وكان جوابًا قاسيًا غير متوقع ألجم الرئيس فلم ينبس ببنت شفة إذ لا شك أن شيخ الكتاب أفضل بكثير من الشيخ الآخر.

نذكر هذه القصة في هذا المجال لنعطي القارئ فكرة عن مدى نظرة الناس إلى المعلم واستهتارهم به واستهانتهم بشأنه، ولنبين مدى التضحية التي أقدم عليها فقيدنا العظيم وهو ابن العائلة العريقة والشرف الرفيع والجاه العريض ولقد ربط فقيدنا نفسه بهذا السلك - كما يعبرون في هذا الأيام - عن فهم وإيمان واقتناع.

ولذلك ظل متمسكا به حتى لقي الله راضيًا مَرضيا، وإلا فقد كان بإمكانه أن يجد - في غير التعليم - المرتب الضخم والمنصب الرفيع وكثيرا من مظاهر الجاه والعظمة، عمل سنوات طوالًا معلمًا فكان ناجحًا في عمله لأن لديه كل مقومات النجاح؛ الشخصية المهيبة المحبوبة، الثقة بالنفس، الحب للعمل، الثقافة الواسعة المتجددة، لقد كان صديقًا للكتاب من أول يوم وظلت هذه الصداقة تزداد قوة حتى لقي الله.

لقد كان لديه نهم عجيب إلى القراءة فكان لا يشبع - ومنهومان لا يشبعان - طالب علم وطالب مال.

لقد أكسبته هذه القراءة التي بدأت منذ طفولته خبرات لا تقدر بثمن وكانت الروافد التي لا تنقطع لعصاميته، كانت تمده بألوان من الثقة وبزداد من الثقافة فكان حديثه يملأ أسماع الحاضرين ويسيطر على شعورهم فليس فيه سخافة أو غثاثة أو ضعف أو تهافت.

لقد كانت قراءته عصمة له من أن ينتابه ضيق أو يتسرب إليه ملل حتى بعد أن وصل إلى (القمة البارزة) وحتى بعد أن فقد رفاقه وأنداءه ولم يبق منهم أحد.

وعمل سنوات طوالا أخرى مديرا فكان ناجحا كل النجاح لأن مقومات نجاحه قد اكتملت سمة القراءة والدرس وما اكتسب من عظيم الخبرات، ولعل هذه الفترة ألصق بأذهان معاصريه وتلامذته فما منهم أحد إلا ويذكر حديثًا أو موقفًا أو حادثة.

كانت مدرسته دون سائر المدارس تتسم بالنظام والهدوء، وكان وجوده فيها وحده كفيلًا بأن يجعلها تسير في دقة تامة كأنها الساعة المضبوطة فلا تسمع فيها الضجيج والعجيج كأنها بركان يريد أن ينفجر ـ شأن أكثر مدارس الشرق.

وكان حكيمًا في عمله وإدارته فلا يهمل تلامذته ولا يتخلى عن مرؤوسيه، حدث ذات مرة أن ضرب أحدُ المدرسين في مدرسته تلميذا ضربا مبرحا نتج عنه إصابات شديدة وهاج والد التلميذ وماج ووصل الأمر إلى الشرطة وسجن المعلم، ووجد المدير أن الوسائل الرسمية لن تجدي في حل هذه المشكلة وكان مقتنعًا بأن المدرس كان سليم النية وأن إخلاصه هو الذي دفعه إلى القسوة في العقاب فلجأ إلى أسلوب آخر لحل هذه المشكلة ـ استدعى والد الطالب وقال له: «لقد تسببت في سجن رجل من رجال العلم يخدم القرآن ويعلمه الناس وكان حريصا على تعليم ابنك فقد تسببت في سجنه وإبعاده عن أهله وأولاده ـ أفلا تخشى أن يدعو عليك في ظلام الليل دعوة مستجابة لأنه مظلوم ومن رجال القرآن، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته من خلقه» فيمحق الله أهلك ومالك انتصارًا لعبده المظلوم ـ إنني أحذرك من مغبة هذا الأمر» وخرج الرجل فورًا إلى مقر الشرطة ليعلن تنازله عن دعواه ولم يخرج إلا بعد أن أخرج المدرس من السجن واعتذر له وطلب صفحهُ.

لقد عاصر فقيدنا العظيم فترة هامة من تاريخ المدينة ففيها كان .... وفيها

كان انفجار الذخيرة في القلعة وفيها وضعت أسس الجامعة الإسلامية في المدينة، وفيها حدثت تطورات خطيرة في السياسة والعلم والاجتماع ولو أتيح لفقيدنا العظيم أن يكتب مذكراته عن هذه الفترة لكانت سجلا عظيما لا يقدر بثمن.

ولقد خطر لي منذ شهور أن أعقد مع فقيدنا العظيم اجتماعات أسبوعية أسجل فيها معلوماته عن تلك الفترة وملاحظاته على الحياة والأحياء ولكن مشاغل الحياة التي تحيط بالإنسان من كل جانب وتعوقه عن تحقيق كثير مما يروم ويشتهي حالت بيني وبين تنفيذ تلك الفكرة، حتى فات الأوان ومات الرجل الذي كان موسوعة متحركة، رحمه الله وغفر له. ولعل الفقيد العظيم قد ترك من المذكرات والأوراق ما يصلح لأن يكون وثائق لتلك الفترة الطويلة التي عاصرها الفقيد التي بدأت من العهد العثماني ولعل ابنه أنور وهو شاب ألمعي مثقف يجمع هذه الأوراق ويحفظها للتاريخ ولعله يستعين بالمخلصين من رجال القلم فيقدمها للنشر والطبع وبذلك يقدم لأمته ووطنه خدمات لا تنسى سيذكرها التاريخ إلى جوار اسم فقيدنا العظيم مربي الأجيال أستاذنا العلامة السيد ماجد عشقي.

مع الأيام

فتاة صحفية

من الأخبار الطريفة في صحف هذا الأسبوع نجاح فتاة سعودية في الحصول على الليسانس في الآداب من قسم الصحافة بجامعة القاهرة، ونجاح فتاة سعودية وحصولها على مؤهل عال كسب كبير ولا شك يضاف إلى رصيدنا في النهضة ومن حق والدها علينا - وبيننا أكثر من رابطة - أن نبعث إليه بتمنياتنا الصادقة وتهانينا القلبية وأن نحمد له ما بذل من جهد في سبيل تربية ابنته تربية عالية. وإن كنت أرجو ألا تحول هذه التحايا وتلك التهنئات بيني وبينه أن أتساءل عن الحكمة في اختيار قسم الصحافة لدراسة هذه الفتاة الكريمة، ألم يكن من الأوفق أن تدرس دراسة تتصل اتصالا وثيقا أو حتى غير وثيق بواجبها كربة بيت وبوطنها الذي يحتاج إلى الطبيبة والمعلمة والباحثة الاجتماعية بينما هي في غنى تماما عن الصحفية وأشباه الصحفية. لست أدري كيف غاب ذلك عن صديقنا المثقف الواعي أم أن هناك ظروفًا أقوى من إرادته تتصل بالقبول في الجامعات مثلًا. ربما.

مهما يكن من أمر فالتخطيط واجب وتزويد الوطن بمواطنين ومواطنات في الحقول التي.يحتاجها أجدى على المواطن من مجرد تزويد الوطن بعدد من المثقفين وربما لا يكون في حاجة ماسة لهم وربما اضطروا إلى أن يعملوا في غير اختصاصهم وإن كانت الفتاة السعودية موضوع هذا الحديث قد قوبلت بما هي جديرة به من عناية فعملت في أرامكو بمرتب يعادل المرتبة الثانية، ولم نعلم بعد العمل الذي أسند إليها وإن كنا لا نشك في أنه عمل يتناسب واختصاصها وكفاءتها.

فتاة رياضية

ونشرت الصحف أن فتاة سعودية ذكرت اسمها قد حصلت على عدد من الكؤوس والجوائز لتفوقها في بعض أنواع الرياضة البدنية على زملائها في

الجامعة الأمريكية في بيروت ولم تتحدث الصحف عن الكلية التي تدرس فيها هذه الفتاة، ولا عن نوع دراستها وإن كنا نرجو أن تكون دراسة ذات صلة بطبيعتها الأنثوية حتى تستطيع أن تخدم وطنها في حدود العادات والتقاليد والتعاليم الإسلامية وتفوق هذه الفتاة في ألوان النشاط الرياضي التي تفوقت فيه يدل على المواهب الكامنة في الفتاة العربية التي سرعان ما تبرز عندما تجد الرعاية والعناية والجو المناسب.

فتاة شاعرة

صدر في جدة منذ شهور ديوان شعر صغير لفتاة سعودية باسم «الأوزان الباكية» وقد قابلته الأوساط الأدبية بعاصفة من الثناء والتهليل والتمجيد وأضفت على صاحبته من النعوت والأوصاف والألقاب ما يدير أكبر الرؤوس ولم يعرض له بالنقد والملاحظة إلا واحد من كتابنا. ورغم أنه أبدى نقدا بكثير من الحذر وفي جو مليء بالبخور والإعجاب فإن ذلك لم يرق لأحد كبار كتابنا فرد عليه ردا طويلا مسهبا وقد حرص على أن يُخطِّئ (بكسر الطاء وتشديدها) الناقد المفضال وأن يبرز الأخطاء القليلة التي لمسها الناقد في ديوان الشاعرة بكثير من الرفق والأناة والخوف.

وقد بالغ كاتبنا الكبير في ذلك حتى لقد أباح للشاعرة ما أباه النقاد على الفرزدق وأبي الطيب وهما من هما بين فحول العربية.

ولو انسقنا مع رأي كاتبنا الكبير لحققنا كسبًا كبيرًا جدا لأنصار العامية لم يكونوا يحلمون به.

ولم أستطع أن أحصل على الديوان في مكتبات المدينة رغم أن ثمنه خمس ريالات وهو مبلغ كبير بالنسبة لحجم الديوان ولكن العاصفة كانت قوية إلى درجة تصورت معها أن التاريخ يعيد نفسه. ففي العصر القديم نبغ في بني ذبيان شاعر فجأة من غير إرهاص ولا مقدمات وكان مفاجأة لقبيلته وما جاورها من قبائل ولذلك أجمعوا على تلقيبه بالنابغة وكان قد تخطى الأربعين وها هي شاعرتنا تُطلِعُ العصر الحديث على نابغة بني ذبيان فهي

أولا أنثى ثم هي ثانيا لم تتعد العشرين من عمرها.

لقد تصورت أن التاريخ يعيد نفسه بصورة أروع فهذه فتاة من قلب جزيرة العرب في العقد الثاني من عمرها تتفوق على شواعر جيلها والأجيال التي قبله والتي بعده فهي خنساء القرن التاسع عشر والقرن العشرين كما قيل.

هذان القرنان اللذان يعجان بعدد من شاعرات العرب؛ عائشة التيمورية ونازك الملائكة وفدوى طوقان وعاتكة الخزرجي وجليلة رضا وجميلة العلايلي وغيرهن.

وانتظرت أن أحصل على الديوان لأسجل هذه الظاهرة العجيبة فأنا أمارس شؤون النقد منذ زمن فما أحب أن يفوتني تسجيل هذه الظاهرة، وحصلت على الديوان مع أحد أصدقائنا الشعراء القادمين من الرياض وأصبحت الفرحة فرحتين فرحة بلقاء الصديق الأديب الشاعر وفرحة بلقاء الديوان والتقينا مصادفة بصديق ثالث هو أيضًا أديب شاعر وقررنا أن نقرأ الديوان سوية ولم أدع لصديقي فرصة القراءة فأخذت أقرأ وهما يسمعان وفوجئت بما لم يكن في حسبان من تهافت وضعف فأعطيت الديوان لأحد الصديقين فأخذ يقرأ فكأنني استيقظت من حلم فالديوان باكورة «لا بأس بها» تنبئ بأنه سيكون لصاحبته في مستقبل الأيام متى واصلت الدرس والاطلاع ومعالجة القريض وضاعت كل أصداء تلك العاصفة في نفسي.

ليست هذه الكلمة تقريظا أو نقدا للديوان ولكنها تسجيل لظاهرة خطيرة لا بد من التنبيه إليها بإلحاح وعنف تلك هي ظاهرة الإغراق في المدح والثناء وتناسي العيوب وتبرير الأخطاء حتى ولو كان ذلك على حساب الأدب وحساب اللغة.

إننا نظلم أولئك الذين نغرقهم بألوان المدح والتمجيد وندفعهم إلى طرق شائكة خطرة المزالق كثيرة العثرات. وكان أحرى بنا أن نحدد لكل من يعالج شؤون الشعر والأدب من الناشئين موقفه تماما فنشيد بحسناته وننبه إلى أخطائه بأسلوب يحمل معنى التشجيع ويدفعه إلى العمل ويحول بينه وبين الاندفاع والغرور وفي ذلك إخلاص للأدب وإيمان بقيمه.

صفحة من تاريخنا التربوي(*)

مهداة إلى صديقي الدكتور محمد المعتصم

أبو الأيتام .. طراز وحيد في الرجال

وأسلوب فريد في التربية

الحلقة الأولى

مظهر وقامة ومخبر وحقيقة

قامة طويلة فارعة وجسم ممتلئ متناسق وهامة كبيرة وقسمات تدل على الحيوية والعزم في وجه يفيض نضرة وازدهارًا، وصوت جوهري فيه قوة وفيه ثقة واعتداد.

ذلك مظهره وهو مظهر يفرض عليك احترامه والنظر إليه بعين الإجلال والتقدير.

فإذا كنت رجلًا طلعة ورغبت في أن تعرف ما وراء هذا المظهر فإنك واجد مجندًا يروعك، بل إن منظره يتضاءل أمام عظمة مخبره؛ إيمان بالقيم، تمسك بالمبادئ عفة في اليد، ترفع عن الدنايا، قدرة على ضبط النفس تحول بينها وبين أن تحيد أوتميل.

من الحقوق إلى العسكرية

لم يتأخر عن أي واجب دعي إليه منذ أن دخل الحياة العملية في مطلع شبابه، بدأ بدراسة الحقوق ثم تحول - رغم إرادته - إلى الدراسة العسكرية، وربما كان لصلابة عوده ومتانة بنيانه ووثاقة تركيبته وقوة شخصيته أثر في لفت أنظار المسؤولين إليه وفي إقناعهم بوجوب الاستفادة منه في ميدان لا

(☆) نشرت في يوم الجمعة ٤ من ربيع الاول عام ١٣٨٥هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٤٠٢

يصل فيه إلا أمثاله، ومن أجل ذلك كان هذا التحول في دراسته وكان تحولا في صالحه فقد تبادلت الحقوقية والعسكرية على تكوين شخصية فقيدنا الكبير تكوينًا سليما فمنحته القوة العقلية إلى جانب القوة الجسمية كما منحته الفصاحة والبيان ومحبة الحق والدفاع عنه.

... إلى الخدمة المدنية

عمل نصف حياته العملية في السلك العسكري في الجيش ثم الأمن العام ثم آثر أن يتخلى عن العمل العسكري إلى العمل المدني، وكأنما كان على ميعاد مع عمله المدني الجديد إذ لم يكن يصلح له غيره وهذا من دلائل التوفيق.

محسن .. وفكرة

كانت هناك فكرة تراود أحد المحسنين من الأثرياء بالمدينة وهي فكرة نبعت من حالة كانت قائمة وكان ذلك قبل ثلاثين سنة أو أكثر قليلًا[١] فقد دفع الجفاف في بعض المناطق البدوية المجاورة السكان إلى الخروج للمدينة وكانوا يقيمون بخيامهم في بعض جهاتها ومعهم نساؤهم وأطفالهم[٢] وقد فكر هذا المحسن الكريم في طريقة لمساعدة هذه الفئة النازحة الفقيرة، وكان أول ما خطر بباله هو أن يوزع عليهم قدرًا من المال، ولكنه رأى أن هذه طريقة ذات نفع محدود ربما لا يتعدى الأيام القلائل[٣].

وعاد المحسن إلى دراسة وضع هذه الفئة عن كثب فأوصلته دراسته إلى أن بين النازحين عدد من الأيتام ورأى ببصيرته النافذة أن خدمة هؤلاء الأيتام عن طريق تعليمهم وكفالتهم عمل جليل واقتنع بصواب الفكرة وبدأ يضعها موضع التنفيذ وتم له الإعداد الأول.

---

(١) كان ذلك عام ١٣٥٠، ١٣٥١هـ ساءت الأحوال الاقتصادية لندرة الأفكار وحدوث الجفاف.

(٢) بأمر من الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ كان يقدم لهؤلاء المهاجرين البُرّ والتمر، والخبز....

(٣) هذا المحسن هو «عبدالغني دادا» أحد تجار المدينة وقتئذ.

رجل وترشيح

واختار مجموعة من أولئك الأيتام وبدأ يبحث عن رجل يعتمد عليه في توجيه هذه المجموعة وقام أمير المدينة في ذلك الوقت[1] ـ وكان معجبًا بالفكرة متحمسًا لها ـ بترشيح المترجَم له، وصادف ترشيحه هوى في نفس المحسن الكبير، وعرضت الفكرة على (الرجل) الذي نتحدث عنه فارتاح لها كثيرًا ووجد فيها مجالًا يستطيع أن يخدم فيه عروبته ودينه وهذا الوطن الذي هفا إليه قلبه منذ شبابه المبكر.

عربي حتى النهاية

وتذكرنا كلمة «العروبة» بموقف المترجم له من قضية العروبة فمع أنه تلقى دراسته الأولية والثانوية بالقدس في ظل الدولة العثمانية ثم تلقى دراسته العالية في اسطنبول حيث درس الحقوق والتحق بالكلية الحربية ثم عمل ضابطا في الجيش التركي في كل من تركيا وسوريا والحجاز، مع كل ذلك ظل مخلصًا لهذه العروبة حتى لفظ آخر أنفاسه، فهو عربي في تفكيره عربي في لهجته لا يمضغ الكلام، ولا يتحذلق في الحديث بإضافة أي لفظ تركي كما كان يفعل كثير ممن عاصروا العصر التركي.

جندي مدني.. تحت الرقابة

واضطلع (الرجل) بمهمته الجديدة، ولم يعتبر نفسه موظفًا يأخذ مرتبًا في آخر الشهر فهو يؤدي أقل جهد مقابل هذا المرتب ـ كما تفعل الأكثرية من الموظفين ـ ولكنه اعتبر نفسه مجندًا لهذا العمل، لم يجنده غيره فهو يؤدي واجبه في ظل خوف العقاب أو رقابة الرؤساء، لقد جنده ضميره وإيمانه بأن عليه أن يؤدي كل ما يستطيع من جهد في سبيل خدمة أبناء هذا البلد المقدس فهو يؤدي واجبا مفروضًا تشعر كل جارحة من جوارحه بأن عليه أداءه وبمنتهى الصدق والإخلاص.

(١) أمير المدينة بالنيابة عبدالعزيز بن إبراهيم.

لقد كان يشعر بأن الرقابة تحيط به من كل جانب لا رقابة النائبين من أبناء البشر ولكنها رقابة الدين، رقابة الضمير، رقابة الواجب، رقابة الخلق، وكلها أنواع قاسية من الرقابة تقلق الذي تتسلط عليه فلا يعرف الراحة ولا الهدوء ولا التمتع بمسرات الحياة، فراحته وهدوؤه ومباهجه كلها تنحصر في أداء واجبه وفي تحقيق انتصارات جديدة في ميدان عمله.

وفي ضوء هذه الرقابة كان الرجل يعمل وقد زاد من حدة الرقابة وقسوتها دراسته للحقوق وانتظامه في السلك العسكري ما يقرب من نصف حياته.

وربما كان لنشأته الأولى ولوالديه ولما ورثه عن أسرته - آثار عميقة في نفس المترجم له صاغته هذه الصياغة وكونته هذا التكوين.

أقول ربما لأن من اتَّصلتُ بهم من أصدقائه وتلاميذه ومعارفه لم يزودوني بمعلومات عن هذه الناحية بالرغم من تشوقي إليها، وإن كان من المستبعد ألا يكون للوراثة والتنشئة الأولى أثر بعيد في شخصية «رجلنا» وفي طبعها بهذا الطابع الذي تميزت به.

عزت ونجاتي

أكتب هذه الكلمة وشيطان خبيث يهمس في أذني متسائلًا به: لقد قرّرتَ أن «الرجل» مخلص بعروبته متحمس لعربيته وبنيت ذلك على بعض الحوادث الظاهرة وأنت لم تخالط الرجل مخالطة قوية ولم تتح لك الظروف الاطلاع على حياة الرجل المنزلية ولا على طريقته في حياته الخاصة ولك عذر في ذلك ولكن ألا ترى أن مما يدعو إلى التفكير أن الرجل سمى ولديه باسمين من الأسماء التي اختص بها إخواننا الأتراك وهما (عزت ونجاتي) ولا أريد أن أسأل عن اسم ابنتيه لعرف لا يبيح ذلك وإن كان حق التاريخ أقوى من العُرفٍ ومن التقاليد.

ويواصل ذلك الشيطان همسه فيقول: وأنت تعرف أن «المترجَم له» تزوج زوجًا فاضلة من إحدى العائلات الكريمة بالمدينة.

وقد أجبت ذلك الشيطان الخبيث بأن معلوماتي عن إخلاص الرجل لعروبته

مستمدة من أناس كانوا من أقرب المقربين إليه، ويستطيع الإنسان أن يتظاهر بغير حقيقته أمام الأبعدين من الناس، أما الذين تربطهم به روابط قوية ويقضي معهم أكثر أوقات فراغه ويمنحهم الكثير من وُدِّه وثقته ـ فإنه لا يستطيع أن يظهر بغير حقيقته مهما حاول ذلك وستبوء كل محاولاته بالفشل، وما أضمر أحد شيئا إلا وظهر على فلتات لسانه، كما قال الشاعر القديم:

مهما تكن عند امرئ من خليقة　　وإن خالها تَخفى على الناس تُعْلَم

هذه واحدة، أما الثانية فهي أن من المحتمل جدًّا أن يكون هذان الاسمان من الأسماء العائلية التي يعتبرها «المترجَم له» كان يكون أحد هذين الاسمين اسما لأبيه والآخر لجده أو ما أشبه ذلك وقد جرت العادة بأن يسمي الرجل ابنه الأكبر باسم أبيه وابنه الثاني باسم جده وهكذا.

هاتان نقطتان في حاجة إلى توضيح فلعل أبناء الفقيد العظيم أو أحد المتصلين به يفضل به خدمة للحقيقة والتاريخ.

هدف ورسالة

وفي ربيع الأول من عام ١٣٥٢هـ تسلم الرجل عمله في رعاية الأيتام ولم يتخل عن عمله إلا بعد أن ودع هذه الدنيا في أواخر شهر صفر من عام ١٣٨٢هـ أي أنه قضى في عمله ثلاثين عامًا كاملة بذل فيها كل ما يملك من وقت وجهد لم يدخر وسعًا في سبيل إسعاد أبنائه وفي تهيئة الجو لهم ليتربَّوْا تربية سليمة وليتزودوا بقسط من المعرفة. كان معهم في الصباح ويظل معهم حتى يغمضوا أجفانهم في انتظار استقبال يوم جديد كان يحنو عليهم ويرعاهم ويتفقد شؤونهم ـ الدقيق منها والجليل ـ كان خير عوض لهم عن الأب العطوف والأم الحانية، وإن كان أميل إلى الحزم المشوب بالعطف، كان دقيقًا في معاملته صادقًا في تعليماته يرى أن التسامح فيها قد يجر إلى ما هو أخطر وكان هدفه واضحا هو إعداد هؤلاء الأبناء للحياة إعدادا سليما وليس من اليسير الوصول إلى هذا الهدف بل إن الوصول إليه يتطلب كثيرا من الصبر وكثيرا من الجهد وكثيرا من التضحية.

صفحة من تاريخنا التربوي(*)

مهداة إلى صديقي الدكتور محمد المعتصم

أبو الأيتام .. طراز وحيد في الرجال

وأسلوب فريد في التربية

الحلقة الثانية

أسلوب في التربية

وأسلوب في التربية بوجه عام كان أقرب إلى الأسلوب العسكري فكل شيء بمقدار ولكل عمل موعد لا يتقدم ولا يتأخر وكل نشاط داخل حدود مرسومة مقررة لا مجال فيها للتصرف والاجتهاد وإعمال الفكر، حتى اللعب يخرج الطلبة في ميعاد محدود ويلعبون ألعابًا مفروضة أو شبه مفروضة ويعودون في وقت محدد غير قابل للتقديم أو التأخير، وللمذاكرة مواعيدها فمتى حلت ساعة النوم المقررة أطفئت الأنوار وأوى كل طالب إلى فراشه فلا مجال للسهر ولا للعبث ولا مطاوعة المزاج.

ضد مبدأ الحرية

وهذا الأسلوب في التربية يلقى معارضة كبيرة من كثير من المربين لأنه ضد مبدأ الحرية، والحرية ـ كما يقولون ـ حق من حقوق الإنسان منذ كان الإنسان فكل تقييد للحرية إنما هو في الحقيقة اعتداء على كرامة هذا الإنسان، وقد غالى بعض المربين إلى درجة أنهم أعلنوا سخطهم على هذه المدارس الحديثة لأن فيها قيودًا تحد من حرية الأطفال بما فيها من دروس مقررة ومناهج مفروضة وأزمنة محدودة، وأن من حق الأطفال أن يتعلموا ما يشاءون من العلوم بالطريقة التي تعجبهم في الأوقات التي تحدد لهم.

(☆) نشرت في يوم الجمعة الموافق ١١ من ربيع الاول عام ١٣٨٥هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٤٠٨

محاولات لتحطيم الحصار

وأنا ممن يقتنعون بمبدأ الحرية في التربية وإن كان لي رأي في طريقة التطبيق الإجمالي ليس هناك مجال لشرحه الآن وكذلك فقد حاولت أن أحطم جزءًا من الحصار الحديدي الذي فرضه «الفقيد العظيم» على أبنائه الأيتام حاولت ذلك مرتين؛ واحدة عندما انتهزت فرصة إقامة مهرجان رياضي كبير تشترك فيه جميع مدارس المدينة «الأهلية والحكومية» عندما أوعزت إلى المشرفين على تدريب الطلاب أن يوزعوا طلاب الأيتام على كل الفرق الرياضية بحيث لا يستقلون بفرقة واحدة كما هي رغبة مديرهم وأكدت على المشرفين أن يحرصوا على تنفيذ ذلك بصورة عفوية تبدو وكأنها غير مقصودة وفعلا نفذ المشرفون الفكرة ولكن لم يمض غير يومين من أيام التدريب وإذا بالمرافق للطلاب يبلغ المشرف على التدريب أن مدير الأيتام لا يوافق على عملية «الدمج» هذه ويطلب فصلهم في فرق مستقلة، وتنصّل المشرف من الموضوع وقال إنه لا يستطيع أي تغيير في نظام التدريب إلا إذا تلقى تعليمات صريحة من كاتب هذه السطور وجاءني مندوب يبلغني رغبة مدير الأيتام وناقشته في الموضوع فأبدى تفهما لوجهة نظري ولكنه قال هذه رغبة «البك» وأن من الصعب إقناعه أو زحزحته عن رأيه وبعد محاولات أمكن أن يسمح للطلاب باختلاط جزئي في بعض المسابقات أما بالنسبة لتكوين الفرق فقد انفصل طلاب الأيتام وكونوا فرقًا مستقلة.

وأذكر أن الطلاب يومها قد ابتهجوا من الاختلاط ابتهاجًا لا حدَّ له، صحيح أنهم لم ينطلقوا كل الانطلاق ربما لأنهم كانوا حديثي عهد بهذه الحرية أو ربما كانوا واثقين من أن هذه الحرية لن تدوم... وقد صح ما توقعوه.

ووجهة نظر (البك) وإن لم يصرح بها تمامًا خشية من أن يغرس هذا الاختلاط بذور التمرد في الأيتام وأن ينقل إليهم أفكارًا قد تضر بالسياسة التعليمية المطبقة على الأيتام منذ سنوات وسنوات وهكذا فشلت المحاولة الأولى.

أما المرة الثانية فقد كانت قبل وفاته بسنتين أو ثلاث وكانت دار الأيتام تعاني

ضائقة مالية وكانت الإعانة المالية التي تقدم لها لا تسد كل العجز فأقنعتُ المسؤولين في وزارة المعارف بضم «دار الأيتام إلى وزارة المعارف» وفعلا صدر قرار الوزير بضمها للمعارف وكان المفروض أن يغتبط المدير لهذا الإجراء لأنه يحل الأزمة المالية ولكنه ـ غفر الله له ـ ألقى أذنه لبعض الذين توجّسوا شرًّا على مصالحهم من هذا الإجراء وأدخلوا في روعه أنه سيكون الضحية الأولى لهذا الضم وأن الشبان «المسيطرين» على إدارة التعليم بالمدينة لن يقدروا جهودك ولن يراعوا شيخوختك ولذلك فقد قاوم فكرة الضم، ولو كان يعرف ـ غفر الله له ـ مدى حبي له واعتزازي بجهوده وتقديري لأفضاله وإعجابي بفصاحته وأنني لن أغير من الأوضاع إلا ما أقتنعُ بضرورة تغييره لو علم ذلك لما كان أعطى أذنيه لهذا المعوّق أو ذاك ولعله علم أنني لم أبذل أي جهد في سبيل تنفيذ فكرة الضم بعد أن علمتُ بتأثّره الشديد منها وتخوفه من آثارها وأنا المقدر لرجال التعليم العاملين في سبيل تنشئة الأجيال الصاعدة، وهكذا فشلت المحاولة الثانية.

إن الثمانين وبلِّغتُها

ولعل سائلا يسأل: لقد وصفتَ الرجل بالقوة والشخصية والاعتداد بالنفس فكيف يتناسب هذا مع ما وصفته به أخيرًا من تأثره بأقوال الناس وانسياقه مع أهوائهم الأمر الذي يدل على ضعف الشخصية وخفة الوزن، والسؤال في محله لأن السائل لم يعرف أن فقيدنا العظيم كان في طريقه إلى الثمانين من عمره المبارك وكانت الأمراض والعلل قد أخذت تنوشه وتداعبه مداعبة ثقيلة وهو في هذه الشيخوخة المتقدمة ولولا صموده القوي وعزمه الذي لا يعرف الملل لاضطر إلى ملازمة السرير منذ أعوام وقد توفي ـ رحمه الله ـ عن ثمانية وسبعين عاما قضاها في كفاح لا يعرف الراحة وجلاد لا يعرف الكلل.

على مَحَكّ المناقشة

ولعل من المناسب أن نعود إلى أسلوب الفقيد العظيم في التربية لنضعه على محك المناقشة ونحب أن نسأل: أليس لهذا الأسلوب مزايا في عالم التربية؟ والجواب أن له مزايا يصعب إنكارها، ففي نطاقنا المحلي الضيق نلاحظ أن النتائج التي حققتها دار الأيتام في اختبارات الشهادة الابتدائية وفي ظل النظام (الصارم) كانت نتائج باهرة بينما لا تستطيع مدارس أخرى تتمتع بالحرية أن تحقق ما حققَتْ من نتائج.

كما أن من الملاحظ أن أي برنامج رياضي أو تمثيلي مثلا يفرض على المدارس تطبيقه لا يطبق تطبيقًا صحيحًا إلا في دار الأيتام فالعدد لا ينقص أبدًا، التمارين تؤدى بمنتهى الدقة وفي نفس الزمن المحدد، أما بالنسبة للمدارس الأخرى فإن المشرفين والمدربين يعانون الكثير من جراء تجميع الطلاب في الموعد المحدد ومن جراء إلزامهم بالحضور كل أيام التدريب فهذا طالب يعتذر عن التخلف لأنه شغله شاغل من الأمور، وثانٍ يمتنع عن الحضور لأن والده لا يوافق على اشتراك ابنه مع فرقة التدريب، وثالث ينقطع عن الفرقة لأن المدرب خاطبه بلهجة خشنة بسبب ميوعته وعدم خضوعه للنظام، ورابع ينقطع فجأة لأن صديقه عرض عليه القيام بنزهة خلوية، وخامس وسادس وسابع وهكذا، وهذه ميزة كبيرة للنظام الصارم!

أما في النطاق العالمي فإن الدوائر التربوية والقضائية في أوروبا أخذت تطالب بضرورة إعادة النظر في النظم التربوية القائمة على الحرية وفي الحد من هذه الحرية كما تطالب بالعودة إلى نظام العقاب البدني.

هذا في أوروبا مع كل الإمكانات المادية والعقلية والاجتماعية فما هو الحال بالنسبة للشرق حيث الشباب فيه قد توزعه عوامل مختلفة وتيارات متضاربة مع ما خلَّفته له الأجيال السابقة من تركة تعوق مسيرته وتشتت جهوده ويصعب عليه التملُّص منها لو أراد.

ولا أريد أن أناقش مبدأ الحرية في التربية ولا ما لهذا المبدأ من حسنات وما

عليه من عيوب فإن لذلك مجالًا غير هذا المجال، ولكنني ـ رغم إيماني بمبدأ الحرية ـ أرى أن النظام الصارم الذي كان يطبقه فقيدنا العظيم له حسناته الكثار إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى الظروف التي كانت تحيط به وإلى بعض الاعتبارات الأخرى.

العلاقات الإنسانية

ولا أحب أن أنتقل من هذه النقطة قبل أن أزيل لبسًا ربما يعلق ببعض الأذهان من جراء تكرار كلمات الحزم والصرامة والنظام العسكري أثناء الحديث عن النظام الذي كان يطبقه الفقيد العظيم على أبنائه الأيتام، فليس المراد هو أن النظام كان يطبق بصورة قاسية وعنيفة كما يطبق على فئة من الأسرى بل الواقع أن هذا النظام كان يطبق لأنه ـ في رأي مدير الأيتام ـ هو أصلح النظم لتربية مواطنين صالحين.

وكان يطبق في إطار من العلاقات الإنسانية التي تستثير الإعجاب، ومثال واحد في هذا المجال يغني عن عشرات الأمثلة، فقد كان من ضمن النظم المتبعة أن يلبس موظفو الدار من القماش الذي يلبسه التلاميذ من غير أن يكون هناك أي فرق، وهذه سياسة حكيمة لأنها تشعر الطلاب بأنهم في مستوى واحد مع رؤسائهم والمشرفين عليهم ولا يشعرون بشيء من الغيرة والحقد.

وحل عيد من الأعياد في سنة من سنوات الحرب العالمية الثانية ولم تسمح الموارد المالية للمدرسة إلا بشراء أردأ أنواع القماش وهو ما يسمى (بالسليطي) أو (بالدوت) وخرج الطلاب لصلاة العيد بأثوابهم المصنوعة من هذا القماش الرديء وكانت مفاجأتهم كبيرة عندما رأوا جميع موظفي المدرسة وعلى رأسهم المدير الكبير يرتدون أثوابًا من القماش الرديء دون أي فارق وربما تذمر بعضهم من ارتداء هذا القماش ولكن نفسهم طابت عندما رأوا أن مديرهم لم يتميز عليهم بشيء وأنه يسعه ما وسعهم وأنه مستعد دائمًا لمشاركتهم في السراء والضراء.

صفحة من تاريخنا التربوي(★)

مهداة إلى صديقي الدكتور محمد المعتصم

أبو الأيتام .. طراز وحيد في الرجال

وأسلوب فريد في التربية

الحلقة الثالثة

الحِرَف الصغيرة.. والفراغ

والحديث عن الأسلوب التربوي للأيتام يفرض عليّ ألا أغفل الحديث عن نقطة في منتهى الأهمية تلك هي المهارات والحرف الصغيرة التي كان يمارسها الطلاب في فترات فراغهم وقد رأى فقيدنا العظيم أن هناك فراغا في أوقات الطلاب وأن من الضروري إشغاله حتى لا يتعود الطلاب الكسل والعبث وحتى لا يفسدهم هذا الفراغ ويفتح عليهم أبوابًا من الشر توصلهم إلى كثير من الموبقات والمهالك.

وقد رأى أن أفضل طريق هو تعليمهم طائفة من الحرف التي تشغل فراغهم أولا، وتجلب إليهم بعض النفع المادي في فترة دراستهم، وتكون أمانًا لهم من الفقر بعد حصولهم على الابتدائية، وتحبب لهم الصناعة وقد نجحت فكرة المهارات نجاحًا باهرًا، ووجد فيها التلاميذ مجالًا طيبًا لإشغال فراغهم في جو من الاستمتاع والسرور كما ساعدتهم على الحصول على مبالغ كونت لهم رصيدًا من المال نفعهم بعد التخرج لأن إدارة المدرسة قررت أن تمنح كل طالب مبلغًا من المال مقابل كل إنتاج يقدمه للدار وبذلك دفعت الطلاب إلى الإنتاج في حماس واندفاع.

وضمنت الحيلولة بين التلميذ وبين السأم، وكانت الدار تعرض إنتاج

(☆) نشرت في يوم الجمعة الموافق ١٨ من ربيع الأول عام ١٣٨٥هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٤١٤ .

التلاميذ للبيع فكان يلقى إقبالًا طيبًا من زوار الدار يشترونه ويتهافتون عليه وكان إنتاجا منوعًا فمن أشغال جلدية إلى ألوان من السجاد الجميل إلى اللوحات الخشبية ذات النقوش البديعة وكلها صناعات فيها براعة ودقة وجميعها تمتاز بالجودة وحسن الصناعة، كما أن بعض الطلاب كان متفوقًا في أعمال الخياطة تفوقًا مدهشًا.

ومزج الصناعة بالتعليم النظري يعتبر أحدث الآراء التربوية التي تطبق في بعض الدول الكبرى وهكذا استطاع فقيدنا العظيم أن يجد الحل لمشكلة الفراغ وكان حلا رائقًا ومدهشًا.

فضل السبق لمدرسة العلوم الشرعية

على أن من الإنصاف أن نشير إلى أن رجلًا عظيمًا آخر كان له فضل السبق في إشغال أوقات فراغ الطلبة عن طريق المهارات ذلكم هو أستاذنا العلامة السيد أحمد... آبادي منشئ مدرسة العلوم الشرعية وبانيها، وإن كان يبدو أن النجاح الذي تحقق في دار الأيتام في هذه الناحية أكبر بكثير من النجاح الذي تحقق في مدرسة العلوم الشرعية.

ويعود ذلك إلى أن طلاب الأيتام تحت الإشراف المستمر ليلًا ونهارًا، أما طلاب الشرعية فكانوا يقضون في المدرسة وقت الدوام الرسمي ثم ينطلقون إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء ومن أراد العودة بعد العصر لممارسة هوايته وجد (معمل المدرسة) مفتوحًا فالأمر في المدرسة الشرعية لا يتجاوز دائرة الاختيار، أما في دار الأيتام ففي الأمر شيء يشبه أن يكون إجباريًا

لقب البك والشعراء

لعل القراء قد لاحظوا أن من ألقاب فقيدنا العظيم لقب «البك» والواقع أن هذا اللقب ظل عالقًا به حتى وفاته بل إنه طغى على لقبه الأصلي طغيانا كبيرا ولست أدري من أين جاء هذا اللقب فليس في المعلومات التي لديّ ما يشير إلى هذه الناحية من قريب أو بعيد.

ولعل هذا اللقب لصق في اسمه لأنه تولى مديرية شرطة المدينة فترة من الوقت وقد جرت العادة فيما سبق ولا تزال هذه الفكرة قائمة حتى الآن، كما كانت عالقة بالأطباء وخاصة من يتولى إدارة من الإدارات منهم.

وقد ظل هذا اللقب عالقًا «بالمترجَم له» حتى توفي ـ كما نوهنا آنفا ـ ومن الطرائف التي تذكر في هذا الصدد أن أحد الشعراء أراد أن يصف رجلًا بالتعاظم ورفع الصدر عن الناس فلم يجد غير فقيدنا العظيم، فقال: «مالي أراك كحسني بيك منتفخا» وسامح الله الشاعر فإن بنيه قد يرمى بأن فقيدنا العظيم يتصنع العظمة، ولكن الواقع أن الرجل كان طبيعيا في تصرفاته لا يتصنع ولا يحاول أن يظهر حقيقة، وأكثر أصدقائه الملتفين حوله كانوا من الطبقة المتوسطة الفقيرة، وكان يوليهم الكثير من عطفه ورعايته ولم يشعر أحد منهم بتعاليه أو رغبته في التعالى على أصدقائه أو ضيوفه والمتصلين به، صحيح أن طبيعة عمله وطريقة حديثه وحبه للصراحة وتمسكه بهذا المبدأ.

قد توحي للبعيدين عنه أن في تصرفاته نوعًا من التفاخم، مع أنَّ الحقيقة هي كما أوضحنا فيما سبق.

المقاييس المادية.. والبناء

وإذا كان لا بد من قياس عظمة الفرد بمقياس مادي ـ كما يحلو لبعض الماديين ـ فإننا نشير في مجال الحديث عن المؤسس النابه لدار الأيتام إلى ما قام به من إشادة هذا الصرح الضخم الذي يسكنه الأيتام اليوم[1]، إنه يقف شاهدا على ما يمكن أن يضيف الرجل المخلص لجماعته أو لعمله حين يسيطر عليه الإخلاص وتروقه فكرة سامية فيهيم بها غراما ويستعذب من أجلها الألم ويستسهل في سبيلها الصعاب، وهكذا استطاع «الرجل» رغم

(١) افتتحت الدار في محرم عام ١٣٥٢هـ بعد موافقة الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ وسميت «دار أيتام الحرمين الشريفين والصنائع الوطنية». وقد بدأت الدار في بيت للمؤسس في منطقة ضروان ثم انتقلت إلى بيت أكبر لآل أبي عزة في منطقة الباب المجيدي، ثم بدأ التعمير في دار دائمة من عام ١٣٦٤ ـ ١٣٧٢هـ وتم وقفه على الدار بصك شرعي لله تعالى. انظر التعليم الأهلي في المدينة المنورة لمؤلفه دخيل عبدالله الحيدري.

ضيق الإمكانات ومعاكسات الظروف أن يقيم هذا الصرح الشامخ وأن يبنيه على قواعد من الحديد، وقد دفع ثمن ذلك من صحته ومن أعصابه، ولكن من المؤكد أنه كان غير نادم على ما دفع من ثمن حسبه أنه رأى حلمه وقد تحقق رغم كل العقبات.

وقد أثمرت جهوده فاضاءه بالكهرباء قبل أن تعم الكهرباء المدينة بفترة طويلة.

رصيد.. من الأخلاق

ويقودنا هذا الحديث عن هذا المبنى الضخم إلى الإشارة إلى ما واجهه الفقيد العظيم من متاعب تهز شوامخ الجبال وقد زاد من متاعبه حبه للصراحة وغرامه بأن يجهر بقولة الحق وليكن ما يكون، ولم يكن يعتمد إلا على الله ثم على إخلاصه ونزاهته، ولذلك فقد مات بعد أن ترك رصيدا من الأخلاق والفضائل النفسية السامية ولم يترك درهمًا ولا دينارًا وقد كان في إمكانه أن يكنز الذهب والفضة.

وقد تعرض في حياته لكثير من العواصف الهوجاء التي لا ترحم وكان من الضروري أن يتعرض لها حتى يعرف الناس نفاسة معدنه وحتى يثبت لهم مدى قدرته على اختيار أصعب ألوان الامتحان بجدارة واستحقاق.

مشروعات لم تتحقق

ومات فقيدنا العظيم وفي ذهنه مشروعات وفي نفسه آمال كان يود تحقيقها لولا أن عاجله الأجل ومن أهم المشروعات تلك تطوير دار الأيتام وإنشاء دار لليتيمات، وكان يود إعادة الصناعات اليدوية التي تقلصت نتيجة ندرة الخامات وصعوبة استيرادها من الخارج وما كانت تعانيه الدار من أزمة مالية حادة، ولقد بلغ من حرصه على تدعيم هذه الصناعات أن حاول إرسال بعثات إلى بعض البلاد العربية ووفق إلى إرسال بعثة إلى القدس.

أما بعد

أما بعد فإنني تحدثت طويلًا عن أبي الأيتام حسني العلي الرجل الذي وضع لَبِناتٍ في تاريخ نهضتنا، ولكني أتراني قلت عنه شيئًا ذا قيمة إن أكن قد فعلت فإنني في منتهى السرور والاغتباط، وإن تكن الأخرى فحسبي أنني حاولت القيام بواجب كان المفروض أن يقوم به رجال آخرون غيري تربطهم به أقوى الروابط وتصلهم به أكبر الصلات وفيهم كثيرون يملكون القلم ويجيدون التعبير كالأستاذ الزيدان وطاهر زمخشري وعشرات آخرون من زملائه وتلامذته.

أما أنا فلعل الصلات التي تربطني به أَوْهَى الصلات فلم أكن ألقاه إلا نادرًا ولم أجلس إليه إلا مرات لا تتجاوز أصابع اليد، ولقد بنيت حديثي عنه على معلومات موجزة زودني بها ـ مشكورًا ـ صديقي المربي الفاضل الأستاذ محمد بكر[1] ثم على ما كانت تلمحه العين من بعيد وعلى ما كانت تخطفه الأذن عنه من قريب.

وسواء كان هذا الأمر أم ذلك فحسبي أنني أثرت طائفة من القضايا كان محورها الفقيد العظيم ولعلي بذلك أكون قد أثرت أشواق المربين والكتاب بصورة عامة وتلاميذ الفقيد وأصدقائه بصورة خاصة أثرت أشواق أولئك إلى درس هذه القضايا وتحليلها وآثرت أشواق هؤلاء إلى تسجيل ما يعرفون من أخبار الفقيد وما يختزنون من آرائه واتجاهاته، وفي ذلك إحياء لذكرى الفقيد وشق روافد جديدة عن تاريخنا التربوي وتضيف إليه جديدا وتحفظ للأحفاد تراث الأجداد وللخلف جهود السلف.

(١) هو الشيخ محمد بكر للدني الذي عاصر دار الأيتام تلميذًا، مدرسًا، فمراقبًا، فوكيلًا، فمديرًا، وناظرًا شرعيًا حتى تقاعده.

دار جونة .. وكومة حشيفة(*) والأمير شكيب أرسلان

من المقالات التي أعجبت بها إلى حد كبير المقالة التي كتبها الأستاذ عثمان حافظ عن دار جونة فقد أعطت القارئين صورة واضحة - وإن لم تكن كاملة - عن هذه الدار من دور العلم[1] ونبهت الأذهان وخاصة أذهان المربين والمعنيين بتاريخ التربية في بلادنا - إن كان هناك من يعني بهذا اللون من ألوان المعرفة - نبهت الأذهان إلى قطعة هامة من تاريخنا التربوي كاد يقضي عليها النسيان، وهذا ما لاحظتُه عندما نقدتُ في مجلة الإذاعة الرواية التي أصدرها فضيلة الأستاذ الشاعر محمد دفتردار فقد أثنيتُ ثناء كبيرا على الرواية لما حوته من معلومات قيمة عن الفترة السابقة للفترة التي نعيش فيها ولما حوته من أنماط العيشة في ذلك الزمان.

وقد دعوتُ يومها الكتاب والمفكرين إلى العناية بتلك الفترة من تاريخ المدينة قبل أن تضيع بانقراض ذلك الجيل الذي عاصرها كما حثثتُ يومها الشبان المثقفين والجامعيين إلى الاهتمام بتسجيل أخبار تلك الفترة عن طريق جمع المعلومات التي تحتفظ بها الصدور ولكن يبدو أنه لم يكن لتلك الدعوة إلتي وجهتها أي صدى.

وعُدتُ مرة أخرى إلى التذكير في المقال الذي كتبته عن فقد العالم السيد ماجد عشقي، ورجوت أن يكون الفقيد الكبير قد ترك مذكرات مخطوطة لتلك الفترة من تاريخ المدينة.

وقد أحسن الأستاذ عثمان حافظ بتسجيل هذه المعلومات عن دار جونة كما أحسن عندما تحدث عن الصعوبات الكبيرة التي كان يواجهها أبناء الجيل الماضي الذي قبله.

(☆) نشر بتاريخ ٢٥ من ربيع الاول عام ١٣٨٥هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٤٢٠ .

(١) اسست في دار جونة مدرسة سميت دار المعلمين عام ١٣٢٧هـ، وكانت في الساحة و.... الخ. انظر منكرات العدد العهود الثلاثة ص (٣٠) لـ محمد حسين زيدان.

وفي رأس قائمة هذه الصعوبات تدريس العلوم باللغة التركية، وقد سمعتُ ـ وهذا لم يعرض له الأستاذ عثمان ـ أن النحو والصرف كانا يدرسان باللغة التركية، وهذا من أعجب الأمور ولا أدري كيف استطاع ذلك واضعوا هذه المناهج، كيف استساغوا مطاردة اللغة العربية في عقر دارها لتحل محلها هذه اللغة الدخيلة.

وقد أشار الأستاذ عثمان حافظ إلى ما كان يفرض على الطلاب في المدرسة الابتدائية في كومة حشيفة من تعلم التركية ولو عن طريق حفظ كلمات وجمل لا يفقهون لها معنى.

وليت الأستاذ الجليل يحدثنا عن مدرسة كومة حشيفة هذه وعن ذكرياته فيها ومعلوماته عنها وليته يعود إلى ذاكرته ومذكراته ـ إن وُجِدت ـ ليحدثنا عن تاريخ الفترة الماضية.

إن الحديث عنها سيكون جميلا وممتعا بالإضافة إلى أنه تسجيل تاريخي لحقبة عزيزة من تاريخنا القومي.

أما المقال الذي كتبه الأستاذ الزيدان فلم أطّلع عليه وأرجو أن أجده، فلا شك في أنه يحوي معلومات ذات قيمة كبيرة عن دار جونة.

ومن الأمور الطريفة التي يجب ألا نغفل عنها هذه الصور التي يحتفظ بها الأستاذ عثمان وهي وثائق في منتهى الأهمية لأنها تسجل أوضاعا خاصة ـ ربما بدت غريبة أمام من لم يألفها وأمام الأجيال القادمة وفي الصورة المنشورة ضمن مقال الأستاذ نرى الطلاب والمدرسين وهم يرتدون الجبة والعمامة، وارتداء الأساتذة الكبار للجبة والعمامة أمر قد لا يلفت النظر كثيرا، أما ارتداء الطلاب الصغار لهذا الزي فهو أمر مثير للدهشة جالب للاستغراب.

وتصلح هذه الصورة وأمثالها لأن تكون موضع دراسة عميقة يتولاها المربون وعلماء النفس وفيها مجال طيب لعقد مقارنة بين أحدث النظريات الحديثة حول أزياء الصغار وما يجب أن تكون عليه وبين الأزياء القديمة في ضوء

النظرة القديمة لوظيفة المدرسة وتأثرها بالتقاليد والعادات.

ولعل الأستاذ الجليل يتحف القراء بين أوبة وأخرى ببعض ذكرياته مصحوبة بصورة أو أكثر ففي ذلك تسجيل لهذه الصور يحول بينها وبين الضياع والفقدان، ولعله يكرم فيحتفظ بها بعد ذلك في مكان أمين حيث يستطيع الرجوع إليها العلماء والباحثون والمهتمون بدراسة تاريخنا القومي.

وأرجو ألا أثقل على الأستاذ حين أرجوه - باسم العلم والتاريخ - أن يضيف إلى أفضاله فضلًا آخر فيجمع ما لدى أصدقائه وزملائه ومعارفه من صور ثم يستخرج منها نسخا ويضيفها إلى مجموعته أو يُكوِّن مجموعة يقدمها هدية لإحدى مكتباتنا الوطنية كمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت أو غيرها وبذلك تصبح مرجعا قيما للباحثين والمؤرخين.

ولا أدري كيف أمكن أخذ هذه الصوره في تلك الفترة البعيدة، وهذا موضوع طريف يستطيع الأستاذ الجليل أن يحدثنا عنه ضمن ذكرياته عن تلك الحقبة من تاريخنا.

وقد ورد في مقال الأستاذ عثمان حافظ تعليق على الصورة الآنفة الذكر تيقن أن الطلاب يقومون بممارسة «الأشغال» ومعنى هذا أن الدروس الترفيهية تلك التي تربي الذوق وتصقل الوجدان وتغرس روح الفن وتشبع رغبات الطفل ليست من مستحدثات هذه الأيام ولكنها قديمة ترجع إلى ما قبل نصف قرن من الزمان، وفي هذا مجال للمقارنة والموازنة بين عصر وعصر ومنهج ومنهج ولعل المربين يخرجون من دراسة هذه الفروع بنتائج ذات شأن.

ويذكرني حديث الصور بما كنت رأيته من صور لبعض أعيان المدينة ورجال التعليم فيها في حفل وضع حجر الأساس لمبنى الكلية الإسلامية بالمدينة حيث وضع حجر الأساس بعض الأعلام الكبار كالشيخ عبدالعزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان وغيرهما.

وهذه الصور من الوثائق ذات القيمة لا تقدر بثمن فلعل من لديهم هذه الصور أن يحتفظوا بها للذكرى والتاريخ وليتهم يفضلون هم أيضًا فيقدمون

هذه الصور هدية لإحدى مكتباتنا الوطنية لتصبح في يد الدارسين والباحثين. وذلك خدمة للعلم باقية سيظل يذكرها التاريخ.

وبالمناسبة فهناك عدد من شخصياتنا العلمية لها وزنها الكبير وفي مقدورها أن تقدم لنا دراسات عن تاريخنا التربوي والعلمي والاجتماعي والسياسي ولكنهم بحاجة إلى رعاية الدولة، بعضهم يحتاج إلى من يطبع لهم كتبهم ومؤلفاتهم، وبعضهم مشغولون بأعمال رسمية ترهقهم وتستولي على الكثير من أوقاتهم، وبعضهم بحاجة إلى الحث والتشجيع، أفلا يحسن أن يقوم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب برعاية الجميع وتقديم المساعدات المادية لهم وإتاحة فرص الفراغ حتى لا تحول ظروفهم دون أن يجدوا الفراغ الكافي لتسجيل ما لديهم من معلومات وأسرار عن بلادنا ستضيع بمرور الزمن؟!

أشرت قبل قليل إلى أن الأمير شكيب أرسلان كان أحد الأعلام المسلمين الذين حضروا إلى المدينة لوضع الحجر الأساس للكلية الإسلامية.

وكانت الفكرة تهدف إلى تثقيف الشبان المسلمين ثقافة إسلامية وتوعيتهم وصياغتهم صياغة إسلامية سليمة ليصبحوا دعاة للفكرة الإسلامية بعد أن نشط الدعاة الصليبيون وبعد أن استشرى شرهم في الوطن الإسلامي الكبير وقد راع ذلك أقطاب المسلمين فتداعوا إلى دراسة الوضع وتوصلوا إلى أن الثقافة الإسلامية الصحيحة هي التي تستطيع أن تقف في طريق المبشرين وإعداد الأمة المسلمة واختاروا المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى لأنها بتاريخها العظيم وأمجادها الباهرة وإشعاعها الروحي ستضفي على هذا النوع من الدراسة في الكلية الإسلامية ألوانا من الجلال لها أعمق الأثر في نفوس الناس.

ووضعت الفكرة موضع التنفيذ ووقع الاختيار على الشيخ عبدالعزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان ليسافرا إلى المدينة لوضع حجر الأساس للكلية الإسلامية ووفيا بذلك فعلًا وأخذت بعض الصور لهذه المناسبة الكريمة التي رأيتها عند بعض السادة الأفاضل.

ولا أريد أن أؤرخ للكلية الإسلامية في هذه الكلمة ولكنني ذكرت هذه المنقبة من مناقب الأمير شكيب أرسلان وأنا أقرأ أخبار هذه الحملة الظالمة التي يقوم بها السيدان حبيب زحلاوي وأمين الخلوي ضد هذا الرجل العظيم فمنذ فترة وهما يحاولان الإساءة إلى أعماله، وتنكيده في تصرفاته، وإلقاء ظلال قاتمة على تاريخه، وإظهاره في أعين القراء بمظهر الرجل الذي لا يعمل إلا من أجل نفسه ولا يسعى إلا لما فيه نفعه الخاص!

ولست أدري لحساب مَنْ تُدار هذه الحملة.. أَلِحساب المستعمرين أم لحساب المبشرين أم لحساب الحقد والحسد والتضليل.

وهب أن للرجل أخطاءه - ومَن مِنّا مِن غير أخطاء؟ - فهل تكفي تلك الأخطاء لحجب كل فضائله وطمس كل مزاياه وتجاهل كل جهاده من أجل رفع كلمة الإسلام. ثم لماذا لم تقم هذه الحملة والرجل حي يرزق يستطيع أن يرد وأن يدافع وأن يوضح الحقائق.

نعم لماذا لم تثر هذه المعركة في حياته ليستطيع أن يوضح موقفه من التهم التي تكال له كيلا في هذه الأيام.

وعند ذلك يعرف القراء الحق من الباطل والحقائق من الدعاوى والظلام من النور، أم أن السيدين الكاتبين ساءهما أن يحظى هذا الرجل العظيم ببعض التقدير بعد مماته وساءهما أن كتبت في الكاتب المسلم الشجاع طائفة من الكتب القيمة تروي سيرته وتؤرخ حياته تقدمه للشبان والناشئين نموذجًا للزعيم المسلم.

ونحن لا نملك إلا أن نردد أبيات علي محمود حسن إسماعيل:

فَلْتَثُر بعده ثورة الشاني فقد فارق الوغى الصمصامُ

امرأة مثالية في حياة رجل عبقري(*)

تعود صلتي بالرافعي - طيب الله ثراه - إلى أيام الطفولة فقد كان أول كتابين قرأتهما من الكتب الجادة «خواطر حمار» و«المعركة بين القديم والجديد تحت رآية القرآن» وكنت إذ ذاك في المرحلة الابتدائية.

وقد كان وقوعهما في يدي صدفة لا يد لي فيها ولعلها تركت في نفسي أبعد الأثر، ولن أتحدث هنا عن «خواطر حمار» فالحديث عنه يستغرق مقالة مستقلة أرجو أن أكتبها قريبا.

أما كتاب «المعركة تحت راية القرآن» فهو الكتاب الذي يضم مقالات الرافعي في الرد على كتاب (في الشعر الجاهلي) وهو كتاب يضم المحاضرات التي ألقاها الدكتور طه حسين على طلبته في الجامعة المصرية القديمة.

وقد تصدى للرد على كتاب الدكتور طه عدد من الأدباء والباحثين نذكر منهم العلامة أحمد محمد الغمراوي والأستاذ محمد لطفي جمعة.

ولكن كلا الكتابين رغم ما فيهما من نظرات صائبة وأفكار أصيلة لم يتركا من الأثر ما تركه كتاب الرافعي.

وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب يختلف عنه تمامًا في كتبه الأخرى فهو أسلوب سهل فيه سلاسة ورصانة وعمق.

ليس من غرضي أن أتحدث عن هذا الكتاب ولكنني أحببت أن أشير إليه إشارة عابرة وأنا في معرض الحديث عن الرافعي.

وهو أول كتاب من الكتب الجادة قرأته من ألفه إلى يائه وما من شك في أن هذه القراءة قد تركت أثرا عميقا في وجداني فقد حبَّبَتْ إليّ العربية وعمقت في نفسي الاعتزاز بالإسلام ووضعت في فكري البذور الأولى وحب النقد وممارسته بعد ذلك - هذا من الناحية الشخصية، أما من الناحية العامة

(☆) نشر يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول عام ١٣٨٦هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٧٠١ .

فإن هذا الكتاب يعتبر من أوائل كتب النقد التي ظهرت في العصر الحديث وكان له آثاره البارزة في تدعيم الأدب الحديث وفي إنعاش النقد الأدبي وفي تطوير الدراسات الأدبية في الجامعة المصرية القديمة.

ومع أن الرافعي رجل قضى حياته موظفا صغيرا وعاش كما مات فقيرا فقد كان رجلا محظوظا وقد أتاحت له الظروف نعمتين عظيمتين في حياته وبعد مماته.

أما النعمة الأولى فزوجه..

وهذه الزوج طراز نادر فريد قل أن يجود بمثله الزمن، وحسبك أن تعلم أن الرافعي قضى معها ثلاثا وثلاثين سنة مضت «كما يمضي شهر العسل أو شهر الغزل» ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام.

ويحدثنا الأستاذ العريان - رحمه الله - عن هذه الزوج فيقول: «وما كان منكورا لأحد من أهله أن الرافعي ليس موظفا كسائر الموظفين عمله في الخارج وحسب بل كانوا جميعا يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية ويهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان.. لم تكن سياسة البيت تشغله أي شغل أو تتغلب على هدوئه وتعكر صفو خلوه وكان خالصًا لنفسه منقطعا لفنه وعمله الأدبي فدار كتبه له هو وحده وطعامه مهيأ في موعده وعلى نظامه وفراشه ممهد في موضعه لساعته ونظامه الذي يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعي مضبوط».

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكانت هذه الزوج جديرة بالإكبار والإعجاب ولاستحقت أن تكون نموذجًا يضرب به المثل في تاريخ الأدباء والعلماء والمفكرين ولكن الأمر تعدى ذلك إلى ما هو أغرب، تعداه إلى حوادث تشبه الأساطير فقد أحب الرافعي - غفر الله له - امرأة متأدبة غلبته في نفسه وقلبه فلم يجد بُدًّا من أن يكتب لها رسائل غرام يبثها فيها حبه ويشرح لها ما يعانيه من بُرَحاء الحب. ولكنه تذكر زوجه وتذكر حقا عليه وتذكر

موقفها منه يوم القيامة فسعى إليها وقص عليها القصة وشرح لها دخيلة نفسه واستأذنها في أن يصل حبله بحبل حبيبته، وأذنت السيدة العظيمة وكتب رسالته الأولى وقرأتها زوجه ثم طوتها وأرسلتها إلى صندوق البريد وجاء الجواب فقرأته!

وهكذا أنشأ هذا الحب ـ كما يقول الأستاذ العريان ـ «سلسلة من الطرائف في الأدب العربي تم بها نقص العربية في فلسفة الجمال والحب.. ولكن أحدا لم يقرأ القصة الأخرى، قصة هذا الوفاء وهذه التضحية لأن الرافعي لم ينشرها فيما ألف من الكتب في فلسفة الجمال والحب».

أجل لم يكتب الرافعي هذه القصة العظيمة لهذه السيدة المثالية ولكنني أذكر أنني قرأت قصة للرافعي عرض فيها على لسان أحد أبطاله لتفسير الآية القرآنية ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة وقنا عذاب النار**﴾ وقال: «وما أرى حسنة الدنيا إلا الزوج الصالحة» وهو تفسير لا أدري مصدره وهل تعرض له أحد من المفسرين القدامى أم أنه اجتهاد من الرافعي.

والواقع أن الزوج الصالحة للرجل العادي ثروة قيمة أما بالنسبة للأدباء ورجال الفكر فهي كنز لا تعدله كنوز الأرض جميعا.

ومن الغريب أن تاريخ الفكر الإنساني منذ سقراط في القديم إلى تولستوي في الحديث حافل بأخبار الزوجات اللواتي جعلن من حياة أزواجهن جحيما لا يطاق.

ولو تتبع أحد الباحثين تاريخ هؤلاء الزوجات لخرج بسجل عجيب يفوق في طرافته وغرائبه وشذوذه كل ما صنع كُتّاب القصص وصاغتهُ الأساطير.

على أن هؤلاء الزوجات هنّ أقرب إلى فطرة المرأة وطبيعتها الأنثوية فهي محدودة التفكير ضيقة الأفق عاجزة عن الابتكار غير قادرة على التحليق بعيدا عن غرائزها الدنيا.

ومن المدهش أن تجد المرأة متخلفة حتى في الأمور المرتبطة بها ارتباطا تاما كالخياطة والطهي وصناعة الأزياء، بل إن تفوق الرجل تجلى حتى في «حلاقة» شعر السيدات بل وحتى في أعمال «المانيكان»!

ومن هنا كانت عظمة السيدة الفضلى زوج الرافعي، لقد عرفت واجبها الحقيقي ودورها في الحياة ولم تحاول أن تغالط نفسها ولا أن تتشاغل عن هذا الواجب العظيم بما يتشاغل به الأخريات فيحدن لذلك عن واجبهن الطبيعي ويعشن في عالم من الوهم وتكون النتيجة أن يُحطِّمن حياتهن وحياة الآخرين.

وقد استطاعت هذه السيدة العظيمة بعلمها وعقلها وذكائها وكياستها أن تجعل من زوجها عبقريا نابِهًا تصغي له الدنيا وبذلك استطاعت أن تعيش معه حياة مثالية سعيدة دامت ثلث قرن من الزمان.

لقد حرص الرافعي على أن يعيش في وظيفة صغيرة في طنطا وكان في إمكانه أن يحصل على أعظم الوظائف في القاهرة وقد علل الأستاذ العريان ذلك بحب الأستاذ الرافعي لأمه وأبيه المدفونين في طنطا حريصًا على البقاء في البلد الذي عاشا ودُفِنا فيه.

وهو تعليل ناقص ـ في نظري ـ فلو لم يكن الرافعي سعيدا في بيته سعادة جعلته يشعر بأنه في جنة لآثر الانتقال إلى أي مكان آخر هربًا من الجحيم الذي يعيش فيه كما فعل تولستوي ـ وكما فعل إبراهيم لنكولن. فسر بقائه في طنطا هو ما كان يعيش فيه من سعادة في منزله جعلت كل مغريات المال والجاه والعظمة تتضاءل أمام روعة السعادة المنزلية التي حققتها امرأة عظيمة لرجل عظيم في بيت صغير.

مع أديب بليغ(*)

قبل انبثاق الفجر

مقال كتبته منذ عام تقريبا على إثر وفاة عالم من أعلام الفكر وأديب بليغ من أدباء العربية هو الأستاذ محمد سعيد العريان.

وكان المفروض أن أنشره بعد كتابته مباشرة ولكنني طويته لسبب أذكره الآن إلى أن كان يوم أمس حيث كنت أراجع بعض الأوراق في مكتبتي وإذا بي أعثر على هذا المقال وأعثر في نفس الوقت على عدد مجلة الرسالة وأخذت أقلب المجلة وأستعرض ما فيها من مقالات وبحوث فإذا بمقال للأستاذ العريان يشدني إليه دون بقية المقالات وإذا بي أنصرف عن كل شيء لأفرغ لقراءة هذا المقال.

وإذا بي أقرأ أدبا إسلاميا بليغا افتقدناه منذ زمن وأشهد أنني تأثرت بأسلوبه الرفيع وبموضوعه النبيل وبمعانيه السامية.

حتى لقد بلغ من تأثيري أنني بكيت مع أنني عصي الدمع ـ كما يقول الشاعر القديم.

لقد كان عنوان المقال «قبل انبثاق الفجر» وكان موضوع الحديث عن إسلام الصحابي الجليل (سلمان الفارسي).

ولن أستطيع أن أنقل للقراء هذا المقال الذي يهز النفس هزا عنيفا لأنه مقال طويل ولن أتمكن من تلخيصه فهو وحدة مترابطة يصعب تفتيتها، وقد نظم في أسلوب كأنه العقد النضيد ولكنني أحببت أن أوجه إليه أنظار القراء فسيجدون فيه أدبا وفنا وعلما ومتعة كما أحب أن أوجه إليه أنظار المعلمين علهم يفيدون منه لطلبتهم ففيه أسلوب مصقول يفيض رقة وعذوبة، وفيه أدب قصصي يأخذ بمجامع القلوب وفيه وصف أنيق للإرهاصات التي

(*) نشر يوم الأحد للوافق ١٨ من شهر شوال عام ١٣٨٦هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٨٧٠ .

سبقت طلوع الفجر وفيه حديث الإيمان والحب والتضحية والفداء.

هذا حديث مقال الأستاذ العريان في الرسالة «قبل انبثاق الفجر» أما الحديث عن كاتب المقال الأستاذ العريان نفسه فسيجده القارئ في هذا المقال:

قاسم أمين.... عدو المرأة ونصير الحجاب!!

في سنة ١٢٧٩هـ ـ ١٨٦٣م ولد ببلدة طُرة بمصر طفل لأب كردي الأصل قدم إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل ودخل الجيش وظل يترقى فيه حتى وصل إلى رتبة أمير آلاي.

وقد اهتم به الضابط الكبير ـ وهو من علية القوم من ذوي قرباه ـ فرباه تربية راقية وأدخله المدارس المدنية حتى حصل على إجازة الحقوق فأرسله إلى فرنسا لإكمال دراسته وبعد حصوله على الإجازة التي يريد عاد إلى وطنه حيث عمل في سلك القضاء وتدرج فيه إلى أن وصل إلى رتبة مستشار، وكان من زملاء سعد زغلول ومن المتصلين بالشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني، وكان من الممكن أن تنتهي حياته كما انتهت حياة المئات من المستشارين وكبار رجال الدولة فلا يعلم بهم إلا أبناء جيلهم من معاشريهم والمتصلين بهم.

ولكن عنصر «الحظ» دخل في الموضوع بصورة عجيبة لا تخطر بالبال، فقد قام الدوق داركور بمهاجمة الإسلام لأنه يعوق المسلمين عن التقدم واتخذ من حجاب المرأة المسلمة تكأة يعتمد عليها زاعما أنه أكبر عائق في طريق تقدم المرأة العاملة بل هو عنوان على الجمود والتأخر.

وقد عز على قاسم أمين وهو السُّنِّي المسلم المثقف أن يقف موقفا سلبيا تجاه هجوم هذا الدوق ـ وفي الأكراد نزعة إسلامية كثيرا ما تدفعهم إلى مواقف كريمة في حماية الإسلام والذب عن حياضه ـ وسيظل العالم يذكر بأكبار جهاد المسلم الكردي العظيم صلاح الدين الأيوبي محرر القدس ومنقذ فلسطين ومحطم الصليبيين.

لقد عز على قاسم أمين هجوم هذا الدوق على الإسلام والمرأة المسلمة فقام

بالرد عليه وأخذ «يمجد الحجاب الذي تتخذه المرأة المسلمة في الشرق ويذم السفور الذي تختاره بعض المتحررات».

ولكن الأمر هذه المرة عز على «حواء» بل عز على الشيطان أو هو عز على الشيطان فاستعان بحواء «وإبليس ساعد النساء» ـ كما يقول أمجد الطرابلسي ـ يقلب الحسنات سيئات وليستغل الخير الذي فاضت به نفس قاسم أمين المسلم الذكي المثقف في تحقيق هدف شيطاني خبيث.

أما كيف حدث هذا؟ فلذلك قصة؟

ففي أواخر القرن الماضي كانت تعيش في مصر الأميرة نازلي فاضل ابنة مصطفى فاضل باشا وهي امرأة يصفها السيد جمال الدين الأفغاني في إحدى رسائله بأنها «تمثال الكمال والجمال.. التي لها من قلبي المنزل الأبهى والمقام الأسنى».

ويصفها السيد محمد رشيد رضا بأنها امرأة «برزة تضع على رأسها قناعا وتتكلم بطلاقة وتحتج» وذكر في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام حوارا بينه وبين الشيخ محمد عبده عنها نقتطف منه ما يلي:

قلتُ أسمع عن هذه الأميرة أنها زكية فاضلة سياسية، قال: نعم هي كذلك، قلت: لو استعملت هذا الإدراك في عمل معين لتهذيب النساء بتعليم البنات لأمكنها.

قال نعم: ولكنها مولعة بالسياسة ـ كما قلت ـ فمن سوء حظ المسلمين أن كل من كان فيه استعداد لشيء يشتغل بغيره.

وهذه الأميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد في تهذيب البنات.

قال: وطالما ذكرناها بهذا المعنى وخطّأتُها في الاشتغال بالسياسة وكان يسوؤها هذا مني لأن النساء «ولا سيما الأميرات» يحببن الطاعة وعدم المعارضة لهن في آرائهن، وأنا لا أجاريها في أحاديثها السياسية فتغضب وإذا حضر مجلسها غيري وتكلمت معه لا ترضى أن أكون ساكتًا فتحملني على المشاركة وأنا لا أحب أن أجاريها في شيء أعتقد خطأها به وقد قلت لها

يوما: إن سكت لا أرضيك وإن تكلمت لا أرضيك - أي لأني أعارض - فكيف العمل؟»

ويصفها صاحب أعلام النساء بأنها «أميرة من ربات الرأي والعقل والفضل والأدب نشأت حسنة وكانت تحسن اللغتين الفرنسية والإنجليزية كما تحسن اللغتين العربية والتركية وكان معظم الذين يزورون القطر المصري من الأعيان والأدباء والسياسيين يقصدونها لاستطلاع رأيها والتعرف بها فقد قال سركيس: حضرت مجلس الأميرة نازلي اجتماعا كانت فيه مناظرة اللورد الإنجليزي المستر هال كاين فسمعتها تجيد اللغة الإنجليزية إجادة لا محل معها للمزيد» وَقَلَّ من نبغ من رجال مصر إلا ويذكر لها مناقبها أو يعترف لها بنصيحة نافعة وكانت متمسكة بالإسلام فقد قالت: إننا نحن المسلمين لا نجاح لنا إلا بالتمسك بالإسلام.

لقد كان لهذه الأميرة صالون كبير في مصر وكان من أصدقائها اللورد كرومر والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين، فعندما قام الأخير بالرد على الدوق داركور ومهاجمة السفور والانتصار للحجاب ثارت ثائرة الشيطان فأوحى إلى بعض شياطين الإنس ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا**﴾ بأن يدخلوا في وهم الأميرة أن ذلك كله موجه إليها هي وتغضب «تمثال الجمال والكمال» فاضطر قاسم أمين إلى الاعتذار عن ذلك عمليا وبادر إلى تغيير منهجه السوي السليم بمنهجه الجديد وكتب كتابه تحرير المرأة يطالب فيه بمحاربة الحجاب وبإخراج المرأة من خدرها لتزاحم الرجل وتشركه في كل شؤون الحياة وأثار صدوره ضجة كبيرة، وأغضبت الأفكار التي فيه الكثيرين ولكنها أرضت الأميرة وحسبه ذلك، فما عليه من غضب الدنيا ما دامت قد رضيت هي!!

لقد ذهبت مئات الضحايا من النساء والفتيات قربانا لرضى الأميرة وضاعت عشرات القيم من المبادئ في سبيل الشيطان.

وفي يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٠٨م توفى قاسم أمين وفي هذا اليوم من كل عام

تحتفل جميع الهيئات النسائية في مصر بل وفي غير مصر بذكرى (المصلح الاجتماعي الكبير محرر المرأة) قاسم أمين.

وهكذا دخل قاسم أمين التاريخ من أوسع أبوابه على جثث الآلاف من ضحاياه.

ولو أنصفت الهيئات النسائية لاحتفلت بذكرى الشيطان ونظرًا لأنه من الصعب تحديد تاريخ ولادة الشيطان ـ أما نهايته فمرتبطة بنهاية العالم ـ فلا أقل من أن نحتفل بيوم ٢٨ يناير (كانون الثاني) وهو اليوم الذي توفيت فيه الأميرة نازلي فاضل فإليها وحدها ـ بعد الشيطان ـ يعود الفضل في تحرر المرأة المسلمة من حجابها وتقاليدها ومثلها لتقع فريسة في يد الشرور التي لا ترحم.

فلولا الأميرة نازلي لما كتب قاسم أمين (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)، ولما كان ما كان.. ومن سن سنة حسنة......

لقاء كل أسبوع(*)

(١)

رجل مات والرجـــال قلـيـــل.. مات في الشهر الماضي رجل من خيرة رجال العرب.

رجل يعتبر علما من الأعلام الكبار الذين صنعوا التاريخ الحديث.. ولكنه مات في هدوء ودونما ضجة - كما عاش - فبالرغم من المسؤوليات الضخمة التي اضطلع بها والأعباء الكبيرة التي تحملها والجهود العظيمة التي بذلها في مجاله العلمي الرحب ظل متواضعًا تواضع العلماء العاملين، لم يُغْرِهِ جاه، ولم يستخفه منصب ولم يعبث بعقله غرور، وصل إلى أرقى المناصب، العلمية وكانت له أيادٍ لا تنكر على الجامعة المصرية والتعليم الجامعي كله وكان يمنح أرقى الدرجات العلمية الجامعية لطلابه ولكنه بقي الرجل المتواضع الكريم النفس الرضي الخلق بل إنه استمر حتى آخر لحظة في حياته محبا للعلم دؤوبا على القراءة حريصا على الاستفادة من كل عالم حتى ولو كان من مرؤوسيه وطلابه. حدثني أديب مصري فاضل أن الدكتور إبراهيم بيومي مدكور كان يلقي محاضرات على طلاب قسم الماجستير بدار العلوم عن كتاب الإرشادات لابن سينا، وكان هو يَحضُر باستمرار هذه المحاضرات وقد لاحظ أن إبراهيم مصطفى يحضر هذه المحاضرات بانتظام وبمواظبة تسترعي الانتباه فلم يتأخر يوما ولم يتخلف وكان يستمع إلى المحاضرات في شوق ويناقش في أدب وتواضع، وكان وقتها عميدا للكلية.

ولقد رأيته أنا واستمعت إليه يحاضر في النحو فرأيت رجلا يحيط بموضوعه إحاطة شاملة فهو يتحدث في قدرة وثقة ولم يدرس «نحوا» وإنما كان يدرس فلسفة النحو فكان يعرض آراء النحاة ويشرح هذه الآراء شرحا وافيا

(☆) نشر في مجلة الرائد.

ثم يثني عليها بالنقد والنقض والمناقشة فكنا نسمع عجبا من العجب وكنت تدهش لهذه القدرة الفائقة والاستقصاء المعجز وكان يتكلم في هدوء وفي أناة ولكنه كان يسيطر سيطرة غريبة على طلابه، كان يأسرهم بصوته العميق وبعلمه الواسع وبإحاطته وشموله وبقدرته الفائقة على استعراض وجهات النظر وبوضعها على محك النقد وبالخروج في النهاية برأي يؤيده الدليل وتدعمه الحجة، ولذلك استطاع أن يجعل من مادته التي تمتاز بالصعوبة والجفاف مادة محببة إلى نفوس طلابه وأن يجعل من محاضراته وسيلة للاستمتاع والاقتناع.

كان رجلا جادا طول حياته، فهو يكره العبث ويكره لطلاب العلم التهاون والتقصير في طلب العلم.

رأيته مرة وقد أضرب طلاب الكلية مطالبين بتعديل المناهج وتخفيفها محتجين بأن زملاء لهم في كلية أخرى لا يدرسون عُشر ما يدرسون ثم يمنحون شهادات تعادل شهاداتهم وخرج من مكتبه للطلاب وسمع مطالبهم ـ وهي تتلخص فيما ذكرت ـ وانطلق «عميد الكلية» في الحديث، والغضب قد ملأ عليه أقطار نفسه ولم أر يومها العميد الذي يدب إلى الستين ولكنني رأيت شابا في العشرين من عمره يتحدث في حماس وقوة يتدفق كالسيل المنهمر يتلاعب بالعقول والعواطف ولم ينته من خطابه إلا وعاصفة من التصفيق والهتاف تنطلق مدوية من الطلاب الغاضبين الثائرين تعبر عن إعجابهم واقتناعهم وتقديرهم للرجل الكبير.

وقد كان الفقيد الكبير زميلا لطه حسين وأحد الأساطين القليلة التي قامت عليها الجامعة المصرية.

وإن كان الدرس قد استنفد طاقة العالم الكبير فلم يحفل بالتأليف كما حفل به غيره شأنه في ذلك شأن كثير من الأئمة والعلماء المصلحين كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وكثير غيرهم.

فلم يؤلف ـ رحمه الله ـ فيما أعرف ـ غير كتاب واحد هو «إحياء النحو»، وغير

أبحاثه التي قدمها للمجمع اللغوي الذي كان عضوا عاملا فيه، وغير طائفة قيمة من الكتب المدرسية في ألوان الثقافة العربية للمراحل الدراسية المختلفة.

ولعل من الإنصاف أن ننقل رأي الدكتور طه في زميله وصديقه العلامة الكبير إبراهيم مصطفى وهو رأي كتبه في مقدمة كتابه «إحياء النحو».

وسننشر ذلك الرأي في العدد القادم داعين للفقيد بالرحمة والغفران وأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأن يجزيه خيرا عن جهاده في إحياء العربية وتوطيد مجدها كما ندعو لزميله طه حسين بالتوفيق وطول العمر.

لقاء كل أسبوع(*)

(٢)

كتب الدكتور طه حسين مقدمة كتاب «إحياء النحو» لزميله وصديقه إبراهيم مصطفى وتحدث طويلا عن العلاقة التي تربطهما وهي علاقة تمتد إلى عهد الصبا وقال: «أنا قديم العهد بصاحبه ما لقيته قط إلا امتلأت نفسي بهجة ورقة وحنانا لأني أرى فيه خير ما مر بي من أطوار الحياة وشر ما مر بي من أطوار الحياة أيضا، وأراه الصديق الأمين والأخ الوفي في أطوار الخير والشر جميعا».

ثم انتقل إلى الحديث عن الكتاب فقال: «والكتاب بعد هذا أو قبل هذا يصور صاحبه أدق تصوير وأصدقه وأبرعه فهو بريء كل البراءة من هذا الغلو الذي يمتاز به المجددون في لون من ألوان العلم فإذا هم يفتنون بآرائهم الجديدة ويفنون فيها وينسون كل قصد واعتدال ويتكلفون في سبيل ذلك ما يُقبَل وما لا يُقبَل من الرأي ويحتملون في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق من التبعات.

والكتاب بريء من هذا كله يزينه قصد صاحبه وإيثاره للاعتدال، تقرأه فلا تحس أنك تُنتَزع من النحو القديم انتزاعا، وإنما تحس أنك تمعن فيه إمعانا وكأنك تقرأ كتب الأئمة المتقدمين من أعلام البصرة أو الكوفة أو بغداد.

علم غزير صحيح بأصول اللغة وفروعها ومذاهب النحويين والأدباء في فهم هذه الأصول والفروع وتخريجها، وتحدث عن ذلك بلغة الرجل الذي أَلِفَه وتعوَّده فليس متكلفا له ولا محدثا فيه، وتواضع لا يفرضه صاحبه على نفسه ولا يحتال في الازديان به وإنما هو صورة للطبع ومكون من مكونات المزاج.

تواضع تحسه فيفيض في نفسك حب صاحبه والميل إليه والإعجاب به والثقة

(☆) نشر في مجلة الرائد.

بما يلقي إليك من الحديث، وأمانة في الرأي والنقل جميعا لا تكاد تمضي في الكتاب حتى تحسها قوية جلية كأقوى ما تكون الأمانة وأجلاها، وها أنت ذا ترى المؤلف يحاسب نفسه أشد الحساب كلما خطر له رأي وكلما جرى قلمه بكلمة، أبغض الناس للتزيد وأشد الناس انصرافا عن هذا التهاون مع النفس الذي يبيح لكثير من الناس ما لا يباح للعالم الخليق بهذا الوصف».

ويصور الدكتور طه إعجابه بالصبر الذي يتمتع به زميله إبراهيم مصطفى فيقول: «وإني لأعجب أشد الإعجاب بهذا الصبر الطويل وهذا الجَلَد الذي لا أعرف له نظيرا في هذا الجيل الذي نعيش فيه، أنا معجب بهذا الصبر ولكن إعجابي بنتائجه عظيم أيضا، وما رأيك في رجل يستطيع أن يؤرخ نشأة النثر العربي يستخلص تاريخه لهذا الفن الأدبي العظيم من درس النحو وإطالة النظر فيه ويصل إلى نتائج باهرة حقا؟ وما رأيك في رجل يطيل النظر في النحو فإذا هو يرد تفكير النحويين إلى تفكير الفلاسفة والمتكلمين من المسلمين؟ وإذا هو يرد قصور النحو وتقصيره إلى علته الطبيعية وهي أن النحويين قد فلسفوا النحو فقصروا به عن أن يذوق جمال العربية ويصور ذوقها كما كان ينبغي أن يصور؟

ولا يتحدث إليك بهذا كله حديث المدعي بغير دليل، أو المتكثر من غير طائل، ولكنه أمين دقيق لا يقول إلا عن علم، ولا يرى إلا عن بصيرة، دليله معه دائما، ودليله ملزم دائما، لأنه لا يحاول أن يقنعك إلا بعد أن يفرغ من إقناع نفسه وليس إقناعه نفسه بالشيء اليسير...».

هذه مقتطفات من المقدمة القيمة التي كتبها طه حسين تعطي القارئ صورة واضحة عن الأستاذ العلامة وعن كتابه القيم.

رحم الله الماضي ونفع بالباقي.

لقاء كل أسبوع(*)
(١ ـ ٢)

يقول توفيق الحكيم في كتابه «يوميات نائب في الأرياف»: «لا شيء ينفرني من عمل النيابة غير المرافعة في قضايا الجنايات فإن من العسير على ذاكرتي الضيقة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التي تتكون منها الجريمة كي تبسطها بعيد ذلك في نظام وترتيب وهدوء أمام مستشارين ثلاثة عابسين، ومحامين متربصين، وجمهور يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع بل على مدى إتقان الحركات والإشارات ورنين الصوت في القاعة ومهارة الإلقاء والضرب باليد فوق المنصة.

إني بطبعي لا أصلح إلا لملاحظة الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة لا أن يشاهدني الناس ممثلا بارعا قد سلطت على وجهه الأضواء.

إن هذه المواقف تعمي البصيرة وتذهب لبي وتطير ما في ذاكرتي وتفقدني ذلك الهدوء النفسي الذي أرى به أعمق الأشياء...».

وما ذكره توفيق الحكيم عن نفسه من أنه لا يصلح إلا لملاحظة الناس خفية صحيح ـ ما في ذلك شك ـ فكل كتاباته تؤكد ذلك بل إن كل من يراه يدرك ذلك لأول وهلة، وقد كان يطيب لي أيام أن كنت أتلقى العلم في مصر أن أمر من أمام القهوة التي كان يجلس عليها في شارع شريف باشا تحت عمارة الأيموبيليا، ثم أقف على كثب منه ألاحظه خفية وهو جالس على أحد الموائد الموضوعة على الشارع وبجانبه عصاه الضخمة وكأنه في ذهول عما حوله وان كان في الحقيقة جالسا «يلاحظ الناس خفية يتحركون فوق مسرح الحياة».

وملاحظة الناس خفية وهم يتحركون على مسرح الحياة نوع بديع من المتعة قل إن يفطن له الناس.

(*) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٦/١٥هـ الموافق ١٩٦٢/١١/١٣م العدد (١٤٠)

وقد جلست مرة أنتظر شخصا في صالة مطلة على شارع عام بأحد الفنادق في وقت لا يتكاثر فيه الناس عادة في الفندق ولم يكن لي ما أشغل به فراغي فخطر ببالي أن أتأمل وجوه الناس وهم يعبرون الشارع فرأيت آلافا من الصور العجيبة يقضي الشاعر أو الكاتب أو الرسام شهورا قبل أن يصورها جميعها فكل وجه له أبعاده وتقاطيعه وملامحه ولونه لا يتفق وجهٌ مع وجه ولا تشبه صورةٌ صورة، تبارك الله أحسن الخالقين، قضيت في مجلسي أكثر من ساعتين أرقب الوجوه وأتأملها فرأيت الحياة بمسراتها وأحزانها، برضاها وثورتها، ببراءتها وخبثها، كلها تجمعت في هذه الوجوه التي تمر من أمامي سائرة في طريقها لتحل محلها وجوه أخرى.

وحلا لي مرة أخرى أن أرقب أزياء المارة فرأيت ألوانا من الأزياء لا يكاد يحصيها العدد ودهشت أن يكون في بلد واحد كل هذه الأزياء وتساءلت عما إذا كان لاختلاف الأزياء أثر في نفوس الناس وإن كان ذلك ما يقرره علماء النفس فعلا فإن الإسلام دين التوحيد الذي يتجلى في كل مظهر من مظاهر المجتمع الإسلامي السليم، وفي كل جزء من جزئيات الدين وكلياته، فالصلاة مثلًا - وهي ركن من أركان الإسلام - ليست مجرد حركات يؤديها المسلم عدة مرات في اليوم والليلة يقصد بها طاعة الله وتنفيذ أوامره فحسب، ولكنها بالإضافة إلى ذلك تغرس في الناس حب النظافة والنظام والطاعة وتعودهم أن يوحدوا صفوفهم وأن يسيروا في قافلة واحدة موحدة وراء قائد أو إمام لا يشذ من أفرادها واحد «وإنما تأكل الذئاب من الغنم القاصية» .

لقاء كل أسبوع(*)

(٢ ـ ٢)

نعود إلى توفيق الحكيم في كتابه «يوميات نائب في الأرياف» وكتابه هذا من كتبه الناجحة التي دفعته طويلا في دنيا الشهرة رغم صغر حجمه، ويمتاز توفيق الحكيم بأسلوبه السهل الذي لا تكلف فيه.

وسهولة الأسلوب ليست كل شيء ولكن لمساته الفنية وتعليقاته البارعة ولفتاته الذهنية هي التي جعلت من أسلوبه أسلوبا حيا له مكانه في أدبنا العربي الحديث. وهذه أمثلة تصور مميزات أسلوبه:

١ ـ يقول الحكيم: «وعمرت بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر».

٢ ـ «وقمت من فوري إلى ثيابي فارتديتها على عجل كما يصنع رجال المطافي».

٣ ـ «آه من هذه الشكاوى، إنها أكثر عددا من ذلك البق الزاحف جيوشا على حائط دار النيابة الرطب المتهدم».

ويبدأ المؤلف كتابه بهذه المقدمة الرائعة: لماذا أدون حياتي في يوميات؟ ألأنها حياة هنيئة؟ كلا إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها إنما يحياها.

إني أعيش مع الجريمة في أصفاد واحدة إنها رفيقي وزوجي أطالع وجهها في كل يوم، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد.

هنا في هذه اليوميات أملك الكلام عنها وعن نفسي وعن الكائنات جميعا، أيتها الصفحات ـ التي لن تنشر ـ ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتي في ساعات الضيق....».

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٦/٢٢هـ الموافق ١٩٦٢/١١/١٩م العدد (١٤٢)

ولم يكن في إمكان توفيق الحكيم أن ينشر هذه الصفحات في الوقت الذي كتبت فيه ولكنه استطاع نشرها بعد أن أصبح أديبا كبيرا مرموق المكانة مسموع الكلمة.

وقد تحدث في هذه الصفحات عن النظام القضائي في مصر وأبان ما فيه من متناقضات لأن القانون المنفذ كان قانونا أجنبيا غريبا مستوردا من الخارج!

ولم يتحدث عن هذا القانون حديثا جدبا جافا لا يطيقه إلا قلة من المثقفين ولكنه تحدث عنه حديثًا ينفذ إلى جميع الأسماع والقلوب.

وقد سخر سخرية مرة من الإجراءات الشكلية التي طغت على صميم الموضوع فلم يعد يحفل المسؤولون به قدر اهتمامهم بها فهو يقول:

«ذلك أنني أحب دائما أن أعني بتحرير محضري وأن أجعله مرتبا ترتيبا منطقيا والمحضر هو كل شيء في نظر أولى الأمر، وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة، أما ضبط الجاني فأمر لا يسأل عنه أحد!

نعم لم ننس تكة اللباس ونوع نسيجها فإن ذكر التفاصيل دليل على الدقة والعناية هكذا تعلمنا التحقيق كابرا عن كابر.

وأذكر أنني تركت ذات مرة جريحا يعالج سكرات الموت وجعلت أصف سرواله وتكته و(بُلْغَتَه) و(لبدته) فلما فرغت انحنيت على المصاب أسأله عن المعتدي عليه فإذا بالمصاب قد توفي!».

كما سخر من المحامين الذين لا يجعلون همهم الدفاع عن الحق ومساعدة المظلومين بقدر ما يهمهم إرضاء موكليهم والانتصار بأي وسيلة من الوسائل، والحق أن المحامين في بعض البلاد العربية في عصرنا يُشْبِهون السفسطائيين في أثينا ومن المعروف أن السفسطائيين متهمون بأنهم أفسدوا الحياة اليونانية، يقول الحكيم:

«ونهض من بين لابسي الخيتر رجل فك الحارس قيده ونهض من بين المحامين أفندي ذو بطن كأنها القربة المملوءة وقال: حاضر مع المتهم، فقلت في نفسي: تلك القضية لها محام لن يتركها قبل أن يفرغ في رؤوسنا ما شاء

بحجة حرية الدفاع فلأغمض عيني منذ الآن فرأسي أحوج ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل، وسمعت القاضي يقول للمحبوس: أنت متهم بأنك سرقت وابور غاز.

- أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان، لكن لا سرقت ولا نهبت.

فالتفت القاضي إلى المحضر قائلًا: هات الشاهد، فحضر رجل على رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه دفية فحلف اليمين وقال إنه أشعل وابور الغاز ليهيئ الشاي لبعض الزبائن الجالسين داخل الحانوت - فهو بقال ريفي صغير يبيع السكر واللبن والشاي والتبغ ويجتمع لديه أحيانا بعض الناس كأنهم شبه مقهى - ولقد وضع الوابور مشتعلا عند عتبة الباب في الطريق ودخل يحضر الإبريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق.

ونظر القاضي إلى منصة الدفاع فقام المحامي عن المتهم يصيح قائلًا: يا حضرة الرئيس نحن لم نصادف وابورًا ولا رأينا وابورًا ولا مررنا في طريق به وابور.. والقضية ملفقة من أَلِفِها إلى يائها.. وأراد المحامي أن ينطلق في هذا الكلام وأن يصول ويجول ولكن القاضي قاطعه:

- حلمك يا أستاذ.. المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقي الوابور قدام باب الدكان.

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال:

- هذا سوء دفاع من موكلي.

فأجابه القاضي في هدوء:

- غرض حضرتك أني أُصَدِّق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التي نطق بها موكلك أمامنا جميعا.

فاحتج المحامي ورفع عقيرته... وقد بدا لي أن كل همه أن يجلجل صوته في الجلسة وأن يتصبب عرقه فيمسحه بمنديله وينظر إلى زبونه كأنما يريه

الجهد الذي يتكبده من أجله والعناية التي يبذلها في سبيله...».

وتحدث عن رجال الإدارة والعلاقة التي تربطهم برؤسائهم ومرؤوسيهم حديثا كله سخرية لاذعة كما تعرض للعلاقة بين رجال القضاء ورجال الإدارة وستظل المحاورة «العنيفة» التي حدثت بين زوجة القاضي وزوجة المأمور من المحاورات الطريفة التي لا تبلى طرافتها.

وتحدث عن حلاق الصحة وعن الدايات وعن الفلاحين والمجرمين والقتلة حديثًا شيقًا نابضًا بالحياة.

والحق أن هذه اليوميات وثيقة تاريخية خالدة كتبها المؤلف بأسلوب جعلها شيقة نابضة بالحياة.

لقد قرأت هذه اليوميات منذ سنوات ولم تستطع هذه السنوات أن تنسيني لذة الاستمتاع وقد وقعت هذه اليوميات في يدي منذ يومين مصادفة فلم أجد بُدًّا من إعادة قراءتها ورأيت بعد ذلك أن أشرك معي قرائي الذين لا يبخلون عليّ بتقديم ملاحظاتهم ومقترحاتهم وتعليقاتهم في رسائلهم الخاصة التي تصلني بصورة مستمرة.

لقاء كل أسبوع(*)
(١)

لم يكن في استطاعتي.. وكيف أستطيع أن أزور القاهرة ثم لا أزورها[١] ولا أزوره، إن حديثه متعة للقلب وغذاء للعقل وصقل للشعور، وإن حديثها...

وسعيت إليه مبكرا على أمل أن أكون من أول الحاضرين ولكنني فوجئت بالمكان وقد امتلأ عن آخره.

وجلست حيث انتهى بي المجلس وكان ـ كعادتي به ـ يقظ الذهن منتبه القلب متوثب الشعور حديثه عن الموسيقى، وانهالت عليه الأسئلة من كل جانب وكان يتحدث كأنه متفرغ للموسيقى مختص بها.

وسمعت عجبا من العجب، لقد دافع عن الموسيقى العربية دفاعا علميا مبنيا على أسس من الحجة والمنطق والدليل، وأبان بأسلوب ساحر فضل الموسيقى العربية على الموسيقى الغربية وناقش الأفكار السائدة عن الموسيقى التي يعتنقها كثير من الشباب وخاصة أولئك الذي تعلموا في أوروبا وأبان ما بها من خطر وما فيها من مغالطة وتهويل.

وكم كان بودي أن يسمع أبناء العربية هذا الحديث ليعودوا إلى الثقة بها.. والإيمان بأمتهم والاعتزاز بأسلافهم.

وقد عرض إلى بعض أعلام الموسيقى في العصر الحديث وأوضح حقيقتهم ووضع كلا منهم في مكانه الذي يستحقه.

وليت صديقنا الأديب الكبير الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي كان حاضرا هذا الحديث فهو ذو صلة بمناقشة صارت بيني وبينه منذ سنوات.

ومن المصادفات اللطيفة أنني حضرت في العام الماضي مناقشة في الموسيقى في ندوة نجيب محفوظ القاص الروائي الجهير ولكن الفرق كبير بين الندوتين

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٧/٢٧هـ الموافق ١٩٦٢/١٢/٢٤م العدد (١٤٦)

(١) يقصد ندوة العقاد.

فندوة العقاد ندوة جادة ليس فيها مجال للعبث والحديث التافه وهي تسير على أسلوب دقيق.

أما ندوة نجيب ففيها كثير من الحرية فهناك أكثر من متحدث في وقت واحد وهناك من يقاطع المتحدث ليتحدث هو أو ليعلق أو ليضيف.

على أن الشيء العجيب هو اتفاق الآراء في الندوتين على أن أصلح الأصوات وأقواها هو صوت محمد عبدالمطلب ولا يستطيع أحد أن يتهم العقاد ونجيب ورواد ندوتيهما بالرجعية أو الجمود أو الجهل أو عدم الفهم فكلاهما من الأدباء الأعلام وجميع روادهما من الشباب المثقف الواعي.

وعلل للكلمتين المشهورتين في دنيا الغناء: (ياليل.. يا عين) تعليلا منطقيا معقولا واتهم الموسيقار عبدالوهاب بالجهل عندما قال «إنهما كلمتان لا معنى لهما»، وربما عدت إلى هذا الموضوع في مناسبة قريبة.

وأثناء حديث العقاد عن الموسيقى حضر رجل طويل القامة أشيب الشعر جهوري الصوت واستقبله العقاد حفيا به مرحبا بمقدمه وأفسح له الحاضرون مكانا أمام العقاد.

وسألت رفيقي عن اسم الزائر الكريم فقال لي: إنه «عبدالرحمن شكري» ولم أصدق ذلك فقد مات شكري منذ عامين في الإسكندرية على فراش المرض والفاقة! وقلت لرفيقي: هل أنت متأكد أنه «عبدالرحمن شكري» ففكر قليلا ثم قال: لا إنه عبدالرحمن صدقي، فقلت له: معقول.

لقاء كل أسبوع(*)

(٢)

وأخذ صدقي يتحدث بطريقة تدل على الرابطة القوية التي تربطه بالعقاد، وكان صوته هو الصوت الوحيد الذي سمعته يرتفع في مجلس العقاد ويعلو حتى على صوت العقاد، كما كان يخاطب العقاد مخاطبة الند للند، وكان يورد اسم العقاد في حديثه من غير أن يسبقه أو يلحقه بلقب.

ولخص العقاد الحديث الذي دار عن الموسيقى وقدر صدقي كل النتائج التي وصل إليها العقاد ثم أخذا يتذاكران بعض الحوادث التي وقعت لهما أيام الشباب وكان كلاهما مبتهجا بصاحبه مغتبطا بلقائه.

ولقد سرني حقيقة أن أرى صدقي فإن ما قرأته عنه كون له صورة في ذهني وكنت أتوقع أن أرى رجلا حزين القلب مقطب الوجه قاسي النظرات ـ وإن كان ما قرأته من مؤلفاته لا يؤكد هذه الصورة ـ حتى كان هذا اللقاء المجيد.

وقد انتقل الأستاذان العقاد وصدقي من الحديث عن الموسيقى إلى الحديث عن الشعر.

وقد كنت على استعداد لدفع أي مبلغ ـ في استطاعتي ـ لتسجيل هذا الحديث. لقد صورا في حديثهما عبقرية اللغة العربية وأثبتا عظمتها، وأنشدا طائفة كبيرة من المقطوعات الشعرية الرائعة والصور القيمة التي تخلب الألباب، وقالا عن بعض هذه الصور: «أنه لا يوجد لها مثيل في الآداب العالمية»، وعقدا مقارنة بين أقوال بعض الشعراء العرب وبعض الشعراء الإنجليز وخرجا من المقارنة بتفضيل الشعر العربي.

وقد عجب العقاد من أولئك الذين يدرسون الأدب العربي وهم لا يستطيعون قراءة بيت من الشعر قراءة صحيحة.

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٨/٤هـ الموافق ١٩٦٢/١٢/٣١م العدد (١٤٧)

وقال عن المتنبي: إنه أستاذ لابن جني ولأبي علي الفارسي ولابن خالويه ودافع عن شعر المتنبي وعبقريته دفاعًا مجيدًا وسخر من أولئك الذين يخاصمون المتنبي ويحاولون الانتقاص من شاعريته وقال: «إنهم يتهمون المتنبي بأنه شاعر مداح وفاتهم أن شعر المدح هو «لأكل العيش» ولكنه سرعان ما يتخلص منه ليأتي بالعجب العجاب».

وأنشد كثيرا من شعره للتدليل على صحة رأيه وشاركه صدقي في رأيه كما تحدثا عن ابن الرومي وقالا عنه: «لا يوجد لشعره نظير في الآداب العالمية كلها في ناحية الوصف» واستشهدا ببعض شعره.

وقال أحد الحاضرين - ولم أعرف اسمه ولكنني علمت أنه موظف كبير في إدارة الثقافة تعرض عليه الكتب الأجنبية لإقرار ترجمتها إلى العربية - قال: إنه عرض عليه كتاب ألّفه مستشرق «ذكر اسمه» بالإنجليزية لتقرير ترجمته إلى العربية.. فرفض الموافقة على ترجمته وقال ما دام أن عندنا الأصل وهو كتاب العقاد «ابن الرومي - حياته وشعره»... لماذا نضيع الوقت والجهد والمال في هذا الكتاب الذي لا يستطيع أن يصل إلى مستوى كتاب العقاد.

هذه بعض الأصناف التي تناولناها في هذه الوجبة الدسمة ولعل القارئ عرف لماذا لا أستطيع أن أزور القاهرة ثم لا أزور ندوة العقاد.

لقاء كل أسبوع(*)

(٣)

وكتاب «إحياء النحو» محاولة صادقة في تسهيل أمر النحو، هذا الذي شغل أبناء العربية منذ عهد الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ حتى اليوم.

والنحو كما هو معلوم ـ أو كما يجب أن يكون ـ وسيلة لا غاية وسيلة يتبعها الطالب والمتعلم ليصل بها إلى أن يقرأ قراءة عربية سليمة، ولكن النحاة ـ سامحهم الله ـ استهوتهم هذه الوسيلة وقنعوا بها حتى لقد شغلتهم عن الغاية فاندفعوا في الشرح والتفصيل لدرجة جعلت من هذه الوسيلة شغلًا شاغلًا يستنفد عصر طلاب العلم حتى لقد بلغ الأمر بأحد علماء النحو أن يقول لطالب علم جاءه ليعلمه من النحو ما يُقوِّم به لسانَه: «إن لي أربعين سنة وأنا أدرس النحو لم أتفهم ما أُقوِّم به لساني»!

وهكذا أصبح النحو عقبة في طريق المتعلمين وأصبح يستنفد الكثير من وقتهم وجهدهم وأصبح التبرم به والتذمر منه حديث الخاص والعام.

وقد قدم العلامة إبراهيم مصطفى محاولته الصادقة إلى قراء العربية بعد بذل الكثير من الجهد والوقت واستمع إلى هذه العبارات الرقيقة المؤثرة التي كتبت بصدد الإخلاص للعربية والحب للعروبة. استمع إلى إبراهيم مصطفى يقول في مقدمة كتابه «إحياء النحو»:

«هذا بحث من النحو عكفت عليه سبع سنين وأقدمه إليك في صفحات، سبع سنين من أوسط أيام العمر وأحراها بالعمل صدقت فيها الاعتكاف إلى النحو، وإلى ما يتصل بمباحثه وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعا.

كان سبيل النحو شاقا موحشا وكان الإيغال فيه ينقض قواي نقضًا،

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣/٣/١٣٨٢هـ الموافق ١٣/٨/١٩٦٢م العدد (١٢٥)

ويزيدني من الناس بعدا ومن التقلب في هذه الدنيا حرمانا ولكنّ أملا كان يزجيني ويحدو بي في هذه السبيل الموحشة أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها.

كانت مفارقات الأصل - خادعة وصادقة - تدفعني في سبيلي غير راحمة ولا وانية فليكن ما أنفق من هذا العمر ذخرا في أعمار الدارسين من بعد ولتكن شيخوخة هذا الشيخ فدى للعربية أن تقرب من طالبيها ويمهد السبيل لمتعلميها».

وإبراهيم مصطفى دقيق الملاحظة واضح العبارة ناصع البيان عربي السليقة يحسن تذوق المعاني وأساليب الكلام، وقد هداه تفكيره الواسع وملاحظته الدقيقة إلى أن يلاحظ أن صعوبة النحو «يمكن أن تكون من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده وأن يكون الدواء في تبديل منهج البحث النحوي للغة العربية.

وقد شغل طويلا - كما قال - بالإجابة على هذا السؤال، فكان كتابه القيم «إحياء النحو» وقد حرص في كتابه أن يجعل من منهج النحو وسيلة إلى التعرف على أساليب العربية.

يقول إبراهيم مصطفى - رحمه الله: «فإن النحو - كما ترى وكما يجب أن يكون - هو قانون تأليف الكلام وبيان لكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة، والجملة مع الجمل حتى تتسق العبارة ويمكن أن تؤدي معناها.

وذلك أن لكل كلمة وهي منفردة معنى خاصا تتكفل اللغة ببيانه، وللكلمات مركبة معنى هو صورة لما في أنفسنا ولما نقصد أن نعبر عنه ونؤديه إلى الناس. وتأليف الكلمات في كل لغة يجري على نظام خاص بها لا تكون العبارات مفهومة ولا مصورة لما يراد حتى تجري عليه ولا تزيغ عنه.

والقوانين التي تمثل هذا النظام وتحدده تستقر في نفوس المتكلمين وملكاتهم وعنها يصدر الكلام فإذا كشفت ووضعت ودونت فهي علم النحو.

ولو عرضت عليك جملة من لغة لا تعرفها وبينت لك مفراداتها كلمة كلمة ما كان ذلك كافيا في فهمك معنى الجملة وإحاطتك بمدلولها حتى تعرف نظام هذه اللغة في تأليف كلماتها وبناء جملها وذلك هو نحوها.

وكثير من اللغات لا إعراب فيها ولا تبديل لآخر كلماتها ولها مع ذلك نحو وقواعد مفصلة تبين نظام العبارة وقوانين تأليف الكلم.

فالنحاة حين قصروا النحو على أواخر الكلمات وعلى تعرف أحكامها قد ضيقوا من حدوده الواسعة وسلكوا به طريقا منحرفة إلى غاية قاصرة وضيعوا كثيرا من أحكام نَظْم الكلام وأسرار تأليف العبارة.

فطرق الإثبات والنفي والتأكيد والتوقيت والتقديم والتأخير وغيرها من صور الكلام قد مروا بها من غير درس إلا ما كان منها ماسا بالإعراب أو متصلا بأحكامه وفاتهم لذلك كثير من فقه العربية وتقدير أساليبها».

وهذا كلام رجل يحسن تذوق الأساليب والمعاني وفقه اللغة وقد كتب المؤلف ـ أحسن الله جزاءه ـ فصلا قيما بعنوان «وجهات البحث النحوي» كنت أود أن أنقله بكامله للقراء فهو شاهد حق على ما بذل المؤلف من جهد وصبر وعلى ألمعية المؤلف ونفاذ بصيرته، ولكنني أكتفي بالإشارة إليه هنا ولعلها إشارة تدفع القارئين إلى قراءته في مكانه من الكتاب.

ولعلي أعود إلى الكتاب مرة أخرى فأعرضه للبحث والتحليل.

ولا نحب أن نغفل الحديث عن نقطة هامة وهي مدى نجاح المؤلف في الدعوة التي حمل لواءها في كتابه.

ويبدو أن دعوة المؤلف اصطدمت بصخرة الجمود والرضا بالقديم، والواقع أن تراث ألف سنة في النحو ليس من السهولة بمكان وضعه على محك النقد ثم نبين ما فيه من ضعف وتهافت، ثم قبول الناس لهذه النتائج.

كما أن من المعروف أن المعاصرة ستار يحجب الحسنات فلعل كتاب الرجل ـ وقد انتقل هو إلى جوار الله ـ يجد من العناية والاهتمام ما يحقق الهدف الذي كان يسعى إليه. على أن العقبات التي اصطدم بها والإعراض الذي

لقيه حال بينه وبين تقديم كتابه الثاني فقد قال في خاتمة كتابه: «لقد حرصت على الإيجاز وطرحت من تفصيل المسائل ما خشيت أن يغطي على الفكرة أو يباعد بين أطرافها وآثرت أن أرسل هذا البحث خاصا بإعراب الاسم لأن ذلك أدنى إلى بيانه وأبعث على درسه ولأن إعراب الاسم يقوم منفردا في بحثه وبيانه عن إعراب الفعل ولأني أرجو أن أجد من نقد الناقدين الباحثين ما عسى أن أنتفع به في درس الفعل أو عرضه من بعد.

لذلك كله رأيت أن أستأخر بإعراب الفعل زمنا وأتقدم إلى الناس في هذا البحث بإعراب الاسم وحده وأنا أرجو أن يكون وضوح الفكرة وقربها وسيلة إلى تقديرها ونقدها فإن لم تجد من الناقدين تأييداً أو تقويما فإني لأكره أن تمضي سبلها في غير نقض ولا تهديم».

فعسى أن يهتم أبناء الفقيد وتلامذته بتقديم كتابه الثاني عن «إعراب الفعل» حتى تكمل الحلقة ويتم البحث.

لقاء كل أسبوع(*)

في مثل هذا الشهر من عام ١٩٤٥ ودع عالمنا الفاني شاعر فحل من شعراء الطليعة كان لهم أكبر الأثر في إنهاض الشعر ورفع كيانه وتدعيم مجده. كما كان من الرواد الأوائل الذي وقفوا فنهم على إيقاظ العرب واستنهاض هممهم ودعوتهم في حرارة وصدق إلى استعادة مجدهم القديم، وقد لجأ إلى كل الأساليب البيانية لتحقيق هدفه. ومما أذكره بكثير من الاعتزاز أن أساتذتنا في مرحلة التعليم الابتدائي كانوا يختارون لنا قصائد من شعره في تدريس النصوص والخطابة وكنا نتلقاها بأحسن القبول ونعجب بها غاية الإعجاب ونحفظها في غبطة وابتهاج.

وقد أشرت إلى عناية الشاعر بأمته العربية وهذا كلام تنقصه الدقة فالواقع أن شاعرنا كان أبعد نظرا وأوسع أفقا ولذلك فإن اهتمامه بالعرب لم يكن إلا وليد حبه للإسلام واعتزازه به. لقد كانت دعوته شاملة لكل المسلمين يصور آلامهم ويعبر عن أمانيهم ويستحثهم إلى التقدم ويدفع عنهم كيد الكائدين وظلم المستعمرين، ويضرب لهم الأمثال من تاريخ أسلافهم في عصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيره من عصور الإسلام الذهبية.

ذلكم هو الشاعر الكبير أحمد محرم الذي لا يعرف عنه ناشئة اليوم شيئا، والذي يقول عنه الكاتب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات: «فجمع الشعر العربي في علم من أعلامه الذي حفظوا وجوده وأقاموا عموده ومهدوا له السبيل إلى هذه النهضة: ذلك هو المغفور له الأستاذ أحد محرم، قبض إلى رحمة الله على الفراش الذي ينسجه القدر للأدباء الأحرار من الفاقة والمرض والوحشة، بعد أن ظل اسمه لامعا في سماء الأدب العربي قرابة نصف قرن. والناظر في تاريخ الشعر الحديث يراه في الرعيل الأول من شعراء الأحياء الذين خلفوا البارودي على إرث الشعر فجددوا باليه وأنعشوا ذاويه ثم تخطفتهم المنايا واحدا بعد واحد.

(☆) نشر في مجلة الرائد.

كان أحمد محرم من الشعراء المطبوعين على الديباجة المشرقة والقافية المحكمة وكان يطيل في غير سقط ويبالغ في غير شطط ويتألق في غير تكلف وقد قام في أعقاب عصره ينظم «الإلياذة الإسلامية» وهو عمل يكفي وحده لتمجيده وتخليده».

أما «الإلياذة الإسلامية» التي يشير إليها الأستاذ الزيات فقد كانت الغرض الأساسي من هذه الكلمة، إذ خطرت ببالي وأنا أهم بكتابة مقال عن «ذكرى الهجرة النبوية» فرأيت أن أوجه إليها أنظار «الجامعة الإسلامية» بالمدينة، هذه الجامعة الفتية التي تسير بخطى واسعة ثابتة نحو هدفها المأمول وغايتها المرجوة. ومن ينشر الأمجاد الإسلامية غير الجامعة الإسلامية وغير جلالة إمام المسلمين الرئيس الأعلى للجامعة.

إن من أهم واجبات الجامعة الإسلامية قيامها بالدعوة إلى الإسلام عن طريق التأليف والنشر، ونشر هذه «الإلياذة الإسلامية» عن طريق الجامعة سيكون مفخرة من مفاخر الجامعة وتحقيقا للرسالة العظيمة التي تضطلع بها هذه الجامعة.

ولا أستطيع أن أزعم أنني قرأت هذه الإلياذة التي نظمها الشاعر العظيم - أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر رسم فيها صورة التاريخ الإسلامي وبطولاته ومواقعه، فهي ما زالت مخطوطة أو كما قال الأستاذ أنور الجندي: «وما زال هذا المجلد الضخم (الإلياذة الإسلامية) مخطوطا يعلوه التراب في دمنهور في منزل صديقه الوفي الأستاذ إبراهيم نعيم».

فأنا لا أستطيع أن أزعم أنني قرأت هذه الإلياذة ولكنني أستطيع أن أقول إنني قرأت الكثير من شعر أحمد محرم، بل لقد قرأت بعض مقاطع من الإلياذة الإسلامية نشرها الشاعر في مجلة الأزهر «نور الإسلام».

إن من المصادفات الطيبة أن يوافق ذكرى وفاة الشاعر الكبير ومؤلف «الإلياذة الإسلامية» ذكرى شهر الهجرة النبوية، فلعل في هذا تذكيرا بالواجب نحو الشاعر الإسلامي الكبير ونحو «الإلياذة الإسلامية» التي أرجو

أن يكـــون نشرهـــا في طليعة مفاخر الجامعة الإسلامية. ورحم الله الشاعر الذي يقول:

تـأبـى «الـسـعـادة» أن تـصـافـح أمّـة ... تـرضـى الـهـوان وتـألـف الإذلالا
بـلـهـاء تـخـذل مـن يـقـوم بـنـصـرهـا ... وتـظـل تـنـصـر دونـه الخُذّالا
وإذا أهـاب بـهـا الـهـداة رأيـتـهـا ... تـعـصـي الـهـداة وتـتـبـع الـضـلالا

● ● ● ●

ركـبـوا مـتـون الـعـاصـفـات وشـأنـنـا ... أن نـركـب الأوهـام والآمـالا
يـا بـاعـث الموتـى لـيـوم مـعـادهـا ... تـنـسـاب مـن أجـداثـهـا أرسـالا
أعـد الحـيـاة لأمّـة أودت بـهـا ... غـفـلاتـهـا فـوت سـنـين طـوالا
وتـولـهـا بـالـصـالحات لـيـهـتـدي ... مـن زاغ عـن وضـح الـطـريـق ومـالا
وتـولـهـا بـالـصـالحـات ولـقّـهـا ... مـنـك الأمـان ووقّـهـا الأوحـالا
وامـنن عـلـيـهـا مـن لـدنـك بـقـوة ... تـوهـي الـقـيـود وتـصـدع الأغـلالا

أحمد زكي باشا
(شيخ العروبة)

يطيب لي في بداية هذا الحديث أن أذكر بكثير من التقدير شخصية من الشخصيات الكبيرة في عصرنا الحديث وعلمًا من أعلام أمتنا الإسلامية العظيمة كان له جهاده المشكور وجهده المقدر في الكشف عن الأمة الإسلامية وإبراز خصائصها والتنويه بمزاياها.

كان واقفا كالديدبان يذكر المسلمين بأمجادهم ويفتح عيون شبابهم على ما يحتويه تراث أجدادهم من كنوز غالية، كما كان واقفا لأعدائهم بالمرصاد يدفع دعواهم بالبرهان ويمحق باطلهم بالحجة.

كان يبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول على كتاب نادر أو مخطوط ثمين من تراث الأجداد يبذل المال ويركب الوعر ويرحل من بلد إلى بلد مستسهلا كل صعب في سبيل غايته النبيلة.

كان ينقل إلى الغرب مآثر العرب، وكان يقدم إلى العرب تراث أسلافهم فهو إما محدث أو خطيب وإما كاتب أو باحث وإما قارئ أو مراجع وهو في جميع حالاته مشغول الخاطر بإيقاظ الهمم وتحريك العقول وإحياء التراث.

نصب نفسه حارسًا يقظًا راعيًا على أمته يدفع عنها الكيد والأذى ويدعوها صباح ومساء إلى وصل ماضيها بحاضرها. لا يدع فرصة.. إلا بادر إلى استغلالها في جرأة وبراعة.

أُثيرَ الحديثُ مرة عن أصحاب الفضل في اكتشاف أمريكا فبادر إلى إثبات أن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير في اكتشافها بل أنهم حاولوا الوصول إليها مرتين بالفعل وكان تخيلهم لها بطريقة منطقية عقلية، وأن الإمام الأصفهاني أثبت بطريق الاستنتاج المنطقي والدليل الجغرافي وجوب وجود أمريكا في النصف الثاني من الكرة الأرضية وأنه لا بد من وجود ناس وحيوان ونبات فيها.

ويدور الحديث عن الطيران فيسارع علامتنا العظيم إلى إثبات سبق العرب وإلى محاولة التصدي بالفعل إلى نقله من حيز العلم إلى حيز العمل.

ويتحدثون عن اختراع كتابة العميان وفضل الأوروبيين في هذا المجال فيندفع العلامة الكبير إلى إثبات سبق العرب ويجد الدليل القاطع في النسخة الخطية التي عثر عليها من كتاب «نكت الهيمان في نكت العميان» تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، وقد قدمه إلى مؤتمر العميان الذي انعقد في أثينا سنة ١٩١٢.

وتأتي مناسبة للحديث عن الشفرة وهي الكتابة السرية فلا يتوانى عن إثبات وجود ذلك واستعماله لدى الدول الإسلامية بل إنه يثبت أن التسمية عربية فقد كانوا يطلقون على الشفرة كلمة «صفر» واستعملوها بمعنى الأرقام لأنهم استخدموا الأرقام بدلًا من الحروف في الكتابة السرية.

وتنشر الصحف أن رئيس الجمهورية الفرنسية السيد «بونكارد» يزور العاصمة البريطانية ويستقبل عشرين وفدا من طوائف الإنجليز ورجالاتهم المعدودين وقد قدم كل منهم خطبة للترحيب بمقدمه فأجاب عن كل خطبة بعبارة من الشكر تخالف جواب الأخريات.

فينطلق علامتنا ليرد في الصحف الفرنسية قائلًا: وأي شيء هذا فإن الوزير بن زيدون فعل ما هو أكثر من هذا بكثير؛ فإن الوزير «كان قائما في جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمع يجيب «شخصًا» بما أجاب غيره، قال الصلاح الصفدي: «وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام وهو أمر صعب للغاية وأقل ما كان في تلك الجنازة «وهو وزير» ألف رئيس مما يتعين عليه أن يشكر له فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير للغاية.» ولا يفوت علامتنا أن يشير إلى اختلاف الموقعين فيقول: «وإن المثكول بالأولاد المحروق الفؤاد يستعصي عليه الكلام ولو كان في بلاغة قس وفصاحة سحبان» ولا يكتفي بذلك بل يأتي بأدلة كثيرة أخرى تثبت تفوق العرب.

هناك بعض مواقف علامتنا الكبير أحمد زكي باشا «شيخ العروبة».

وهي جهود ومواقف استثارت إعجاب كثير من شباب العرب دفعتهم دفعًا إلى أن يقتحموا عباب الكتب الصفراء.

وهي جهود ومواقف كان لها أثرها دون شك في تبصير الشباب المسلم بحقيقته تجاه أمته وتجاه العالم كما كان لها أثرها في إزاحة بعض حجب الضلالة التي صنعها الأعداء للتهوين من شأن تراثنا الإسلامي الفكري وللتشكيك في حضارته ووجوده.

ولقد أفلحوا في ذلك واستطاعوا بمساعدة المخدوعين والمضللين من أذيالهم وأتباعهم أن يصنعوا ستارا بين حاضر الأمة الإسلامية وماضيها وأن يصفوا تراثها المجيد بأنه تراث الكتب الصفراء التي أبلاها الزمن فلم تعد قادرة على مواجهة متطلبات العصر؛ عصر المدنية والعلم.

وكان للمسيحيين من العرب بالإضافة إلى المخدوعين من المنتفعين المسلمين دورهم الكبير في تشويه الأمجاد المسلمة.

الفنجان ... وشعراء المعالفة

من المعروف أن عائلة المعلوف عائلة لبنانية كبيرة أنتجت كثيرا من الشعراء ومن بينهم الشاعر الملهَم فوزي المعلوف ومؤلف ملحمة بساط الريح المشهورة.. ويروى أن السيد جورج المعلوف قد دعا فريقا من الأدباء في منزله بمدينة سان باولو بالبرازيل ومن بينهم بعض الشعراء المعالفة وحدث أن سقط فنجان القهوة من يد ربة المنزل.. وكانت بارعة الجمال فاقترح الحاضرون على الشعراء المعالفة أن ينظموا شعرا حول هذا الموضوع فقال شاهين المعلوف:

ثمل الفنجان ولما لامست ... شفتاه شفتيها واستعر
فتلظت من لظاه يدها ... وهو لو يدري بما يجني اعتذر
فارتمى من وجده مستعطفا ... قدميها وهو يبكي وانكسر

وقال ميشال المعلوف:

عاش بهواها ولكن ... في هواها يتكتم
كلما ادنته منها ... لاصق الثغر وتمتم
دابه التقبيل لا ... ينفك حتى يتحطم

وقال شفيق المعلوف:

إن هوى الفنجان لا تعجب فقد ... طفر الحزن على مبسمها
كل جزء طار من فنجانها ... كان ذكرى قبلة من فمها

فنظر فوزي المعلوف إلى الفنجان فإذا هو لم ينكسر فقال معارضا:

ما هوى الفنجان مختارا فلو ... خيروه لم يفارق شفتيها
هي ألقته وذا حظ الذي ... يعتدي يوما بتقبيل عليها
لا ولا حطمه اليأس فها ... هو يبكي شاكيا منها إليها
والذي أبقاه حيا سالما ... امل العودة يوما ليديها

أديب ظلمه معاصروه(*)

الحلقة الأولى

ولد في أواخر القرن الماضي سنة ١٨٩١م في قرية مجهولة من قرى الفلاحين في مصر، ولد مفطورا على التحدي ـ ولا نستطيع أن نرد ذلك بصورة محددة إلى الوراثة أو تربية المنزل أو تأثير البيئة في ما حفل به أدبه من اعتزاز بنفسه وافتخار باصله، فإنه لم يكتب لنا ترجمة حياته ولم يترك أية مذكرات شخصية نستطيع أن نعتمد عليها في هذا المجال، ولكن هذا لا يهمنا لأن الشيء الذي لا شك فيه هو أنه ولد مفطورًا على التحدي. تحدي ظروف أسرته الصغيرة فسعى إلى العلم، وتحدي ظروف قريته المجهولة فانتسب إلى الأزهر، وتحدي بيئة الأزهر المحدودة فانتقل إلى الجامعة، فتحدى زملاءه فتقدم لنيل الدكتوراه ولما حصل عليها بتقدير «جيد جدًا» لم يرضه ذلك فتحدى أساتذته وتقدم إلى (السوربون) لينال الدكتوراه من باريس وأعد رسالته وبدأها بمهاجمة آراء رئيس لجنة الامتحان وغضب وصمم على حذف الفصلين الذين ورد فيهما الهجوم ولكن روح التحدي في زكي مبارك أبت عليه أن يرضخ لرأي رئيس اللجنة فاصر على إبقاء الفصلين وانتهى الأمر بحصوله على الدكتوراه من جامعة باريس لدرجة (مشرف جدا)[1].

ولم يقف تحديه عند هذا الحد فعندما قرر أن يسافر إلى فرنسا لم يجد من يساعده للحصول على بعثة أو يقدم له إعانة مادية فاعتمد على نفسه، وصار يقضي فترة من الوقت في مصر يكتب للصحف يجمع ما يتيسر له من مال ثم يسافر إلى باريس ليواصل دراسته فإذا أنفق ما لديه من مال رجع لمواصلة العمل وهكذا استطاع أن يحقق أمله وأن يتحدى في وطنه أولئك الأساتذة الذين لم يمنحوه الدرجة التي يستحقها لأن عميد الكلية لم

(☆) نشر في يوم ١٣٨٧/١/١٦هـ بجريدة المدينة للنورة العدد ٩٣٩ .

(١) اقيم له حفل تكريم بمناسبة حصوله على «الدكتوراه» في بهو السربون عام ١٩٣١م .

يكن راضيا عنه، ولم يكتف بهذا التحدي فعاد مرة أخرى إلى الجامعة المصرية في وطنه يطلب إليها أن تسمح له بأن يتقدم للحصول على الدكتوراه مرة ثانية، وأذنت له وحصل على الدكتوراه للمرة الثالثة بمرتبة الشرف، فهل أرضاه كل ذلك؟ كلا!

وإن روح التحدي تأبى عليه أن يريح أو يستريح، فها هي جامعة جديدة تنشأ في الإسكندرية وها هو يبادر ليطلب منها أن تسمح له بأن يتقدم للحصول على الدكتوراه للمرة الرابعة وهو بذلك يريد أن يتحدى الرجل الذي وقف في سبيله فحرمه من البقاء في الجامعة كما حرمه قبل ذلك من الحصول على الدرجة التي يستحقها.

ووصل طلب زكي مبارك إلى كلية الآداب في جامعة الإسكندرية وكتب الموظف المختص رسالة «روتينية» إلى صاحب الطلب ليوافي الكلية ببعض المعلومات ووجه الخطاب إلى «الأستاذ/ زكي مبارك»، ووصل الخطاب إلى زكي مبارك ورأى كلمة «الأستاذ» تسبق اسمه فثارت ثائرته وجن جنونه ولم يفهم الأمر على أساس أنه خطاب «روتيني» وأن كاتبه موظف صغير لا يحفل بالألقاب، ولكنه فهم الأمر فهما آخر فهذا العميد من الدائرين في فلك ذلك الرجل الذي ظلمه مرتين، ولا بد أنه قصد إهانته والإساءة إليه والنيل منه وإلا فمن يجهل الدكاتره زكي مبارك؟ وبرزت طبيعة التحدي فانهال على العميد وكان أستاذا ولم يكن دكتورا بطائفة من المقالات ملأها بلاذع الهجاء وقارص الكلم، ولاذ العميد بالصمت ولم يطل مقامه طويلا إذ توفاه الله[1].

هكذا كانت حياة زكي مبارك سلسلة متصلة الحلقات من التحديات ومن أجل ذلك سماه الناس «المشاغب الأكبر» وسماه الزيات «الملاكم الأدبي».

والملاكم الأدبي تسمية موفقة للدكتور زكي مبارك فلديه كل إمكانات الملاكم الناجح، لديه الخفة والسرعة والقوة، ولديه شجاعة القلب والثقة في النفس

---

(١) توفي في يناير عام ١٩٥٢م .

والإيمان بالمستقبل، كان مثقفا ثقافة واسعة تشمل القديم والحديث جمعت فأوعت، يقول عنه أحد الأساتذة: «تراه حينا وقد اختزنت حافظته الكثير من الشعر العربي والفرنسي» ولديه قلم لا يخذل ولا يخونه وهو على أتم استعداد لتسطير عشرات الصفحات في سهولة وسرعة ويسر من غير أن يضعف أو يتخاذل حتى لقد اشتهر بأسلوب واختص به فلا يشركه فيه سواه.

وقد كتب مرة مقالا وأراد لأمر ما أن ينشره بتوقيع مستعار وأرسله للرسالة فنشره الزيات وكتب تحت العنوان «بقلم كاتب كبير ينم عليه أسلوبه» وكان أسلوب المقال فعلا يدل على أن كاتبه زكي مبارك ولكن عبارة «ينم عليه أسلوبه» كانت تعبيرا صريحا لأن الكاتب هو زكي مبارك. وأثارت جملة «ينم عليه أسلوبه» زكي مبارك فكتب مقالا رائعا بعنوان «نميمة الأسلوب».

وأسلوب الدكتور المبارك أسلوب يمتاز بالحيوية والخفة والسهولة فهو أسلوب جدير بأن يسمى «بالسهل الممتنع» فأنت قل أن تجد فيه كلمة غريبة أو جملة نابية أو عبارة مستكرهة، وهو حريص جدا على انتقاء اللفظة السهلة، وهو يقول في مقالة موجهة إلى أحد أصدقائه: «وبعد فقد كنت سألتني أن أكتب إليك، ووعدتك مخلصا بذلك، وها أنا أفي بالوعد، فسامحني أولا إن لم أقل «ها أنذا » فإنها ثقيلة ولم يلتزمها إلا المتكلفون وأنت تعرف إلى أي حد يُملّني التكلف ويثقل عليّ التزام ما لا يلزم في الكتابة وفي الحديث» ومع سهولة ألفاظه وحلاوة عباراته وخفتها على اللسان والسمع فإن أسلوبه متماسك سليم من كل دخل، نقي من كل شائبة، بعيد عن كل ركاكة أو ضعف، لا تستطيع أن تعثر في كتاباته على أخطاء لغوية أو نحوية.

وهو يلجأ إلى التنبيهات أحيانا عندما يستدعي المقام ذلك ولكن تنبيهاته تمتاز بالجمال والروعة وخفة الظل، يقول في وصف فتاة مغنية: «هي فتاة ناهد حسناء، رشيقة القد، مشرقة الجبين، وفي عينيها النحلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت، وفي صوتها نغمة موسيقية كأنها غنة الظبي الوليد، ولأناملها رقة جذابة تنبض بالكهرباء، وفي خطواتها تكسر

وتثنٍّ كانه تثني الغصن المطلول...» ولأسلوبه ميزة أخرى هي هذا الشعر الذي يتخلله بين آونة وأخرى، وهي طريقة قد لا ترضي عشاق الأساليب الحديثة السائرة في هذه الأيام، ولكنها طريقة جميلة لها روحها وروعتها، ولها جمالها دون شك. والمؤكد أن الدكتور زكي لم يكن يتكلف ذلك ولم يكن يتصنعه ولكنه كان يأتيه عفو الخاطر وبصورة «لا إرادية» وسبب ذلك امتلاء حافظته بثروة من الشعر العربي المختار وتلك ميزة كل الأدباء الذين جمعوا بين العربية والثقافة الغربية مثل محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين والعقاد وعشرات غيرهم وأذكر أنني لقيت الدكتور زكي مرة في «المترو» وكان معي صديق اسمه «محمد سعيد» فتقدمت إليه وسلمت عليه وعرفته بصديقي فأمسك بيدي وقال لنا: «اسمعوا: وأخذ ينشد:

صدعنا محمد بن سعيد ... أحسن العالمين ثاني جيد»

يقول عنه أحد الأساتذة: «تراه حينًا يجادل في الدقائق الفقهية ـ كما صنع حين حقق نسب كتاب الأم ـ فيضيفه إلى الفقهاء، وحينًا تراه يجادل في المعضلات النحوية فيضيفه إلى النحويين.

وننظر إلى كتاب «النثر الفني» وكتاب «الموازنة بين الشعراء» فنحسبه رجلا لا يحسن غير النقد الأدبي، وتقرأ رسائله الغرامية ودراساته الطريفة للعشاق من الشعراء فيخيل إليك أنه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاغتباق، يهوى الغيد الرعابيب، وتنظر رسالة «اللغة والدين والتقاليد» فتعده من كبار المصلحين، وتنظر مقالاته في التربية والتعليم فتراه من أقطاب المربين، وتقرأ هجومه على الكتاب والشعراء والمؤلفين فتخاله من الهدامين، وتسمع عن أخباره في الأندية والمجالس وأحاديث رحلاتها إلى البلاد الشرقية والغربية وانتقاله من العمامة إلى الطربوش ثم إلى القبعة والسدارة فتعتقد أنه من المولعين بدرس أخلاق الأمم والشعوب».

ليس من بعضه يصدر ولكن ... يتجنس الحسنة في الصدور

وللعلم فقط أذكر أنه لم يكن بين صديقي محمد سعيد وبين الحسن من علاقة سوى الصدرية علاقة الضدية، ولكن امتلاء حافظة الدكتور زكي ـ

ونحن لا نزال في المترو ـ إلى ذكر موضوع المساواة بين الرجل والمرأة فقال الدكتور زكي مبارك اسمعوا.... أنشدنا شعرا بالفرنسية لشاعر فرنسي ترجمته: إن المرأة لا تستطيع مساواة الرجل إلا إذا استطاعت...» وليس من اللائق نشر باقي الترجمة في صحيفة سيارة.

وقد أشرت إلى لقائنا بالدكتور زكي في المترو لأعطي القراء ـ صورة قراء الدكتور زكي ـ فكرة على الحفظ وقدرته على استحضار ما يريد من هذا الشعر «العربي الفرنسي» عند أقل مناسبة.

أديب ذكي ظلمه معاصروه
الحلقة الثانية(*)

ومن أجل ما سبق ذكره امتاز أسلوب الدكتور مبارك بما يتخلله من جيّد الشعر ومن أجل هذه المميزات التي تَفَرَّد بها في أسلوبه، فإنك متى بدأت في قراءته وقعت أسير شِراكِه فلا تملك نفسك، ولا تستطيع أن تسيطر عليها، ولا أن تحول بينها وبين مواصلة القراءة حتى ينتهي الكتاب أو المقالة، إن كانت في منشورة في مجلة من المجلات، وقد كانت هذه هي مشكلتي مع الدكتور زكي، فقد كان من المقرر أن تظهر هذه المقالة قبل شهور طويلة استجابة لدعوة الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي ولكن الذي حدث هو أنني وجدت فرصة كتابة هذا المقال. تصلح لأن تستغل في قراءة ما لدي من كتب الدكتور زكي وجمعت ما لدي من كتب وهي لا تكاد تبلغ نصف مؤلفاته وأخذت في قراءتها فلا أترك الكتاب إلا إذا اضطررت إلى ذلك اضطرارا وكنت أعود إلى قراءة الكتاب مرة أخرى بحجة تسجيل بعض الملاحظة فتستهويني القراءة فأنسى تسجيل الملاحظات، وهكذا أشغلني الدكتور زكي به عنه أو بكتبه عن نفسه.

وقد كان المأمول أن يسيطر الدكتور زكي على الحياة الأدبية فلا يذكر الناس الأدب إلا إذا ذكر زكي مبارك ولا يتحدث القراء عن النقد الأدبي إلاَّ وفي مخيلتهم الملاكم الأدبي أو المشاغب الأكبر، ولا ينشد المتأدبون الشعوبيون إلا برز لأعينهم صاحب ألحان الخلود.

ذلكم هو المأمول وكيف يتبدل الوضع من حال إلى حال؟

يرجع سر ذلك إلى طبيعة التحدي فيه، أو إلى طبيعته التحدية، فقد وفقته هذه الطبيعة إلى أن يمارس صناعة النقد وهي صناعة قاسية متعبة لأنها البحث عن المحاسن والمساوئ، أو بعبارة أخرى (تمييز الجيد من الرديء)

(*) نشر في يوم ١٣٨٧/١/٢٤هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٩٤٦ .

والطبيعة الإنسانية تحب الثناء وتكره كشف نقاط الضعف في الإنسان ومن أجل ذلك قال الأقدمون: «من غربل الناس نخلوه» وقالوا:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن

وعينك إن أبدت إليك معايبا فدعها وقل يا عين للناس أعين

فعملية البحث عن المعايب عملية ممقوتة حتى ولو تمت في هدوء دون جلبة فما بالك لو صاحبها كثير من العنف والتحدي وكيف يكون الحال لو أضيف إلى ذلك غير قليل من الغرور والإعجاب بالنفس.

وهذه الصفات كلها قد اجتمعت في الدكتور زكي مبارك، عمله كناقد، طبيعته المتحدية، إعجابه بنفسه، وقد زاد أمر رابع هو شعور الدكتور بالظلم وأن عليه أن يأخذ حقه بالقوة! وكل صفة من هذه الصفات لو انفردت في إنسان لجعلته في وضع لا يحسد عليه فما بالك وقد اجتمعت كلها في إنسان يسمى «زكي مبارك»؟

لقد استطاع الدكتور زكي أن يفرض احترامه على طوائف من الناس، ولكن من المؤكد أنه لم يستطع أن ينزع حب الناس وعطفهم عليه، ومن أجل ذلك ظل أكثر حياته حانقا مشدود الأعصاب على استعداد دائما لأن يرد اللطمة لطمتين والصاع صاعين، بل وكان على استعداد لأن يتهجم على كل من يمر أمامه؛ مصعرا خده، أو نافخا شدقه، أو ناظرا بطرف عينه، وعلة ذلك أن الدكتور زكي وقع تحت تأثير عاملين قويين: عامل طبيعته المتحدية، وعامل بيئته القاسية. وقد تحدثنا عن طبيعته المتحدية فيما سبق فلنتحدث عن بيئته القاسية.

لقد خرج من قريته لمواصلة تعليمه مدفوعا بطبيعته المتحدية ولعله كان يؤمل أن يجد من يحنو عليه ومن يمهد له أشواك الطريق. ولكنه وجد نفسه وحيدا، ورأى أنه لكي يعيش يجب عليه أن يكافح، وكافح في دراسته الأزهرية، ثم كافح في دراسته الجامعية فتعلم الفرنسية، وتقدم لنيل الدكتوراه، وكان يأمل أن يجد في رجال الجامعة ما افتقده في غيرهم، ولكنه وجد رجال الجامعة لا يختلفون عن غيرهم، فهم بشر من البشر لا يطيقون

كلمة الحق، ويصرون على التمادي في الباطل، ولا يتورعون عن إيذاء الآخرين، ولعق الدكتور زكي جراحه صامتا، وتاقت نفسه إلى أن يسافر إلى فرنسا لينال ما نال فلان وفلان فيصبح ندا لهم فلا يميزون بشهادة ولا يتزيدون بلقب، وتلفت يمنة ويسرة علّه يجد يدا حانية تمتد له أو قلبا رقيقا يعطف عليه، ولكنه لم يجد شيئا، فصمم على اختراق الطريق إلى فرنسا وليس له من مساعد إلا عزمه ولا من رفيق إلا ثورته، واجتاز هذه المرحلة القاسية بعد أن ضحى بسنوات من خير سني الشباب، وبعد أن بذل الكثير من جهده وماله ونور عينه، وعاد إلى وطنه بعد أن خيل إليه أن جميع العقبات قد انزاحت من طريقه وأنه سيبدأ حياة جديدة من الإنتاج المثمر والدرس الهادئ.

ولكن لم يمض طويل وقت حتى بدأ يشعر بأن الجو الذي يعيش فيه ينذر بالخطر، وتأهب ليذود عن حقه، ولكنه قبل أن يجد الفرصة المناسبة للوثوب، كان قد وصل إلى عرض الطريق مفصولا من الجامعة، وانتضى سلاحه وتأهب لمعركة طويلة بعد أن أصبح فريسة لظلم لا يرحم، وهجم على أعدائه ولكنهم تكاثروا عليه، صحيح أنهم لم يغلبوه، ولكنهم استطاعوا أن يغلقوا وظائف الدولة في وجهه، وانضم سبب جديد إلى الأسباب الأخرى وهو شعوره بالمرارة والظلم، وتضافرت كل تلك الأسباب لتجعل من زكي مبارك المشاغب الأعظم أو الملاكم الأدبي، وجلب له الشغب العداوة والبغضاء والكراهية، ودفعته الملاكمة إلى أن يفقد جميع أصدقائه ومحبيه فهو صريح لا يعرف المجاملة أو النفاق أو المداراة أو الكذب أو التدليس يقول: «والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام فأوغلوا فيها وافتنّوا في جميع أسبابها، والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة فأسرفوا في العناد حتى لا أمل في ردهم إلى الحد المعقول. وأنا والله غير نادم» وأخيرا يئس من الحرب وألقى السلاح وأصبح يعيش صريع الكأس إلى أن كان يوم من سنة ١٩٥٢م كان يسير فيه بشارع عماد الدين فاصطدم بعربة خيل فأصيب بارتجاج في مخه ولم يعش غير ساعات ـ يرحمه الله.

أيكون موته اصطدامه بعربة خيل صدفة غير مقصودة، أم أن ذلك ترتيب عظيم من القدر ليشير إلى أن زكي مبارك كان في حياته جوادا عربيا أصيلا قضى حياته يتحدى الزملاء والأقران والأنداد ويحقق نصرا بعد نصر، وكلما وصل إلى غاية تطلب ما بعدها؟ ومن الغريب أنه استشهد ببيت المتنبي في مجال حديثه عن نفسه وما يعاني من متاعب الحياة:

يقولون لي ما انت في كل بلدة   وما تبتغي؟ ما ابتغي جل أن يسمى

ولقد مات ميتة تليق بالجواد الأصيل مات في ساحة المعركة ولم يمت على فراشه.

لقد عاش حياته حليفا للضربة دائم الشعور بها حتى وهو في وطنه يقول: «فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه إذ كلنا في بلادنا غرباء والمظلوم في وطنه غريب».

وهو يهاجم المصريين هجوما عنيفا كلما سنحت فرصة ويصف المصري في إحدى المواقف بأنه قد يكون هو الإنسان الذي عناه الشاعر بقوله:

عوى الذئب فاستانست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسان فكدتُ أطير

ولقد أصبح الحديث عن شكوى الزمان والإخوان لازمة من لوازم أدبه لا يكاد يخلو منها مقال من مقالاته أو كتاب من كتبه، ولكن هذه الشكوى المرة في أدب الدكتور زكي كان يصحبها دائما اعتزاز بالنفس، وثقة بالله وإيمان بالمستقبل فلم تستطع - كلما سقاه الزمان من أكواب العلقم - أن تفرض عليه الانزواء والانطواء والكفر بالحياة.

ولا أن تجعل منه نموذجا من النماذج المتشائمة في الأدب العربي، بل إنها أصبحت بالنسبة له «مهمازا» يلهب خياله وشعوره فيندفع إلى الأمام دون توقف، شيء واحد كان يخافه الدكتور زكي هو الفقر يقول: «قال قائلهم: «وإن الفقر ليس بعيب» ولو رجعوا إلى الواقع لرأوا الفقر مصدر العيوب، هو الذي يذل نبلاء الأرواح، وأعزاء النفوس، وهو الذي يقعد بالرجل الشهم عما يسمو إليه من جلائل الأخطار».

وقد أدرك خصومه ذلك وأقفلوا أبواب وظائف الدولة في وجهه إلى أن اضطروه في شيخوخته إلى أن يعمل بالأجر اليومي في دار الكتب. وهكذا أبت عليه الظروف إلا أن يعيش غريبا ويموت فقيرا.

لقد دفن في ثرى قريته التي أحبها لأنه ولد بها ولأن فيها أهله، تلك القرية التي نقلها من دنيا النكران إلى دنيا المعارف وجعلها قرية لباريس فلا يذكر زكي مبارك إلا ذكرت باريس وسنتريس لقد تغنى بسنتريس حتى أصبحت على كل لسان.

وأضفى عليها من روحه السمح ومن خياله المتوثب ومن صوره الشعرية ما جعلها في أذهان الناس تحفة قل أن يجود بمثلها الزمان، ولم يكن حبه لهذه القرية «الجميلة» حبا سلبيا لا يتجاوز دائرة الوصف والكلام بل كان حبه لها إيجابيا تجلى في الخدمات الكثيرة التي قدمها لها من غير أن يتطلع إلى أي اجزاء.

والحقيقة أن الوفاء من أبرز صفات الدكتور زكي ولم يستطع أحد من أصدقائه أن يتهمه بالعقوق أو التغلب أو الملق أو السير وراء المصلحة الذاتية. وهو دائم الذكر لأصدقائه كبير الاحتفال بالكتابة إليهم والتحدث عنهم، وقد حفل أدبه بطائفة من الرسائل الإخوانية تعتبر قطعا فنية رائعة من الأدب الوجداني الصميم.

يقول في رسالته إلى أحد أصدقائه: «ما هي إذا أسرار الغربة التي أعانيها في القاهرة وأقاسيها في باريس، إنها لا ترجع إلى خذلان في حب ولا إخفاق في مجد أتظنها ترجع إلى غدر الأصدقاء؟ ـ اللهم غفرا ـ فأنا لا أحفظ عن أصدقائي غير الجميل ويضاف إلى ذلك أني لم أقدر في حياتي أن الصداقة مما يوضع في موازين المنافع، إنما الصداقة علاقة روحية تبنى على أساس الصدق والإخلاص ونسيان النفس، ولم يقع ما يكدر صفوي غير أحداث صغيرة مرت بالقلب ومضت كما تمضي آثار النسيم على وجه المحيط، وكان مبعث الأسى أنني كنت دائما أفترض أصدقائي من الملهمين الذين يعلمون ما كان وما سيكون من أسرار النفوس ثم كنت أتلفت فجأة فأجدهم كسائر

الناس يستمعون اللغو ويصدقون الأراجيف هناك كنت أحزن وآسى، ولكن حزني ما كان يقع لأني علقت بأصدقائي أملا ضاع، إنما كان حزني وأساي لشعوري بالغربة في عالم الأرواح، فأنا رجل أفهم أن الصديق ينبغي على الأقل أن توفر عليه أتعاب المحاماة في الدفاع عن نفسه لدى الأصدقاء، وأفهم أن الصديق لا ينتظر منه فقط أن يتغاضى عن هفوات صديقه - إن كان له هفوات - بل يجب أن يغمض عينيه ويصم أذنيه إن وجد ما يوجب تعقب الأصدقاء المختارين».

أديب ظلمه معاصروه(*)

(الحلقة الثالثة)

ويستطرد الدكتور زكي مبارك في رسالته وهو يتحدث عن الصداقة فيقول: «وأشد ما يزعجني أنني مريض بالوفاء وأرى من النذالة والخسة وحقارة النفس أن تكون الصداقات كالأثواب تغير تبعا للأيام والفصول ويتميز بعضها بالأفراح وبعضها للأحزان وأربأ بنفسي أن يقال هذا صديق غدر وصاحب خان.

ويعز عليّ أن يُحرَم صديقي من مناصرتي ووفائي، ولكن كيف وأنا رجل لا عَمّ لي في الحكومة ولا خال، فلتعلم أنني أعتقد أن البر لا يوجد إلا حيث أوجد، وأن الصداقة لا تكون إلا حيث أكون، وأعتقد فوق ذلك أن الصداقة الصحيحة هي النعمة الباقية والعز المقيم، ومن أجل ذلك يعز عليّ أن يحرم صديقي من وفائي وإن تغير حال، وما حملني الله أشد عليَّ من مهاجمة بعض الناس ثم عز عليّ أن أكون أقل رفقا من كثير بن عبدالرحمن إذ يقول:

وما انا بالداعي لعزة بالجوى ... ولا شامت ان نصل عثرة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي ... بعزة كانت غمرة فتجلت
وإني وتهيامي بعزة بعد ما ... تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ... تبدى منها للمقيل اضمحلت
كأني وإياها سحابة ممحل ... رجاها فلما جاوزته استهلت

وعساك تذكر أنني كنت في صف الحزب الوطني حين كان يهاجم سياسة سعد باشا ـ طيب الله ثراه ـ ألا فلتذكر أن حماستي كانت تفتر في مهاجمة ذلك الرجل حين ألح فهمه للصداقة وحرصه على الأصدقاء، فقد كنت أرى في ذلك الجانب كل معاني النبل وجميع دلائل الرجولة والإخلاص فإن الرجل الذي لا يخلص لصديقه لا يعرف كيف يخلص لوطنه لأن العواطف متشابكة الأصول والفروع يحد بعضها بعضاً».

(☆) نشر في يوم ٢٧ من المحرم عام ١٣٨٧هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٩٤٨ .

أشرت فيما سبق إلى طائفة من الأسباب التي ألّبت الخصوم على الدكتور زكي، ولكن ما ذكرته ليس كل الأسباب، فهناك سببان هامان جدا ربما كانا على رأس الأسباب الأخرى جميعها هما: حبه للعروبة، وتقديسه للإسلام، وربما أثار هذان السببان دهشة القراء لأنهم يعيشون في فترة حفلت بالكُتّاب الإسلاميين وامتلأت فيها المكتبات بمئات الكتب التي تتحدث عن مجد العرب وعظمة الإسلام، ولأنهم رأوا كبار الأدباء بعد أن آبُو من رحلـــة الضلال طوعا أو كرها يكتبون في الشؤون الإسلامية ويشيدون بتراث العرب.

ولكن لو رجع القراء إلى الوراء قليلا لرأوا أن الغالبية العظمى من الأدباء كانت تسير في طريق الانحراف والضلال، فتمجيد أوروبا وتعظيم أبطالها والدعوة إلى التخلص من العرب وآثارهم والسخرية بالإسلام وموروثاته كل هذه أمور توصف بالتحرر والتقدمية وتدل على الوعي الواسع والفهم العميق! أما الدعوة إلى ثقافة الإسلام والإشادة بمجد العرب والدفاع عن أصالة الشرق فذاك كله دليل على الجمود والجهل والرجعية وضيق الأفق والتشبث بخيوط العنكبوت!

فطه حسين كان يدعو إلى الفرعونية جهارا نهارا ويدبّج في سبيل ذلك المقالات، ويؤلف الكتب، ويدعو إلى فصل مصر عن العرب والإسلام والشرق لتلحق بأوروبا! ويجد التأييد الكبير من الحاقدين على العرب الناقمين على الإسلام، كما يجد التشجيع من كثير من الشبان المخدوعين المضللين، وقد قضى الجزء الأكبر من حياته يسير في هذا الاتجاه الذي بنى له هذه الشهرة العريضة.

ومنصور فهمي يقدم رسالته للدكتوراه عن «حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها» فيتهجم فيها على الإسلام ويتجنى على نبي الإسلام ويقرر في فاتحة رسالته «أنه نشأ مسلما في وسط إسلامي وأنه قصد باريس ففتح عليه بإرشاد العلامة ليفي الإسرائيلي فظهرت فيه المؤثرات السعيدة فدون هذه الرسالة التي بحث فيها المرأة في الإسلام».

ومحمد حسين هيكل كان من أشد المتحمسين للدعوة الفرعونية وبذل في سبيل ذلك كثيرا من الجهود.

ولطفي السيد كان من أكبر الدعاة إلى تحضير الأدب وإلى اختيار لغة الحديث لغة للكتابة وحتى العقاد والمازني في الجزء الأول من حياتهما الأدبية كان اتجاههما إلى أوروبا والغرب ولم يكن إلى الشرق والإسلام.

كان طوفان الإلحاد والكفر بالشرق والإسلام من العرب يوشك أن يعم الأرض، صحيح أنه يوجد بعض أقلام إسلامية ولكنها كانت خافتة أيام هدير الأمواج وقد استطاع التبشير والصليبية واليهود بتعاونهما معا أن تضعف تأثيرها بحجة أن أصحابها نشأوا في الأزهر وهي بيئة إسلامية متحجرة ولم يتمكنوا من مشاهدة النور في أوروبا.

وفي هذا الجو القاسي الكئيب ظهر زكي مبارك ليعلن اعتزازه بالعرب وتقديسه للإسلام، وأحدث ظهوره انزعاجا في دوائر التبشير والصليبية فهذا أديب - كطه حسين - جمع بين الثقافة القديمة والحديثة وعاش سنوات في أوروبا وحصل على أرقى شهادة في فرنسا ومع ذلك يعود فيشيد بالثقافة العربية ويدعو قومه إلى التمسك بالإسلام والعناية بحضارة المسلمين ولا يدع مناسبة تمر دون أن يذكر قومه بأصولهم العربية وأمّته بدينهم القويم وبذلك أسقط الحجة التي كانوا يعتمدون عليها في محاربة النفر القليل من المدافعين عن الإسلام وجندت الدوائر الحاقدة على الإسلام المتربصة به السوء كل إمكاناتها لتحطيم الدكتور زكي مبارك ووجدت في أعوانها وأنصارها المساعد المخلص الأمين فأقصوا زكي مبارك عن الجامعة لأن وجوده وهو يحمل هذه الروح ويمسك هذا القلم ويملك هذه القوة البيانية - سيعرقل المساعي المبذولة لفرعنة الشباب المصري ولإضعاف الروح الإسلامية في فصل مصر عن الشرق، ثم أخذوا يكيلون له حتى قضوا عليه - يرحمه الله.

يمتاز الدكتور زكي بأنه كان واضحا من أول يوم فهو عربي يؤمن بعروبته وهو مسلم يعتز بإسلامه وهو لا يقبل في سبيل ذلك مساومة مهما كان نوعها وعلى ما عرف عنه من شجاعته أحيانا قد يراه الإنسان الذي لا يعرف حقيقته دليلا على ضعفه في الدين أو انحرافه فإنه في الواقع كان ذا

غيرة على الإسلام متحمس له لا ينسى أن ينتصر له في أي ظرف من الظروف.

تحدث مرة عن «جامع باريس» ثم انتقل إلى الحديث عن القهوة التي بجواره فقال: «كل ما في قهوة الجامع جلي ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع وإنها بالفعل في جناح من مباني الجامع فإذا ركب إنسان سيارة وقال إلى الجامع فإن السائق لا يمضي إلا إلى القهوة وأكثر السائحين والسائحات لا يفرقون بين الجامع والقهوة وإني لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين وفي هذا عار وخزي يندى له جبين الرجل الغيور وما الذي يضر الجماعة الذين يديرون شؤون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لا بد لهم من قهوة عربية في باريس.

إن باريس تحتمل كل شيء وأهلها لا يخجلون من شيء ولكني لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأماكن العبادة أجنحة دنيوية خطرة يجري فيها اللهو واللعب مهما قيل إن الغرض منها شريف وأنه لا يقع فيها إلا اللهو المباح..

لقد كنت أصلي في المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلًا بقول الشاعر:

ولله مني جانب لا أضيعه ... وللهو مني والخلاعة جانب

ولكني لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التي تطغى بها القهوة على كرامة الجامع».

وكتب مقالا عن أحد أصدقائه من أفاضل العلماء وختمه بقوله: «فإذا استباح أحد لنفسه أن ينسى ما قدمه الشيخ عبدالباقي سرور من البلاء الحسن في الثورة المصرية فيذكر الناس جميعا أنه كان من أنصار الرابطة الإسلامية وأنه جاهد في ذلك بقلمه ولسانه إلى أن أسلم الروح.

وسيقول السفهاء من الناس وما هي الرابطة الإسلامية؟ ونجيب بأنه فوق ما تعلمون يا أجهل الناس بأسباب الحياة».

وتحدث مرة عن أحد أنصار فرنسا من العرب المسلمين فقال: «في باريس الآن وزر وأكثر وهو رجل كهل تقول الجرائد الفرنسية إنه يحب فرنسا حبا

شديدا وإنه مستعد لتقديم أولاده ضحية في الدفاع عن فرنسا إذا اقتضى الحال» وختم الدكتور زكي مبارك كلامه قائلا: «ولنا أن نقول إن العزيز الذي يقدم أولاده عن طيب خاطر للدفاع عن فرنسا لو قدمهم للدفاع عن بلاده لكان أجدى وأشرف ولكن صدق شوقي حين يقول «الذليل بغير قيد مقيد كالكلب لو لم يُسَد لبحث عن سيد».

وعلق مرة على جملة وردت في رسالة لمراسل إحدى وكالات الأنباء هي قوله:

«مركين برشلونة ليست كاسبانيا وليست قهوة الزهراء كل مدريد» علق الدكتور زكي على هذه العبارة بقوله: «قهوة الزهراء ذكرى تثيرها كلمة الزهراء من معالم الفردوس الإسلامي المفقود، ومن العجب أن كلمة الزهراء في نطق الفرنجة أوضح من كلمة الحمراء عند بعض المصريين الذين يسمون بعض معالم الغناء في القاهرة والإسكندرية «الهمراء» مجاراة لتحريف الأوربيين وكان أولى لهم لو نطقوها الحمراء ولكنهم لا يعرفون».

والدكتور زكي لا يغفل مناسبة تسنى الحديث عن مزايا الحضارة الغربية إلا بادر إلى عقد مقارنة بينها وبين مزايا الحضارة الإسلامية المماثلة فذكر السبق للحضارة الإسلامية فيما يعتبر من مزايا الحضارة الحديثة في نظر من يجهلون. ولا يكتفي بذلك ولكنه واقف بالمرصاد لكل من يحاول النيل من حضارة العرب بذكر مثالبها وعيوبها عن طريق ذكر مثالب الحضارة الغربية ومثالبها.

وهكذا لو تتبع القارئ آثار الدكتور زكي الفكرية لوجد أن اهتمامه بالإسلام وحبه للعربية يسيطران على كل آثاره، وقد ظل على ذلك منذ أن أمسك بالقلم إلى أن لقي ربه، ولعله الوحيد في هذا المجال بين من يسمون بالمحدودين، ومن أجل ذلك قوبل من خصوم الإسلام وأعداء العروبة بعداوة ضارية وجندت كثير من القوى البشرية لمحاربته سرًا وجهرًا وتكالبت عليه كل هذه القوى وظلت تلاحقه في حياته وبعد مماته، فلم تقم له أي حفلة للإشادة بذكراه ولم يظهر عنه أي كتاب إلا كتاب صغير ظهر في العام الماضي لم أقرأه بعد.

أديب ظلمه معاصروه(*)

«الحلقة الرابعة»

والدكتور زكي شاعر ممتاز كان يمارس الشعر في بداية حياته الأدبية وكان ينشر شعره في مجلة «أبوللو» التي كان يصدرها في مصر الدكتور أحمد زكي أبو شادي وقد ألحّ عليه صديقه أبو شادي في جمع باقة من شعره وإصدارها في ديوان، ونزل الدكتور زكي عند رأي صديقه وأصدر ديوانا صغيرا باسم ديوان زكي مبارك ثم انقطع عن الشعر وانصرف إلى الدراسات الأدبية، وانتدب للعمل مدرسا في بغداد فأثار فيه مقامه في العراق نوازع الشعر، أو خلق فيه روحا جديدا ـ كما يعبر هو ـ فنظم طائفة من القصائد الجياد ثم عاد إلى مصر وكان العالم يعيش في جو الحرب العالمية الثانية فهزت مشاعره مآسي الحرب ونظم مجموعة كبيرة من القصائد، ومن الغريب أن بعض قصائده التي نظمها إبّان مقامه في بغداد وأثناء الحرب العالمية الثانية تجاوزت المئة والخمسين بيتا ومع ذلك احتفظ بقوته الشعرية في أولها كما احتفظ في آخرها.

وقد جمع قصائده في ديوان سماه «ألحان الخلود» وفي السنة التي طبع فيها الديوان كنت من تلاميذه في المعهد العالي لفن التمثيل العربي وكان يناقشنا في موضوع الديوان وطريقة طبعه ومن الطريف أن أحد زملائنا واسمه محمد عطية نصر كان يقوم بدور إيجابي بالنسبة لطبع الديوان وكان الدكتور زكي معجبا بوفائه واهتمامه وعندما قارب الديوان على الانتهاء من الطبع أخبره الدكتور زكي أنه لن ينسى أفضاله وأنه أثنى عليه بالمقدمة التي كتبها للديوان وصدر الديوان ورحنا نقلب صفحات المقدمة لنرى اسم زميلنا وإذا بنا نكتشف أن الدكتور قد أخطأ في كتابة اسم الزميل وكتب اسما آخر لا علاقة له باسم الزميل، وعندما عتب زميلنا على الدكتور صنيعه أبدى له أسفه ووعده بتصحيح ذلك في الطبعة القادمة ولكن الدكتور

(☆) نشر في يوم الأحد الموافق ٥ من شهر صفر عام ١٣٨٧هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٩٥٤ .

ـ يرحمه الله ـ مات بعد صدور الديوان بسنوات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

ومن الغريب أنه كان يتوقع أن يموت أثناء طبع الديوان وقد قال في مقدمة الديوان: «إنها فرصة ضاعت من يدي والسبب في ضياعها هو الاستعجال فأنا أخاف أن أموت قبل أن يظهر الديوان».

وقد ظهر الديوان ـ والحمد لله ـ فحفظ لنا باقة جميلة واسعة لأديب من الرعيل الأول في العصر الحديث ومن المؤكد أن هذه الباقة كانت ستضيع في صحراء النسيان لو لم تظهر في حياة صاحبها العظيم كما ضاعت له آثار أخرى في النقد والبحث وأدب المقالة وفنون التعبير.

وكلمة النقد تذكرنا المجال الخصب العظيم الذي كان يتحرك فيه الناقد العظيم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وقد تربع أديبنا العظيم زكي مبارك على عرش النقد فترة طويلة من عمره الذي استمر ثلاثة وستين عاما ولو جمع أحد كل ما كتب الأديب العظيم في النقد الأدبي لأضاف الكثير على مؤلفاته التي كادت تبلغ الثلاثين، ويندر أن نجد أديبا من معاصريه لم يدخل معه في معركة قصيرة أو طويلة فهو ـ كما قال الأستاذ الزيات «وزكي مبارك لون من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه فهو الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة، أما عنفه وشماسه فهي الطبع المميز بلونه فإذا شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقي منه غير توفيق الحكيم وأسلوب الحكيم وزكي مبارك بعد ذلك سليم الصدر طري القلب رياضي الروح».

كما أتمنى أن يهيئ الله من يسجل معاركه في كتاب؛ وإذا لم يمكن ذلك فلا أقل من أن تجمع مقالاته التي كان موضوعها «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» فقد بلغت اثنتين وعشرين مقالة استغرق نشرها ستة أشهر وحبذا لو نشرت كاملة من الأصول التي كتبها الدكتور زكي بخطه لا من مجلة الرسالة لأن الزيات ـ سامحه الله ـ كان يتدخل في نشر هذه المقالات رعاية لصديقه أحمد أمين فيخفف من لهجتها ويحذف بعض مقاطعها.

إنها بالرغم مما فيها من قسوة النقد وعنف الهجوم ذخيرة من ذخائر الأدب العربي وقد دافع فيها عن كرامة هذا الأدب واستعرض ما فيه من روائع الفكر وبدائع الشعر.

وللدكتور زكي رأي في المرأة غريب لم يكن متوقعا من أديب من أدباء المدرسة الحديثة درس في فرنسا وشغل نفسه بالحديث عن المرأة حتى ليظنه من لم يقرأ بقية أدبه أنه «دون جوان» العرب في العصر الحديث.. وعني بدراسة الشعراء الغزليين الذين تعلقوا بالمرأة وقصروا عليها كل شعرهم كعمر بن أبي ربيعة وكثير بن عبدالرحمن وجميل بن معمر والعباس بن الأحنف، وألّف «مدامع العشاق» وكتب «ليلى المريضة في العراق» وأنشأ ديوانا في الحديث عن الحب والجمال.

لقد كان المظنون أن يكون رأي الدكتور زكي في المرأة من أشد الآراء تطرفا في الدعوة إلى مساواتها بالرجل بل في تفضيلها عليه - كما يصنع بعض الرقعاء مرضى النفوس عديمي الرجولة، وكما يفعل بعض المتحذلقين من الكتاب لحاجة في نفوسهم.

ولكن الدكتور زكي كان شجاعا من أول يوم وكان واضحا مع نفسه قادرا على أن يقول ما يعتقد بمنتهى الصراحة.. ولذلك فقد حدد موقفه من المرأة من أول يوم ولم يغير هذا الموقف حتى آخر لحظة في حياته.

فالمرأة - في نظره ونظر الحق - خُلِقَت لتجمّل الحياة ولتكوّن الرجال وتصبح سيدة البيت، وبعبارته هو يقول - بعد أن تحدث عن المرأة في باريس: «والقارئ المصري أو الشرقي لا يدرك مغزى ذلك، لأن الحياة في الشرق لا تزال معقولة الأوضاع وكذلك لا تزال المرأة في الشرق «سيدة» وإن زعموا أنها تعيش في أقفاص هي «سيدة» لأنها لا تزال تُطلَب وتُعشَق ويقال فيها الشعر البليغ، أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها وولّت أيامها لأن الغرب رُزِئ ببلايا كثيرة اجتماعية واقتصادية كان من أثرها أن زهد الرجال في النساء وأصبح الجنس القوي والجنس اللطيف في صراع. والصراع هذه المرة لا يمثل رجلا يَتَوَلَّهُ وامرأة تتمنّع، ولكنه يمثل رجلا وامرأة يقتتلان حول

فضلات الأرزاق»!

ويبدو أن دراسته للمرأة دراسة عميقة وصلت به إلى أن يقرر قائلا: «أعترف في صراحة أنني أصبحت أحقد أشد الحقد على المرأة لأنها لئيمة وأي لؤم أشنع من أن تراها تتلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك. وهي مع هذا اللؤم شر لا بد منه لأن الحياة قضت بذلك وعلى من يعشق الجمال أو يطمئن طائعا أن كارها إلى سلطان تلك الحيَّة النّضناض».

ولا يجوز أن نغفل رأي الدكتور زكي في الشاعر أحمد شوقي، لأن لرأيه قيمة فنية لا يستهان بها، فهو ناقد من الطراز الأول وكتابه «الموازنة بين الشعراء» يحتل مكانة رفيعة في دنيا النقد الأدبي المتزن، بالإضافة إلى أن الدكتور زكي وهو واحد من كبار رجال المدرسة الحديثة وقف موقفا خالف فيه كل أنداده، فقد هاجم العقاد شوقيًا هجوما قاسيا ونقد طه حسين شعره نقدا عنيفا وشرّحه المازني تشريحا مُجحِفا وتناوله الدكتور هيكل تناولا فيه غير قليل من التَّجنِّي، وفعل آخرون ما فعل العقاد ورفاقه.

أما الدكتور زكي فله رأيه المنصف في الشاعر العظيم أحمد شوقي أورده في أكثر من مناسبة، وفصله من كتابه «الموازنة بين الشعراء» ولم يكن الدكتور راضيا عن الحملات المغرضة ضد شوقي - وهو يلخص رأيه في قوله: «كانت تكونت في مصر عصابة لقتل شوقي وأعدت لذلك نَبُّوتا غليظا اسمه الديوان. ومع ذلك مات الديوان وانهزمت العصابة وبقي شوقي يطغى كالحية النضناض».

ولن تجد أبلغ من السخرية من تلك الجهود الضائعة في تحطيم العملاق شوقي من هذه العبارة.

فتسمية النفر الذين تصدوا لشوقي بأنهم (عصابة) أمر لا يحتاج إلى تعليق. ووصف (الديوان) الذي أُلِّفَ للهجوم على شوقي بالنَّبُّوت يغني عن صحائف، ويقرر (موت) الديوان وانهزام العصابة وبقاء شوقي (يطغى)

كالحية النضناض من سحر البيان. ولكن ما هي هذه الحية النضناض التي يكثر الدكتور زكي من الحديث عنها؟

والحية النضناض كما تقول معاجم اللغة هي التي تحرك لسانها وتقتل إذا نهشت من ساعتها ولا تستقر في مكان! وبعد فهل كان يخطر ببال الدكتور زكي أو ببال واحد من قرائه أيام حياته أنه سيصبح أديبا منسيا في أقل من عشر سنوات؟ وهو الذي كان اسمه يجلجل في كل مكان وكان قلمه يثير الزوابع ويحرك العواصف ويتناقل أخباره سكان الشرق هنا وسكان الغرب هناك. لم يكن أحد يتصور ذلك، ولكن هذا ما حدث بالنسبة لأبرز الأدباء وأبعدهم صيتا وأجملهم أسلوبا وأكثرهم قصيدا من القراء الدكاتره محمد زكي عبدالسلام مبارك!

على هامش الأدب المقارن

(١)

أذكرتني المناقشات الدائرة في صحفنا عن الأدب المقارن وحقيقته ومدلوله بالمحاضرات القيمة التي كانت تلقى علينا في الجامعة وبالكتب والمصادر التي كنا نعكف عليها لإعداد بحث أو للتوسع في المعرفة، ولكنها أذكرتني أيضا بأديب نابه نابغ قدم لأدبنا العربي خدمات لا تنسى ووضع في صرحه لَبِنات خالدات زادته سموقا وشموخا ذلكم هو الكاتب العظيم الأستاذ المرحوم «فخري أبو السعود».

ولم تتح لي الأيام فرصة التعرف على شخصه ولكنني تعرفت إليه من أدبه، وأدبه - رغم قلته - وبعبارة أدق: رغم قلة ما اطّلعتُ عليه منه يعطي القارئ فكرة واضحة عن ثقافته الواسعة في الآداب العربية والغربية وإحاطته بخصائصها واطّلاعه على مكنوناتها وتفهمه لأسرار البيان فيها.

وهو إلى ذلك شاعر متمكن تلقى في أسلوبه القوة والنصاعة والجزالة فهو من الأدباء القلائل الذين يجيدون الشعر والنثر في الأدب العربي.

وكان ينتظر الأستاذ الأديب مستقبل مرموق في عالم الأدب والشعر ولكن وعلى حين فجاة نشرت الصحف أن الشاعر الأديب وجد منتحرا، ومن المؤسف أن المصادر التي تتحدث عن انتحاره وأسبابه ليست تحت يدي الآن ولعل من الغريب أن يعلم القارئ أن الأستاذ «فخري» كان مؤمنا وليس عنده نزعة إلحادية بل لقد عثرت على أكثر من نص في شعره ونثره فيها تمجيد للخالق وتقديس للدين. وعلى أي حال فقد آثر أديبنا أن يغادر عالم الحياة والأحياء وهو في صدر شبابه فخسر الأدب العربي بوفاته أديبا عبقريا واسع الأفق متقد الذهن ناصع البيان كان سيدفع بأدبنا - لو عاش - خطوات واسعة إلى الأمام.. ولكنها مشيئة الأقدار.

ومن المصادفات الطيبة أننا عثرنا على أربع من قصائده ولعلها تعطي القارئ

فكرة عن أسلوبه الشعري من جهة، وعن الأفكار التي كانت تسيطر عليهِ، ربما يكون لها أثر في دفعه إلى الانتحار.

وأولى هذه القصائد قصيدة نشرها بعنوان «الذكرى» يقول فيها:

صوت من الأمس ما انفك أسمعه   مردد اللحن في بالي مرجعه
لحن شجي لطيف الوضع ساحره   يد الليالي على قلبي توقعه
إذا تردد منه في الضلوع صدى   ثار الحنين وند الجفن مدمعه
نهر يظل بنفس المرء منسربا   وفي مجاهل ماضي العيش منبعه
طيف مدى العمر من ماض يتبعني   وددت لو أنني ما شاء أتبعه
مَن أنت يا مَن مِن الماضي يخاطبني   ومِن قرارة نفسي بِثُّ أسمعه
تظل تحيي الذي قد مات من عمري   وما تشتت من ماضي تجمعه

إلى أن يقول:

ورب واد بنفسي مزهر نضر   صورته فهو حالي النبت مسرعه
ومنظر من طيوف أنت راسمه   ومن حنين خفي أنت مبدعه
وصورة لذكاء وهي غاربة   هفا لها الكون إذ همت تودعه
ومشرق حيَّت الأرواح غُرَّته   ونبَّه الطيرَ والأزهارَ مطلعه
هذا اذكاريا: ملء القلب من صور   من الطبيعة تشجوه وتمتعه
وسالفات عهودي في مباهجها   يظللني ثم نادى الزهر مونعه
حسن الطبيعة إلف في الفؤاد ولم   أعهد بقلبي باق لا أضيعه

وهكذا يرى القارئ في قصيدته ولوعا بالطبيعة ومظاهرها وحرصا منه على الوفاء لها وحفظ عهدها، ولكن شاعرنا لا يخفي نقمته على البشر وثورته عليهم فهم في نظره ليسوا أهلا للوفاء بل إن العقوق ديدنهم.. اسمعه يعبر عن ذلك تعبيرا رائعا فيقول:

وليس بالقلب ذكر من أخي مقة   يبقى بقلبي مدى الأيام موضعه
وكل ثوب وداد كنت ألبسه   يَرِثُّ وهُو جديد ثم أخلعه
فكيف أهفو إلى رَثٍّ ومُنخَرِق   من العهود وَبالٍ لست أرقعه

ثم يوجه النصح بعد ذلك إلى الناس بل إلى شخصه داعيا إلى مصافاة الطبيعة ومصادقتها لأن ودادها ممتع للنفس صاف غير ذي كدر فيقول:

من رام ود غيـــــر ذي كدر ففي الطبيعة للوراد مشرعه
إليفها حيثما قد راق صحبتها ممتع النفس راوي الطرف مترعه
أصفى الوداد ورودا ثم أدومه عهدا وأعذبه ذكرا وأنفعه

هذه إحدى قصائد شاعرنا وهي قصيدته - كما رأى القراء - عامرة الأبيات خصبة المعاني لا تجد فيها أثرا للتكلف أو الابتذال وإن كانت تذكرنا بقصيدة الشاعر العربي القديم (ابن رزيق البغدادي) المشهورة ومطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يوجعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

ولعل شاعرنا مني بطائفة من الأصدقاء أذاقوه أصنافا من العقوق والجحود ونكران الجميل، ولعل الزمن كان حربا عليه فحال بينه وبين تحقيق آماله قبل البشر فحقد عليهم، والشاعر عادة رقيق الشعور شديد الإحساس يقيس الأمور بمقاييسه الشعرية ويطلب من الناس أن يكونوا كما يريد هو لا كما هم على حقيقتهم. وهكذا على توالي الأيام يقوم سور بينه وبين الناس فيعيش وحده فترة من الوقت ثم يضيق ذرعا بهذه الوحدة فيودع الحياة كما فعل شاعرنا.

ملحوظة: نحب أن ننبه إلى أن المراد بالطبيعة - كما قال الأستاذ الزيات - ما يقابل الفن فكما أن الفن من صنع الناس فإن الطبيعة من صنع الله.

على هامش الأدب المقارن

(٢)

ولشاعرنا قصيدة أخرى بعنوان «ذهب الشباب» يتحدث فيها عن حبيب غاض شبابه وذهب جماله ويعقد فيها مقارنة بديعة بين هذا الحبيب وبين الطبيعة ويخرج من هذه المقارنة الشائقة بتفضيل الطبيعة وبالرغم من أن القافية التي اختارها الشاعر لقصيدته لا تعجبني فإن القارئ يجد في القصيدة كثيرا من الروعة ومن يدري ربما كانت هذه القافية بالذات خير قافية تصلح لهذه المقارنة الذهنية العجيبة يقول الشاعر:

ذهب الشباب وغاض ذاك الرونق ... لم يبق إلا حسرة وتحرق
لم يبق إلا ذكر عهد زائل ... إذ انت املح من يحب ويعلق
حال الجمال فلا قوام مرهف ... يصبي النفوس ولا محيا يشرق
ما انت إلا الروض صوح بعد إذ ... هو مثمر نضر الأزاهر مورق

وهنا يأخذ الشاعر في المقارنة بين جمال حبيبه الذي ذوى وبين الروض فيقول:

ولقد يجاد الروض بعد جفافه ... ويجد من أبراده ما يخلق
وأرى جمالك ليس يَبعثُ مَيْتَه ... شمس تضيء ولا غمام يغدق
ولقد يروق الزهر بعد ذبوله ... وتظل منه ريحة تتنشق
ورأيت حسنك حين ادبر لم يذر ... إلا قذى يؤذي العيون ويوبق
إلا مقابح كم تحاول سترها ... فتنحم من دون الطلاء وتنطق

ويسترسل الشاعر في تصوير هذا الحبيب بعد أن فقد الجمال فيصوره في صور رائعة تهز القارئ وتحط من قيمة هذا الحبيب.

ألْوَت بِقَدِّك بعد لين مهزه ... غير الزمان عليها موثق
ورهلنه من حيث تجمل دقة ... وهزلنه حيث الجذالة اخلق
فغدت تقحمه العيون وطالما ... قد راعها منك الرواء المونقَ

وتـبـدل الـطـبـع المحـبـب لم يـعـد دل يـشـوق ولا شـمـائـل تـعـشـق
وتـطـامـن الـقـلـب الأبـي وإنـه بـالأمـس لـلـحـصـن المنيـع المغـلـق
ومضى شماس كان فيك سجية فـالـيـوم فـيـك وداعـة وتـرفـق
والـيـوم فـيـك تـلـطـف ومـودة كم كان يخطبها المحب الشيق

وينتقل الشاعر من صورة ساخرة إلى صورة حتى يقول:

تـبـدو فـلا حـدق الـعـيـون مـبـادر لـهـفـا إلـيـك ولا الجوانـح تـخـفـق
وتـبـين لا قـلـب لـبـينك مـدنـف عـان ولا جـفـن لـذكـرك يـارق
نَبَتِ القلوبُ وكنتَ قبل محكَّمًا فـيـهـن تـأمـر مـا تـشـاء وتـعـتـق

ثم يختم قصيدته بعقد مقارنة بينه وبين الطبيعة فيقول:

ولّـي جـمـالـك والـطـبـيـعـة لم تـزل تـزهـو وتـرفـل فـي الـضـيـاء وتـعـبـق
تمـضـي عـلـى عـاداتـهـا مـا راعـهـا حـسـن تـصـوَّح أو شـبـاب يـنـفـق

والقارئ لهذه القصيدة يشعر أن الشاعر يتحدث عن حبيبه بكثير من السخرية والشماتة وهو بذلك يرضي نزعة في نفسه هي نزعة الانتقام من البشر والسرور لكل ما يحل بهم من مصائب أو خطوب ولذلك يفتن في خلق صور تقطر تشفيا من هذا الحبيب المسكين الذي أوقعه سوء حظه مع هذا الشاعر العنيف الذي لا يرحم ولا يرق.

وكان بودنا أن نطيل الحديث عن الصور التي أبدعها الشاعر لولا أن ذلك سيخرج بنا عن الدائرة التي يدور فيها هذا الحديث، على أن القارئ حين يتأمل كلَ بيت في هذه القصيدة سيخرج بصور عجيبة ولدها ذهن شاعرنا العظيم.

وننتقل الآن إلى قصيدتين أخريين لشاعرنا عنوان إحداهما «الحياة» وعنوان الأخرى «الموت» والعجيب أنه نشر قصيدة الموت قبل قصيدة الحياة! وإن كنا لا نعرف أسبقية إحداهما على الأخرى في النظم، والقصيدتان تربطهما رابطة واحدة أو إن شئت فهما يصدران من منبع واحد فهو يبدأ قصيدته الأولى بتساؤل ساخر عن الحكمة من الحياة فيقول موجها خطابه للحياة:

ليت شعري لأي أمر مراد قد سَرَت منكِ نفحة في الجمال
فاستقلت أجزاؤه من عمود وصحا بعد طول ذاك الرقاد
دائب السعي لا يصل حراكا مستمرا ولا طويل جلاد
ساعيا دون غاية يجتليها سعي ذي غاية جلي المراد
صابرا للصروف كيف توالت مستجيبا للنازلات الشداد
فيك بؤس له وفيك نعيم وهو في الحالتين لهفان صاد
يبلغ الجوع منه والخوف والحز ن وَعاتٍ من نازل الداء عاد
باسما للرجاء يشرق بعد الكد منه وبعد وعر الجهاد

ويصور الشاعر الرغبة العارمة في الحياة التي تسيطر على كل حي من الناس فيقول:

آملا كيفما تمادى شقاهن أن يدور الزمان بإسعاد

فالإنسان لا يمل الحياة مهما تمادى الشقاء وطالت المحن واستمرت المتاعب

وهو مهما طال البقاء به را ج بقاء وراغب في التمادي
وحريص على هواك وإن لم يلق غير الجفاء والإبعاد
فرط حب قد استوى أفتَّكُ الفُتّا ك فيه وازهدُ الزُّهاد
ليس يدري سواك أصلا وفصلا ليس يسبيه غير واديك واد

وحديثه عن الحياة يسوقه إلى الحديث عن الموت وهذا طبيعي ولكن وعيته الباطنية تدفعه إلى أن يتحدث عن الموت حديثا يفيض بالمدح والثناء والرغبة فيقول مخاطبا هذا الجماد الذي سرت إليه نفحة من الحياة.

يكره الموت جهده وهو روح وقرار له على الآباد

ثم يعرج على طائفة من الناس يؤثرون حياة الآخرة فيصور حنينهم إليها على اعتبار أنه صورة أخرى من صور التشبث بالحياة السليمة من كل الشوائب الصافية من جميع صنوف القذر.

وإذا حن للخلود تقي يبتغي بالصلاح دار الرشاد
فهو يبغي في الخلد ما فيك من نعـ ـمى ومن فتنة ومن رغاد

وهو يبغي جميع ذلك صفوًا　　من صنوف القذى وريب العوادي

وهو يبغي جميع ذاك مقيما　　مستمرا له لغير نفاد

ثم يختم قصيدته بهذا البيت الرائع:

جنة الخلد صورة منك تغدو　　منه شتى المنى وحاج الفؤاد

على هامش الأدب المقارن

(٣)

أما قصيدة شاعرنا عن الموت فهي قصيدة إنسانية رائعة فيها رقة وفيها جمال وفيها تصوير بالغ للموت لا على أنه شيء مخوف، ولكن على اعتبار أنه راحة جميلة يلجأ إليها المحرور والسغب والظمآن فيجد فيه الراحة والشبع والري بل هو جنة يجد فيها المريض الدواء وذو الشك اليقين ويجد فيها العالم مهربا له من جهالة الجاهلين وقول المأفونين وأفعال اللئام. وهو يؤكد أن الأحياء على ظهر الأرض ليسوا بأفضل من الأجساد البالية والرمم الفانية ولو أدرك ذلك لما جاد عامدا على خصمه بالموت جود كريم، إنها قصيدة إنسانية من نمط رفيع على الرغم من أنها تتحدث عن الموت فهي لا تتحدث عنه حديث المتشائمين فالشاعر يتحدث في قصيدته عن الموت كما يتحدث عن صديق كريم.

إن خير تحليل لهذه القصيدة هو تقديمها للقراء كاملة وسيجدون فيها ـ على قِصَرِها ـ صورا رائعة صيغت في أسلوب شعري صياغة تدل على أن الشاعر مالك لناصية البيان قادر على التصرف والافتنان:

أيا قادما تخشى النفوسُ قدومَه	لأنت صديق في ثياب غريم
قدومُك تحرير الأسارى ولو درت	لما انكرت النفسُ يوم قدوم
كما ينكر الطفلُ الطبيب وعنده	له برء أسقام ودَمْل كُلُوم
بلوتَ نفوس الخلق في عهد آدم	فأنت بها يا موت جِدُّ عليم
إذا قست الدنيا على مُتعَب بها	بسطت له لأيَا جناحَ رحيم
ومن شَفَّهُ قيظُ الحياة أغثته	ببرد نسيم في الأصيل رخيم
فأنت لنضو العيش من دون صحبه	ومن دون قرباه أبَرُّ حميم
وأنت دواء الجسم قد عيل داؤه	تميط الأذى عن موجع وسقيم
وأنت بلاغ النفس حيرى مسروعة	بوادي شكوك جمة وهجوم

وفيك ابتعاد عن جهالة جاهل وعن قول مافون وفعل لئيم
وعندك نسيان وطور زهادة لكل مراد في الحياة عقيم
فأنت - وإن غلت المنى - أطيب المنى وفيك نعيم المرء أي نعيم
لعمرك ما حي باروح منزلا على الأرض من بالٍ بها ورميم
ولو علم الجاني لما جاد عامدا على خصمه بالموت جود كريم
وتمحو يداك الحقد والخوف والأسى وكل بلاء في النفوس قديم
وكل بلاء لم يسغ طعمه الفتى عليه طوى بالأمس كشح كظيم
وأنت تريح الفكر من كل معضل يظل له في حيرة ووجوم
وتطوي عن الأجفان صفحة عالمَ مليء بأنواع الشرور عقيم
وتطوي كتاب الأمس طيًا وما مضى به من بغض ذكره واليم
عزاء لبعض الناس أنك قادم وأن شقاء العيش غير مقيم

ولعل القراء بعد قراءة هذه القصيدة يستطيعون أن يربطوا بينها وبين انتحار الشاعر أو الأسباب التي دعته إلى الانتحار ولعلهم يستطيعون كذلك أن يربطوا بين قصيدتيه عن الموت والحياة بل لعلهم يربطون - بعد شيء من الدراسة والتأمل - بين قصائد هذا الشاعر التي تحدثنا عنها فيما سبق وسيجدون أن روحا واحدا تسيطر عليها جميعا ويربطها برباط محكم.

وبعد فقد كان الحديث عن هذا الشاعر الكاتب بمناسبة ما أثير حول الأدب المقارن. وأديبنا له مجهودات عظيمة ومساهمة كبيرة في خدمة الأدب المقارن وقد نشر مجموعة قيمة من المقالات والأبحاث تحدث فيها عن موضوعات مختلفة تعرض لها الأدب الإنجليزي كما تعرض لها الأدب العربي وقد ظهرت براعة الكاتب وعبقريته في المقارنة بينهما مقارنة جديدة مبنية على الدرس العميق والاطلاع الواسع والتفكير المرتب المنظم ولا يتسع الوقت للإفاضة في تحليل الموضوعات التي طرقها هذا الباحث العظيم وحسبنا أن نذكر بعض الموضوعات التي عرض لها أديبنا بالبحث ثم نكتفي بعد ذلك بتحليل موضوعين منها.

لقد تحدث الكاتب عن «شخصيات الأدباء في الأدبين العربي والإنجليزي»

و«التطور والتقليد في الأدبين العربي والإنجليزي» و«الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والإنجليزي» و«طور الثقافة في الأدبين العربي والإنجليزي» و«أثر الدين في الأدبين العربي والإنجليزي» و«أثر نظام الحكم في الأدبين العربي والإنجليزي» و«أثر الترف في الأدبين العربي والإنجليزي» و«أثر تشجيع الأمراء في الأدبين العربي والإنجليزي» و«أثر الفنون في الأدبين العربي والإنجليزي» و«الخرافة في الأدبين العربي والإنجليزي» و«غرض الأدب في الأدبين العربي والإنجليزي».

هذه طائفة من الموضوعات تعرض لها باحثنا العظيم وقد قصدنا عمدا أن نكثر من تعدادها لنعطي القراء والباحثين عن الأدب المقارن في بلادنا فكرة واضحة عن هذا النوع من الأدب كما يفهمه المتعمقون في الدرس والبحث وللمقدمة نماذج من الموضوعات التي تصلح لهذه الدراسة.

وسنعرض بشيء من التحليل لموضوعين من الموضوعات التي تطرق لها الباحث الكبير ليرى القارئ مدى ثقافة أديبنا الواسعة ومدى قدرته على النفاذ إلى الأعماق وصبره على الدرس والبحث، أما الموضوع الأول فهو «الطبيعة في الأدبين العربي والإنجليزي» وأما الثاني فهو «النقد في الأدبين العربي والإنجليزي» وقد اخترنا هذين البحثين بالذات لعلاقة البحث الأول بحياة الكاتب الذي نتحدث عنه فقد لمس القراء ـ ولا شك ـ أثناء حديثنا الطويل عنه، لمسوا مدى اهتمامه بالطبيعة واحتفاله بها وهيامه بمحاسنها وتفضيلها على الناس والأصدقاء وسيلمسون ذلك مرة أخرى بصورة أوضح في بحثه الممتع عن «الطبيعة في الأدبين العربي والإنجليزي».

أما البحث الثاني فهو ذو أهمية بالنسبة لنهضتنا الأدبية التي نرجو أن يكون لها أقوى الأثر وأبعده في تدعيم أدبنا، والنقد عندنا لا يهدف في أغلب الأحيان إلا إلى تحطيم الشاعر أو الأديب أو تمجيده لأغراض شخصية في الحالتين أما الدرس الصحيح لآثار الكاتب أو الشاعر والحديث عنها حديثا يهدف إلى إصلاح الفاسد وتقويم المعوج والإشادة بالمحاسن وإبراز ما في الأثر الأدبي من جمال أو إبداع كل هذه أمور تكاد تندر في الأعمال التي يقوم بها النقاد.

على هامش الأدب المقارن

(٤)

يستهل الباحث الأديب حديثه عن الطبيعة بهذه المقدمة البارعة: «الطبيعة إلف الشاعر الحميم وتوأم روحه ومرتع فكره ومتاع بصره ومهبط وحيه ومعاهد متعاته وذكرياته، إلى ظلالها يسكن، وبين محاسنها يهيم، وعندها ينفض أوشاب العيش ويدع أعباءه، ويستريح فكره الذي أضناه التعب ونفسه التي أضجرتها معاشرة الناس، وتتهادى إليه عذارى الشعر طائعة وتسلس إليه شوارد الأفكار مقادها، ويظل يلتفت إلى ماضي أوقاته بين مباهجها بحنين عذب، ويأمل معاودتها بقلب شيق فلا غرو يكون للطبيعة في نفس الشاعر المطبوع مكان أثير، وفي أدب الأمة الراقية منزلة رفيعة».

بهذه المقدمة البارعة الرائعة يبدأ حديثه عن الطبيعة في الأدب الإنجليزي فيذكر أنها نالت مكانة ممتازة لدى الأدباء الإنجليز ويتحدث بشيء من الإسهاب والتفصيل عن الأعمال الأدبية التي قدمها هؤلاء الأدباء عن الطبيعة ومظاهرها ويذكر أن بعض شعراء الإنجليز يدينون بخلودهم لأوصافهم الطبيعة الرائعة وقلما يهتم أحد اليوم لما نظموه في النسيب أو الاجتماع أو السياسة مثل «تنيسون» بل منهم من لم يكد يؤثر عنه قول في غير الطبيعة أو تخلو قصيدة له من أثر لها مثل «وردزورث». ثم ينتقل إلى الحديث عن الطبيعة في الأدب العربي فيذكر أن الطبيعة: «لم تنل هذه الرعاية ولم تحتل هذه المكانة في الأدب العربي» ولا يغمط باحثنا العربية حقها بل يشير إلى أن «في العربية لا ريب أوصاف طبيعية بالغة غاية الجودة ولكنها قليلة إذا قيست بنظائرها في الإنجليزية» ويشرح هذه القلة شرحا وافيا فهي قليلة إذا قيست بما قيل في التشبيب بالجمال الإنساني ولم يعرف تاريخ الأدب العربي من الشعراء من قصر شعره على التغني بمباهج الطبيعة بينما أن منهم من قصر شعره على التشبيب بامرأة واحدة.

ويلاحظ أن الشعراء العرب لم يهتموا بالحديث عن الطبيعة حديثا مقصودا

بحيث يكون موضوع قصيدة كاملة أو رسالة بل كان ذكرها يأتي عرضا في أغلب الأحيان.

ويلاحِظُ شيئا آخر وهو أن أصحاب المجموعات الشعرية الذين اختاروا صفوة من أشعار العرب في أبهى العصور لم يفردوا بابا للطبيعة! ويعلق على ذلك قائلا: «وإنها لأجدر بالصدر».

ثم يعرض لبعض الأشعار التي قيلت في وصف الحدائق والبرك الصناعية ويعجب لأن الشعراء ينصرفون عن وصف الطبيعة إلى وصفها بل إن منهم من يصرح بهذا الانصراف.

ولا يفوته أن يذكر أن بعض الشعراء العرب وخاصة من الأندلسيين اشتهر بوصف الطبيعة غير أن باحثنا يرى أن: «كثير من أشعارهم يتسم بالفتور ويصطبغ بالصنعة وترين عليه مسحة التكلف والتطرف وتنقصه حرارة الهيام بالطبيعة والامتزاج بروحها والنفاذ إلى خفي معانيها وأسرارها».

وليلحظ القارئ عبارات الباحث الأخيرة ففيها ما يبين لنا بصراحة ووضوح مدى تفاعل الشاعر الباحث مع الطبيعة ومدى الحب المتغلغل في نفسه تجاهها، ولا يكتفي الباحث بتسجيل نظريته السابقة بل يشفعها بامثلة شعرية تؤيد رأيه.

ثم يلاحظ أن أدباء العربية قد احتفلوا بالربيع دون غيره من الفصول ويعجب لذلك ويؤكد أن للشتاء جاذبيته وروعته كما للربيع بل أن (جميع مجالى الطبيعة وأشكالها لمسارح للب الشاعر ومجالات لفنه وتصويره) ويذكر في اعقاب ذلك أن الشعراء الانجليز تغنوا بفتنة الربيع (واستجاشهم غضب إليهم وتجهم الأفق كما استهواهم صفاؤهما ووداعتهما). وبعد أن يتحدث عن بعض الفوارق الأخرى بين الأدبين يعود مرة أخرى ليؤكد (أن أغلب شعر الطبيعة في العربية ـ على قلته ـ تنقصه حرارة الشغف بها وطول مصاحبتها وممازجتها روحا بروح وادمان التأمل في محاسنها ومحاولة النفاذ إلى معانيها وصدق التعبير عن وحيها ودقة لمجاليها المتعددة).

ويصل به بحثه إلى أن فحول العربية كان بينهم وبين الطبيعة حجابًا كثيبًا كالمتنبي والشريف الرضى فلم يذكروها إلا نادرا رغم كثرة أسفار بعضهم وتنقلهم بين العواصم والبلدان ولم يكد يختلف الكتاب عن الشعراء فبديع الزمان الهمذاني الذي حرص أن يضرب في كل اتجاه ليظهر براعته للناس لم تحظ الطبيعة منه بأي التفات على أن هذا كله لا يحول بينه وبين أن يشير إلى شاعر هو بن الرومي فيتحدث عن بعض المظاهر التي تعرض لها الشاعر ويعطيه حقه كاملًا فيقول عنه (وشعره في كل هذا يضارع اسمى ما في الشعر الإنجليزي).

ويقوده البحث إلى محاولة التعرف إلى العوامل التي كانت سببا في ضألة حظ الأدب العربي في وصف الطبيعة فيركزها في ثلاثة عوامل هي (أولًا: بداوة العرب في أول تاريخهم. وثانيًا: تكسب الشعراء بشعرهم في عهد الحضارة والدولة. وثالثًا: شدة محافظتهم وتقليدهم للمتقدمين وأخيرًا: تغلب الصنعة اللفظية في عهد تدهور الأدب).

وياتي الشاعر بعد ذلك بشرح لهذه العوامل مركز مقنع ثم يعرج على الأدب الانجليزي فيحدثنا عن الأسباب والعوامل التي دفعت بهذا الأدب إلى الاهتمام بالطبيعة.

ويخلص من أبحاثه الطويلة إلى ملاحظة جديرة بالاهتمام فيذكر (أن اللغة العربية ذاتها حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها وحالاتها وأوقاتها غنية بكل ما يحتاج إليه الادب القدير لينقل على القرطاس أي المناظر الطبيعية شاء نقل المصور الصناع. وهنا يبدو لنا التفاوت بين مقدرة اللغة واستعدادها وتقصير أدباء العربية في عهد ازدهار الحضارة دون كثير من غايات الأدب).

هذا تحليل موجز عن البحث العظيم الذي كتبه أديبنا عن الطبيعة في الأدبين العربي والإنجليزي وهو بحث كما قلت يتجلى فيه الجهد وسعة الاطلاع والبصيرة النافذة والقلب الشاعر اروع وادل على المعنى من بيت شوقي.

فالمتنبي يقرر أن الظلم من ثم النفوس ثم يستدرك فيذكر أن الذين لا يظلمون - أن وجدوا - فلا شك أن هناك علة تمنعهم من الظلم فهي صورة واضحة المعالم لا نجدها في بيت شوقي:

قصا لو قدروا ما احتشموا لا يعف الناس إلا عاجزين

على أنه لو صح أن بيت شوقي أدق في تصوير المعنى من بيت المتنبي فإن ذلك لا يكفي في الدلالة على تفوق شوقي على المتنبي واستغلاله عليه.

ولم يرض كاتب المقدمة عن الحكم الذي اصدره المؤلف عن غزل شوقي وقال عنه أو نحن نستطيع أن نؤكد أن شوقي لم يكن شاعر غزل قط فكل ما صدر عنه من الشعر الرقيق في هذا الباب إنما هو وليد صنعة متقنة ولم يكن ينبع من قلبه إنما كان ينبع من فنه).

لم يرض هذا الحكم الأستاذ (عزيز) رغم قول المؤلف (ولقد حدثني - شوقي - رحمه الله قائلًا: أنه لم يعرف اللوع في الحب قط) ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يتعرض لما أورده المؤلف من مقارنة بين أبيات اوردها لكل من الشاعرين شوقي وابن الملوم في الحب وخرج منها بهذه النتيجة (وقد اراد أن يستعلي على المجنون كعادته في معارضة الشعراء ولكنه فضل فالمجنون صنادق اللوعة وشوقي يصطنعها) بل اكتفى بأن يذوق بين علطفة الشاعر الحضري وعاطفية الشاعر البوي وحاول أن يتخذ من هذه الفروق عذرًا لشوقي ولكن هيهات.. فالشعر الغزلي في ديوان شوقي شعر ممنوع وأسباب ذلك يعرفها مؤرخوا شوقي ويعرفها بصورة خاصة من يقرأ كتاب (حياة شوقي) الذي نتحدث عنه. ويبدو أن كاتب المقدمة شعر بضعف دفاعه وتهافته عن شوقي في موضوع الغزل فقال (وإذا كانت عاطفة شوقي في الغزل كالسلسل الهادئ فإنها صلصلت كالتيار المندفع تتجارب اصداؤها نظمه عن العرب والعروبة....).

وما دمنا قد عرضنا لبعض ما ورد في المقدمة التي كتبها الأستاذ عزيز أباظة فإن من الواجب أن نشير إلى نقاط مهمة جدًا أثارها الكاتب عن مسرحيات شوقي ومن الخير للباحثين في شعر شوقي وأدبه عامة أو المسرحية الشعرية

بصورة خاصة أن يمعنوا النظر في هذه النقاط التي أوردها الكاتب في مقدمته. ولا شك بعد ذلك في أن النقاد الذي نقدوا مسرحياته. وسيعرفون له فضله وجهده في خدمة الأدب العربي وبعد فهذا كتاب رائع عن شوقي فيه متعة وفيه دراسة عن شوقي وعصره وفيه تصوير للجو الأدبي عامة فهو سجل للتاريخ الأدبي في عصر أزهي العصور.

ولا شك - كما سبق أن قلنا - في أنه سد فراغًا في مكتبة شوقي خاصة والمكتبة العربية عامة....

على هامش الأدب المقارن
(٥)

«ليس النقد إلا ميلا طبيعيا في الإنسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى، واختيار الأحسن من ذلك، ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة في كل أمة بل هو ضروري لتقدم الأدب، يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواقع تقصيره ويجلو أمامه غاياته وطرائفه ويستحثه على دوام الترقي والتزيد، فالأدب صدى الحياة، والنقد صدى لذلك الصدى يظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب في تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم في النفوس».

بهذه المقدمة الماتعة القوية الرصينة يبدأ أديبا في الحديث عن النقد وفي كلماته هذه حدد وظيفة النقد تحديدا واضحا يدل على فهم عميق وثقافة شاملة وتقدير لمهمة النقد ومسؤولية الأديب وبعد أن يزيد فكرته إيضاحا بتحديد العلاقة بين الأديب والناقد يأتي بمثال عن الأدب الإنجليزي، يقوده البحث إلى الحديث عن موضوع هام جدا وهو الأحقاد الشخصية بين الأدباء وأثر ذلك في النقد والأدب وتقرير أن الأدبين العربي والإنجليزي شَهدا ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض «وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين باسم الفن أو النقد» ويضرب الأمثلة على ذلك من الأدبين ويذكر أن علما من أعلام الأدب الإنجليزي وهو «كنيس» بلغ به الكمد حين هاجمه بعض ناقديه هجوما مفزعا أن مات محتضرا في عنفوان شبابه.

وينتقل الباحث إلى قواعد النقد الأدبي فيحدثنا عن الكتابات الكثيرة التي كتبها الكتاب في الإنجليزية والعربية وغيرهما والتي حاولوا فيها استخلاص قواعد للنقد من آثار فحول الأدب، ويضيف أنهم لم يوفَّقوا بل حدث كثير من التناقض «وظل المرجع الأول في نقد الأثر الأدبي إلى ذوق الناقد وتكوينه الفكري، وظل كل أثر أدبي من شعر أو نثر يحمل في طياته المادة التي يجب أن ينقد على حسبها بل رأى وردزروث ـ وأصاب ـ أن الناقد الذي يعمل

على نقد أثر أدبي وقـــد كوّن لنفســـه مبادئ ثابتة عند أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره».

ويحدثنا الكاتب أن للنقد صورا شتى ثم يتحدث عن بعض هذه الصور ويضرب الأمثلة على ذلك، وينتقل من هذا الموضوع إلى الحديث عن كتب النقد ويقرر أنها أنواع ويشير إلى هذه الأنواع في الأدبين الإنجليزي والعربي ويخلص إلى القول: إن أكثر الأنواع التي ذكرها نادرة في الأدب العربي وبعضها لا يوجد به ويقول كلمته عن أهم الكتب الكثيرة في العربية وينقدها نقد فنان خبير ويصل إلى هذه النتيجة: «فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم بل إخراج الأديب المقبل».

وانتقل إلى نقطة أخرى وهي (علاقة العلوم بالأدب) واستفادة الأدب الإنجليزي منها واهتمام نقاد العرب بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة، ويذكر فروقا الآن كالمحافظة والتجديدات ويقرر أن نزعة المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ودلل على ذلك. وقاده الحديث إلى نقطة ذات أهمية بالغة في موضوع النقد وهي أن فحول العربية من الكتاب والشعراء لم يمارسوا النقد وإن مارسه العقليون كالجرجاني وأبي هلال العسكري بخلاف ما حدث في الإنجليزية فقد كان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضا. وبعد أن أتى بمجموعة من الشعر أصدر الأدلة وقال هذه الجملة الحكيمة «فلن يكون الأديب أديبا حتى يكون له رأي في الأدب والجياة يتضح عنه في كتاباته النقدية كما يصدر عنه في آثاره الأدبية»... «ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنقد والنثر هم أدرى الناس بنقدهما والأديب الذي يعلن للناس نظرياته مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلة مؤيدة لتلك النظريات أحرى أن يتبع من الناقد الذي لا يمارس الأدب وإنما يملي على الأدباء أفكاره وآراءه وهو بنجوة عن محيطهم».

وتكلم الباحث الأديب عن مشكلة الألفاظ والمعاني وقال: «إن أكثر نقاد العربية كان يعد ميزة الأديب الفحل هي إحكام اللفظ» وأسهب في ضرب الأمثال والشواهد والتدليل على رأيه وبعد ذلك تحدث عن موقف جمهور

الأدباء الإنجليز من هذا الموضوع وقرر أنهم يعدون اللغة وسيلة «بل عدها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية فلم يهتم أدباء الإنجليز ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه بل استعانوا بمعانيها المصطلحة عليها وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها واشتقاقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب وتصوير الجو العاطفي أو المنظر المرئي من رهبة جو جدل أو سكون أو سرعة ويفاضل النقاد الإنجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعية ويقولون: إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعقد على المعنى المجرد للفظ والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية» وتحدث بعد ذلك عن نظرة كل من الأدباء العرب والإنجليز إلى الآداب الأجنبية والنقد الأجنبي وذكر أن الأدب الإنجليزي ربح أرباحا لا تقدر باطلاع أدبائه على الآراء والنظريات الأجنبية في الأدب والنقد فإن اطلاع الأدباء والنقاد على أفضل ما أنتجته القرائح في العالم «يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد».

وضرب أمثلة على ما يقول، أما بالنسبة للأدب العربي فقد رأى الأديب الباحث أن الأدباء العرب كانوا مؤمنين بتفوقهم البياني فصرفهم ذلك عن الاهتمام بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي، والقارئ ليس بحاجة إلى تبين الفرق بين النظريتين وأثر ذلك في الأدب ونهضته وتنوعه.

ويختم الباحث حديثه قائلا: «فالناقد الإنجليزي كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظما ونثرا فهو أدرى بدخائله، ولأنه مطلع على الأدب الأجنبي والنقد الأجنبي فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه، ولأنه متبصر في الفنون فهو أعلم بمناحي فنه الخاص - الأدب - ومن ثم حفل الأدب الإنجليزي بالدراسات النقدية لعصور الأدب وفحوله وفنونه وجاء تاريخه أوضح منهاجا وأبين معالم من تاريخ الأدب العربي».

وبعد فهذان نموذجان للأبحاث التي طرقها أديبنا الكبير وتطرق لمعالجتها

وهي تدل ـ كما سبق أن قلنا ـ على ألمعيته ونبوغ أستاذيته، ولا شك بعد ذلك في أن القراء يشاركوننا الأسف في فقد هذا الأديب وهو في صدر شبابه ويشعرون بمدى ما مُنِيَ به أدبنا من خسارة فادحة تجل عن العوض ـ ولي وأنا في إختتام هذا البحث ـ رجاء للقادرين من الأدباء أو غيرهم أن يتقدموا لجمع تراث هذا الشاعر الأديب الباحث فهو مفرق في الصحف متناثر بين المجلات وإذا لم نقدر أن نجمع كل آثاره الشعرية والنثرية فلا أقل من أن نجمع أبحاثه في الأدب المقارن وهي ثروة ـ كما رأى القراء ـ لا تقدر بمال، من الظلم أن نتركها في يد الإهمال، ورُبّ قائل يقول: ما لنا ولهذا الأديب وهو غير وطني ونحن نسعى إلى تدعيم أدبنا وإخراجه من حيز المحلية إلى نطاق العالمية.

والجواب على ذلك سهل يسير؛ فلا شك في أن جميع آثار هذا الأديب وخاصة الأبحاث التي أشرنا إليها في الأدب المقارن، هي خير ـ على أدبنا خاصة والأدب العربي عامة ـ من كثير مما يجمعه الناشرون من أدبنا الذي ينقصه النضج والخصوبة والعمق، وأحب أن أوجه الشكر للسادة الأدباء الذين أثاروا هذه المناقشات الطويلة عن الأدب المقارن كان سيمضي عليّ وقت طويل قبل أن أتمكن من إعادة قراءتها، وأرجو أن يكون القراء قد كسبوا شيئا من الحديث عن باحث شاعر ناقد أديب كاد يغمره النسيان، وأملي كبير في أن تتيح لي الظروف فرصة أخرى أعود فيها إلى آثار هذا الأديب ـ بعد أن أتعرف على تاريخ حياته أو بعد أن يتم جمعها ـ بالدرس والبحث والتحليل.

والذكريات صدى السنين الحاكي

(١)

هذا الشطر من قصيدة شوقي ملأ الأسماع والعقول وأحبب إليّ أن أجعله عنوانا لهذا المقال.

وأحبب بأني ـ فيما يأتي من فصول ـ سأمضي في طريق الذكريات فما أكثر ما تأتي به الذكريات من دروس وعبر، وقبل أن أقص القصص أشير إلى بيت في هذه القصيدة هو أجمل وأصح تصوير لمفاجآت الحياة وأحسن توجيه إلى المرء بما تخبيه الأقدار.

يقول شوقي:

تمشي عليها فوق كل فَجَاءةٍ كالطير فوق مكامن الأشراكِ

ومن ألطف الذكريات التي تتضمن مفاجآت، هذا القصص الذي يجري حول الدكتور «الدكاتره» زكي مبارك ـ رحمه الله.

فقدنا في عام ١٩٤٣م شاعرا كبيرا كان شعره كله، أو جله، شكوى وبكاء هو عبدالحميد الديب الذي عاش خاملا وذاع صيته في العالم العربي بعد وفاته!

وانعقد لتكريم ذكراه حفل حافل، في قاعة المحاضرات بدار الحكمة في شارع القصر العيني بالقاهرة، وشمل برنامج الخطابة والشعر عددا من أصحاب المكانة الأدبية العالية وبعد أن افتتح الحفل بآيات من الذكر الحكيم تليت رسالتان وردتا من وزير الشؤون الاجتماعية فؤاد سلمان الدين باشا وزير الأوقاف، وعبدالحميد عبدالحق باشا وفي تلك الرسالتين إشادة بشعر الفقيد ووعد من كل من الوزيرين بأن يولي الأدب والأدباء العناية التي ينبغي أن تبذلها كل دولة إلى النابغين من رجالها.

وتعاقب على المنبر الخطباء والشعراء، وما انتهيت من إلقاء قصيدتي حتى قفز إلى المنصة الدكتور زكي مبارك الذي لم يدعه أحد إلى الكلام ولم يكن بين

الذين درجوا في برنامج الحفل، وقال ونبرات الغضب تتطاير من عينيه: «إن أقل ما توصف به اللجنة التي أعدت هذا الحفل أنها محرومة من الأدب ومن الذوق السليم فإن حفلا لا يكون من خطبائه أو شعرائه زكي مبارك مقضي عليه بالفشل، وإن منبرا لا يرقاه زكي مبارك لجدير أن يهدم! وإن استقباله لرسالتي الوزيرين بالتصفيق لأمر يدعو إلى الخجل بل هو هبوط لقدر الشعر والأدب فالوزيران أولا لا يستطيعان إنشاء هاتين الرسالتين بل لا يحسنان قراءتهما وما هذه الرسائل المصوغه في أسلوب الأدب الرفيع إلا من صنع صغار المرؤوسين من أهل البيان وهذان الوزيران وأمثالهما يضعون أسماءهم تحت هذه القطع الأدبية ويكسبون فخرها فهم يسرقون الثروة الوحيدة التي وهبها الله لمرؤوسيهم وهي ثروة البيان والوزيران بعدها متطاولان على مقام الأدب حين يعدان بأن يبذلا عونا منهما للأدباء من هذا النوع وإن من المناسب أن يشبهوا بالذين قال الله فيهم: ﴿**يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**﴾ وقبيح منكم أيها المستحسنون أن تفرحوا بعطف الدولة على الأدب أو تَقْبَلوا، وقد عاشت الدول من أقدم العصور تطلب رضا الفصحاء عامة والشعراء خاصة، لقد بنى الشعر دولا وهدم دولا وهذا الشاعر الذي تكرمون اليوم ذكراه، أسأل الله أن يجعله آخر شاعر من نوعه فقد كان وصمة في جبين الشعر وقذرا عالقا في ثوب الأدب لقد زين له أصدقاؤه أن تاج المجد لا ينعقد على هامته إلا إذا عاش متسولا بالشعر فصار يقضي أكثر نهاره طائفا بالمقاهي وثيابه رثة والروائح الكريهة تنبعث منه ويتنقل من منضدة إلى منضدة ويسمع الناس شعره الشادي المستجدي في إلقاء مؤثر ورنين حزين فلا يقبل الليل إلا وقد امتلأت جيوبه بما أعطاه العاطفون والراحمون وإنه ليمضي بما حمل إلى بؤرة من بؤر الخمر حيث ينتظره أربعة أو خمسة من المعدودين بين أبناء آدم وهم ليسوا من الأدب في شيء أولئك الأميون الجهلاء الفاسدون هم المنتفعون بما جمع من أيدي الأدباء ومشجعي الأدب يطعمهم ويسقيهم ما حرم الله وهو يرى نفسه بينهم الزعيم المطاع والملك المانح الوهاب وفي هذا الملك الموهوم يصدر هراء سخيفا كقوله:

إنما ملك عبقري الجلال ... وإن صدف التاج عن مفرقي

أو كقوله:

ولو لم يخف الله فالصراحة ... أعبد الحميد إياك نعبد

أو كقوله:

تفيات الدنيا مدى ظلالي ... ومد على قوم رواق جلالي

وهكذا يعوض نفسه عن زاد النهار بمملكة الليل وإذا مضى من الليل نصفه قام هو وأولئك الصعاليك إلى حي الزهار حيث المساحيق البيض من كوكايين إلى هروين إلى مورفين وهي المواد التي تفتك لا بجسم ذئب مثله بل بجسم دُبٍّ أو فيل فإذا اقترب الفجر كان أصحابه الذين طعموا وشربوا وشبعوا على نفقته ونال كل منهم نصيبا من ماله قد تسللوا واحدا واحدا وكان هو قد أفرغ كل ما معه فلم يبق له حتى القروش القلائل التي ينام بها في فندق من أقل الفنادق وأرخصها فإذا هو قد نام إلى ظهر اليوم الثاني على أحد الأفاريز أو وضع رأسه بين ركبتيه مقفلا على نفسه أحد المراحيض العمومية».

ثم انتهى الدكتور إلى أن الشاعر الفقير لم يكن بؤسه في أرزاقه بل في أخلاقه، كل هذا وبين المستمعين زوجة الفقيد وأخواه وبعض ذوي قرباه، وما استطعنا نحن أعضاء لجنة الاحتفال أن نسكت هذا الخطيب المقتحم لأننا لم نرد أن نتحدث معه شغبا قد ينتهي إلى أسوأ مما وقع من سوء.

وانتهى الدكتور وعدنا إلى البرنامج فاختتمناه وخرج الدكاتره زكي مبارك إلى إدارة جريدة البلاغ التي كان ينشر فيها فصولا أسبوعية بعنوان «الحديث ذو شجون» فدبج مقالا صحفيا وصف فيه ما فعله وما قاله في احتفالنا من حواش وإضافات وفي كثير من الاعتزاز والفخار وللحديث بقية جديرة بأن نفرد لها فصلا خاصا لأنها من اللطف وخفة الروح بمكان.

والذكريات صدى السنين الحاكي
(٢)

ذكرت لك في المقال الماضي كيف اقتحم الدكتور زكي مبارك المنصة في الاحتفال بذكرى الشاعر عبدالحميد الديب وكيف حمل على الفقيد واللجنة التي نظمت الاحتفال والجمهور المستمع وكتبت في البلاد في العام الماضي فصولا عن الشاعر عبدالحميد الديب.

واليوم أروي لك الجانب الآخر من القصة ففيها بسطت ـ من خلال الدموع ـ عنه على ذلك الحادث الظريف بل الشاذ سنوات ثم جاء يوم الدكتور زكي مبارك فخرج من الدنيا وأقبل كما أقبل السابقون على رب رحيم غفور وتنادينا في نقابة الصحفيين بتكريم ذكرى زكي مبارك الذي كان عضوا معنا في النقابة وكان شريكا بقسط وافر في نشاطها، جهير الصوت في ندواتها وحفلاتها، ووكلت إليّ النقابة إعداد حفل تكريم الفقيد ثم إدارته، وبدأت أعمل لوضع برنامج الخطابة فذهبت إلى الأستاذ العقاد ثم إلى الدكتور طه حسين ثم إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات ثم إلى غيرهم من ذوي الأخلاق الكريمة، فما لبى طلبي أحد، بل إن بعضهم أغلظ لي القول وبينهم من قال لي في غضب شديد: كيف تسألني أن أرثي هذا الرجل الذي نالني من قلمه السوء وتعرضت لهجماته الظالمة وقاسيت الأمرين؟ حتى استطعت أن أجد عددا من المتسامحين رضوا «أن يقولوا كلمات تأبين الأديب الذي كان طول عمره قاسي القلم هجام على كل مقال وحين ما انعقد الحفل في قاعة المحاضرات بنادي الصحفيين كثر طالبوا الكلام فأعلنت بعد أن قرأ القارئ ما تيسر من كتاب الله أني لن أتعدى البرنامج المرسوم المطبوع الذي وزع على الحاضرين وجعلت أقدم الخطباء والشعراء واحدا واحدا وحمل أحد السعاة إليّ ورقة من الدكتور منصور فهمي باشا ـ الأمين العام للمجمع اللغوي يومئذ وعميد كلية الآداب من قبل ـ يقول فيها: «كان الفقيد من تلاميذي فأحب أن أقول كلمة لن تزيد على ثلاث دقائق».

وكان على المنبر في تلك اللحظة الشاعر العوضي الوكيل فلما انتهى اتجهت إلى المستمعين قائلا: طلب أستاذ الجيل الدكتور منصور فهمي باشا أن يتحف الحفل بكلمة وبمثل الأديب العميد تخلف البرنامج واعتلى الخطيب الطارئ المتعب فلم يتكلم ثلاث دقائق كما وعد بل استغرق ثلاثين دقيقة ومعنى هذا أنه سرق وقت خطيبين أو ثلاثة وقبل أن ينتهي من كلامه جاءتني ورقة تحمل الكلمات الآتية: «خالفت البرنامج من أجل رجل يحمل لقب الدكتوراه ورتبة الباشوية: في الأدب؟ ألقاب ورتب؟ وهل في دولة الأدب مثل ما في دولة السياسة من خضوع للشخصيات وانهيار أمام النفوذ إني مرسل إليك أبياتا عشرة فإن صادفت إعجابك رجوت أن تقدمني على الرغم من تجردي من الدكتوراه ومن الباشوية، وكان الموقع تحت هذه الكلمات محمد أحمد العجمي المدرس بمدرسة كوم النور وقرأت الأبيات العشرة فإذا هي من جيد الشعر بل من أقومه وأكرمه وبعد واحد أو اثنين من المتكلمين الواردين في البرنامج قدمت الشاعر الجيد فخطى إلى المنصة في تَؤُدَة وعلى شفته ابتسامة الرضى والشكر وطلب مني الورقة يلقي منها الأبيات وجعل يلقي والحاضرون يتلقون بأحسن القبول ويستعيدون كل بيت مرة أو مرتين ثم لاحظت أن أبياته قد زادت عن العشرة ثم قاربت العشرين ثم أربت على الثلاثين والأمر الأعجب أنه ينظر في الورقة ويلقي وكل الذي في الورقة عشرة أسطر فمن أين أتى بهذا المزيد؟ لقد خدعني بخطابه الذي أرسل معه الأبيات العشرة، ثم خدعني بالإلقاء بعد النظر في الورقة ولقد سرق وقتا لا يقل عن الوقت الذي سرقه الدكتور منصور فهمي من قبل! لكن كيف أسكته وهو يلقي شعرا من أجود الشعر؟ وكيف أقطع على الحاضرين لذة الاستماع والإجادة والاستعادة؟ ويسر الله وفرغ الشاعر من قصيدته، وهَمّ بالنزول فحجزته بجانبي وقدمت سواه للخطابة ثم سألته همسا كيف فعلت هذا؟ قال: لو أرسلت إليك القصيدة كاملة لما تهيأت لي فرصة الإلقاء! وكنت أكتم بسمات الإعجاب للمذيعة الظريفة الخفيفة الروح وكنت بحكم أني واضع البرنامج آخر متكلم ـ وكانت لي قصيدة، وكان الذي يسبقني الدكتور محمد مظهر سعيد فألقى بحثا قيما مدروسا قدم فيه

بعض جهود زكي مبارك في الأدب وبعض مؤلفاته النفيسة وأخصها النثر الفني في القرن الرابع وسما بزكي مبارك إلى أعلى الدرجات ثم قال مخاطبا: «أيها الإخوة نالني من قلم الدكتور زكي مبارك ما لم ينل أحدا فقد هجاني بواحد وعشرين مقالا في مختلف المجالات وقد سمعتم رأيي فيه والفضل ما شهدت به الأعداء».

وأذكر من قصيدتي يومئذ هذه الأبيات:

واصف الحين قد جفا محرابه ... مدمن الحب قد سلى أحبابه
شارب الشعر كالسلاف وساقيه ... وما كاسه وعاف شرابه
الخطيب المبين أفحمه الموت ... والغى بيانه وخطابه
ناشرا لكتب تملأ الأرض علما ... ويحه قد طوى الزمان كتابه
الظريف المداعب السمح لن يبدع ... ظرفا ولن يسوق دعابه
الجريء المغاضب الصعب قد ... أودى فلن يملك العدا إغضابه
وهب الله للصدور سماحا ... وتولى حسابهم وحسابه

لقاء.. كل أسبوع(*)

(١)

أعجبني المقال القيم الذي كتبه الأستاذ أنور الجندي في مجلة قافلة الزيت عن زكي مبارك لسببين أولهما أن في تذكر هذا العبقري النابغة الذي أجمع الناس على تناسيه وتجاهله أمر جدير بالثناء والإشادة.

وثانيهما أن كاتب المقال يبشرنا في خاتمة مقاله بأنه بصدد دراسة كبرى عنه ستصدر قريبا لتكون مرجعا نافعا بين يدي الباحثين وهذا أمر جدير بالشكر والتقدير.

لقد تحدث الأستاذ أنور الجندي عن صراحة زكي مبارك وهذه الصراحة غرست روح المرارة في اسمه وأدبه فاسمه يذكر جميع المشاهير من معاصريه من الكتاب والأدباء برجل بغيض يضمرون له الحقد والكراهية.

وأدبه يفيض بالثورة على الناس والحنق عليهم، وتصور مدى هذه المرارة من أبياته التي كتبها تحت صورته في مطلع رسالته «الأخلاق عند الغزالي» يقول:

لم يغد رسمي ضئيلا ... كالبدر عند المحاق
إلا لأن الليالي ... ومالها من خلاق
صيرتني في بلادي ... في..... وثاق.........

وهذه الرسالة كتبها في سنة ١٩٤٢م وهي أول رسالة له يحصل بها على الدكتوراه من الجامعة المصرية.

وعاش بعد ذلك حتى سنة ١٩٥٢م وهذا الشعور بالمرارة ظل يلف أيامه طول حياته.

ومن حوادث الصراحة في حياته أن جماعة من الأدباء والشعراء تداعوا لإقامة

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٩/١٧هـ الموافق ١٩٦٣/٢/١١م العدد (١٥٣)

احتفـــال أدبي تكريما لذكرى الشاعر عبدالحميد الديب الذي اشتهر بالشاعر البائس.

وأخذ الأدباء والشعراء في تمجيده وفي الإشادة بعبقريته الشعرية وانطلقوا في ذكر محاسن الشاعر البائس وانتهز مبارك فرصة نزول أحد الخطباء من المنبر وانطلق بخفة إلى المنبر دون أن يكون له في البرنامج ذكر وبين خطباء الحفل وفوجئ المحتفلون بزكي مبارك يخطب لا في تكريم الشاعر البائس بل في انتقاصه والهجوم عليه بدون ترفق ولا استبقاء.

وقال: «إنه يعجب من هؤلاء الذين تداعوا لإقامة هذا الحفل التكريمي لرجل قضى حياته مستهترا بالقيم الأخلاقية عابثا بالكرامة الإنسانية جاعلا من شعره حبائل لاقتناص الأموال يمدح ويهجو دون أن يكون له رادع من خلق أو ضمير».

واندفعت كلماته كالصواعق، ولم يكتف بالهجوم على عبدالحميد وشعره وإنما تعرض لعدد من الوزراء كانوا قد دعوا إلى هذا الاحتفال فأرسلوا خطابات وبرقيات يعتذرون عن الحضور ويشكرون الداعين ويشيدون بشاعرية الديب ونبوغه.

لقد هاجم زكي مبارك بقسوة وعنف وقال عنهم كلاما كثيرا لعل أهونه أنه اتهمهم بأنهم لا يفهمون ما كتب في هذه البرقيات والخطابات.

وكان ما قاله عن عبدالحميد صحيح لا سبيل إلى نكرانه وربما كان ما قاله عن الوزراء أو بعضهم على الأقل صحيحا أيضا.

ولكن تصور ريح الغضب والاستنكار الذي قوبل به خطاب زكي مبارك وتصور العداوات التي كسبها زكي مبارك بمهاجمة الوزراء وهم في أوج السلطة يملكون الضر والنفع ولهم أشياعهم وأنصارهم وأتباعهم.

والقصة لم تنته بعد ولعل تمامها أن نذكر للقراء أن جماعة من الأدباء فكروا في إقامة حفل لتكريم زكي مبارك بعد وفاته واتصلوا بعدد كبير من الشعراء والأدباء يدعونهم للمشاركة في الاحتفال ولكن جميع الأدباء

والشعراء اعتذروا ولم يلب الدعوة منهم أحد وفشلت الفكرة ولم يقم الاحتفال.

ولكنها أثبتت أن العداوة التي غرسها زكي مبارك في قلوب معاصريه من الأدباء والشعراء قوية إلى درجة أن الموت عجز عن إطفائها أو تخفيف حدتها!

لقاء .. كل أسبوع(*)
(٢)

تحدث الأستاذ أنور الجندي عن زكي مبارك في مقاله المنشور بقافلة الزيت وقال: «وكأنما كان (ملاكما) أدبيا يضرب ويتلقى الضربات بروح رياضية لا تحمل الحقد ولا الضغينة وإنما تحمل الإيمان بالفكرة التي اعتقدها».

وهذا كلام صحيح وقد سبق أن كتب الأستاذ أحمد حسن الزيات مقالا قصيرا في التعريف برسالته الضخمة «التصوف الإسلامي» نشره في مجلة الرسالة وقد جاء فيه: «أمامك صورة الدكتور زكي مبارك فتفرس فيها ثم قل ماذا وقع في حسبانك منها، إن كنت قرأت له ما ألف وما كتب في النقد والمناظرة فستظنه خارجا من معركة بولاقية فيها شد الشعور ولكم الصدور ونطح الرؤوس وتمزيق الملابس وما هذا الرواء البادي على وجهه وهندامه إلا خداع المنظر أو فن المصور».

لقد تحدث الأستاذ أنور كذلك عن الألوان الأدبية التي عالجها زكي مبارك وفاته أن يشير إلى لون أدبي لعل زكي مبارك كان من أوائل الذين برعوا فيه براعة تستحق الإعجاب ذلكم هو قدرته على تقمص الشخصيات وقد كتب في ذلك كتابا ضخما بلغت صفحاته «الخمسمائة صفحة» سماه «الأسحار والأحاديث» تحدث فيه على لسان أدباء عصره أحاديث لا تشك وأنت تقرأها أنها صدرت عنهم فعلا.

وهذا منتهى ما يمكن أن يصل إليه أديب من البراعة في النفاذ إلى الشخصيات الأدبية.

وقد تقمص زكي مبارك شخصيات (طه حسين ومنصور فهمي وأحمد أمين ومصطفى عبدالرازق ولطفي السيد والرواي والأسمر وعبدالله عفيفي وعادل الغضبان وإبراهيم مصطفى ومحمود عزمي وبشر فارس وعدد آخر من

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٩/١٠هـ الموافق ١٩٦٣/٢/٤م العدد (١٥٢) حيث تقدمت هذه الحلقة في النشر عن الحلقة الاولى.

العلماء والأدباء ورجال الفكر من العرب والفرنسيين».

وقد تحدث الأستاذ أنور عن مقالات زكي مبارك وقال عن مقالاته ـ التي كان ينشرها في البلاغ في الفترة الأخيرة من حياته: «إنها كانت ضعيفة المستوى»!

وهذا أسلوب مهذب والحقيقة أن الدكتور زكي عقد حلفا قويا بينه وبين تلك «الضعيفة» التي قال عنها الحسن بن هاني:

وضعيفة فإذا أصابت فرصة فتكت كذلك سورة الضعفاء

فكان يغرق فيها همومه وكان يجلس كل ليلة في مجلسه المختار بقهوة الإبراهيمية ويجلس بجواره أحد محرري البلاغ فيسجل كل ما يجرى على لسانه من أحاديث أدبية ثم ينشرها باسم زكي مبارك.

هذا هو السر في أنه كان كما يقول الأستاذ أنور: «يجتر ذكرياته ويردد صورا لا رابطة بينها».

وكان الأستاذ أنور بارعا في قوله: «فإن مرجع ذلك في الأغلب إلى حالته النفسية التي سببها له اتجاهه إلى الحذر والهرب من الواقع».

وتحدث الأستاذ أنور عن صفات من أبرز صفات زكي مبارك ذلك هو «الوفاء النبيل» وذكر بعض حوادثه.

ومن الحق أن نذكر كذلك «وفاءه النبيل» لقريته سنتريس التي جعلها أغنية في سمع الزمن بما كتبه عنها وما قال فيها، ولم يكتف بذلك بل باع ما ورث عن أبيه من فدادين وبنى بالمبلغ مدرسة ثانوية كبيرة قدمها لوزارة المعارف فاضطرت الوزارة إلى أن تقبل هديته وأن تفتح مدرسة ثانوية في سنتريس وكانت قرية زكي مبارك هي القرية الوحيدة التي فتح بها مدرسة ثانوية وكان زكي مبارك في أشد الحاجة إلى كل قرش أنفقه في بناء هذه المدرسة.

هذه خواطر أثارها في نفسي الأستاذ أنور الجندي عن زكي مبارك بمقاله القيم في «قافلة الزيت» ونحن إذ نحيي الأستاذ أنور على اهتمامه بهذا الرجل النابغة الذي تربطني به روابط الأستاذية نعلن له أننا ننتظر دراسته

الضخمة عن زكي مبارك بفارغ الصبر.

ونحب أن نختتم كلمتنا هذه بكلمة الحق التي كتبها الأستاذ الزيات عن زكي مبارك حيث يقول: «وزكي مبارك - إن أوردت فيه كلمة الحق - مجاهد باسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم في الحياة بالقوة وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد وأَحَلُّوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع، وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبي على الظروف والحظ.

وإذا كان الحظ قد وقع في حياته فهو الحظ المنكود لا السعيد تعلَّم بكدح قلمه، وتقدم بفضل جهاده، ثم كانت الظروف التي تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة.

ومن أثر ذلك كان هذا الإعلان المستمر عن نفسه وعن عمله، وهي صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلم وجلال الخلق، ولكنها آتية إليه من وراء الوعي على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانه.

ولو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من فن الحياة لاتَّقى كثيرا مما جرّته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة.

ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفي الناس ويبقى ذلك المجهود العلمي الضخم الذي قدمه إلى الأدب العربي في شتى مناحيه شاهدا على صدق خدمته للأدب ورفيع مكانته في النهضة».

مرة أخرى مع الطنطاوي والبشبيشي(*) وطه حسين وآخرين

الحلقة الأولى

في أيام عيد الفطر الماضي التقيت في المدينة بصديقي الأديب الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي ودار الحديث بيني وبينه حول عدد من الشؤون الأدبية وقد تطرق الحديث إلى الأعداد الممتازة التي أصدرتها بعض صحفنا ومنها جريدة البلاد وجريدة المدينة الغراء بمناسبة العيد.

وقد سألني الصديق الدكتور عما إذا كنت قد اطلعت على العددين فأبديت له أسفى فقال لي سأحضرهما إليك الآن وقام - مشكورا - وعاد بعد لحظات ومعه عدد جريدة البلاد وقدمه إلي واعتذر بأن عدد المدينة لم يجده إذ يبدو أن أحدا قد استولى عليه، ثم قال لي لقد كتب ثلاثة من الأدباء في هذا العدد عن فلسفة العيد، فما رأيك لو نظرت فيما كتبوا ووازنت بينهم وأبديت رأيك؟ فوعدت الأستاذ الدكتور بأن أفعل.

وهذا طريقة الصديق الكبير كلما التقينا فهو حريص على أن يستحثني كلما لقيني على معالجة موضوع من الموضوعات.

ففي العيد الأسبق التقيت في المدينة بالأستاذ الكبير وطفنا بعدد من الموضوعات وقبل أن نفترق اقترح أن نقوم بحملة تُذكِّرُ بالمنسيين من الأدباء واتفقنا على أن يكتب هو عن الأديب العالم الدكتور عبدالوهاب عزام وأكتب أنا عن الدكتور زكي مبارك.

وقد بادر الأستاذ الدكتور بهمته العالية ونشاطه المعهود فكتب مقالا مطولا مجودا عن الدكتور عزام - رحمه الله.

ولم أستطع أن أجاريه في السرعة التي يكتب بها فكأنه يغرف من بحر وإن كان من يقرأ أسلوبه يظن أنه ينحت من صخر، وهذا دليل على الأصالة

(*) نشر في يوم الأربعاء الموافق ١١ من جمادى الأولى عام ١٣٨٧ بجريدة المدينة المنورة العدد ١٠٣٥ .

والقوة والعمق.

وإن كنت قد حرصت على أن أكون عند وعدي فكتبت سلسلة من المقالات عن الدكتور زكي مبارك لاقت كثيرا من الاستحسان والتقدير، والفضل يعود في الدرجة الأولى إلى الدكتور البشبيشي فلولا طريقته وحثي على الكتابة ما كتبت، ولولا اقتراحه أن تكون الكتابة عن الدكتور زكي مبارك بالذات لما كانت هذه المقالات عن «الأديب الذي ظلمه معاصروه» لعلي أطلت الحديث عن هذه النقطة لأرد على بعض التساؤلات التي أثيرت في الآونة الأخيرة.

وأعود إلى فلسفة العيد فقد أنتجت دراستي لما كتب الأدباء الثلاثة عن فلسفة العيد سلسلة من المقالات نشرت في جريدة المدينة تحت عنوان «العيد وفلسفته عند الفقي والطنطاوي والبشبيشي».

وقد تفضل الأستاذ الجليل علي الطنطاوي فكتب لي رسالة كريمة خاصة يعلق فيها على بعض ما ورد في الحلقة الأولى، كما كرم فكتب مقالا في جريدة المدينة يعرض فيها بعض ملاحظاته حول ما كتب عن مقاله.

وقد كتبت مقالا وجهته للأستاذ الطنطاوي عبرت فيه عن رأيي في أدبه وتقديري لفضله، وهو رأي نابع عن فهم صحيح لإنتاجه الفكري، وتقدير سليم لمواقفه منذ أن أمسك بالقلم حتى اليوم، وأحب أن ألفت النظر إلى كلمة (مواقفه) فإن الحديث عن هذه المواقف أثار ضجة كبيرة من آثارها هذه المقالات، وتفصيل ذلك أن الحديث عن مواقف الأستاذ الطنطاوي تجاه العروبة والإسلام جر إلى عقد مقارنة بينه وبين طه حسين حول مواقف كل منهما من هذه القضية.

ومرة ثانية أحب أن أركز على كلمة (مواقف)، فالمقارنة لم تكن بين إنتاج طه حسين وإنتاج علي الطنطاوي فذلك أمر لم يخطر لي على بال وإنما كانت المقارنة محصورة بشكل واضح ومحدد في مواقف كل منهما.

ولقد قررت في ذلك المقال أن طه حسين لم يكن واضح الهدف ولا مستقيم الرأي كان كثير التقلب بينما كان الأستاذ الطنطاوي واضح الرأى سليم

العقيدة مستقيم المذهب.

لقد قلت ذلك في المقال ـ وهو منشور في جريدة المدينة المنورة بعددها الصادر في ١٣٨٦/١٢/٢٩ ـ قلت في ذلك المقال ما يلي:

«واسمح لي يا سيدي أن أعقد مقارنة بينك وبين طه حسين وهي مقارنة لا تهدف إلى غير الحق الذي أومن به والحقيقة التي أعتنقها وإن كانت هذه المقارنة ستغضب فريقا من القراء لأسباب لا تخص».

«وأحب أولا أن أجرد طه حسين من هالة الشهرة التي تنعقد حول هامته، وهي هالة يعود الفضل فيها إلى الصراع الحزبي والشذوذ العقائدي؛ أما الصراع الحزبي فقد ضمن له جبهة يستند إليها وأنصارا يهتفون له، وأما الشذوذ العقائدي فقد ضمن له تأييدا في دوائر الاستشراق ومحبين بين صفوف الطلاب والمخدوعين من الشباب وأولئك وهؤلاء تبهرهم الآراء الغريبة والأفكار المتطرفة فإذا أضيف إلى ذلك أن طه ابن الجامعة البكر علمنا سر هذه الهالة التي تنعقد حول رأسه.

لقد بدأ (طه) حياته بداية دينية ثم اتجه إلى الدراسة المدنية ليصبح أقوى داعية للفرعونية وإحيائها يخطب ويكتب ويدعو إلى ذلك جهارا نهارا وينادي بفصل مصر عن العربية وبترها عن الإسلام وقطعها عن الشرق ووصلها بأوروبا».

«ثم هو لا يكتفي بذلك بل ينصب نفسه مدافعا عن الحضارة اليونانية ينسب إليها كل نبوغ في العرب ويلحق بها كل مجد في آداب الأمة العربية وقد كفلت له الدعوة الفرعونية هتاف الأقباط وضمنت له الفكرة اليونانية أصوات المبشرين».

«ذلك هو طه حسين أما أنت فقد كنت واضح المذهب مستقيم العقيدة سليم المنهج صريح الرأي من أول يوم خططت فيه حرفا فلم تنحرف ولم تمالئ عدوا ولم تنخدع بسراب ولم تستسمن ذا ورم ولم تجر وراء مصلحة تتعارض مع مصلحة دينك وأمتك».

«كان حبك لدينك يعمر قلبك وحماستك لأمتك تملأ عليك أقطار نفسك واهتمامك بمستقبل العرب والإسلام؛ شغلك الشاغل..».

وهذا كلام واضح كل الوضوح في أن المقارنة لم تكن بين إنتاج وإنتاج وإنما كانت بين موقف وموقف.

مرة أخرى مع الطنطاوي والبشبيشي(*) وطه حسين وآخرين

الحلقة الثانية

قرأ الأستاذ الجليل الدكتور محمد فوزي البشبيشي مقالي الذي أشرت إليه فيما سبق فلم يعجبه لأنه فهم الأمر كما يبدو على غير حقيقته.

ولم يتصور الأمر على اعتبار أنه مقارنة بين موقف وموقف ولكنه تصوره على أنه مقارنة بين أديب وأديب أو بين إنتاج وإنتاج.

وسر هذا التصور غير الحقيقي يعود في نظري إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن الدكتور فوزي لم ينظر إلى الأستاذ الطنطاوي نظرة أديب لماض طويل في خدمة الأدب وقد زامل طه والرافعي والمازني والحكيم والزيات وشكري في تحرير الرسالة منذ تأسيسها.

ولكنه نظر إليه كزميل له يعمل معه في كلية، وللزمالة آفات كما للمعاصرة آفات.

ثانيها: أن الروابط التي تربط الدكتور فوزي بالدكتور طه روابط قوية ليس أقلها رابطة الأستاذية، وقد دفعته الغيرة على صديقه وأستاذه أن ينفي عن الأستاذ الطنطاوي كل أمجاده، بل إنه لم يطق أن يقترن اسم طه باسم الطنطاوي!

ثالثهما: وجود ظاهرة غريبة بين طائفة كبيرة من الأدباء والمثقفين في بعض البيئات الجامعية في مصر تلك هي استهتارهم بأي أديب أو مثقف عربي غير مصري فمهما بلغ من المنزلة أو الثقافة أو العلم يظل في نظر المثقفين المصريين في مستوى أقل، فهم لا يُجِلُّون إلا المثقفين الغربيين الأوروبيين والأمريكيين أو المصريين!!

(*) نشر في يوم ١٧ من شهر جمادى الأولى عام ١٣٨٧هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ١٠٤٠ .

وهي ظاهرة غريبة لاحظتها منذ أن كنت طالبا في الجامعة وظللت أتتبعها حتى الآن فتأكدت لديّ بما لا يدع مجالا لأي شك أو ارتياب.

وأذكر في هذا المجال مثالين: الأول أن جامعة الدول العربية أنشأت معهدها المعروف «معهد الدراسات العربية العالية» وهو معهد يقبل فيه الحاصلون على الليسانس من إحدى الكليات الأدبية أو الدينية أو الحقوقية وقد رؤي عند إنشاء المعهد أن تسند إدارته إلى العلامة الأستاذ ساطع الحصري.

والأستاذ ساطع علم من أعلام التربية والثقافة والفكر القلائل في عالمنا العربي، وعيبه أنه ليس مصريا وإلا لو كان كذلك لوجد له من الشهرة ونباهة الذكر وبعد الصيت ما يقف به في صف مع طه حسين ولطفي السيد وإسماعيل القباني.

فإسناد المعهد إليه رفع من شأن المعهد وتدعيم له وإقامة له على قواعد راسخة ولكن ذلك ـ مع الأسف ـ لم يرض بعض المتثقفين الجامعيين في مصر انسياقا مع هذه الظاهرة العجيبة والخطيرة فكتب بعضهم يهاجم المعهد وينتقص منه ويدعو إلى إغلاقه وكان من أعجب ما كتب كلمة كتبها «الدكتور محمد مندور» في إحدى الصحف اليومية وهي موجودة بين أوراقي يتهجم فيها على هذا المعهد ويزعم أن الدراسات التي يتلقاها طلابه لا تزيد عما يتلقاه طلاب المدارس الثانوية ـ في مصر ـ وينعي على الجامعة العربية تبذيرها الأموال فيما لا يجدي.

وهو زعم باطل ـ ولا شك ـ ولكن عَزّ على محمد مندور وزملائه من المصريين أن يتولى زعامة المعهد وفي القاهرة مفكر غير مصري، فتلك إحدى الكُبَر!

واضطر الأستاذ ساطع إلى التخلي حتى لا يكون صخرة يتحطم عليها المعهد وأسند المعهد إلى العلامة الأستاذ شفيق غربال ـ وهو مصري كما هو معروف ـ وتحولت أبواق الهجوم إلى دعاية للمعهد وأصبح معهدا عاليا «بحق» ولم تصبح الدراسات التي يتلقاها طلابه من نوع ما يتلقاه طلاب المدارس الثانوية!

أما المثال الثاني فأنا أنقله إلى القراء من كتاب «مذكرات سائح في الشرق العربي» وكاتبه سماحة العلامة الأستاذ السيد «أبو الحسن علي الحسني الندوي» أحد الأقطاب المعدودين من مسلمي الهند وأحد الأفذاذ الذين يفهمون الإسلام فهما عميقا، وله عدد لا يستهان به من المؤلفات الإسلامية التي تعتبر من الذخائر في التراث الإسلامي.

وحسبه أنه في طليعة المجاهدين العاملين من أجل رفعة شأن المسلمين في الهند وليس هناك أحد يجهل كتبه الإسلامية العظيمة وعلى رأسها «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

يقول سماحة العلامة الندوي: «كان اليوم موعد إلقاء محاضرتي في كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول وكان موعد الحفلة الساعة الثانية عشرة ولعل القائمين بأمر الحفلة حددوا هذا الموعد ليشارك الطلبة في هذه الحفلة بعد انتهاء الدروس في الجامعة مع أنه في وقت السآمة والإعياء من الدروس ويصادف وقت الغداء أيضا.

دخلنا في مدرج المرحوم مصطفى عبدالرازق وهو قاعة واسعة جدا ورأيت عددا كبيرا من الطلبة والضيوف وجلست في منصة المحاضرات مع خطباء اليوم وهم الدكتور عثمان أمين أستاذ كلية الآداب والدكتور محمد محمود الصياد والأستاذ عبدالمنعم الكرمي وحضر معالي محمد علي علوية باشا وسعادة عبدالستار سيت سفير الباكستان في مصر مع آخرين من المستمعين.

وتقدم الدكتور عثمان أمين وألقى كلمته عن الدكتور محمد إقبال وكانت مكتوبة وتلاه الدكتور محمد محمود الصياد وتبعه الأستاذ عبدالمنعم الكرمي وقد تسربت السآمة التي لا تحتملها الشبيبة اليوم - إلى النفوس وبدأ الجوع يساورهم فأبدوا رغبتهم في اقتضاب هذه الكلمة والانتهاء منها سريعا.

وكان دوري بعد الأستاذ الكرمي وكان موقفا حرجا جدا فقد عيل صبر الطلبة - ورصيده دائما قليل وسريع النفاد عند الشباب المثقف - ثم إنني

غريب لا يعرفونني ومظهري لا يلائم ذوقهم ولا يبعث فيهم الجلال وقد قَصّر من قدّمني إلى المستمعين فلم يذكر اسمي كاملا ولم ينسبني إلى بلدي حتى آخذ نصيبي من احترام الضيوف الأجانب والاستماع إليهم ثم كانت الأفلام السينمائية عن الدولة الباكستانية ستعرض بعض محاضرتي فقمت حائلا بينهم وبين ما يشتهون من التمتع برؤية الأفلام.

وافتتحت المحاضرة بعرض حياة الدكتور محمد إقبال فطلب مني الدكتور عثمان أمين أن أطوي هذا الفصل وآخذ في الموضوع فافتتحت المحاضرة وأنا منكسر الخاطر فما مضيت قليلا حتى تلقيت منه إشارة الاقتضاب وكان يطالع الضجر في وجوه الطلبة ويسمع همساتهم.

ومضيت في المحاضرة طبيعيا أملًا في أن تشغل المستمعين وتثير منهم الذوق والإعجاب فقد كنت واثقا مما اشتملت عليه المحاضرة من معان سامية ومادة غزيرة.

وقلت مخاطبا للحاضرين: إني ضيفكم وحضرت بدعوتكم فأرجو أن تعيروني دقائق حتى أستطيع أن ألقي هذه المحاضرة.

ولكني وجدت أن هذه الكلمة أيضا لم تصادف آذانا صاغية وبجانبي المشرف على هذه الحفلة يطالبني بالانتهاء من هذه المهمة التي لا تلقى الترحيب ويأتيني آت فيخبرني أن السيد ألطاف حسين محرر جريدة «الدون» الباكستانية وهو عضو الوفد الصحافي سيخطب ونفذ صبري فجلست وأنا منكسر الخاطر متهدم الأعصاب ثائر الفكر فقد منيت من الإعراض والانصراف بما لم أعرفه طول عمري.

وقبل أن تعرض الأفلام خرجت عن جماعتي وتبعني الأستاذ عبدالحكيم عابدين وجاء على إثري الشيخ عبدالوهاب بك خلاف.

فاعتذرا إلي فهوّنت الخَطْب وقلت: لا بأس، وأظهرت التجلد وسمعت بعض الناس يقولون: إن هذه المعاملة القاسية كانت بإيعاز من الطلبة المسيحيين لأن المحاضرة كانت صريحة جدا في الإشادة بالمسلم وقد وردت فيها بعض

عبارات شائكة لغير المسلمين مثل قول محمد إقبال: «إنك أيها المسلم حق وحدك وكل ما عداك سراب خادع ووهم زائف» إلى غير ذلك وأظن أن أسباب هذا الحادث كانت طبيعية تافهة ترجع إلى سوء التقدير في تحديد الموعد وكون المحاضرة يغلب عليها الطابع العلمي وكل ما يدعو هؤلاء الشبان إلى شيء من إجهاد الفكر بغيض ثقيل.

وعلى كل فقد انتهى هذا الفصل من الرواية وقد تلقيت عنه دروسا نافعة وإن كانت قاسية قليلا .. أدعو الله أن ينفعني بها».

مرة أخرى مع الطنطاوي والبشبيشي(★) وطه حسين وآخرين

الحلقة الثالثة

دهش العلامة الندوي مما حدث حسب ما فصلناه في الحلقة الماضية وراح يتلمس المعاذير للطلبة والمشرفين عليهم.

ولو كان على علم بهذه الظاهرة لعرف الحقيقة كاملة ولاستطاع أن يجنب نفسه هذا الموقف الحرج ولا أحب أن أمر بهذه القصة قبل أن أستلفت النظر لبعض ما ورد منها لأن ذلك من شأنه أن يوضح هذه الظاهرة في بيئات بعض المثقفين الجامعيين ومن واجبي أن أقرر أن البيئات الإسلامية المثقفة لا تخضع لهذه الظاهرة كما سنرى بعد قليل.

وأول ما يلفت النظر: هو اختيار هذا الوقت الضيق غير المناسب وطيبة قلب العلامة الندوي ترفعه إلى أن يعلل ذلك برغبة القائمين بأمر الحفل «ليشارك الطلبة في هذه الحفلة بعد انتهاء الدروس في الجامعة».

وأنا أعتقد أن اختيار هذا الوقت بالذات اختيار ينطوي على كثير من الخبث وإلا فكيف يسمح هذا الوقت الضيق بإلقاء محاضرة مطولة للعلامة الندوي بالإضافة إلى أربعة خطباء؟!

وليس ذلك فحسب فهناك أفلام سينمائية باكستانية ستعرض أيضا، فالأمر إذا مبيّت.

أما الأمر الثاني: فهو تقدم الدكتور عثمان أمين والدكتور الصياد لإلقاء كلمتيهما قبل الضيوف وهذا تصرف غريب فقد كان عليهما أن يتركا المجال للأساتذة الضيوف وخاصة في هذا الظرف الضيق فإذا سمح الوقت تقدما بإلقاء كلمتيهما.

(☆) نشرت يوم ٢٢ من شهر جمادى الأولى عام ١٣٨٧ بجريدة المدينة المنورة العدد ١٠٤٤ .

أما أن يأخذا الفترة الأولى ـ وهي فترة النشاط ـ بالإضافة إلى أنهما معروفان في أوساط الطلاب فذلك أمر بعيد عن اللياقة وكأنهما يحاولان مدفوعين بشعور خفي ـ أن يظهرا للطلاب فصاحتهما وشدة عارضتهما وقدرتهما على الخطابة وامتلاكهما لناصية البيان.

أما الأمر الثالث: فهو تقصير الذي تولى تقديم العلامة الندوي ويبدو لي أنه تقصير مقصود وإلا فمن المعروف أن الكلمة التي يقدم بها المحاضر عادة تحتوي على معلومات وافية عن المحاضر وثقافته وحياته الخاصة والعامة ونشاطه الفكري والأمور البارزة في حياته بحيث تعطي فكرة واضحة عن المحاضر وتجتذب إليها انتباه السامعين.

وقد حضرت محاضرة للعلامة الندوي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وقد قدمه أحد المشرفين في موسم المحاضرات تقديما قربه إلى نفوس المستمعين وشرح كثيرا من جوانب حياته العلمية والدينية والفكرية وكان لذلك أثره في استجابة الحاضرين وفي تفهمهم لكل ما ورد في المحاضرة.

ومع أنني لم ألتق بالعلامة الندوي قبل هذه المرة فقد تَرَكَتْ المقدمة التي قيلت عنه ثم محاضرته نفسها أعمق الأثر في نفسي.

أما الذي قدمه في جامعة فؤاد الأول فقد قدمه كما يقدم طالب لا ماضي له ولا أمجاد فلم يهتم بذكر اسمه كاملا ولم ينسبه إلى بلده وبالتالي فلم يحاول أن يعطي جمهور المستمعين أي فكرة عن ثقافته ومؤلفاته وجهوده في خدمة العلم والدين.

فإذا أضفت إلى هذا كله ظروف الوقت الضيق أدركت أن من المعجزات أن تنجح محاضرة العلامة الندوي.

أما الأمر الرابع: فهو تدخل الدكتور عثمان أمين ـ ويبدو أنه المشرف على الحفلة أو كبير المشرفين عليها.

لقد تدخل في المحاضرة تدخلا عجيبا ومعيبا فكيف يُدعَى عالم إلى إلقاء محاضرة ثم يطلب إليه أن يحذف هذا الجزء من المحاضرة ويطوي ذاك

الجزء ويختصر ذلك الجزء؟!

هذا أمر غريب فبأي حق يتدخل الدكتور عثمان أمين هذا التدخل غير اللائق في محاضرة العلامة الندوي وهل كان يستطيع أن يفعل ذلك لو كان المحاضر أستاذا مصريا أو أوروبيا أو أمريكيا؟ إن هذا أمر يدل على الاستخفاف والاستهتار.

أما الأمر الخامس: فهو أنه في الوقت الذي كان يحاول فيه الدكتور عثمان أمين التدخل في المحاضرة بالحذف والتعديل، لم يحاول إطلاقا أن يتدخل لإقناع الطلبة بالانتظار والتريث وكان في إمكانه أن يفعل ذلك، ومن المؤكد أن دعوته كانت ستقابل بالرضا والقبول بد لامن أن يوقع العلامة الندوي في إحراج جديد من سلسلة «الاحراجات» التي تعرض لها.

ونعني بذلك مخاطبته للحاضرين بقوله: «إني ضيفكم وحضرت بدعوتكم فأرجو أن تعيروني دقائق حتى أستطيع أن ألقي هذه المحاضرة» ولقد قال العلامة الندوي ذلك وفي ظنه أن المشرف سيعاونه.

وإذا بالمشرف ـ تمشيا مع الظاهرة التي أشرت إليها ـ يقوم بدور النار في المثل العربي القديم «كالمستجير من الرمضاء بالنار» فهو يطالب الأستاذ الندوي «بالانتهاء من هذه المهمة التي لا تلقى الترحيب» ولا يكتفي بذلك بل يرسل إليه من يقول له إن صحفيا باكستانيا سيخطب.

أما الأمر السادس: فهو عدم اعتذار المشرف على الحفلة لا بصورة علنية ولا بصورة خاصة ويبدو أنه بخل عليه حتى بكلمة توديع.

وعندما خرج لم يلحقه إلا الأستاذ عبدالحكيم عابدين ـ وهو ليس من أساتذة الجامعة ـ والأستاذ عبدالوهاب خلاف وهو أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، وهو بحكم ثقافته واختصاصه يعرف فضل الأستاذ الندوي.

أما الأمر السابع: فهو محاولة نسبة النفور إلى الطلبة المسيحيين ولعل ذلك من الأسباب التي ذكرها الأستاذ خلاف أو الأستاذ عابدين بصورة الاعتذار للندوي تبريرا لما حدث.

وأنا أشك في ذلك كل الشك فالطلبة المسيحيون أقلية في الجامعة وهم أضعف وأتفه من أن يتصدوا للفوضى والشغب في محاضرة إسلامية يلقيها ضيف من ضيوف الجامعة.

أما الأمر الثامن: فهو اتهام طلبة الجامعة بأن رصيدهم من الصبر قليل وبأن كل ما يدعوهم إلى شيء من إجهاد الفكر فهو بغيض إليهم ثقيل على نفوسهم، وهذا اتهام خطير ـ وإن كان صحيحا مع الأسف ـ فإذا كان طلبة الجامعة وهم صفوة الطلاب وقد قاربوا مرحلة النضج وهم في طريقهم إلى أن يحتلوا مراكزهم القيادية في الهيئة الاجتماعية لا يستسيغون محاضرة يغلب عليها الطابع العلمي ولا يطيقون حبس أنفسهم ساعة أو بعض ساعة من أجل الاستماع إلى محاضرة قيمة إذا كان ذلك حال الطلبة الجامعيين فما حال غيرهم، ثم أليس معنى ذلك أن الجامعة لم تعد جامعة وأن من يلتحقون بها لا يهمهم العلم ولا الثقافة بمعناها الواسع وإنما يهمهم الحصول على الشهادة ولا شيء وراء ذلك؟!

أما الأمر التاسع: فهو توضيح شبهة قد تعلق ببعض الأذهان وذلك أن الحديث هنا يتعلق بمثقف «هندي» بينما كان الحديث عن الظاهرة الغريبة منصبا على المثقفين العرب.

ولكن الواقع أن هذا المثقف الهندي يعتبر عربيا فهو عالم مسلم يحاضر بالعربية، ولو كان العلامة الندوي يعرف هذه الظاهرة من قبل لوفر على نفسه كثيرا من العناء فحسبه أن يحاضر بالإنجليزية لتهدأ الضجة وتخشع الأصوات ويذوب التذمر وتنتهي المحاضرة بسلام!

مرة أخرى مع الطنطاوي والبشبيشي(*) وطه حسين وآخرين

الحلقة الرابعة

هذه الظاهرة التي أشرت إليها فيما سبق كان لها أثرها في فهم الدكتور فوزي لما قلت في المقارنة بين طه وعلي ولم يشفع للأخير أنه (طنطاوي) من طنطا لأن الجميع يعرفون أنه سوري من دمشق.

وأرى من واجب الأمانة أن أقرر أن الدكتور فوزي يمتاز بالنَّصَفَة والعدل وحب الحق وهو - في أكثر أحكامه - يصدر عن ذلك، ولكنه في فهمه الأخير انساق وراء هذه الظاهرة ربما بدافع لا شعوري.

قلت: إن البشبيشي لم يعجبه ما كتبت وقد عبر عن ذلك الأستاذ (حامد عباس) في كلمة قصيرة نشرها في جريدة المدينة بعددها الصادر في يوم الجمعة ١٣٨٧/١/٤هـ وقد جاء فيها تحت عنوان «الربيع والطنطاوي وطه حسين» «ما كتبه الأستاذ عبدالعزيز الربيع عدة مقالات عن فلسفة العيد عن الشيخ علي الطنطاوي والأستاذ محمد حسن فقي والدكتور محمد فوزي البشبيشي ثم حول ما كتب في يوميات المدينة يوم الأحد الماضي في رسالته الموجهة إلى الشيخ علي الطنطاوي وقد قرأت أنا بعض هذه المواضيع وكان فاتحة الحديث بيني وبين الدكتور البشبيشي الذي قال تعليقا عليها: لقد تناول الأستاذ الربيع في مقالاته هذه ما كتبته في فلسفة العيد وقد بين لي أن مقالتي تلك كانت أحسن ما كتب في العيد وفلسفته رغم ما في هذا من مديح لي يضاف إلى المديح الذي غمرني به الأستاذ الربيع.

بالإضافة إلى ما كتب الأستاذ الربيع عن الأستاذين الشيخ الطنطاوي ومحمد حسن فقي وقد تحدث عنهما حديثا ضافيا.

وأنا أعتقد أن هناك فرقا كبيرا بين النقد والمديح لأن الثناء شيء والنقد شيء

(*) نشر في يوم ٢٥ من جمادى الأولى عام ١٣٨٧هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ١٠٤٧ .

آخر، أما بالنسبة للدكتور طه حسين الذي تعرض له الأستاذ الربيع في يوميات الأحد في جريدة المدينة فرأيي إنما: أن الدكتور طه يفهم الأدب العربي حق الفهم وبشكل لا يجاريه فيه أحد من الأحياء وإن كان ما يقال أو من يحاول أن ينتقص من شخصيته الفذة في الأدب العربي بشتى المحاولات لن يجد لذلك سبيلا فهو عملاق الأدب العربي.

يقول الأستاذ حامد ـ وقد كان يتحدث عن ذلك في هدوء الواثق من نفسه ومن حديثه: «ثم ابتعد بنا الحديث عن الأدب والأدباء، وقد شعرت أنه متأثر مما قيل في الدكتور طه حسين».

ذلك ما ورد في كلمة الأستاذ حامد عباس القصيرة وأحب أن أقرر أنني لم أقرأ هذه الكلمة إلا منذ أسبوعين فقط في صدر عدد المدينة الذي نُشرت به الكلمة وأنا مسافر فلم يتسنّ لي الاطلاع عليه وعندما علمت بنبأ هذه الكلمة حاولت العثور على العدد بعد عودتي فلم أوفق ومن العجيب أن بعض الناس يستبيح لنفسه الاستيلاء على الجريدة التي تخص غيره وكانها في رأيه حق مشاع ويدهش عندما تطالب بها وتلح في ذلك وكانك تطلب أمرا منكرا.

ولا يجب أن يتصور أن جريدة يومية تستحق كل هذا الاهتمام، ومن أجل ذلك تضيع الأعداد ويلقى صاحبها ـ الأديب ـ عناءً كبيرا في سبيل الحصول عليها، على أنني علمت بنبأ هذه الكلمة من التحقيق الصحفي الذي أجراه معي مندوب عكاظ في الرياض والذي نشر في عكاظ بعددها الصادر في ٢٩/١/١٣٨٧ فقد كان ضمن الأسئلة الموجهة إليّ سؤال يقول: «قال البشبيشي أيضا ردا على ما جاء بإحدى يومياتكم: إن الدكتور طه حسين يفهم الأدب العربي حق الفهم وبشكل لا يجاريه فيه أحد من الأحياء. وإن كل ما يقال أو من يحاول أن ينتقص من شخصيته الفذة في الأدب العربي بشتى المحاولات لن يجد لذلك سبيلا فهو عملاق الأدب العربي» في حين أن لكم رأيا آخر في طه حسين.

ما هو ردكم على الدكتور البشبيشي في قوله هذا؟

وقبل أن أسجل ردي على هذا السؤال ـ كما نشرته عكاظ في عددها المشار إليه ـ أحب أن أعلق تعليقا عابرا على الأستاذ حامد عباس فقد لحظت وأنا أقرأها أن كاتبها المفضال لا يريد أن ينقل رأي الدكتور فوزي فقط وإنما يريد أن يعبر عن رأيه هو في الموضوع ويبدو أنه لم يعجبه المقارنة بين الأديبين الكبيرين.

وكان أسلوبه لطيفا مغلفا بغلاف رقيق، ولعل أوضح ما فيه هو إصراره على تلقيب الطنطاوي بلقب «الشيخ».

ولقب الشيخ لقب كريم أجمعت الأمة العربية الإسلامية على تمجيده والاعتزاز به وإطلاقه على العلماء والأدباء ورجال الثقافة البارزين.

وظل الوضع سائدا إلى الفترة الأخيرة من العصر الحديث حيث أصبح يطلق على علماء الشريعة ورجال الدين والقضاء ومن في حكمهم.

وإلى هذا يشير الأستاذ حامد والدكتور فوزي فكأنهما يريدان أن يشعرا القارئ من طرف خفي بأن الطنطاوي عالم ورجل قضاء وليس أديبا وإذا كان الأمر كذلك فتصبح المقارنة بينه وبين طه حسين غير ذات موضوع.

ومن المؤكد أن شيخنا الأستاذ الطنطاوي يعتز بلقب الشيخ كل الاعتزاز ومن المؤكد كذلك أنه أمضى مع شيوخ الإسلام على امتداد العصور الإسلامية كل فترات حياته.

ومن المؤكد مرة ثالثة أن الفترة الطويلة التي أمضاها أستاذنا الجليل في العمل قاضيا يحكم بين الناس كانت من أخصب فترات حياته ـ لا كعالم ورجل قضاء فحسب ـ بل كأديب يعتز بالكلمة ويقدر الحرف فقد أضافت إلى تجاربه تجارب كثيرة وأتاحت له أن يطل من نافذة القضاء ليرى الناس على حقيقتهم مجردين من الأقنعة التي يضعونها عادة على وجوههم في ظروفهم المعتادة، وليرى النفس الإنسانية في صراعها مع الحياة وليرى النزوات والمآسي والفواجع وليرى أنماطا من الأخلاق والعقول والميول.

فهي فترة خصبة في حياة شيخنا الطنطاوي تركت في نفسه أعمق الأثر

كأديب فنان، ومن المصادفات اللطيفة أنني أقرأ هذه الأيام كتاب «الخلاصة» أو «عصارة الأيام» للكاتب الإنجليزي الأشهر (سمرست موم) وهو عبارة عن سيرة ذاتية للروائي الكبير وإن كان هو يصر على: «أن كتابه هذا ليس سيرة ذاتية ولا سلسلة يوميات: إنه خلاصة كل ما مر به من تجارب في المجال الأدبي وفي المجال العلمي».

وقد ألحّ الكاتب في كتابه هذا ـ وبشكل ملحوظ ـ على أن السنوات التي قضاها طبيبا في مستشفى (سانت توماس) كان لها أعمق الأثر في حياته ويقول: «ولست أعرف تدريبا للكاتب أفضل من قضاء بضع سنوات في ممارسة الطب ـ وأحسب أنك تستطيع أن تعلم الكثير عن الطبيعة الإنسانية في مكتب محام ولكنك إذ ذاك تتعامل مع الناس وهم في كامل وعيهم وقد يكذبون هناك بقدر ما يكذبون على الطبيب ولكنهم يكذبون بثبات.

وكذلك قد لا يكون الاطّلاع على الحقيقة ضروريا جدا للمحامي، ثم إن القضايا التي يعالجها مادية عادة، وهو يرى الطبيعة البشرية من زاوية اختصاصه ولكن الطبيب ـ ولا سيما طبيب المستشفى ـ فإنه يرى الطبيعة الإنسانية عارية قليلة التحفظ عامة بل خالية منه في أغلب الأحيان».

ومن المؤكد أن قضاء سنوات في المحاكم ـ ولا سيما الشرعية منها ـ ستزود صاحبها بألوان الخبرات لا سبيل إلى الحصول عليها في غير هذا المجال وخاصة إذا كان صاحبها واسع الأفق عميق الثقافة مرهف الإحساس.

وقد أتيح لتوفيق الحكيم أن يقضي فترة في حقل القضاء كان لها أثر كبير في فنه وإنتاجه وقد أخرج لنا كتابين مستقلين سجل فيهما ما مر به من طرائف وأعاجيب وهما كتابه «يوميات نائب في الأرياف» ثم كتابه الآخر «من ذكريات الفن والقضاء» الذي أصدره مرة أخرى بشكل موسع تحت اسم «عدالة وفن».

أما بالنسبة للأستاذ الطنطاوي فلست أستطيع أن أجد كتابا له في هذا المعنى بسبب أنني لم أحصل على جميع كتبه ولم أستطع أن أقرأ كل

ما لدي من كتبه، ولكنني أستطيع أن أؤكد أن أحاديثه التي تهدف إلى إصلاح المجتمع في الإذاعة أو التلفزيون حافلة بهذه التجارب.

والحديث عن سمرست موم وتوفيق الحكيم يذكرنا بفارق أساسي بينهما من جهة وبين أديب كالأستاذ الطنطاوي ومفكر كالأستاذ سيد قطب.

فالأولان يعالجان المشاكل الأدبية والفنية والاجتماعية بأسلوب يهتم بالأصول الفنية والقواعد المصطلح عليها أكثر من اهتمامهما بجوهر المشكلة.

أما الأخيران فيهمُّهما في الدرجة الأولى علاج المشكلة الاجتماعية أو بعبارة أعم يهمهما الإصلاح الاجتماعي عن طريق الإسلام.

وأعتقد أن هذا الفارق الجوهري بين أديبين من الفريق الأول وأديبين من الفريق الثاني هو الذي كان السبب الرئيسي في القطيعة التي وقعت بين أديبين عظيمين تربطهما أقوى الأواصر من تجانس وفهم وإعجاب ولم يخطر ببال أحد قط أن تنقطع الصلة بينهما فذلك في رأي المتصلين بهما والعارفين لحقيقة العلاقة بينهما أمر في حكم المستحيل.

ولكن القطيعة حدثت وكان من الطبيعي أن تحدث بعد أن وضحت اتجاهات الأديبين بشكل قاطع فقد كان أحدهما يعالج المشاكل ـ حتى الدينية منها ـ بأسلوب فلسفي وكان الثاني يعالج هذه المشاكل بأسلوب الداعية الذي يهمه الوصول إلى إقناع أكبر عدد ممكن من القارئين والمستمعين.

وهما أسلوبان قد يبدو أن بينهما كثيرا من التآلف ولكنهما أسلوبان يختلفان في النهاية اختلافا كبيرا.

ولعل القارئ قد أدرك أنني أعني بالأديبين العظيمين عباس العقاد وسيد قطب ـ رحمهما الله.

مرة أخرى مع الطنطاوي والبشبيشي(*) وطه حسين وآخرين

الحلقة الخامسة

أعود إلى قضية الخلاف بيني وبين الدكتور البشبيشي ـ وهو خلاف من جانب واحد ـ إذا صح أن يوجد خلاف بهذا المعنى.

وقد لمحت إلى أن مندوب عكاظ في الرياض سألني عن وجهة نظري في هذه القضية وقد أجبته يومها أنه لا خلاف بيني وبين الدكتور فوزي وقلت له ـ كما نشر في عكاظ: «ليس بيني وبين الدكتور البشبيشي أي خلاف حول هذه النقطة وأنا لم أتهم الدكتور طه حسين بعدم الفهم أو بنقصان الفهم في الأدب العربي وأنا أقرر مع الدكتور فوزي بأنه يفهم الأدب العربي حق الفهم وبشكل لا يجاريه فيه أحد من الأحياء.. وأنه عملاق الأدب، كل ذلك أنا أقرره مع الدكتور البشبيشي ولا أختلف معه فيه قيد أنملة.

ولكن للدكتور طه اتجاهات أخرى فكرية لا علاقة لها بمدى فهمه للأدب العربي كدعوته إلى الفرعونية واعتناقه بعض الآراء التبشيرية وحماسته لثقافة البحر الأبيض المتوسط ومحاولته فصل مصر عن الشرق إلى آخر هذه الاتجاهات.

حول هذه الاتجاهات كان اتهامي للدكتور طه حسين.. ومن هنا ترى أنه لا خلاف بيني وبين الدكتور محمد فوزي البشبيشي حول النقطة التي أشرت إليها».

ذلك ما نشرته عكاظ حول هذا الموضوع ضمن التحقيق الصحفي وكنت أتوقع أن ينتهي الأمر عند هذه النقطة بعد هذا البيان، ولكن صديقي الدكتور فوزي كان منزعجا وكان يرى أنني اقترفت ذنبا خطيرا حين قلت عن الدكتور طه ما قلت وخاصة حين عقدت مقارنة بينه وبين الطنطاوي

(☆) نشر في يوم ٣٠ من جمادى الأولى عام ١٣٨٧هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ١٠٥١ .

«لا في الإنتاج ولكن في موقف كل منهما تجاه التمسك بمبدأ».

وربما فهم الدكتور فوزي من حديثي عن اتجاهات الدكتور طه أن هذا الحديث يمسه ولو من بعيد فقد تحدثت في سلسلة مقالاتي عن فلسفة العيد بشيء من التفصيل عن العلاقة بين الدكتور فوزي وطه.

أو لعل الدكتور فوزي خشي أن يسيء بعض القارئين ـ ممن لا يعرفونه معرفة حقيقية ـ الفهم حين يقرأون ما كتب عن الدكتور طه واتجاهاته وما كتب عن العلاقة بينه وبين الدكتور فوزي.

لهذا ـ وربما لأسباب أخرى ـ بادر الدكتور البشبيشي فكتب مقالا مطولا في صحيفة الجزيرة الصادرة في ١٣٨٧/٢/٧ بعنوان «الربيع والطنطاوي وطه حسين» وسوف لا أناقش اليوم ما ورد في مقال أستاذنا الجليل لأن الأديب الكبير مسافر ـ نسأل الله له السلامة والأوبة.

كما أن الأستاذ الجليل قد أثار طائفة من القضايا الفكرية والأدبية سيكون مجال الحديث فيها وعنها رحبا عريضا خصبا وخاصة وأن محورها طه حسين وسيتيح لنا الحديث عن هذه القضايا عودة جادة إلى كتب طه حسين بعد أن بعد بأكثرها العهد.

وأهتبلُ هذه الفرصة لأوجه أصدق التقدير لأستاذنا العلامة الجليل الدكتور محمد فوزي البشبيشي على ما غمرني به من جميل الثناء وما أضفاه عليّ من صفات من المؤكد أن دافعه إليها كريم خلقه وحسن ظنه فللأستاذ الكبير الشكر الأوفى على حسن رأيه.

وعلى أثر نشر الدكتور فوزي مقالته بادر فضيلة الأستاذ الجليل عبدالقادر شيبة الحمد بنشر مقال قيم في صحيفة الجزيرة في عددها الصادر في ١٤/ ١٣٨٧/٢ دافع فيه عن الأستاذ الطنطاوي دفاعا كريما نابعا عن إخلاص وتقدير.

كما عرض لطائفة من القضايا التي تورط فيها الدكتور طه والتي تركت الحديث عنها ـ كما وعدت من قبل ـ إلى فرصة قريبة فالحديث عنها

طويل متشعب.

وأرجو أن يأذن لي الأستاذ الجليل في أن أعقب على بعض ما ورد في مقالي عن نفسية الدكتور فوزي ومعتقده.

لقد قال الأستاذ الجليل: «وإنما الذي أحببت لفت نظر القراء إليه هو أننا كثيرا ما نسمع أن بعض الأساتذة يحملون أفكارا هدامة وكنا نظن أن هذه الأخبار ما هي إلا حقد حاقد أو نفسية فاسق يجب التبين في خبره حتى كشف لنا البشبيشي عن خبيئة النفس بهجومه المرير على أحد علماء الإسلام».

وتقريرا للحقيقة وإنصافًا للدكتور البشبيشي أحب أن أطمئن الأستاذ الجليل على أن الدكتور فوزي رجل - والحق يقال - نظيف القلب سليم العقيدة مؤمن الفكرة محب لعروبته متمسك بدينه مقدس لقراءته، وهو لا يحمل أي فكرة هدامة أو مبدأ غير نظيف.

وقد عرفته عن طريق القراءة أولا ثم اتصل بيننا حبل الود بعد ذلك فالتقينا مرات وما كنت ألحظ في كتابته أو جده أو هزله إلا كل تقدير للعروبة وإجلال للإسلام وتقديس للقرآن وإعزاز لنبينا - عليه الصلاة والسلام - وقد أتاحت لي الظروف أن ألتقي بطائفة من تلامذته في كلية الشريعة والتربية وقد تحدثوا عن كثير من صفاته وصِلاته بالطلبة والناس وتحدثوا عن شؤون تعتبر من شؤونه الشخصية البحتة، ولكنني لم ألحظ في كل ما سمعت عنه - وهو كثير - ما يدل على استخفاف بالعروبة أو استهتار بالقيم الإسلامية.

ولقد جر عليه دفاعه عن طه حسين سلسلة من المتاعب والتهم ما كان أغناه عنها ولكن كان مدفوعا بتلك الدوافع - التي أشرت إليها فيما سبق من حديث.

فبالإضافة إلى ما كتب الأستاذ الجليل الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد كتب فضيلة العلامة الشيخ عبدالرحمن الدوسري مقالا في صحيفة الدعوة في عددها الصادر في ١٣٨٧/٢/٢٧ عرض فيه لقضية الطنطاوي وطه حسين ودافع دفاعا مجيدا عن الأستاذ الطنطاوي كما عرض لطائفة من القضايا

التي تناولها طه حسين والتي ستكون محور الحديث في الفصول المقبلة - إن شاء الله - كما سبق أن ألمعنا.

وقد هاجم فضيلة الدكتور البشبيشي هجوما عنيفا لتصديه للانتقاص من فضيلة الأستاذ الطنطاوي في الوقت الذي دافع فيه عن طه حسين. وحماسة الأستاذ الجليل الدوسري في الدفاع عن الإسلام والتصدي لكل من يناله بنية الإساءة أو غرض التعدي حماسة معروفة عن الأستاذ الجليل تذكر له دائما في معرض التقدير والإكبار، ولكن العلامة الجليل عرض لقضية خطيرة في حديثه عن الأستاذ البشبيشي.

ونحن نستأذن فضيلته في أن نناقش هذه القضية فإن رائدنا جميعا هو الوصول إلى الحقيقة مهما كان الطريق إليها شاقا وعسيرا، والحكمة ضالة المؤمن؛ يذكر فضيلة الشيخ الدوسري عن الدكتور البشبيشي أنه قد بدرت منه بادرة سيئة حيث نسب إليه أنه وصف القرآن بتلقين العجائز وأعجاز نخل خاوية.

ويذكر فضيلة الأستاذ الدوسري أن الأوامر قد صدرت في عام ١٣٨١ بترحيله وإبعاده ولكن سعي بعض الناس أخّر ذلك إلى انتهاء عامه الدراسي «ليزيد من نفث سمومه» ثم وجد من يشفع له في تجديد عقده إلى آخر ما ورد في كلام فضيلة الأستاذ العلامة.

ونحن نستبعد أن يحدث ذلك من الدكتور البشبيشي للأسباب الآتية:

١ - البشبيشي أديب عربي يحيط بالأدب العربي وفنونه إحاطة قل أن يجاريه أحد، ومعنى هذا أنه يدرك بلاغة القرآن ويدرك أسرار إعجازه ولا يمكن أن يتسرب إليه أي شك في عظمة هذا الكتاب العزيز الذي كان المحور الذي دار حوله تراث أربعة عشر قرنا وعلى ذلك فلا يزال غضا طريا جديدا كما أنزل. وإذا كان المثقفون العرب من النصارى يجلون هذا الكتاب المعجز ويعتبرونه القمة التي تعلو على كل القمم فهل يقدم أديب عربي مسلم على نكران فصاحته وبلاغته!

٢ ـ محمد فوزي البشبيشي رجل مسلم يعتز بالإسلام ومقدساته نشأ في أسرة مسلمة عميقة التدين وعندما يتحدث عن الإسلام يتحدث حديث العالم المؤمن الذي يشعر بلذة نادرة وهو يتحدث عن دين خاتم الأنبياء وتحت يدي كثير من القصص حول ذلك.

٣ ـ من يتتبع مقالات الأستاذ البشبيشي يجد اللفظة القرآنية والجملة القرآنية تسيطر على أسلوبه بشكل واضح لا يدل على التأثير فقط بل وعلى الإيمان.

٤ ـ كتب مرة يصف القرآن العظيم في معرض حديثه عن علاقة أبيه بالقرآن فقال: «كان ـ رحمه الله ـ قوامًا للقرآن قانتا لتوحيده مخبتا لربوبيته، مشربا بإفصاحه وبلاغه يرى في الكلمة الواحدة منه مناهل العربية ومواردها ومنابعها وحيوياتها وبقائها وأزلها وعصمتها وتعاليمها ويرى في الآية الواحدة التاريخ الذي لا يغتر والوجود الذي لا يفنى والبقاء الذي لا يتصاغى والشمس التي لا تأفل والجد الذي لا يغلو واللذات التي تكرر ولاتمل والسلامة والأمل والحبل الجامع والإلهام الباعث والإيحاء الناهس كانت أيامه قرآنا وأعياده فرقانا».

هذا نص واحد يكفي وحده في الدلالة على حب البشبيشي للقرآن وتقديمه له وإيمانه بأنه كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهو نص من النصوص النادرة لأن كل جملة من جمله ـ على إيجازها ـ تحمل كثيرا من المعاني الباهرة التي تحمل إعجابا وفهما دقيقا لعظمة القرآن وجماله وجلاله وبلاغته وروعته وإعجازه.

مرة أخرى مع الطنطاوي والبشبيشي (*) وطه حسين وآخرين

الحلقة السادسة

على ضوء الأدلة التي قدمناها فيما سبق كيف نفسر إذًا ما أورده الشيخ العلامة الدوسري عن الدكتور البشبيشي؟ يغلب على الظن أن بعض الطلبة يطيب لهم أن يطيلوا المماحكة أو يثيروا الجدل أو يستثيروا الأساتذة لإضاعة الدرس أو إحراج المدرس أو خلق الفتن أو إظهار العلم.

ويبدو أن بعض هؤلاء الطلبة قد حاولوا القيام بشيء من ذلك وحاولوا أن يفسروا كلام الدكتور البشبيشي على غير وجهه ولم يكتفوا بذلك بل نقلوا كلامه بعد أن حرفوه وأضافوا إليه ما لم يقل.

وكل المشرفين على التعليم يعرفون كثيرا من هذه الحوادث وأذكر مرة أن أحد المدرسين - من غير السعوديين - كان يدرس لطلبة إحدى المدارس الليلية درسا في الجغرافية فساقه الحديث وهو يتحدث عن طلوع الشمس وغروبها والليل والنهار فقال: إن علماء الجغرافية يعللون ذلك بكروية الأرض وتصدى له أحد الطلاب وقال له: أعوذ بالله هذا كذب هذا كفر وأخذ يورد بعض النصوص القرآنية.

فقال المدرس: إن درسنا في الجغرافية أما النصوص القرآنية فيمكن أن يسأل عنها مدرس القرآن والمواد الدينية.

وأخرجت الأرض أثقالها فقد ثار الطالب واتهم المدرس لأنه لا يصدق بالقرآن وتعقدت الأمور وخرج الطالب وقدم شكوى للمدير الذي بحث الموضوع فلم يثبت له حقيقة الاتهام وثار الطالب على المدير وبعث شكوى إلى إدارة التعليم يشكو فيها المدرس وإدارة المدرسة وقامت إدارة التعليم بتأليف لجنة للتحقيق في الموضوع فثبت لها تعنت الطالب وأن المدرس اعتذر عن الدخول

(☆) نشر في يوم الثلاثاء ٨ من شهر رجب عام ١٣٨٧هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ١٠٥٨ .

في مناقشات آيات القرآن خوفا من الزلل لا سيما وأن ثقافته الدينية لا تؤهله لذلك، وهذا موقف سليم لا غبار عليه.

ولكن الطالب استغل الموضوع لحاجة في نفسه وأثار زوبعة تركت بعض العقابيل.

فلا نستبعد أن الدكتور البشبيشي قد وقع ضحية لطالب من هذا النوع.

والغريب أن فضيلة الأستاذ الدوسري كان رفيقا بالدكتور طه حسين بقدر ما كان عنيفا مع الدكتور البشبيشي ويقول عن طه حسين: «والدكتور طه نسمع عنه الآن ما ينبئ بخير من تحسن حاله وتراجعه عن الطامّات التي كان تحمس لها مما يجعلني لا أجيز الطعن فيه أو النيل من كرامته بعد مواقفه الجديدة.

وإنكار علو رتبته في الأدب - وإن كان المبرر لها الثقافة الاستعمارية وخدمته لها على حساب وحي الله ودينه - فهذا لا يضره بعدما اعتدل فالعبرة بحسن النهاية لا بالبداية.

إن كل ذنب الدكتور البشبيشي هو دفاعه عن طه حسين ونمر ببقية ما كتبه فضيلة الأستاذ الدوسري من القضايا التي تتصل بطه حسين لأننا سنعود إليها - كما سبق أن أشرنا - لنلتقي بكاتب آخر هو الأستاذ أبو حسان فقد كتب في صحيفة الجزيرة في ١٣٨٧/٣/٢٥ مقالا بعنوان «القاضي والعميد بين البشبيشي والربيع» وقد دافع في مقاله دفاعا مجيدا عن الدكتور محمد فوزي وناقش فضيلة الأستاذ عبدالقادر شيبة الحمد في بعض آرائه عن الدكتور البشبيشي.

ويمتاز دفاع الكاتب الفاضل بأنه دفاع قائم على أساس من الخبرة الشخصية والعلاقة الذاتية ولهذا الأمر أهمية دون شك.

يقول الكاتب الفاضل في هذا العدد: «عرفت الدكتور فوزي في صالات الكلية وعلى صفحات المجلات والصحف لقد سمعت منه المحاضرات الكثيرات وأشهد الله أنني قد سمعت من الرجل دعوة ملحاحا إلى الشريعة الإسلامية

السمحاء بكل فنون الدعوة. لقد سمعت الرجل في أحاديثه الأفانين يستحث الناس إلى منهاج محمد اللاحب - عليه أفضل الصلاة والسلام - وسمعه يتغنى بفضائل الشريعة المحمدية وينادي بالرجوع إلى القرآن الكريم وقراءته قراءة وعي وإدراك ليكون المنهج الراسخ القدم، الواضح للمسلمين.

وسمعته يتصدى للرد على أعداء الإسلام ويكشف كثيرا من مخططاتهم وافتراءاتهم ومزاعمهم التي يشوهون بها سمعة الإسلام والمسلمين.

كل هذا سمعته من الرجل في حماسة وغيرة ومن كان في مرية من قولي هذا فليقرأ بعضا من مقالاته الكثيرة مثل: غزوة بدر، وفتح مكة، وأحلام مع ليلة القدر، وأشعث وأغبر، وتائب عائد، وأعياد لنا جهلت، وكذلك بحثه العظيم الذي خرج في حلقات مسلسلة «منافحة عن الأدب العربي» ويقرأ كذلك رأيه في الملحمة الإسلامية إلى غير ذلك من الشواهد على ما أقول، إن الرجل ينافح عن الإسلام والمسلمين منافحة مليئة بالحماس والغيرة على الإسلام. فهل يمكن بعد هذا أن تشكك في نية الرجل وتنكر جهوده»؟

هذا دفاع منطقي سليم لا غبار عليه وجهد مشكور في الدفاع عن أديب نابه بليغ القلم عميق الثقافة واسع الأفق ولو سلم هذا الرد من بعض الكلمات العنيفة لكان ردا مثاليا.

على أن الكاتب الفاضل عرض في مقاله لنقطتين أرى من الضروري أن أشير إليهما.

أولاهما: أن حماسته المشكورة للدكتور محمد فوزي قد دفعته إلى أن يصدر بالنسبة للدكتور طه أحكاما قاطعة لا نعتقد أن كثيرا من الباحثين يقرونها أو يوافقون عليها - ونظرا لأن هذه الأحكام تدخل في القضايا التي ستثار مع الدكتور فوزي حول «طه حسين» فلن أعرض لها الآن.

وإن كنت واثقا تماما من أن كاتبنا الفاضل لن يصر يومها على أن ما قيل عن الدكتور طه في بعض اتجاهاته «إن هذه الافتراءات أخلفها الحسدة وأراجيف أرجف بها المبغضون لهذا العالم الكبير» كما أنه لن يجد نفسه

مضطرا إلى أن يتساءل «هل كان الدكتور طه على درب غواية وفي سبيل ضلال لتكون مشايعته مشايعة باطل وموالاته موالاة ضلال».

ولن يجد نفسه مضطرا إلى أن يتساءل في صدد الدفاع عن طه حسين هذا التساؤل «هل كان الدكتور تحسب بسوء نية الإنسان وبغضه للإسلام وتنكره له حين يقول الحق ويصدع بالواقع».

أما النقطة الثانية: فهي خطأ غير مقصود أوقعه فيه عدم قراءته لمقالي الذي كتبته عن الأستاذ الطنطاوي، ولذلك قال في مقاله الذي نحن بصدده: «وخلاصة الموضوع أن الأستاذ عبدالعزيز الربيع قد كتب مقالا يشيد فيه بإنتاج الشيخ الجليل علي الطنطاوي في ميدان الفكر الإسلامي والعربي ويرى الأستاذ الربيع أن الشيخ الطنطاوي أحق بالسيادة والعمادة من الدكتور عميد الأدب العربي طه حسين».

والشق الأول من هذا الكلام صحيح قد كتبت أشيد بإنتاج الأستاذ الطنطاوي أما الشق الثاني فلم أقله ولم يخطر لي على بال فلم أقل إطلاقا أن الأستاذ الطنطاوي أحق بالسيادة والعمادة من طه حسين ولم أكن بصدد عقد مقارنة بين إنتاج الأديبين الكبيرين بل ولم يخطر لي ذلك على بال!

كان حديثي مقصورا على موقف كل من الأديبين تجاه التمسك بمبدأ واحد وقررت بوضوح أن اتجاهات الأستاذ الطنطاوي كانت واضحة وصريحة منذ أول يوم أمسك فيه الطنطاوي بالقلم حتى اليوم - أما طه حسين فقد كانت له اتجاهات مختلفة بعضها شاذ وبعضها منحرف وبعضها لا يخدم مصلحة العروبة وبعضها ينافي دعوة الإسلام.

ولو قرأ الأستاذ الفاضل مقالي لعرف حقيقة المقارنة بين الأديبين الكبيرين، وكان عليّ أن أغفل الإشارة إلى هذا الحديث لولا أن الكاتب الفاضل بنى على ذلك أحكاما. ومع ذلك فأترك الحديث عن هذا الموضوع إلى فرصة قريبة فأكتفي بأن أحيل الأستاذ المفضال إلى المعركة الأدبية القائمة اليوم حول الزيات والعقاد وطه حسين في مجلة الأديب ولعله عندئذ لن يجد «من

الخطأ أن يتحدث عن إنتاج طه حسين».

وقد شارك في الحديث حول الطنطاوي وطه حسين الكاتب الفاضل الأستاذ محمد سليم شرباني بمقال قيم في الجزيرة في عددها الصادر في ٤/١١/١٣٨٧ تحدث فيه عن الفروق الأصيلة بين الأديبين وليس من خطأ في هذا المقال إلا أن كاتبه الفاضلساير الكتاب الآخرين الذين لم يقرأوا مقالي عن الأستاذ الطنطاوي واعتقدوا كما اعتقد هو ـ خطأ ـ أنني عقدت مقارنة بين إنتاج كل من طه حسين وعلي الطنطاوي وقد اتخذ من هذه القضية أساسا بنى عليه مقاله القيم والواقع أنني لم أعقد مقارنة بين إنتاج الأديبين ولم أفكر في عقد مقارنة من هذا النوع ولكن المقارنة كانت في مدى تمسك كل منهما بالمبدأ في إنتاجه الأدبي والفكري.

ومع أن الأساس الذي بنى عليه المقال خطأ فالواقع أن المقال نفسه يعتبر نواة طيبة لدراسة قيمة عن إنتاج الأدباء في ضوء الظروف الاجتماعية والحالات النفسية والثقافة العامة والخاصة، وما قاله الأستاذ الكاتب في خاتمة مقاله عن الأديبين الكبيرين أمر جدير بكل تقدير.

وآخر من شارك في الموضوع كاتب فاضل رمز لاسمه بـ «الأصمعي الصغير» وإن كان من الطريف أنه سار في نفس الاتجاه الخاطئ من حيث الأساس فهو يقول: «لقد بنى البحث في المفاضلة بين الرجلين العظيمين الدكتور طه حسين والأستاذ علي الطنطاوي على أساس رآه غير متين فالمقارنة لا يمكن أن تتم بين شيئين إلا إذا كانا من نوع واحد وكذلك المقارنة بين رجلين يجب أن تتسم بطابع معين.

أما القول بأن الدكتور طه حسين يستحق عمادة الأدب العربي أكثر من الشيخ علي الطنطاوي فبحث يجب أن نقف عنده قليلا».

وأنا مع الأستاذ الفاضل في أنه يجب أن نقف طويلا لا قليلا عند هذه النقطة فأنا لم أعقد مقارنة بين الأديبين الكبيرين من حيث الإنتاج ولكن المقارنة كانت محصورة من حيث التمسك بالمبدأ، وعلى ذلك فأنا أتفق مع الأستاذ

الفاضل فيما قال حول هذه النقطة.

وإن كان من الظواهر الأدبية التي يجب أن تسجل أن يدخل عدد من الأدباء ليشاركوا في معركة دون أن يكلف أحدهم نفسه عناء الرجوع إلى أساس القضية.

صحيح أن الرجوع إلى مقالة أدبية في صحيفة يومية فيه كثير من الصعوبة، ولكن ذلك لا يبرر إطلاقا الدخول في نقاش قبل الرجوع إلى الأساس، ومعرفة وجهة نظر كل من المتناظرين.

وقد قضيت مرة عدة شهور أبحث عن مقال في صحيفة يومية واضطررت إلى أن أتصل بعشرات المكتبات وإلى أن أتردد على عدد من الوزارات في الرياض وإلى أن أتصل بطائفة من الأدباء والمثقفين ولم أعثر عليه أخيرا إلا في مكتبة معهد الإدارة.

وأخيرا أوجه الشكر خالصا إلى جميع الأساتذة الكرام الذي أسهموا في هذه المناقشات التي أرجو أن تعود على الأدب بكثير من النفع والفائدة.

وإلى اللقاء مرة أخرى مع صديقنا الدكتور محمد فوزي البشبيشي حول ما أثار من قضايا أدبية بعد عودته الحميدة - إن شاء الله.

سلامة موسى (*)
بين التخريب والتضليل

كتب الكاتب الفاضل الأستاذ صالح محمد جمال مقالا في جريدة عكاظ بالعدد الصادر في ١٣٨٥/١١/٢٣ يعقب على مقال نشرته جريدة الجزيرة عن سلامة ولم أطلع على عدد الجزيرة المنشور به المقال ولكن السطور القليلة التي نقلها الأستاذ الفاضل - أجزل الله مثوبته - تدل على (افتتان بالمخرب) الأكبر سلامة موسى وعلى إعجاب استبطن الكاتب «فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشفاف ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشعش ثم باض وفرخ» كما قال الحجاج بن يوسف في إحدى خطبه.

وقد أذكر في ذلك بمقال كنت كتبته منذ سنتين أعقب فيه على مقال نشر في جريدة الخليج العربي عن سلامة موسى نحا فيه كاتبه - وقد نسيت اسمه - هذا النحو الشاذ الغريب وأبدى إعجابا وصل إلى درجة الفناء في الكاتب الفرعوني كما يفنى الجريدون ولم أنشر المقال يومئذ لأنني عندما هممت بإرسال المقال للنشر كانت جريدة الخليج قد توقفت عن الصدور فطويت المقال. وها قد سنحت اليوم الفرصة لإعادة نشره بعد أن عاد ذلك الاتجاه الشاذ يطل برأسه على قلم كاتب جديد آخر يوصف بالتجدد والتمرد ولو كان ذلك على حساب دينه وعربيته ومصالح أمته. وهذا هو المقال فما أشبه الليلة بالبارحة، وإن عدتم عدنا.

«وإذا تجسدت العظمة في شخص فحمل للعبقرية أكثر من معنى فإننا نراها في شخص سلامة موسى... ولم يكن ليصل إلى ما وصل إليه لو لم يهبه الله الشجاعة الكافية التي تخوله أن يقول رأيه بصراحة إلى جانب قوته البيانية في التعبير وسلاسة الأفكار. وتعرض كأي رائد اجتماعي للكثير من

(☆) نشر في يوم ١٣٨٥/١٢/١٥هـ بجريدة المدينة المنورة العدد ٦٢٠ .

المتاعب التي استطاع التغلب عليها لإيمانه القوي برسالته في الحياة فاستطاع بعد جهاده الشريف أن يتبنى الأفكار الهادفة البناءة.. وإذا كان سلامة موسى قد أخطأ في وجهة نظره لبعض الأمور فهو إنسان ينطبق عليه ما ينطبق على كل إنسان من حيث الخطأ والصواب ولا مجال أمام أعدائه لكي يتخذوا من أخطائه ذريعة للتهجم عليه».

هذا بعض ما ورد في مقال نشر بالعدد ٢٧٤ من جريدة الخليج العربي لأحد كتابها الأفاضل وكل كلمة في هذا المقال بل وكل حرف يفيض حبا لسلامة موسى وإعجابا لعبقريته وإجلاله لكتبه، وبالرغم من أنني أخالف الأستاذ كاتب المقال في كل ما ذهب إليه فإن مقاله لم يثر في نفسي رغبة قوية في نقده أو نقضه وكنت أريد أن أترك المقال يمر من غير أن أتعرض له من قريب أو بعيد ولكن عَزّ عليّ أن يذهب نفر من شباب أمتي ضحية للمغالطة والتضليل ورأيت من واجبي أن ألقي الضوء على حقيقة سلامة موسى.

ولست أدري أين هذه العبقرية (الموسيقية) التي تحدث عنها الكاتب الفاضل وإذا استجاز لقلمه أن يتحدث عن سلامة موسى بهذا الأسلوب فماذا تراه سيقول عن مفكر كالعقاد وقد ألف العقاد عشرات من الكتب بذل فيها كثيرا من البحث والمراجعة والدرس بينما لم يؤلف سلامة موسى كتابا واحدا ذا قيمة في دنيا البحث العلمي المركز وكل كتاباته ـ كما قال أحد النقاد: «كاتبا لـمّامًا» خطاف من مصادر تعني فقط بالخبر العلمي أو الأدبي يزود بها الصحافة السيارة أو (الطيارة) ولم ينكر هو ذلك بل اعترف به اعترافا واضحا في بعض كتبه وخاصة كتابه «تربية سلامة موسى» وكل كتبه عبارة عن تلخيص لكتب أصدرها بعض علماء الغرب أو نقل ـ غير أمين ـ لبعض الأفكار من هنا وهناك ولست أدري أي لقب سيطلقه الكاتب على مفكر كالعقاد بعد أن قال عن سلامة موسى: «إذا تجسدت العظمة في شخص حمل للعبقرية أكثر من معنى فإننا نراها في شخص سلامة موسى؟! ومن الظلم الواضح الفاضح أن يطلق على العقاد وصف العبقري

لأنك بذلك سيقف في صف واحد مع سلامة موسى الشخصية الضعيفة المتهافتة.

ويقول كاتبنا عن سلامة موسى: «ولم يكن يصل إلى ما وصل إليه لو لم يهبه الله الشجاعة الكافية التي تخول له أن يقول رأيه بصراحة» ونحن نؤيد الكاتب الفاضل هذه المرة ونعترف تماما بشجاعة سلامة موسى في التعبير عن آرائه بصراحة يحسد عليها ولكننا نختلف معه في دوافع هذه الشجاعة فهي - في رأينا ورأي الحق - دوافع نابعة من إخلاصه للفرعونية وحبه للصليبية وبغضه للعرب وحقده على الإسلام.

لقد كان يعتبر نفسه صاحب رسالة عليه أن يؤديها وأن يتحمل في سبيلها كل المتاعب والمشاق وكانت رسالته واضحة في ذهنه محددة لا لبس فيها ولا خفاء وهي أن يقطع كل الوشائج التي تربط العرب ببعضهم وأن يرجع بمصر القهقري حتى تعود إلى العصور الفرعونية، وبذلك فقد سعى سعيا حثيثا في سبيل أن يحطم الأمة العربية وأن يهزأ بها وأن يسخر من عقليتها وتراثها وأدبها كما اتهم الإسلام بالجمود والتخلف وكان يستخف بكل رجال القلم في مصر ممن يعنون بالثقافة الإسلامية ويسميهم - من باب الزراية عليهم - بالسلفيين كالعقاد وطه حسين وهيكل. وكان منطقه عجيبا فمن يتحدث عن الفرعونية أديب واسع الأفق رحب الثقافة متحرر الفكر وأما الذي يتحدث عن الإسلام فهو إنسان متحجر الفكر تافه متخلف وكان يتظاهر بأنه متحرر من كل الأديان حتى ديانته المسيحية الأرثوذكسية ليغري الصغار ويستهوي ضعاف الإيمان من المسلمين ولكنه كان في حقيقته مسيحيا متعصبا يقوي المسيحية ويعلي من شأنها في كل مناسبة ويمجد المسيح - عليه السلام - ولولا خوفه على حياته لحاول الإنقاص علانية من سيد الرسل وخاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - يقول عن السيد المسيح: «وشخصية المسيح هي بعد كل ذلك شخصية مغلقة فإن كل مثولة من أماثيله تبعث على التفكير المغلق المثمر إذ هو يثير بها المشكلات البشرية العادية التي تنزعنا من القيم الاجتماعية الزائفة إلى

القيم البشرية الصميمة. وحياتها الرائعة ثم مأساته المؤلمة كلتاهما دعوة إلى البر والشجاعة والشرف والتضحية ولا يتمالك المتأمل للإنجيل من الوجد لأن الضمير المسيحي يقتضي النظام الاشتراكي لأن هذا النظام هو التطبيق العالمي للأخلاق المسيحية، والمسيحية تعد في هذا المعنى ديانة الكفاح وليس ـ كما يتوهم البعض ـ ديانة الركود ولست أشك أن الرجل المسيحي في دنيانا هذه وفي عصرنا هذا هو المثال الأسمى في الأخلاق» وهذا دفاع رائع عن المسيحية ينبعث من قلب تغلغل حبها في شغافه وهو حب ساعد على قوته وتمكنه كره سلامة موسى للإسلام كرها عميقا لا سبيل إلى انتزاع جذوره. والمتأمل لهذه السطور التي نقلناها يشعر شعورا عميقا بأن سلامة موسى يهاجم الإسلام وينتقص منه وهو يرد على أولئك الذين يصفون المسيحية بأنها دين الخضوع والاستسلام وأنها ليست ديانة متكاملة ويصفون الإسلام بأنه دين القوة والسمو والعزة وأنه دين متكامل يهتم بحياة المسلم في مجتمعه ودنياه بقدر اهتمامه به في أخراه وينظم كل ذلك تنظيما دقيقا فهو يقارن بين المسيحية والإسلام ولكنه كان يجبن من أن يقول ذلك صراحة وينتهي من هذه المقارنة بتفضيل المسيحية ويقرر في حزم قائلا: «ولست أشك أن الرجل المسيحي في دنيانا هذه وفي عصرنا هذا هو المثال الأسمى في الأخلاق» كانت رسالة سلامة موسى تنحصر في إحياء «الوطنية الفرعونية» قد رأى بعد البحث والتأمل أن هذا الإحياء لن يتم إلا بعد «إجلاء» الإسلام عن مصر و«إضعاف» شأن اللغة العربية تمهيدا للقضاء عليه. وإجلاء الإسلام عن مصر لن يتم إلا بخلخلته في نفوس المسلمين عن طريق اتهامه بأنه دين الغيبيات وأنه لا يتناسب مع العصر ولا يصلح لمجاراة التطور هذه الخطوة الأولى أما الخطوة الثانية فهي قطع كل علاقة إسلامية تربط مصر بغيرها من الأقطار الإسلامية وذلك عن طريق «محاربة» جميع الأصوات التي تناصر الإسلام لأنها أصوات «غير وطنية» وأن الوطنية شيء والدين شيء آخر. أما الخطوة الثالثة فهي «التهوين» من شأن اللغة العربية لأنها لغة لا تتفق وعصر السرعة فهي بأسلوبها البياني الرفيع وعباراتها القوية المحكمة لا تمكن الكاتب من أن

يصل إلى عقول الجماهير فتظل منفصلة عنه وأسلم طريقة في نظره هي محادثة الشعب بلغته ولغته هي العامية.

وقد بذل سلامة موسى جهدا استنفد طول حياته في تحقيق دعوته إلى «إحياء القومية الفرعونية» مستخدما كل ما يعرف من أساليب الخبث والشر والفساد، وتعاون مع الإنجليز وغيرهم من المبشرين في سبيل تحقيق ذلك المأرب الدنيء وتصور مدى لهفته على تحقيق «رسالة الفرعونية» من قراءة هذه السطور يقول: «وقد تغير إحساسي نحوها - الكنيسة - تغيرات مختلفة فقد عزفت عنها أيام الشباب... ثم عدت إليها في حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ووجدت صوت الفراعنة ينطلق عاليا من منابرها فأصبحت الكنيسة العظيمة عندي كنيسة قومية مصرية... ولست أشك أني حين انكببت على دراسة الفراعنة إنما كنت أنبعث من روح ديني قومي».

وكان لا يمتدح أحداً من الكتاب المصريين إلا إذا كان «قبطيا» أو مسلما منحرفا أو ضالا. ولن أنقل للقراء شيئا من ثنائه على الكتاب الأقباط والمسيحيين فكتبه حافلة بذلك ولكنني سأنقل للقراء ثناءه على ثلاثة من المصريين المسلمين وسيعرفون من غير جهد أسباب هذا الثناء يقول: «وكان لطفي السيد وعبدالعزيز فهمي وقاسم أمين جيلا جديدا في مصر بعد الجيل الذي كان منه الأفغاني ومحمد عبده وكان هذا الجيل أكثر جرأة ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الإعراب في اللغة ولطفي السيد يدعو إلى لغة مبسطة تقارب العربية كما نجد عبدالعزيز فهمي الآن يدعو إلى الخط اللاتيني».

لقد كان إيمانه عميقا بالقومية الفرعونية وكان قلبه يتمزق وهو يرى سيادة الإسلام وانتصار العروبة وتفوق العربية وكان يتمنى أن يأتي اليوم الذي تسود فيه الكنيسة وتعود اللغة القبطية ويزدهر مجد الفراعنة. وليس أدل على هذا الإيمان من تسمية أحد أبنائه باسم فرعون من فراعنة مصر وهو (خوفو) ولم يجد في الأسماء الإسلامية أو المسيحية أو المشتركة ما يغنيه عن هذا الاسم الثقيل السخيف. ومن الواجب أن نضع هذا التصرف من

قِبَل سلامة موسى إلى جانب تصرف مشابه من أديب مسيحي آخر هو الأستاذ مارون عبُّود فلقد دعاه حبه للعروبة والعربية ومحمد نبي العرب والمسلمين إلى أن يسمي ابنه (محمدا)!

ومارون أديب ترك آثارا خالدة في دنيا النقد والأدب أما سلامة فماذا ترك غير تاريخه المظلم ومحاولاته اليائسة من أجل تقويض دعائم العروبة وأمجاد الإسلام وإحياء القومية الفرعونية؟ تلك المحاولات التي انتهت بالفشل الذريع ووضعت في قلبه مرارة نغصت عيشه وسودت حياته.

هذه هي «المتاعب» التي تعرض لها «الرائد الاجتماعي» والتي ما «استطاع التغلب عليها» رغم «إيمانه القوي برسالته في الحياة» وهذا هو «جهاده غير الشريف في تبني الأفكار الهادفة البناءة» الهادفة إلى تقويض المجتمع الإسلامي البناءة للأمجاد الفرعونية القديمة.

أما قوة سلامة موسى البيانية في التعبير وسلاسة الأفكار ـ كما ورد في مقال الكاتب الفاضل في جريدة الخليج العربي ـ فإن الفضل لا يعود أبدا إلى سلامة موسى بل إن الفضل كل الفضل يعود إلى أعداء سلامة موسى الذين يبغضهم أشد البغض ويضمر لهم من الشر والسوء ما لا سبيل إلى وصفه، لولا فضل هؤلاء الأعداء الذين وقفوا في وجهه ومحاولات المستعمرين والمبشرين والمخدوعين بهم من الأذناب ـ ومنهم سلامة موسى ـ لولا وقوفهم في وجه المحاولات الإجرامية الداعية إلى التخلص من اللغة العربية وإحلال اللغة العامية الدارجة محلها لما كان لسلامة موسى أية قوة بيانية في التعبير بل لعجز كاتبنا عن قراءة أفكار سلامة موسى لأنه سيكتبها بلغة عامية وسيجهد جهده في استبعاد كل كلمة فيها نضارة العربية وإشراقها لينحدر بالعامية إلى اللغة القبطية ولكن سلامة موسى كان مضطرا إلى أن يجود أسلوبه ويقوي بيانه لأنه بغير ذلك لا يستطيع الوصول إلى إفهام الخاصة ولا العامة لينقل أفكاره المخربة ودعوته الفرعونية فالناس في مصر وفي كل بلد عربي يستسيغون الحديث باللغة العامية الدارجة ولكنهم لا يطيقون قراءتها أو الكتابة بها. ومن أجل ذلك اضطر سلامة موسى إلى

الكتابة بالعربية السليمة وانطبق عليه قول شاعر العربية العظيم أبو الطيب المتنبي:

ومن نكد الدنيا على (المرء) ان يرى عـدوًا لـه مـا مِـن صـداقـتـه بُـدُّ

وظل طول حياته في نكد وفي همٍّ مقيم مقعد من هذه اللغة التي لا تزيدها الأيام إلا بهجة وإشراقا وكلما حاول طمسها زادت بهاء ونضارة.

وقد مات وهو يتجرع الغصص فجميع الذين أثنى عليهم لأنهم يناصرون دعوته من قريب أو بعيد قد انقلبوا إلى حُماة للعربية وأنصار لبلاغتها فلطفي السيد يترجم كتب أرسطو بأسلوب عربي فصيح فيه جزالة وفيه قوة وقاسم أمين يكتب مقالاته ويؤلف كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» بأسلوب فيه حيوية ونضارة ومحمود تيمور يصبح قطبا من أقطاب المجمع اللغوي وتوفيق الحكيم يغدو واحدا من أساطين البلاغة العربية. وقول الكاتب الفاضل في مقاله بجريدة الخليج العربي: «وإذا كان سلامة موسى قد أخطأ في وجهة نظره لبعض الأمور فهو إنسان ينطبق عليه ما ينطبق على كل إنسان».

ونحن مع الكاتب في أن سلامة موسى لم يخطئ غير أخطاء بسيطة «تهد الجبال» ونحن قد وضعناها أمام أنظار القراء فيما سبق. ولا مانع من إعادة تلخيصه خدمة للحق ولسلامة موسى «الكاتب المفكر الجريء المظلوم» وأخطاؤه - إذا اعتبرها القراء أخطاء - هي كما يلي:

١ - دعوته إلى إحياء القومية الفرعونية.

٢ - دعوته إلى إحياء اللغة القبطية والفرعونية.

٣ - محاربته الدين الإسلامي.

٤ - محاربته اللغة العربية والأدب العربي.

٥ - حثه الشباب المصري - والمسلم منه خاصة - على التحلل من قيود الأخلاق.

٦ - حبه للكنيسة والمسيحية والصليبية.

٧ ـ محاولته فصل الأمة المصرية عن الأمة العربية.

٨ ـ تعاونه مع المستعمرين وخاصة الإنجليز.

هذه هي أخطاء سلامة موسى، ولكن سلامة ارتكبها بقصد وبسبق إصرار ـ كما يقول رجال القانون ـ بل لقد ظل طول حياته وهو يكرر كل جريمة من هذه الجرائم مئات المرات.

فإذا كان الكاتب الفاضل يرى أن هذه الأخطاء «أمور تافهة لا تستحق الذكر» فنحن معه حين يقول: «فلا مجال أمام أعدائه لكي يتخذوا من أخطائه ذريعة للتهجم عليه».

أما إذا كان يرى أن كل خطا من هذه الأخطاء كاف لأن يذهب به إلى هاوية ما لها من قرار فإننا نعتبر أنفسنا ونعتبر كل كاتب مخلص مقصرا في واجبه عندما لا يهب للدفاع عن أمته ومستقبله ومقدساته.

يونس الابن....(*)
وسلامة موسى الجديد

لعل من المصادفات العجيبة أننا كنا نتحدث في مقال نشر في جريدة المدينة الصادر في ٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٦ عن رجلين يقف أحدهما في أقصى اليمين ويقف الآخر في أقصى اليسار، يقف أحدهما يدافع عن عروبته وينافح عن إسلامه ويذود عن أمجاده.. ويقف الآخر ينتقض العروبة ويسخر من الإسلام ويهزأ بالعربية. ويدعو في حماسة جنونية إلى هدم الإسلام ووأد القرآن وسحق العربية وينادي بصفاقة وقحة إلى إحياء الفرعونية وبعث الفينيقية ودعم الشعوبية وإعلاء الصليبية كنا نتحدث عن رجلين نذر أحدهما نفسه لله ينصر دينه ويعلي كلمته ويقدس قرآنه، ووهب الآخر نفسه للشيطان يعمل بوحي منه يغوي بالباطل ويغري بالوساوس ويمني بالغرور ويعد بمكذوب الآمال.

كنا نتحدث عن تاريخ رجلين كتبت صفحات أحدهما بأحرف من نور وجللت صفحات الآخر بمداد الخزي والعار.

كنا نتحدث عن الرافعي العربي المسلم وعن سلامة موسى القبطي الفرعوني، وكان حديثنا يؤرخ فترة ماضية. وكنا نتصور أن ذلك تاريخ مضى ولن يعود فقد ظهر الحق وانتشر النور وأخذت العربية تستعيد مكانتها في الجامعات على اختلاف ألوانها وفي المحافل على تباين مشاربها، كما أخذت الدعوة إلى دين الله تسير في الاتجاه الصحيح، وشعر المسلمون بواجبهم تجاه هذا الدين واستبشرت القلوب المؤمنة واطمأنت النفوس القلقة، وظهر أن الهدف دانٍ وأن نصر الله قريب.

ولكن نعيقا سمعناه أمسِ نبه أذهاننا إلى أن سلامة موسى لم يمت ـ ولئن مات جسمه ـ فإن له خلفاء يظهرون بين آونة وأخرى كلما وجدوا فرصة أو

(☆) نشر في يوم الأحد ١٣٨٦/٤/٢٠ بجريدة المدينة المنورة العدد ٧٧٥

رأوا سانحة.

إن أعداء الإسلام موجودون في كل زمان ومكان ولكنهم يتوقفون في انتظار غفلة أو اقتناص فرصة.

منذ شهرين أو أكثر وقف أحد المستشرقين في إحدى الجامعات وهاجم نبي الإسلام هجوما عنيفا وكال له - صلى الله عليه وسلم - ما شاء له حقده وصليبيته من شتائم وانتقاص، وثار الطلاب المسلمون واضطرت الحكومة إلى استبعاد هذا الأستاذ واحتجت الجامعة على موقف الحكومة وقالت إن هذا العمل يعتبر اعتداء على حرية الفكر ودافعت عن الأستاذ المستشرق بأنه كان ينقل بعض ما قيل عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم.

ترى لو قام أستاذ في أي جامعة بمهاجمة السيد المسيح - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - أكان يغتفر له موقفه هذا بحجة أنه كان يروي ما قيل عنه من أقاويل مغرضة واتهامات؟ أم أن الوضع عندئذ سينقلب، وتطالب الهيئات والجمعيات والحكومات بمعاقبة هذا المحاضر «المجرم» عقابا لا هوادة فيه ولا رحمة وينسون عندئذ شيئا اسمه «حرية الفكر»؟!

وقبل أن تهدأ الضجة التي أثارها موقف الأستاذ المستشرق الغارق في الصليبية وعداوة الإسلام إذا بنا نفاجأ بشخصية نكرة لم نسمع باسمها من قبل ينعق نعيقا مزعجا فيذكرنا بسلامة موسى وأضرابه، وقد أخرج للناس منذ قريب كتابا باللغة العامية اللبنانية سماه «أربع خمس كلمات» يروي فيه قصة حب جنسية تستثير غرائز المراهقين والمراهقات وتدغدغ العواطف الغضة.. ويتعمد ذكر الأسماء والأوصاف والتواريخ الصحيحة لحكاية حبه المزعوم أو الحقيقي ليزيد في طرافة هذا الكتاب «الوقح».

ولو كان ذلك كل ما في الأمر لما أضعنا نقطة حبر في كتابة شيء حول الكتاب أو الكاتب، فليست هذه أول (محاولة) سخيفة من هذا النوع وسيطويها النسيان كما طوى كثيرا من أمثالها، والأسواق تغص بالقصص الجنسية والانحرافات الذهنية والعاطفية، والكتابات الداعية في هدوء واستحياء إلى

هدم القيم وتحطيم المثل وتمزيق التقاليد.

لو كان ذلك كل ما في الأمر لتجاهلنا هذه المحاولة وتركناها للزمن يجر عليها غبار النسيان، ولكن خطورة الأمر تتجلى في هذه الدعاية التي أحيط بها هذا الكتاب، ثم هذه الجرأة العجيبة التي تجلت في مهاجمة مؤلف الكتاب للغة العربية وللقرآن العظيم.

و«يونس الابن» مؤلف هذا الكتاب مواطن لبناني ولست أعرف لماذا أُسمي «يونس الابن» لعله تقليد لاسم الكاتب الفرنسي «دوماس الابن» وقد أضاف الناس كلمة الابن للكاتب الفرنسي تمييزا له عن أبيه فقد كان كلاهما مؤلفا قصصيا أما يونس الابن فليس له إلا هذه المحاولة التافهة ولا نعرف لأبيه يدا في الأدب ولا شبه يد.

أو لعله نوع من وسائل استجلاب أنظار القراء واصطياد الشهرة.

يونس الابن هذا يبدو أنه فضل أن يخرج للناس شيئا ذا قيمة في دنيا الأدب العربي السليم فهداه تفكيره إلى أن يلجأ إلى اللغة العامية فلعله واجد فيها مجالا لم يجده في العربية، وفعلا نظم شعرا عاميا يتحدث عن قصة حب وليضفي على هذه القصة أهمية ذكر فيها الأسماء والأوصاف والتواريخ الصحيحة ـ كما يقول ـ ولم يكتف بذلك بل أهدى كتابه إلى «المرأة التي جاء اسمها وحكاية حبها فيه» وكل هذه الأشياء من شأنها أن تستثير فضول القراء ويبدو أن الكاتب الفاضل أهدى كتابه لبعض الكتاب فكتبوا إليه بعض التقريظات فوجد في ذلك فرصة لنشر دعاية عن كتابه.

وقد كتب له ميخائيل نعيمة وسعيد عقل وإلياس ربابي.. وميخائيل نعيمة واقع تحت تأثير تيارين: مسيحيته وتجرده من الأديان فهو أحيانا يكون واقعا تحت تأثير واحد من هذين التيارين ولكنه لم يستطع التخلص منهما جميعا في وقت واحد. ولذلك فبينه وبين الإسلام فجوات عميقة لم يستطع اجتيازها منذ أن أمسك بالقلم حتى هذه اللحظة ومع ذلك فإن كلماته التي حاول أن يستغلها يونس الابن قابلة للتأويل والتفسير.

أما سعيد عقل فهو مريض لغويا - إن جاز هذا التعبير - فبينه وبين العربية خلاف قديم أو جفاء مزمن، وهو يكره العربية ويدعو إلى العامية، وله محاولة قديمة في هذا المجال فقد أصدر ديوان شعر بالعامية اللبنانية باسم «قدموس» - إن لم تَخُنِّي الذاكرة.

ولست أدري لماذا لم يواصل سعيد عقل محاولاته في إحياء العامية وينظم كل شعره بها؟ أغلب الظن أنه لو فعل لما أصبح سعيد عقل بل لأصبح سعيد شي آخر!

إن كل شهرته في العالم العربي قائمة على ما كتب ونظم بالعربية الفصحى، لا شيء غير ذلك، ولن أتعرض للكاتب الثالث فأنا لا أعرفه ولم أسمع باسمه قبل الآن.

وإذا كان من الكتاب الثلاثة مؤمنين بما يقولون فلماذا لم يتحدثوا عن كتاب «الابن» باللغة العامية «المجنحة»؟ أليس ذلك أشد تأثيرا وأقوى حجة؟

ليت يونس الابن كتب قصته واستفاد من تقريظ من قرظوا كتابه ووقف عند هذا الحد إذن لكفانا وكفى القراء شر الكتابة والتعليق، ولكن الكاتب الفاضل تاه في صحراء الغرور وظن نفسه شيئا فأخذ يضرب يمينا وشمالا ويتحدث عن أمور لا يعرف نتائجها كما سنرى بعد في الفصول القادمة.

يونس الابن ... أو(*)
سلامة موسى الجديد
الحلقة الثانية

سأل أحد المعجبين يونس الابن «لماذا اخترت العامية إطارا لإبراز شعرك؟» وكان الجواب المقبول والمنطقي هو أن يقول: «لأنني عاجز عن النظم بالعربية، وأساليبها لا يقدر عليها إلا الموهوبون والعالمون» ولكن غروره أبى عليه هذا الجواب لا فض فوه «لأن الحياة سبقتني واختارتها لغة لها» ولست أدري أي حياة يعنيها يونس الابن؟ الحياة الفاضلة المثلى أم حياة الغرائز الدنيا!! الحياة الفضلى التي تدعو إلى أن نهذب غرائزنا ونتسامى بها وإلى أن نعيش عيشة فاضلة، وتدعونا إلى الارتقاء بلغتنا واستعمال أبلغ الأسباب وأجملها وإلى انتقاء الألفاظ الرقيقة المهذبة. ذلك ما تفعله كل أمة راقية، وذلك ما يفعله الإنجليز والفرنسيون وغيرهم، فلغة الكتابة بلغة سامية بعيدة عن لهجات الشمال أو الجنوب يفهمها كل من يقرأ الإنجليزية والفرنسية.

الحياة الفضلى تفرض علينا أن نربي أولادنا تربية مثالية فنمنعهم من اللعب في التراب أو الوحل أو الاستحمام في الماء الملوث أو مخالطة الأشرار أو المنحطين عقليا أو خلقيا وتفرض علينا أن نرعاهم وأن نهذب لغتهم وأن نهيئ لهم من الكتب ما يرقى بوجدانهم وأسلوبهم ولغتهم هذا ما تفرضه علينا الحياة الفضلى، وإذا كانت هناك ظروف قاسية فرضت على الأمة العربية في أقطارها المختلفة أن تعيش بمعزل في كل قطر، مما دعا إلى تكون لهجة محلية لا تكاد تفهم إلا في البيئة الضيقة المحدودة فهل يعني ذلك أن نعيش في عزلتنا محكومين بهذه اللهجة المحلية وألا نحاول أن نستقي من المنبع الصافي الأصيل الذي ربط أمتنا منذ الجاهلية برباط قوي

(☆) نشر في جريدة المدينة في العدد ٧٣٧ بتاريخ ١٣٨٦/٥/٥ .

وبذلك نتخلص من هذه السدود أو القيود؟!

لو سار الإنسان مع الحياة لأصبح في حالة لا تختلف عن حالة أمة من الأمم البدائية، وإن لم يخضع للحياة دخل في صراع معها منذ أول لحظة محاولا تطويرها وتحسينها لتكون الحياة الصالحة، وقامت الأديان السماوية بتوجيه الإنسان وبالسير به إلى ما فيه خيره في الدنيا والآخرة، حددت غرائزه وكفكفت من اندفاعه ووضعت له النظم والقوانين، فلسنا عبيدا للحياة كما يتصور السيد يونس الابن - ولكنها مُوجِّه نحو هذه الحياة فقد سخرها لنا الله وقال في محكم كتابه: ﴿**هو الذي سخر لكم ما في الأرض جميعًا منه**﴾ ولو كنا عبيدا للحياة لما اختلفنا عن الحيوانات الدنيا في شيء.

ومن العجيب أن تصلح لغتنا العربية للاستعمال أكثر من ألفي عام ثم يأتي «يونس الابن» وأضرابه ليقول لنا إن هذه اللغة غير صالحة للشعب! والعيب ليس عيب اللغة ولكنه عيب الكسالى والضعفاء والمقصرين.

اقرأ معي هذه السطور التي كتبها علامة لبناني هو سليمان البستاني (مترجم إلياذة هوميروس إلى العربية) وقد أمضى أكثر من سبعة عشر عاما في هذه العمل العظيم يقول العلامة البستاني: «بدا - أثناء التعريب - من ثروة العربية في الألفاظ الوضعية القديمة ما أغناني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطر إليه بعض نقلة الإفرنج ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يدهش له الناظم والناشر، وينبئك ذلك أن العرب لم يغفلوا عن وضع شيء من الألفاظ الدالة على جميع مطالبهم ومحسوساتهم حتى أصبحت مفردات اللغة في زمنهم رابية على حاجة التعبير، ولا سيما في الحسيات.

فإذا وصف الناظم السلاح وهو سلاح العرب وفي اللغة لفظة بل ألفاظ للدلالة على كل ما قاله من الشكة إلى السلاح الكامل إلى الحجر فلا يعدم الناقل وسيلة للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف والمدى ومفاعلها وأفهادها والرماح والزجاج وكعوبها وأسنتها وصعادها إلخ إلخ.

وإذا أتى على ذكر «الخيل» فما من لغة أوسع من العربية بأوصافها وتمثيل عددها وجريها وتطبيقها وتقريبها وحفرها وارتفاعها.

وإذا ذكرت الحروب ـ وعليها مدار الإلياذة ـ فلم تفتن أمة فوق العرب لوصف القتال والنزال والمجاولة والمصاولة والمشق والرشق والحذف والقذف والمعاصعة والنقع بالمناصل والضرب بالمعاول والوخز بالحوامل...

وقس على ذلك جميع ما تناول وصف الأحوال المعاشية والروابط القومية والأحكام العرفية والمظاهر الطبيعية من وهاد وهضاب ومطر وسحاب وبحر وبر وزرع وضرع وماء وهواء وأرض وسماء، بل قد تجد خزانة العربية أجمع وثروتها أوسع بما حوت من الألفاظ المفردة التي لا يعبر عنها في لغات الأعاجم إلا بعبارات.

وللعربيَة مزيتين في مفرداتها تعجز اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها فيهما. وهما كثرة المترادفات في الألفاظ الدالة على المعنى الواحد وتعدد المعاني للفظلة الواحدة».

أرأيت يا قارئ العزيز ما يقول البستاني العالم؟ أرأيت الفارق الماثل بين لبناني ولبناني؟ بين العالم والجاهل؟ بين منطق القدرة ومنطق العجز؟ بين فحولة الرأي وضحالة الفكرة؟ بين قوة القادر وضعف العاجز؟ وهل أنت مستعد بعد ذلك لإلغاء عقلك والإيمان بما يقوله يونس الابن وميخائيل نعيمة وسعيد عقل؟ هل أنت مستعد للتضحية لتراث أكثر من عشرين قرنا من أجل سواد عين الابن والمطبلين له؟ مَن يأكل الحقدُ الأسودُ على الإسلام قلوبَهم ويعصف بنفوسهم ويدفعهم إلى مزالق خطرة يعميهم عنها شهوة الانتقام.

وقد سأل المعجب الفاضل أستاذه «الابن»: ألا ترى معنا أن اعتمادك على العامية اللبنانية يؤقلم لغة الكتابة ويقصر قراءته وفهمه على اللبنانية فقط؟ وقد أجاب الشاعر (العظيم) بأن الأمر على العكس وأنه تلقى رسائل من قراء عرب ذوي جنسيات مختلفة «رسائل تريك تفاعل أصحابها مع الشعر

تفاعلا يجعلهم يتذوقون حتى التوريات الناعمة والصور البيانية القائمة أحيانا على التلاعب بالألفاظ».

ولن نناقشه في هذه الرسائل ولن نطالبه بإثباتها ولن نفترض أن مرسيلها من العرب المقيمين في لبنان إقامة طويلة، لن نفعل كل ذلك لأن الكاتب الفاضل اعترف لنا بحقيقتين هامتين:

أولاهما: أنه لم يكتب شعره باللهجة اللبنانية كما زعم فيما سبق.

ثانيتهما: أنه قرر طائعا مختارا عجزه عن استعمال اللغة العربية.

يقول الكاتب «الابن»: «وأعتقد أنك لحظت أن عاميتي هي الفصحى المسكنة وقلما وقعت على عبارة إقليمية لا تفهم في غير لبنان إذا استثنينا تركيزي على تحويل «التاء المربوطة» إلى «ياء» لإبراز شخصية اللهجة اللبنانية وحرصت على وضع هذه التاء المقلوبة ياء في القوافي إلى جانب كلمات تكون الياء في أساسها، كأن جعلت قافية «عيوني» مع قافية «مجنوني» التي أصلها «مجنونة» فعاميتي هي الفصحى المسكنة وليست العامية اللبنانية لأن اللهجة اللبنانية الخالصة لا تصلح أن تكون شعرا»! والفصحى هو غير قادر على النظم بها لعجزه عن التقيد بقواعدها.

ويقرر الأستاذ الكبير «أن الفصحى فشلت غنائيا وسينمائيا ومسرحيا وتكاد تفلس شعريا».

والواقع أن الفصحى لم تفشل ولكن أبناء العربية هم الذين فشلوا فالأدباء والشعراء لم يتطوروا كما يجب والمنتفعون يهمهم الكسب المادي والإثراء السريع، وقد استفاد من ذلك طائفة من أمثال الشاعر «الابن» فنظموا أغنيات باللهجة العامية تكاد تنحصر في دائرة الحديث عن الحب والغرام، كما استفادت طائفة أخرى من هذا الوضع فكتبوا قصصا متهافتة باللغة العامية، لقد شاهدت مسرحية «مجنون ليلى» الشعرية لشوقي كما شاهدت مسرحيتي «قيس ولبنى» و«العباسة» لعزيز أباظه وأشهد أن الجمهور على اختلاف طبقاته كان متتبعا للرواية متفاعلا مع أحداثها لم يتعبه عن ذلك

شعرية الرواية ولا سمو ألفاظها وتعبيراتها. ومن المدهش أن الروايات التي كان يقدمها رجال المسرح القدامى كالشيخ سلامة حجازي وجورج أبيض وأضرابهما كانت تقابل بمنتهى الإعجاب، وكان المفروض أن تستمر هذه النهضة المسرحية ولكن الذي حدث أنها أصيبت بنكسة ظلت الأمة العربية تعاني منها حتى الآن.

وبهذه المناسبة فكم كان بِوُدِّي أن تلتزم إذاعتنا اللغة العربية الفحصى في إذاعة الأغاني المحلية إنها لو فعلت لخدمت أمتنا ولغتنا خدمات لا تنسى ولامتازت على كل إذاعات العالم.

إن لغتنا الحبيبة أثبتت نجاحا رائعا في دنيا الأغنية في القديم والحديث، أما في القديم فهناك تاريخ طويل عريض للأغنية الفصيحة وحسبنا كتاب الأغاني بمجلداته العشرين. وقد برع الفنانون في إخراج الأغنية براعة لا مثيل لها. وقد سجل صاحب الأغاني طريقة التلحين في كتابه ولكنه لم يشرح الرموز التي استعملها باعتبارها معروفة في زمنه ولذلك عجز الموسيقيون والملحنون في العصر الحديث عن اكتشاف أسرارها.

أما في الحديث فهناك طائفة كبيرة من الأغاني العربية تشوق الأذن وتطرب الفؤاد، ولي صديق أديب لا يقتني من الأغاني إلا ما كان فصيح الكلمة عربي اللهجة. وقد اجتمع عنده مكتبة كاملة من الأسطوانات والمسجلات العربية.

وهناك طائفة من الأصوات الذهبية تضيع هباء في غناء أغان عامية مبتذلة، لو استفدنا منها في أغان عربية فصيحة لحققنا لبلادنا وأمتنا مجموعة من المكاسب:

أولها: تدعيم لغتنا القومية وإضافة محصول لغوي إلى أطفالنا وفي ناشئتنا.

ثانيها: الارتفاع بمستوى الأغنية والابتعاد به عن الابتذال والسوقية.

ثالثهما: قطع الطريق على المغرضين والمخربين الذين يحاولون تحطيم ديننا ولغتنا محتجين بعدم قدرة هذه اللغة على مسايرة التطور.

أذكرتني محاولة السيد «الابن» الخبيثة بموضوع يصلح أن يكون مجالا

للمقابلة بين فكرة وفكرة، فكرة تنبع من قلب صاف سليم نقي عامر بالحب والخير والإيمان. وفكرة تصدر عن ضمير مشبوه يسعى إلى قطع الأواصر وتمزيق الروابط.

ذكرت موقف الصومال الحبيب فقد تقدم إلى الأمة العربية يعلن رغبته في أن تكون اللغة العربية هي لغة الدولة والأمة. وهذا كسب كبير لأمة العرب فإن إضافة هذه الملايين إلى العربية كسب لا مثيل له. ونحن نلاحظ المجهودات العظيمة التي تبذلها بريطانيا وأمريكا من أجل نشر الإنجليزية وتوسيع العالم الانجلوسكوني كما نلاحظ مجهودات أخرى تبذلها فرنسا وغيرها من دول العالم ونحن نكسب في سنوات قليلة ما تعجز أقوى أمم الأرض عن الحصول عليه في عشرات السنين أو مئاتها.

ضع هذا الموقف النبيل الذي يستحق الإجلال والإعجاب إلى جانب موقف سلامة موسى وسعيد عقل ويونس الابن من اللغة العربية، هذا الموقف الذي يدعو إلى فصم الروابط وإقامة الحواجز وقطع ما أمر الله به أن يوصل.

يونس الابن... (*)
أو سلامة موسى الجديد
الحلقة الثالثة

نصل بعد هذا التطواف الطويل إلى أخطر نقطة في دعاوى بطل الساعة يونس الابن.

وكما يتستر أعداء العروبة وخصوم الإسلام دائما وراء العلم والتجديد والتطور فإن الابن قد وجد في إحدى النظريات العلمية حصنا يحتمي به. ولكنه مع الأسف حصن من ورق كما سترى، سأله المعجب: «هل هناك ما نعزو إليه جمود الفصحى وعجزها - على حد رأيك - عن السير عالميا؟» فأجاب العلامة الكبيرة: «بصرف النظر عن صعوبة العربية كلغة ومفردات وقواعد وصرف ونحو وضيق وقت الطلاب وكثرة المواد التي عليهم أن يلموا بها إلى جانب العربية كلغة. هناك جهة نظر علمية ومنطقية وجريئة جدا تقول: - افتح عينيك جيدا أيها القارئ - إن كل لغة ترتبط بالدين تتحول إلى تراث لا يمكن تطويره أو التلاعب به خذ مثلا اللغة العبرية القديمة واللغة اللاتينية واللغة اليونانية القديمة واللغة السريانية وسواها، هذه اللغات تكاد اليوم تكون ترفا ثقافيًا يحفظ كما هو ولا سبيل إلى التلاعب به كما لا يمكننا مثلا أن نتلاعب بهندسة قلعة بعلبك أو أهرام الجيزة أو تمثال فينوس، وارتباط العربية بالدين يجعلها شيئا له حرمته وقدسيته لا يمكن تشويهه بتطورات العصر وتسخيره لتقلبات الدنيا..».

ما شاء الله كان.. هل قرأتم - أيها القراء الأعزاء - آخر ما تفتّقت عنه عبقرية الشاعر الملهَم، وهل ذكرتم معي أبا العلاء المعري ذلك المسكين الذي زعم أنه «وإن كان الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل» ثم تصدى له طفل فأفحمه حين زعم له أن الأوائل أتوا بثمانية وعشرين حرفا وطالبه

(☆) نشرت في جريدة المدينة يوم الأحد ١٢/٥/١٣٨٦هـ العدد ٧٤٣ .

بإضافة حرف عليها فبهت ولم يحر جوابا! إنه مسكين حقا! أما شاعرنا العبقري فقد أتى بما لم يأت به الأوائل ولا الأواخر. إنه جهيزة زمانه؛ تلك التي قطعت قول كل خطيب، وإنه الفراء الذي قيل عنه إن كل الصيد في جوفه.

ما شاء الله كان ... هل استمعتم أيها القراء إلى هذه النظرية «العلمية والمنطقية والجريئة جدًا» وهل رأيتم عبقرية الشاعر العظيم في التطبيق، إن اللغة العبرية القديمة واللغة اللاتينية واللغة اليونانية القديمة واللغة السريانية وسواها من هذه اللغات التي انقرضت لأنها غير صالحة للحياة - لأسباب لا مجال لشرحها هنا - هذه اللغات تنطبق عليها نظرية الشاعر «العظيم» كما تنطبق تماما على اللغة العربية لأنها جميعا ترتبط بالدين، وما دامت ترتبط بالدين فيجب عليها جميعا أن تموت وتندثر ولو إرضاء لخاطر الشاعر «العظيم» ليس هذا فحسب بل إنه يضيف أن «ارتباط العربية بالدين يجعلها شيئا له حرمته وقدسيته لا يمكن تشويهه بتطورات العصر وتسخيره لتقلبات الدنيا»!

أرأيتم أيها القراء هذا التطبيق العظيم لهذه النظرية الجريئة من هذا الكاهن الملهم، وهل فهمتم ما يعنيه هذا التطبيق؟

اسمحوا لي أن أنوب عن الكاهن العظيم في شرح مقاصده ومراميه فأنا على صلة بهذا الكاهن وأضرابه أتتبع بصورة دائمة جهودهم «المشكورة» في هدم الإسلام وأعمالهم «المبرورة» في تحطيم العربية، والعربية عماد الإسلام.

إن المعنى الذي يهدف إليه الكاهن الملهم هو أن ينفصل القرآن عن حياة المسلمين وأن تجمع نسخه ثم توضع في بيوت خاصة مغلقة وأن تقطع كل صلة بينه وبين المسلمين باستثناء نفر قليل يقرأونه وحدهم ثم يتلونه في الصلوات، وبمرور الزمان سيصبح القرآن مجرد ألفاظ ورموز يتعبد بها الناس عن طريق ترديدها دون أي فهم لها، كما يفعل كهنة الكنائس حين يقرأون الكتاب المقدس باللغة اللاتينية والمصلون خلفهم يرددون ما يسمعون دون أن يفقهوا شيئًا.

ليس هذا ما يعنيه الكاهن الملهم فسحب بل إنه يقرر أن اللغة العربية لا يجوز استعمالها في شأن من شؤون الدنيا وهنا تواجهنا مشكلتان عويصتان:

أولاها: أن اللغة العربية قد استعملت فعلا في كثير من شؤون الدنيا، لقد استعملها الكتاب والشعراء في المدح والهجاء بل وحتى في اللهو والخلاعة والمجون، وتراث العربية حافل بآلاف المجلدات التي تضم ما قيل في هذه الأغراض الدنيا فكيف نعالج هذه المشكلة؟ يرى الكاهن الملهم أن علاجها سهل يسير هو جمع كل هذه الكتب وإحراقها وبذلك نتخلص من هذه الجريمة الشنيعة التي شارك في ارتكابها آلاف من العلماء والأدباء والشعراء والمغنين وغيرهم ممن لا يحصون عدا.

فالعربية يجب أن تظل محصورة في أضيق نطاق ديني لأنها مرتبطة بالدين.

وهذا الخطأ الذي ظل ساري المفعول ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا لم يكتشفه أحد، يجب أن يصحح بعد أن اكتشفه الكاهن الملهم (يونس الابن) والرجوع إلى الحق فضيلة.

ثانيتها: أن الناس حتى الآن يتكلمون العربية ويكتبون بها ويستعملونها في كل أغراضهم فكيف السبيل إلى علاج هذه المشكلة التي يبدو أنها مستعصية على الحل.

ولن يعجز الكاهن الملهم عن إيجاد الحل، وهو في رأيه سهل يسير، ما دمنا قد أحرقنا جميع الكتب من تراث ثلاثة عشر قرنا دفعة واحدة، فيجب أن نبادر إلى استعمال اللهجات المحلية في الكتابة والتدريس في المدارس والجامعات ولن يمضي طويل وقت حتى تتبلور هذه اللهجات وتستقل تماما عن بقية لهجات الوطن العربي وتصبح كل لهجة لغة مستقلة ولا مانع من استعمال الحروف اللاتينية حتى نقطع كل صلة بالماضي الذي يربطنا بالعربية القديمة لغة الدين.

وهكذا ـ بسهولة وبساطة ـ تنحل أصعب عقدة لم يستطع حلها الصليبيون

والمبشرون - رغم ما بذلوا من جهد وأنفقوا من مال وضيعوا من وقت - وهي تحطيم القرآن وتمزيق عرى الإسلام! ألم أقل لكم - أيها القراء الأعزاء - إن عبقرية الكاهن العظيم (يونس الابن) تفوق كل عبقريات الدنيا، وإنه في ضغينته وحقده على العرب وكراهيته للإسلام يفوق كل من سبقه من المبشرين وأضرابهم.

لقد تساءلت كثيرا وأنا أقرأ ما كتبه (يونس الابن) في صحيفة اليمامة، هل يتصور أن من يخاطبهم يتمتعون بسذاجة تصل إلى الغفلة، أم أنه أراد أن يسهم بنصيبه في محاربته الإسلام ولغة القرآن؟ أم أنه أراد أن ينفس عن حقده وحنقه؟

لا يهمنا بطبيعة الحال ما كتبه يونس الابن ولكنا لاحظنا أن الذي نقل كلامه كان معجبا به إلى حد يثير الشك. وهذا ما دعانا إلى أن نفسر كلامه ونوضح مراميه الخبيثة حتى لا ينخدع بقوله بعض شبابنا ممن لا زالوا في طراوة السن وبداية الشباب.

يونس الابن ...(*)
أو سلامة موسى الجديد
الحلقة الرابعة

ونعود لنظرية السيد يونس الابن لنقول له إن هذه النظرية «العلمية والمنطقية والجريئة جدا» إذا صح شقها الأول فإن شقها الثاني خاطئ ما في ذلك شك ولقد خان الأستاذَ فهمُه في تطبيق هذه النظرية - وهذا إذا افترضنا فيه حسن النية.

فإن ما ينطبق على العبرية واللاتينية والسريانية واليونانية القديمة فأنه لا ينطبق بحال على العربية.

ولن نتعرض للاتينية والسريانية واليونانية القديمة لأنها لغات لها ظروفها الخاصة ثم هي بعيدة عن النظرية التي جئت بها فالنظرية تتحدث عن «اللغة التي ترتبط بالدين» وهذه اللغات لا علاقة لها بالدين وحتى لو صح أن لها علاقة بالدين فهو دين وثني.

ونحن يهمنا الحديث عن الأديان السماوية لأن الإسلام دين سماوي - سواء آمن السيد يونس بذلك أم لم يؤمن - وعلى هذا الأساس فلم يبق من اللغات إلا العبرية لأنها لغة نبي الله موسى ونبي الله عيسى - عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - وبهذه اللغة كتبت التوراة والإنجيل على أرجح الأقوال.

وقد تحولت العبرية إلى تراث - لا يمكن تطويره لا لسبب ارتباطها بالدين ولكن - بسبب ظروف سياسية وحربية، فقد اضطر الشعب اليهودي إلى أن ينتشر في أقطار الأرض ولم يكن من الممكن أن تفرض أقلية - لا شأن لها - لغتها على أمة من الأمم بل كانت الأقلية اليهودية مضطرة إلى الاندماج في

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة في يوم الأحد ١٣٨٦/٥/٢٩ العدد ٧٤٩

الأمة التي هاجروا إليها والتكلم بلغتها ومن هنا فلم تكن هناك ظروف مواتية لدعم هذه اللغة ونشرها، هذا بالإضافة إلى أن اليهود لا يرحبون بمن رغب في التَّهوُّد وكل هذا من شانه أن يحول بين لغتهم وبين الانتشار، ومع هذا فإن ارتباط لغتهم بالدين حافظ عليها وحفظها من الاندثار، والقارئ للتوراة يشعر بأن الفوارق بين اللغة القديمة واللغة الحديثة ليس كبيرا.

ونصل بعد هذا للحديث عن اللغة العربية فإن ارتباطها بالدين هو الذي حفظها تماما حتى في أشد عصور الانحطاط، فقد كانت الكتاتيب والزوايا مخابر ومعسكرات سرية تعد الأمة لمقاومة كل دخيل في دينها وعربيتها.

كان القرآن هو المادة الأساسية في كل منهج دراسي في طول الامبراطورية الإسلامية وفي عرضها وكان ذلك هو الضمان الذي حفظ على الأمة العربية لغتها ودينها ووقاها شر الانحلال والتفكك.

وحتى في هذا العصر الذي بدأت بعض الأفكار الخبيثة فيه تتسرب إلى المسلمين وتوهمهم بأن الحفظ يجني على الفهم وأن الفهم يغني عن الحفظ ـ حتى في هذا العصر ـ لا نزال نجد بعض الأمم الإسلامية تعني عناية فائقة بالقرآن. أذكر على سبيل المثال حديثا حدثنيه شخصية فاضلة كانت في زيارة لبلد إسلامي ـ لا تعترف حكومته بالإسلام دينا رسميا للدولة ـ حدثتني هذه الشخصية عن جمعية منشأة هناك تقوم بالإشراف على حفظ القرآن وقد خرجت هذه الجمعية مائة وخمسين ألف حافظ حتى الآن وهي سائرة في طريقها.

وبهذه المناسبة فإنني أدعو كل المسؤولين عن مناهج التعليم وتخطيطها في بلادي إلى إعادة النظر في المناهج في حفظ القرآن. لا يكفي أن يمر الطالب بنظره مرا سريعا على كتاب الله. ولا يكفي أن يحفظ منه بعض السور بل لا بد من أن يحفظه جميعا ولا مانع من زيادة سنة على التعليم الابتدائي وسنة على التعليم المتوسط تساعدان الطالب على حفظ القرآن وتجويده، إن زيادة سنة أو سنتين ربما اعتبرها البعض خسارة في حياة الطالب ولكنها في الواقع كسب كبير في حياة الأمة فلم يحفظ على هذه الأمة تماسكها ـ رغم

حدة العواصف وعنف الأعاصير وقوة الظلمات وتكالب الأعداء ـ إلا القرآن.

إن كل علوم الأرض لن تستطيع أن تمسك علينا وحدتنا بل ربما أضعفت من هذه الوحدة وزادت من بلبلة الأفكار ولكن القرآن وحده هو الذي يربط بين الأمم الإسلامية بأشعته النورانية، هو الذي يحول بينها وبين الانحلال والضياع.

إن الحرب بيننا وبين المبادئ الدخيلة الهدامة حرب ضروس لا هوادة فيه ولا رحمة وإن كل أسلحتنا لن تقوى على الوقوف في وجه أعدائنا إذا لم يكن على رأسها جميعا كتاب الله وسنة رسول الله.

وهذه حقيقة لا تقبل الجدل ولا المماراة، وإلا فكيف استطاعت أمتنا ـ وهي لا تملك شيئا ـ أن تقف أمام العدد العديد والسلاح الجديد والقوة المرعبة؟ لم نهزمهم إلا بالقرآن ولم نستطع الصمود أمامهم إلا بفضل القرآن، ولم تتكسر كل أسلحتهم التي تخيف الجن والإنس إلا على حصون القرآن.

وفي اليوم الذي يتخلى عنا فيه هذا القرآن أو نتخلى عنه يوما سنذوب أمام العدو كما يذوب الملح في الماء وننهار كما ينهار بيت من الورق المقوى أمام سيل عرمرم. وإذا كان الدين منفصلا عن الحياة بالنسبة للأديان الأخرى فإنه متصل كل الاتصال بها بالنسبة للإسلام وسأضرب مثلا واحدا يمكن أن تقاس عليه مئات الأمثلة الأخرى؛ سنأخذ الصلاة مثلا، والصلاة في الإسلام عماد الدين ولا تتم هذه الصلاة إلا بشروط وأول هذه الشروط طهارة الجسد فلا يجوز لمسلم أن يصلي وهو جنب ومعنى هذا أنه لا بد للمسلم أن يغسل جسده كلما تعرض للجنابة وليس يخفى ما لغسل الجسد بالماء ـ سواء أكان ساخنا أو باردا ـ من فوائد تعود بالخير على الصحة الجسمية والنفسية ولم يهمل الإسلام الأفراد الآخرين ممن لم يبلغوا الحلم وممن انقطعت عنهم الشهوة الجنسية لسبب طبيعي أو عارض فقد سن لهم غسل الجمعة وحثهم عليه حثا شديدا.

ثم يأتي بعد ذلك الوضوء، وضوء مسلم خمس مرات في اليوم فيه تنشيط

لأعضاء الإنسان، وتنظيف لأهم أعضاء الجسم، وهي الوجه وفيه الفم والأنف والأطراف.

ثم تأتي الصلاة بعد ذلك، وفي الصلاة تجديد نشاط الجسم وفترة يتخلص فيها المسلم - فترة من الوقت - من مشاكل الدنيا ومتاعبها ليفرغ لروحه فيصلها بالسماء وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لمؤذنه بلال: «أرحنا بها يا بلال».

ثم إذا تصورت أن الإسلام حث المسلمين حثا شديدا على صلاة الجماعة كان معنى هذا أن يلتقي المسلمون في اليوم خمس مرات في المساجد، وليس يخفى ما في هذا اللقاء من تمكين أواصر التعارف والتعاون فإذا ذكرت أن المصلين يقفون جميعا صفا واحدا لا فرق بين غني أو فقير وبين كبير أو صغير وبين عظيم أو حقير أدركت المعاني السامية التي هدف إليها الإسلام بفرض هذه الصلاة على المسلمين.

وهناك مزايا أخرى للصلاة عند المسلمين لم أتعرض لها إذ ليس بحثنا عن الصلاة ولكنني اخترت الصلاة مثالا لما بين الإسلام والحياة من ارتباط روحي وجسمي.

فالدين في الإسلام متصل أبلغ الاتصال بالحياة ولذلك فلن ينفصل الإسلام عن الحياة ولن ينفصل القرآن عن الإسلام ولن تنفصل اللغة العربية عن القرآن إذ إنها جميعا حلقات مترابطة أدق ما يكون الترابط.

بعد هذا الشرح الطويل أرجو أن يكون الأستاذ يونس الابن قد اقتنع بأن نظريته خاطئة تماما من أَلِفِها إلى يائها بالنسبة للإسلام، وأن عليه أن يضع نظرية جديدة «علمية ومنطقية وجريئة جدا» تقول إن ارتباط الدين الإسلامي باللغة العربية جعل من هذه اللغة عنصرا فعالا وأمدها بحياة دائمة لا تعرف الهرم ولا المشيب ولا الشيخوخة، فهي متجددة دائما متطورة دائما لأنها اللغة التي تكلم بها الله وهي قادرة على مجاراة تطورات العصر مستعدة لمسايرة تقلبات الدنيا، فيها من عناصر القوة والبقاء ما يضيع على الملحدين والحاقدين والأعداء كل ما بنوا من أسلحة التدمير وما

خططوا من أساليب التخريب وما دبروا من وسائل الهدم والتحطيم، أو كما يقول العلامة الرافعي «إن هذه العربية بنيت على أصل صخري يجعل شبابها خالدا عليها فلا تهرم ولا تموت لأنها أعدت من الأزل فلكا دائرا للنيرين الأرضيين العظيمين: كتاب الله وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن الكريم ليس كتابا يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب.. إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطارف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما ـ حتى يأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط. ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطّرد التاريخ الإسلامي ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية».

بقي بعد هذا أن نسأل خليفة سلامة موسى ونسأل معه ميخائيل نعيمة وسعيد عقل وإلياس ربايي كما نسأل «المعجب الكبير به» الذي قدم حديثه للناس في صحيفة اليمامة بهذه العبارة ونقرأ: «هذه المحاولة (كتاب شعره العامي) فإذا نحن أمام حياة تتفجر ودنيا تختلج، منتهى السهولة والبساطة في التعبير ومنتهى الأناقة والعمق في المعاني، الكلمة عنده مخلوق حي له حياته الخاصة بما في الحياة من نزوات وتفاعلات وتطور، والوحدة الموضوعية في قصيدته هي العمود الفقري لتلك القصيدة فهو هنا شاعر قصيدة ككل لا شاعر بيت يؤخذ قولا مأثورا أو مثلا يضرب، وهو في قصيدته أقرب إلى التعلق بتكنيك القصة منه إلى التيه في ضبابية الخيال، الواقع عنده زاهٍ مرونق كتلك الأجسام الجميلة التي تعرض على المسارح تحت أضواء فنية تبرز جمال الجسم وتخنق لحمية النزوة فأنت في «أربع أو خمس كلمات» كالمستسلم لرؤيا ربيعية تنتقل من حلاوة إلى حلاوة حتى تجد نفسك وقد استيقظت من رؤياك تضم وسادتك لتعود إلى الغفوة من جديد لتتأمل زهرة لم تر كل ألوانها وتنشق زنبقة لم تشبع من عطرها وتسبح في بحيرة لا يزال الباقي على أجفانك من كوثرها يغمرك بخدر لذيذ» نحن نسأل كل هؤلاء إذا كان الأمر كما ذكرتم فلماذا لا تكتبون باللغة

العامية جميع آثاركم أو على الأقل لم تكتبون كلماتكم هذه بالعامية وبذلك تعطون الدليل العلمي على مدى توفيق العامية فيما فشلت فيه العربية؟ أما الآن فإنكم أعطيتم الدليل القاطع على أن الفصحى هي القادرة على التعبير الدقيق والتصوير الجميل.

وبهذا رددتم على أنفسكم ونقضتم ما أبرمتم وأثبتم أنكم غير جادين أو أن في قلوبكم مرضًا وليشاركنا القراء في هذا الحكم ننقل لهم المقطوعة التي اختارها الشاعر بنفسه: «وهي بلسان بنت القمر» تؤنب الشاعر على ضياعه في حب صبية لا تستحقه:

حلك بقى صر لك سني … عمرك شقا وشعرك ألم
لنتفة صنم عم تنحنى … لا تنحني لنتفة صنم
اللي مثلك بشعر وغنى … بيعصر خلود ومن العدم
وبيعيش نار مسلطني … تحزق الحسرة والندم
مهما الحلم شد ويني … ومهما الظلم هد وهدم
بشخطة قلم دمر دني … وعمّر دني بشخطة قلم

فهل رأى القراء شبيها لهذه المقطوعة في السخف والانحطاط والرداءة، وما هو هذا الموضوع «العظيم» الذي تعجز اللغة الفصحى عن معالجته إنه موضوع عادي تافه وتستطيع أن تضع هذه المقطوعة بكل ما فيها من سخف وغثاثة إلى جانب مقطوعة لنزار قباني لترى الفرق الكبير ولتشعر عندما تقرأ مقطوعة يونس الابن أنك كنت في السماء ثم هويت من حالق فجأة وعلى غير انتظار، أما إذا فعلت العكس فقرأت مقطوعة يونس الابن ثم مقطوعة نزار فتشعر بأنك كنت منغمسا في حمأة ثم ارتفعت فجأة إلى عالم نقي مشرق.

أما بعد فقد أحسنت صحيفة اليمامة الأسبوعية صنعا حين نشرت في عددها (١٠٩) الصادر في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٨٦ رسالة مراسلها في لبنان فكشفت لنا بذلك عن أعداء جدد يضمرون للعربية السوء ويتربصون بها الدوائر ولكن هيهات فالله من ورائهم محيط يحفظ قرآنه ويعلي كلمته ويحق الحق ويمحق الباطل ولو كره الكافرون والجاحدون والمبطلون.

تحت دوحتي الكبيرة
(١ ـ ٢)

مات سلامة موسى وقوبل نبأ موته من الصحافة بكثير من الاحتفال المصحوب بالأسى والحزن لأن سلامة موسى كاتب شهير له ماض في الأدب وله قلم شارك به في كثير من الصحف والمجلات وظل يحمله إلى أن مات.

وهذا اتجاه محمود من الصحافة فإن من واجبها أن تتتبع أخبار العلماء والأدباء والمصلحين وأن تشيد بذكر من يستحق الإشادة منهم وأن تنقل إلى قرائها عامة والناشئين منهم خاصة أخبار أولئك الذين سهروا الليالي يمهدون الطريق ويقطعون الصخور ويغرسون الصور الهادية على طول الطريق.

ولكنني لاحظت أن الصحافة جميعا لم تتعرض لتاريخ سلامة موسى ولا إلى اتجاهاته في الأدب وأهدافه التي كان يرمي إليها وإنما اكتفت بنعيه إلى القراء في أسلوب حزين.

ومن واجب الأدباء والنقاد أن لا يتركوا فرصة إلا اهتبلوها لشرح كافة الاتجاهات وإيضاح التيارات الظاهرة والخفية التي كانت ـ ولا تزال ـ تحكم الأمة العربية ممثلة في الصحافة وغيرها من ألوان الثقافة.

وموت سلامة موسى فرصة سانحة لإلقاء الضوء على الاتجاهات والأفكار التي كانت تسيطر على الصحافة العربية في فترة من أدق فترات أمتنا العربية خاصة وأن سلامة موسى شارك بنصيب موفور ومجهود ضخم في تدعيم تلك الاتجاهات وإشاعة تلك الأفكار.

وسلامة موسى المولود في أواخر القرن الماضي أديب ملتزم بمعنى من معاني الالتزام فهو منذ أن عقل الحياة وعرف نفسه وأمسك بالقلم قد التزم الدعوة إلى عدد من القضايا التي آمن بها إيمانا عميقا ودعا إليها في حماس نادر، بدافع رائع يستثير الدهشة والإعجاب فهو قد آمن إيمانا ملأ أقطار

قلبه بأن شعبه شعب مستقل منفصل له حضارته وله ماضيه العريق وراعه أن يرى المصري المسلم يميل إلى العروبة يؤمن بالقرآن ويعتبر نفسه جزءًا من الأمة العربية، فانتضى سلاحه وأشرع قلمه وانطلق يدعو إلى القومية الفرعونية في حماس واندفاع وأخذ يذكر المصريين بهذه الحقيقة تذكيرا عنيفا وساعدته ظروف السياسة حيث قام الاستعمار الفرنسي بدور عظيم في تحطيم القومية العربية الراسخة في النفوس وتلاه الاستعمار الإنجليزي الذي دام طويلا فواصل حملته في القضاء على عربية مصر وإضعاف شأن الإسلام فيها، وفتن الكاتب بما رأى من نجاح مؤقت لدعوته في قلوب شباب لم ينهل من معين الثقافة الصحيح ولم يعرفوا حقيقة الإسلام. ففتن الكاتب بهذا النجاح المؤقت فاندفع في دعوته لا يلوي على شيء.

وكان لا بد إن يرتبط بالدعوة إلى القومية الفرعونية دعوة أخرى من مستلزماتها - ولا شك - تلك هي اللغة القبطية القديمة وقد بذل سلامة موسى في سبيل ذلك جهودًا قدرًها ولا شك المستعمرون أعداء العربية وخصوم الإسلام، وبالرغم من أن المصادر من الصحف والمجلات التي كانت ميدانا لدعوته ليست قريبة مني الآن فقد عثرت على نص يعطي القارئ فكرة صحيحة عما سبق أن أشرت إليه، يقول سلامة موسى في كتابه «تربية سلامة موسى» الذي أصدره قبل عشر سنين، يقول في صفحة (٢٥٤) من فصل بعنوان (فلسفة وديانة): «مع أني نشأت في المسيحية واحتضنتني الكنيسة أيام طفولتي وصباي فإنها كانت في تلك السنين الأولى من عمري في جمود لا يحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربي الضمير ولا شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت هذه الأيام وهي الآن غير ما كانت عليه قبل خمسين سنة.

وقد تغير إحساسي نحوها تغيرات مختلفة، فقد عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسي. ثم عدت إليها في حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ووجدت صوت الفراعنة ينطلق عاليا من منابرها فأصبحت الكنيسة القبطية عندي كنيسة قومية مصرية ولكن لم

يكن هذا دينا، كل هذا إحساس تاريخي، أجل قد يقال هذا القول وأنا أسلّم بصحته إلى حدٍّ ما، ولكن الإحساس التاريخي ينطوي أيضا على إحساس ديني ولست أشك أني حين انكببت على دراسة الفراعنة فإنما كان انبعاث بروح ديني قومي. الدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون - موضوعية علمية كما يدرس أي علم ولكن قلما نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومي وقد عرفت حوالي (١٩٣٥) المرحوم كامل غبريال باشا وكان قد درس اللغتين القبطية والفرعونية وحاول أن يحملني على درسهما ولكن سني المتقدمة حالت دون ذلك وقد نهضت هذه اللغة في بعض الأوساط القبطية ولكنها لم تبلغ المكانة التي بلغتها اللغة العبرية بين اليهود أي أن تصير لغة التخاطب والتفاهم والتأليف، فإن اليهود - الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التي كانت قد انقرضت حتى في أيام المسيح وما زلت أذكر الأثر السيكولوجي في صديقي كامل غبريال باشا فإنه لتعلقه بلغة الفراعنة صد عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القديمة وكان كثيرا ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس «التوراة والإنجيل» وبين عقائد الفراعنة - كي يقنعني بأفضلية الثانية من الأولى من حيث الأخلاق السليمة والقيم البشرية العالية» هذا نص صريح يؤيد ما ذهبنا إليه تأييدا قويا وهو نص مهذب لأن المؤلف كتبه بعد أن بلغ الستين من العمر وبعد أن شعر بأن الريح تسير في اتجاه يخالفه كل المخالفة الاتجاه الذي قضى حياته في تحويل أنظار مواطنيه إليه ولكنك مع ذلك تلمس فيه حنينه إلى استعادة الماضي الفرعوني وأي عبارة أبلغ في الدلالة على ذلك من عبارته: «ثم عدت إليها في حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ووجدت صوت الفراعنة ينطلق عاليا من منابرها»؟ أي تاريخ يعني سلامة موسى ويصفه بأنه «التاريخ المعذب الممزق هل هو تاريخ الفراعنة الذي يتحدث عنه أحد المؤرخين فيقول في حديثه عن عمرو بن العاص فاتح مصر «ومن أول ما وقعت عليه أنظار البطل الفاتح في حقول وادي النيل الخصبة ومزارعه الجميلة أن العاملين في حرثها وجنيها وحصادها كان منظورا إليهم منذ أيام الفراعنة كأنهم من مملوكات الحقل يعملون بلقمتهم

- ولم يكن معترف لهم بالحرية الإنسانية».

تأمل معي أيها القارئ كلمة «في حنان» وتأمل جملة «فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق» وتأمل كذلك «ووجدت صوت الفراعنة ينطلق عاليا من منابرها».

تحت دوحتي الكبيرة(*)
(٢ ـ ٢)

إن كل ما يشغل بال سلامة موسى هو إحياء القومية الفرعونية وهي تاريخه المعذب الممزق الذي لم يَقْوَ على الوقوف أمام التيارات المختلفة وأقواها تيار الإسلام الجارف ولقد وجد صوت الفراعنة ينطلق عاليا من منابر الكنيسة، نعم فالكنيسة هي الأمل الوحيد الباقي الذي يستطيع أن يعتمد عليه في إحياء القومية الفرعونية ـ الميتة فهو يقول: «أصبحت الكنيسة قومية مصرية».

وكان حب الكنيسة القومية الفرعونية جارف لا يقف عند حد دفعه إلى أن يسمى أحد أبنائه باسم فرعوني بشع «خوفو» وللقارئ أن يعقد موازنة بسيطة بين سلامة موسى الذي يسمي ابنه اسما فرعونيا بشعا مهجورا وبين الكاتب اللبناني المسيحي ـ المشهور مارون عبود الذي سمى «محمدا».

والقارئ يشعر بوضوح بمدى الرغبة القاهرة التي تسيطر على سلامة موسى في عودة اللغتين القبطية والفرعونية من النص الذي سبق ذكره ولن ينخدع بالأسلوب الملتوي الذي عمد إليه الكاتب وحاول بذلك أن ينسب الفكرة إلى صديقه «كامل غبريال». فإذا الشوق العارم إلى إعادة اللغتين أو إحداهما واضح في هذا النص وأمثاله والسرور يغمر فؤاد الكاتب وهو يحدثنا عن نهضة اللغة القبطية في بعض الأوساط القبطية ولكنه عندما يقارن بين حرص اليهود على إحياء اللغة العبرية وحرص الأقباط على إحياء اللغة القبطية يشعر بمرارة في لسانه وفي حلقه عندما يقرر أن اللغة القبطية لم تبلغ المكانة التي بلغتها اللغة العبرية ولعل القارئ لاحظ أيضا هذه المقارنة التي أشار إليها في النص السابق بين الديانات المصرية القديمة والديانة المسيحية وهي مقارنة لا تدعو إلى الدهشة التي تنتاب القارئ حين يرى

(*) نشر في مجلة الأضواء يوم ٢٨/٤/١٣٧٨هـ العدد ٨٧

سلامة موسى يعجب بصديقه الذي «صد عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية» طردت الديانة المصرية القديمة» ولسنا في حاجة إلى كثير من الذكاء لنلحظ الحقد الذي يملأ قلب سلامة موسى على الديانة الإسلامية لأنها الديانة التي تغلبت على الديانتين المصرية القديمة والمسيحية، ولولا خوفه لتحدث عن ذلك بصراحة، وقد ذكرت أن المؤلف كتب هذا النص بعد أن بلغ الستين وبعد أن رأى الأرض - تشرق بنور ربها والظلام الذي أطبق على بلاد الشرق الإسلامي قد انزاح إلى الأبد.

وقد فشل سلامة موسى في دعوته إلى إحياء اللغة القبطية فشلا ذريعا ربما لأنها دعوة سخيفة لا تقوم على أساس لذا فمن المتعذر - إن لم يكن من المستحيل - عودتها فهي لغة منقرضة لا سبيل إلى أن تعود ولن يرضى «الكاتب الكبير»» بهذا الفشل لأنه سيتتبع تحطيم الدعوة إلى القومية الفرعونية فلجأ إلى دعوة أخرى لا تقل شرًّا ونكرا وجرمًا عن سابقتها تلك هي الدعوة إلى استعمال اللغة العامية الدارجة بحجة أنها لغة الشعب وأن الأدب والصحافة يجب أن يكونا باللغة التي يفهمها الشعب دون عناء وهي دعوة مغرية ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب والفُرقة والقضاء على القومية العربية، وبذل سلامة موسى جهودا جبارة في الدعوة إلى هذه الأفكار الخبيثة وظاهَرَهُ المستعمرون والملحدون والحاقدون على العرب والإسلام وظنوا أن الثمرة دانية القطوف ولكن ساء ما ظنوا ﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا**﴾ وفشلت هذه الفكرة كسابقتها فشلا ذريعا.

والعجيب في الأمر أن سلامة موسى الذي يتهم الأدب العربي بالقصور ويسم اللغة العربية بميسم العجز ولا يدع فرصة تمر دون مهاجمة الأدب العربي واللغة العربية هجوما لا ترفُّق فيه ولا استبقاء - كما يرى القارئ من هذه الجملة التي وقعت عليها مصادفة في كتاب «التثقيف الذاتي.. أو كيف نربي أنفسنا» يقول: «وأدبنا العربي - لهذه الأسباب التي ذكرنا - يعجز عن ترقية الروح المصري وما فيه من حياة إنما هو دبيب أو بصيص نرجو أن يكون نورا مشرقا» وهي عبارة مهذبة جدا إذا قيست بعشرات المقالات النارية التي

صبها على اللغة العربية وأدبها، أقول: إن العجب في الأمر أن الكاتب الذي يهاجم اللغة العربية بدون هوادة ولا رفق، هو نفسه الذي يدعو إلى اصطناع اللغة العامية ويبتكر لذلك عشرات الحجج والمبررات وفكرة الدعوة إلى استعمال اللغة العامية في كل بلد عربي فكرة لا تنبثق إلا من ذهن أمكر الأبالسة وأخبث الشياطين ولو نجحت لكان فيها القضاء كل القضاء على القومية العربية وعلى الإسلام، هيهات فإن الله العلي العظيم هو الذي أنزل الذكر وهو له خير الحافظين.

وهذا الكاتب الذي يدعو إلى القومية الفرعونية وإحياء لغتها لا يدخر وسعا في الإساءة إلى العرب والتصغير من شأنهم والانتقاص من تاريخهم وحضارتهم ومحاولة تجريدهم من كمال أو فضيلة ولا تعوزنا النصوص، فأنت لا تفتح كتابا إلا وجدت فيه عشرات النصوص وأمامي الآن العدد الممتاز الذي أصدرته مجلة العلوم عن «العرب والعلم» في أغسطس سنة ١٩٥٦ وقد كتب فيه السيد موسى مقالا عنوانه «العرب والعلم والصناعة» تهجم فيه على العرب والحضارة العربية والذهنية العربية وأصدر أحكاما تعسفية عجيبة وحاول أن يجرد العرب من كل فضل وأن يهاجم الإسلام وأمامي كذلك كتابه الذي سبق أن أشرت إليه وهو «التثقيف الذاتي - أو كيف نربي أنفسنا» وقد حوى في تضاعيفه عشرات من النصوص التي تسيء إلى العرب والأدب العربي والحضارة العربية الإسلامية.

بل وحتى في كتابه «تربية سلامة موسى» لم ينس أن يوجه فيه قوارض النقد والعبارات الجارحة إلى آدابنا وقوميتنا، ومن الجدير بالذكر أن المؤلف هاجم «شوقيا» في كتابه هجوما عنيفا اتهمه بأنه «كان في ثقافته يصبو إلى كل قديم حتى إنه لم يدرك شيئا من التيارات الكاسحة. التي اتسم بها الثلث الأول من القرن العشرين وقد ولد شوقي في أواخر القرن التاسع عشر في مصر في بيئة الباشوات والبكوات التي كانت تكره عرابي. ولم يقطع الحبل السري الذي كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته» وقد أثنى على حافظ إبراهيم، ووصفه بأنه «كان من الجواهر التي لا تزال تلمع وتسطع في ذكريات جميع الذين عرفوه».

وهجومه على شوقي وتحامله عليه له سبب يعرفه مؤرخو عصره وهو أن شوقيا كان مسلمًا شديد الاهتمام بأمور المسلمين وله مدائحه المشهورة في الإسلام ونبي الإسلام وفي انتصار العروبة والذياد عن حياضها، وسلامة موسى لا يكره شيئا كَكُرهِهِ للمسلمين المحبين لدينهم الداعين إلى تمجيده والالتفاف حوله وقد سلط سلامة موسى بعضا من أنصاره فهاجموا شوقيًا بعد موته في إحدى المناسبات الوطنية واتهموه في وطنيته وقوميته. وهذه هي الأسباب الظاهرة التي تذرع بها في مهاجمته أما الأسباب الحقيقية فهي ما أشرنا إليه، ولسلامة موسى محاولات كثيرة في إضعاف شأن الإسلام وفي تحقير ما دعا الإسلام إلى مراعاته من أمور وهُوَ يَتَّهِمُ المسلمين المتحمسين لدينهم بالتعصب والجهل وضيق الأفق واستمع أيها القارئ إلى هذا النص الذي ننقله لك من كتابه «تربية سلامة موسى» في فصل عنوانه «خدمة الشباب صفحة ٢٠٥» يقول: «وهناك شخصية أخرى هي (جمس كواي) وهو أمريكي بقامته ووجهه وأخلاقه وميوله فقد كان معنا حين كنا نصطاف بالعريش فكان ينزل البحر عريانًا كما ولدته أمه في حين كنا نعجز عن التخلص من رواسب الحجاب فكنا لا ننزل البحر إلا بعد أن نتخذ الكلسونات» فسلامة موسى يعتبر ستر العورة «عجزا عن التخلص من رواسب الحجاب» وفي هذا دعوة صريحة إلى التحرر من كل شيء حتى من الفضيلة والأخلاق وحتى مما اتفقت الأديان السماوية عليه من مكارم الأخلاق وجميل العادات وسلامة موسى يومئ إلى «تحرير» الناس من أديانهم وإذا عرفنا أنه الرائد الأول في جمعية الشبان المسيحين وأن بهذه الجمعية ما يزيد عن أربعمائة من المسلمين - كما أورد ذلك في كتابه «تربية سلامة موسى» - عرفنا خطر الدعوة التي يدعو إليها وعرفنا اتجاهاته للتحلل من كل القيم حتى يتسنى له بذلك أن يحطم المجتمع الإسلامي القائم؛ ليقيم على أنقاضه مجتمعًا فرعونيًّا يتكلم اللغة الفرعونية والقبطية.

ولقد عاش سلامة موسى ورأى آماله تنهار واحداً بعد الآخر، ورأى دعواته تصاب بالهزائم المنكرة، ورأى جهوده فاشلة تذروها الرياح، ورأى مصر - كما أراد لها الله - باقية في مكانها الممتاز تخدم الإسلام، وتنصر الدين، وترفع

منار العروبة، وتقرر في دستورها الرسمي أنها جزء من الأمة العربية، ولكنه مع ذلك ظل إلى آخر رمق في حياته يدعو إلى القومية الفرعونية وإلى كل الدعوات الهدامة التي تصل به إلى أهدافه. وكل ما حدث من تغير في الفترات الأخيرة من حياته هو أنه لم يكن يجرؤ في الدعوة إلى ما يريد بل كان يدور طويلًا حول غرضه، ولم يكن يصرخ - كما كان يفعل أيام شبابه - ولكنه كان يهتبل كل فرصة ليدس في كتاباته دسًّا دنيئًا باسم الدعوة للحرية والدعوة إلى التقدم ومحاربة الرجعية ومَجّ المشاكل الأجنبية، فالكاتب الذي يكتب عن شخصية عربية إسلامية - في نظره - كاتب رجعي متخلف، أما الذي يكتب عن شخصية عربية فرعونية فهو كاتب متحرر متجدد! وكان يمجّد العقاد وطه حسين والحكيم وغيرهم في الفترات الأولى من حياتهم الأدبية، ولكنه حقد عليهم وحاربهم عندما ساروا في الطريق الصحيح يكتبون عن مجد الإسلام وتاريخ المسلمين.

وسلامة موسى ساخط كل السخط على كل من يهتم بلغته أو بتجويد أسلوبه، ولا يترك مناسبة تمر دون أن يغمز الكتّاب المجيدين غمزات لا تخفى على القارئ، ومنذ عامين فارق الدنيا - غير مأسوف عليه - الكاتب القبطي المعروف سلامة موسى، وقبل أن نمضي في الحديث نحب أن نعتذر لأستاذنا العلامة محمد أحمد حسونة الأستاذ بجامعة القاهرة سابقًا والأستاذ بجامعة الملك سعود حاليًّا - نحب أن نعتذر إليه عن استعمال كلمة قبطي في التمييز بين المصري المسلم والمصري النصراني، فمن رأي أستاذنا - أطال الله بقاءه - أن هذا التعبير غير دقيق من الناحية العلمية؛ فإن كلمة (قبط) باللغة المصرية القديمة معناها (مصر) فالمصريون جميعًا باللغة المصرية القديمة أقباط.

أما التمييز بين أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - وأتباع عيسى - عليه السلام - فيكون بإطلاق كلمة مسلمين على الأولين وكلمة نصارى أو مسيحيين على الآخرين، ولكن ما رأي أستاذنا العلامة في أن من الصعب جدًّا تغيير هذه التسمية، فقد ثبتت في الأذهان والكتب منذ فتح الإسلام مصر، بل قبل ذلك بكثير حين قال نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم -

يخاطب أصحابه والمسلمين: «استوصوا بالقبط خيرًا فإن لكم فيهم رحمًا وذمة» وكان يعني - صلى الله عليه وسلم - من بقي منهم على غير دين الإسلام، فالمسلمون من المصريين وقد أكرمهم الله بالإسلام راضون بهذه التسمية، وخاصة وقد ورد اسم مصر في القرآن: ﴿**وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾. وأما المسيحيون أتباع الكنيسة الآرثوذوكسية فهم حريصون على قبطيتهم لأنها تربطهم بأصولهم الوثنية القديمة وتفصلهم عن الإسلام وعن مصر الإسلامية ونعود إلى سلامة موسى فقد احتفلت طائفة من كتابنا بموته احتفالا كبيرا وكتبت عديدا من المقالات تَأسَف فيها على وفاته وتَعدِّد فيها مآثره، وقد راعني هذا الاتجاه فكتبت بحثا مطولا تحدثت فيه عن سلامة موسى على ضوء الحقيقة والواقع وأبرزته على حقيقته كاتبا حاقدا ومضللا متعصبا للمسيحية ويكره الإسلام ويمجد الفرعونية ويسخر بالعروبة وبالثقافة العربية وقد دللت على كل كلمة كتبتها بأدلة من كتب سلامة موسى ومؤلفاته نشر ذلك البحث في جريدة «الأضواء» بعد أن حذف قسم منه لسبب خارج عن إرادتي وإرادة الصديق أبي مدين، وربما عدت إلى نشر هذا البحث كاملا في فرصة قريبة، وقد استقبلت طائفة من القراء البحث استقبالا طيبا ولكن طائفة من الكتاب وأدباء الشباب لم تتقبل ما ورد فيه قبولا حسنا واتهمت الكاتب بالجمود و الرجعية والتخلف، وكم كنتُ أود لو أنكر أولئك الكاتبون ما كتبتُ ونقضوا ما قلتُ عن طريق الحجة والبرهان وأثبتوا أن الأدلة التي أثبتُّ بها غير صحيحة، ولكن كل ذلك لم يحدث واكتفوا بهز أكتافهم متهمين الكاتب بالاتهامات التي ذكرت، وتفضل أحد الأصدقاء مشكورا فأهداني عددا أصدرته مجلة «العالم العربي» القاهرية عن وفاة سلامة. أرجو أن أعود إلى هذا العدد فلي معه وقفة طويلة.

أما المناسبة التي دعتنا اليوم للعودة إلى الحديث عن سلامة موسى فهو عثورنا على كتاب يتحدث عن هذا الكاتب القبطي حديثا مطولا رأينا من الخير أن نلخص ونعلق عليه لأنه يحوي معلومات جديدة تلقي أضواء قوية على هذا الكاتب القبطي المضلل.

فهرس تفصيلي بمحتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمة	١١
الغضب الجميل	١٥
شاعر الحياة.. الحبوبي ٤/١	٢١
شاعر الحياة.. الحبوبي الحلقة الثانية	٢٦
شاعر الحياة.. الحبوبي الحلقة الثالثة	٣١
شاعر الحياة.. الحبوبي الحلقة الرابعة	٣٥
رحم الله أستاذنا وليّ الدين	٤١
صور وذكريات	٤٨
الحب أبو العجائب أو: جناية الصحافة على الأدب	٥٦
ضياء الدين رجب	٦١
أشواك وأشواق	
(رحم الله الشاعر اللواء) ٢/١	٨١
أشواك وأشواق رحم الله الشاعر اللواء ٢/٢	٨٥
مع الأيام	٨٩
سؤال	٩٢
لقاء كل أسبوع	٩٥
لقاء كل أسبوع	٩٧
لقاء كل أسبوع	٩٩
لقاء كل أسبوع	١٠٢
مع حمد الجاسر	١٠٥
مُعَلِّم وذكريات	١١٠
رسالة إلى عبدالعزيز الرفاعي	١١٥
صور من العيد بين الشاعرين	١٢٠
لقاء كل أسبوع (٢/١)	١٢٦
لقاء كل أسبوع (٢/٢)	١٢٨
لقاء كل أسبوع	١٣٠

إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ذكريات طفل وديع ـ ط ١	عبدالعزيز الربيع
٢	الشعر الحديث في الحجاز	عبدالرحيم أبو بكر
٣	شعراء من أرض عبقر ـ جـ ١	د. محمد العيد الخطراوي
٤	شعراء من أرض عبقر ـ جـ ٢	د. محمد العيد الخطراوي
٥	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨	همسات في أذن الليل	د. محمد العيد الخطراوي
٩	غناء الجرح	د. محمد العيد الخطراوي
١٠	ترانيم العودة	ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي
١١	الفيصليات	عبدالحميد ربيع
١٢	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ١	عبدالعزيز الربيع
١٣	جرح الإباء	أحمد فرح عقيلان
١٤	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥	بيت وشاعر	خالد محمد اليوسف
١٦	الحفل المسرحي	إصدار إعلامي عن النادي
١٧	جداول وينابيع	عبدالرحمن رفة
١٨	الجناحان الخالدان	محمد هاشم رشيد
١٩	على أطلال إرَم	محمد هاشم رشيد
٢٠	ثلاثة أعوام مع مسابقة القرآن الكريم	دخيل الله الحيدري ـ ووهبة الجبالي
٢١	رسالة إلى ليلى	أحمد فرح عقيلان
٢٢	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣	الشيخ محمد بن عبدالوهاب (بحث)	مسلم الجهني
٢٤	في موكب الضياء	أبو زيد إبراهيم سيد
٢٥	الفنون التعبيرية	عبدالعزيز الربيع
٢٦	أباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧	في غيابة الجُب	علي الفقي
٢٨	المدينة المنورة في التاريخ	عبدالسلام هاشم حافظ
٢٩	ذكريات طفل وديع ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع
٣٠	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع

عدد	اســـم الكتـــــاب	اســـم المؤلف
٣١	حروف في الرماد	محمد صالح البليهشي
٣٢	هموم عربية	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٣٣	المدينة اليوم	محمد صالح البليهشي
٣٤	لمحات عن حياة الربيع	محمد صالح البليهشي
٣٥	ضفاف الذكريات	مجدي خاشقجي
٣٦	مِبضَع الجراح	إبراهيم العياشي
٣٧	صور وذكريات عن المدينة المنورة	عثمان حافظ
٣٨	قصص لا تنسى	محمد المجذوب
٣٩	تحفة اللبيب	محمد المجذوب
٤٠	مع المجاهدين في باكستان	محمد المجذوب
٤١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ١	عبدالسلام هاشم حافظ
٤٢	مسيرة ٨ أعوام لنادي المدينة المنورة الادبي	محمد صالح البليهشي
٤٣	طيبة وفنها الرفيع	م. حاتم طه
٤٤	أيسر التفاسير ـ جـ ١	أبو بكر جابر الجزائري
٤٥	أيسر التفاسير ـ جـ ٢	أبو بكر جابر الجزائري
٤٦	أيسر التفاسير ـ جـ ٣	أبو بكر جابر الجزائري
٤٧	أيسر التفاسير ـ جـ ٤	أبو بكر جابر الجزائري
٤٨	الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية	د. عبدالله الحامد
٤٩	شاعر الخليج	عبدالله أحمد الشباط
٥٠	أدب ونقد	محمد المجذوب
٥١	ردود ومناقشات	محمد المجذوب
٥٢	دعوة سليمان ـ عليه السلام	علي منسي عشكان
٥٣	حروف من دفتر الاشواق	د. محمد العيد الخطراوي
٥٤	دموع وكبرياء	حسن مصطفى صيرفي
٥٥	في الفكر والأدب «دراسات وذكريات»	د. حسن بن فهد الهويمل
٥٦	دراسات قرآنية ـ المجلد الأول	نادي المدينة المنورة الأدبي
٥٧	الأخطبوط «قصة»	ناجي محمد حسن عبدالقادر
٥٨	طيبة في عيون فنان تشكيلي	فؤاد مغربل
٥٩	تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا	أحمد ياسين الخياري
٦٠	تفاصيل في خارطة الطقس	د. محمد العيد الخطراوي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٦١	وداعًا أيها الحزن «رواية»	غالب حمزة أبو الفرج
٦٢	نصوص مختارة	محمد المجنوب
٦٣	الأعمال الشعرية الكاملة المجلد الأول	محمد هاشم رشيد
٦٤	الولوج من ثقب إبرة	علي عبدالفتاح السعيد
٦٥	من بدائع الأدب الإسلامي	د. محمد سعد الدبل
٦٦	المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، «الإنتربول» ودورها في في مكافحة الجرائم الدولية للمخدرات	النقيب محمد حسن زهير آل شفلوت العمري
٦٧	وقفات على الماء	إبراهيم عمر صعابي
٦٨	شعر ضياء الدين رجب بين الموقف والصياغة	د. عبدالله أحمد باقازي
٦٩	المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ	د. عاصم حمدان علي حمدان
٧٠	التعليم الأهلي في المدينة المنورة (١٣٤٤ ـ ١٤٠٨هـ) دراسة تاريخية وصفية	دخيل الله عبدالله الحيدري
٧١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ٢	عبدالسلام هاشم حافظ
٧٢	آلام وأحلام	محمد المجنوب
٧٣	سلاح الكلمة الشاعرة ـ إسهام النادي الأدبي خلال أزمة الخليج	إصدار النادي الأدبي بالمدينة المنورة
٧٤	تراثنا المخطوط في العلوم التطبيقية والبحتة	مصطفى عمار منلا
٧٥	وقفات في حرب الخليج	محمد بن صنيتان
٧٦	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الأول	أحمد سعيد سلم
٧٧	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثاني	أحمد سعيد سلم
٧٨	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثالث	أحمد سعيد سلم
٧٩	ملاعبة الصيد	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٨٠	في ذاكرة الصحراء ـ دراسات نقدية في نصوص شعرية سعودية معاصرة	محمد إبراهيم الدبيسي
٨١	ملف العقيق المجلد الأول	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٢	آفاق شعرية «قراءة لما وراء النص»	محمد محمود جاد الله
٨٣	اللمعة في صنعة الشعر	د. صلاح الدين محمد الهادي
٨٤	ملف العقيق المجلد الثاني	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٥	فن الرماية بالسهام الحديثة	د. عدنان درويش جلون
٨٦	ملف العقيق المجلد الثالث	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة

عـدد	اســـم الكتـــــاب	اســـم المؤلف
٨٧	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج ١ «الدراسة الموضوعية والفنية»	د. عبدالرحمن الوصيفي
٨٨	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج٢ «الجمع والتحقيق»	
٨٩	نحن والآخر	د. عاصم حمدان
٩٠	المسرح الشعري «بعد شوقي»	د. محمد عبدالعزيز الموافي
٩١	دراسات أدبية «المجلد الرابع»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٢	ملف العقيق ـ المجلد الرابع	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٣	دراسات في الأدب الإسلامي ـ المجلد الخامس	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٤	ملف العقيق ـ المجلد الخامس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٥	عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ	ناجي محمد حسن عبدالقادر الأنصاري
٩٦	مهد الذهب	عبدالعزيز الحازمي وعلي عودة
٩٧	مسيرة ٢٠ عامًا لنادي المدينة المنورة الأدبي	محمد صالح البليهشي
٩٨	دراسات حول المدينة المنورة	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٩	رائحة الزمن الآتي	إبراهيم الوافي
١٠٠	مدخل إلى تحقيق النص الشعري	د. عبدالرحمن محمد الوصيفي
١٠١	لن أعود إليك	وفاء الطيب
١٠٢	دراسات في الأدب الحديث «المجلد الثالث»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
١٠٣	عمر بن شبة	د. سلام شافعي
١٠٤	ملف العقيق المجلد السادس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
١٠٥	أثر وسائل الإعلام في اللغة العربية	د. جابر قميحة
١٠٦	ديوان رشة عطر	مفرج السيد
١٠٧	تاويل ما حدث	د. محمد العيد الخطراوي
١٠٨	نزيف الجرح	سعد سعيد الرفاعي
١٠٩	دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي	د. عاصم حمدان علي حمدان
١١٠	ملف العقيق (المجلد ٧)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١١	ملف العقيق (المجلد ٨)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١٢	دراسات في الفكر الإسلامي (المجلد السادس)	من محاضرات نادي المدينة المنورة الأدبي
١١٣	عبدالله بن إدريس شاعرًا وناقدًا	د. محمد صادق عفيفي
١١٤	شعر عبدالسلام حافظ	رحمة مهدي علي الريمي
١١٥	كتب ومؤلفون	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي
١١٦	مناقشات ومناوشات	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١١٧	المدينة المنورة «البيئة والإنسان» بالاشتراك مع نادي جدة الأدبي الثقافي	إشراف وتحرير أ. د/ محمد أحمد الروثي أ. د/ مصطفى محمد خوجلي
١١٨	ملف العقيق المجلد «٩»	يصدر عن النادي
١١٩	الأطام العدد الأول	تصدر عن النادي

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة «دار العلم» بجدة
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ للملكة العربية السعودية
الإخراج والتنفيذ: عبدالله سرحان